

الدكتور
السيد محمد ديب

أميرؤ القيسين بين القدماء والمحدثين

الطبعة الأولى
١٩٨٩ م — ١٤١٠ هـ
حقوق الطبع محفوظة للوف

دار الطباعة والمطبعة
بمكة المكرمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأستعين به ، وأتوكل عليه ، وأصلى وأسلم
على رسوله محمد صلاة طيبة مباركة ، كما أصلى وأسلم على رسله وأنبيائه
وملائكته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

لقد كثرت الكتابات عن الشاعر امرئ القيس بن حجر في القديم
والحديث على السواء ، وأصبح من تصيل الحاصل أن تضيف إلى هذه
الكتابات مؤلفاً جديداً يذكر ما سبق أن قاله القدماء ، وتحدث عنه الكثيرون
من النقاد ... كما أنه لا يخفى على أحد من قرأ الشعر الجاهلي أهمية
امرئ القيس — كأثير للشعر والشعراء في عصره — وموهبته التي أقر بها
القدماء والمحدثون ، وقدرته على الإبداع والتصور . وسبقه للشعراء في
أمور كثيرة استحسنوها منه ، واتبعوه فيها إلى غير ذلك من الخصائص
التي تميز بها ، وتفرد فيها . ولهذا كان التفكير في أسلوب الكتابة عن
هذا الشاعر مهماً وضرورياً جداً . وقد كنت أسأل نفسي وأنا في أول
الطريق عما يمكن إضافته إلى ما ذكره المؤرخون والنقاد ، ورأيت أن
الانغماس يتفاوتون في أساليبهم ومناهجهم حول شعر امرئ القيس ، كما كان
المحدثون أكثر تفاوتاً منذ أثار المستشرقون قضية الانتماء في الشعر
الجاهلي ، وتألفها الدكتور طه حسين ، ونظر إليها نظرة مرسعة جمع فيها
بين ما قاله القدماء وما قاله المستشرقون ، وأضاف إلى ذلك رؤيته الخاصة
بحول الشك في هذا الشعر ، ولم يكن ديوان امرئ القيس بعيداً عن

أتون هذه المعركة التي حوى وطيسها في العقد الثالث من القرن العشرين .
ورأيت - لكل هذه الأسباب ، ولغيرها أيضاً - أن يكون كتابي هذا
انطلاقة تكشف في وضوح وإبانة عن الرؤى الخاصة لمعظم ما كتب عن
شاعر كندة في القديم والحديث .

وليس المهدف من الفصول التالية أن نجص بين القول ، ونجعل منها
كتاباً ، ولكننا نسعى إلى إعداد دراسة نقدية تعتمد فيها إلى تقديم
ما كتب عن هذا الشاعر . لنخرج في نهاية الرحلة بحصيلة نقدية وأدبية
يمكن الاستفادة منها ، والوقوف عندها ، وربما اتباعها مع شاعر
قديم آخر .

ولقد اقتضت طبيعة هذا الكتاب أن يخرج في ثلاثة أبواب موزعة
على أربعة عشر فصلاً حسب الترتيب الآتي :

جاء الباب الأول وعنوانه (امرؤ القيس في حياته وشعره) في ثلاثة
فصول ، وكان الفصل الأول عن حياة امرؤ القيس التي كنت أظن أنها
ملئية بالحب والعبث والمجون والمغامرات ، ثم تبين لي بعد قراءة الديوان
للمرة الأولى أن حياته لم تكن إلا سلسلة من الهدوم والأحزان ، ولم تخل
- في شعره الصحيح - من التعبير عن أتراحه وآلامه بصورة مباشرة
وغير مباشرة .

وجاء الفصل الثاني عن أولية الشعر الجاهلي ، للعلاقة التي تربط
امراً القيس بهذه الأولية ، فقد قيل إنه أول الشعراء ، وإنه سابقهم
إلى أشياء كثيرة ، والحقيقة أنه لم يكن أولهم حيث أقرو بوجود سلف له
في البكاء على الأطلال مع تعذر البحث عن هوية هذا الشاعر المجهول . أما
أن شاعرنا سابق الشعراء إلى أمور ابتدئها ، واتبعوه فيها ، فهي حقيقة
تاريخية ونقدية ثابتة لا يستطيع أحد من الشعراء أن ينازعه فيها .

أما الفصل الثالث فكان عن شعره الذي تعددت رواياته ونسخه ،
واختلفت رؤية المحدثين عنه اختلافاً كبيراً .

أما الباب الثاني فعنوانه (امرؤ القيس في مؤلفات القدماء) ،
وقد انقسم إلى خمسة فصول تختلف فيما بينها طولاً وقصراً .

وجاء الفصل الأول عن كتاب (طبقات خول الشعراء) لابن سلام
الجبلي حيث درسنا ما كتبه هذا العلامة القدير عن الطبقة الأولى من
الشعراء الجاهليين ، وكان امرؤ القيس أولهم حسب منزلته التي ظفر بها
عن جدارة واستحقاق . بينما جاء الفصل الثاني عرب كتاب (الشعر
والشعراء) لابن قتيبة ، وكان امرؤ القيس أول الشعراء المترجم لهم أيضاً في
هذا المصدر القديم . وقد جاء الفصل الثالث عن كتاب (الأغاني)
لابن الفرج الأصفهاني ، وتميز هذا الفصل بما تميز به كتاب أبي الفرج
من صبغة تاريخية إخبارية . وجاء الفصل الرابع عن كتاب (الموشح)
للبرزباني الذي ذابت فيه شخصية المؤلف وشخصية امرؤ القيس أيضاً
بين العديد من النقول النقدية والإخبارية . أما الفصل الخامس والأخير
من هذا الباب فكان عن كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني ، وكان هذا
الرجل متحاملاً على امرؤ القيس وشعره ، وإن أصفه ببعض العبارات
التي تاهت في غمرة هذا التحامل .

ويأتي الباب الثالث والأخير وعنوانه (امرؤ القيس في مؤلفات
المحدثين) في ستة فصول ، وهو أكبر الأبواب حجماً ، وأكثرها من
حيث عدد الفصول ، ويرجع ذلك إلى كثرة الكتابات التي أعدت عن
امرؤ القيس في العصر الحديث ، وتفرد الشاعر بكتب مستقلة ترجمت
إليه في هذا العصر ، إلى جانب الكتابات التي جاءت في فصول أو أجزاء
من بعض الكتب الأدبية . وقد اخترنا من بينها خمسة كتب جعلناها
في خمسة فصول ، حيث جاء الفصل الأول عما كتبه مصطفى صادق الرافعي

كتايبه (تاريخ آداب العرب) بينما كان الفصل الثانى عما كتبه الدكتور طه حسين فى كتابه (فى الأدب الجاهلى) ، وجاء الفصل الثالث عن كتابه محمد صالح بملك (أمير الشعر فى العصر القديم) وهو من أوسع الكتب التى أعدت عن شاعر كندة ، ومن أسبقها أيضا . بينما كان الفصل الرابع عن كتاب (الشواخ - امرؤ القيس) للدكتور محمد صبرى المربوطى ، وهو كتاب مختصر فى حجمه بالنظر إلى الكتب الأخرى ، وإن بحث مؤلفه فيه أكثر القضايا التى تنصل بامرؤ القيس . وجاء الفصل الخامس عن كتاب الدكتور الطاهر أحمد مكي (امرؤ القيس حياته وشعره) .

وقد دوس أم القضايا التى تنصل بامرؤ القيس وشعره . وجاء الفصل السادس والأخير بعنوان (كتابات أخرى) وعرضنا فيه بإيجاز لأربعة كتب تحدثت عن امرؤ القيس ، أما هذه الكتب فهى (تاريخ الأدب العربى) لكامل بروكلمان ، والروائع (امرؤ القيس) لفؤاد إفرام البستاني ، و (تاريخ الأدب الجاهلى - الجزء الثانى) للدكتور على الجندي والكتاب خاص بامرؤ القيس إلا من بعض السطور المحدودة التى كتبها المؤلف عن شعراء كندة ومنهم شاعرنا طبعاً .

بينما كان الكتاب الأخير للدكتور شوقي خفيف وهو (تاريخ الأدب العربى - العصر الجاهلى) ثم أنهينا الكتاب بخاتمة ذكرنا فيها أهم النتائج التى وصلنا إليها بعد دراسة كل هذه الكتب المذكورة .

أما منهج التأليف الذى سلكته فى هذا الكتاب ، فلن أتحدث عنه - كما تعودت فى كل ما أكتب ، لأننى أترك ذلك للقراء والدارسين . ولا أحب أن أذكر نفسي أو عملي قبل أن يتصفحه الناس ... أما المراجع والمصادر فقد حرصت على إتيانها فهو ما مشى الكتاب ، ثم جمعت بينها

في آخره ... وفي نهاية هذه المقدمة أدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني في إعداد هذا الكتاب وإخراجه مطبوعاً بالصورة التي يرضى عنها أكثر الذين يطلعون عليه ، أو يتصفحون بعض أبوابه وفصوله .
والله الموفق ، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

المؤلف

دكتور/السيد محمد أحمد ديب

الأستاذ المشارك بالكلية المتوسطة بالطائف

ص . ب . (١٠٧٠)

يوم الأحد ، الثاني من شهر شعبان عام ١٤٠٨ هـ
الموافق للعشرين من شهر مارس عام ١٩٨٨ م

الباب الأول

امرق القيس في حياته وشعره

الفصل الأول : حياة امرئ القيس بين القدماء والمحدثين

الفصل الثاني : أولية الشعر الجاهلي

الفصل الثالث : شعر امرئ القيس

1. Introduction

2. Background

3. Methodology

4. Results

5. Conclusion

6. References

7. Appendix

8. Index

9. Table of Contents

10. Summary

11. Abstract

12. Keywords

13. References

14. Appendix

15. Index

16. Table of Contents

17. Summary

18. Abstract

19. Keywords

20. References

21. Appendix

22. Index

23. Table of Contents

24. Summary

25. Abstract

26. Keywords

27. References

28. Appendix

29. Index

30. Table of Contents

31. Summary

32. Abstract

33. Keywords

34. References

35. Appendix

36. Index

37. Table of Contents

38. Summary

39. Abstract

40. Keywords

41. References

42. Appendix

43. Index

44. Table of Contents

45. Summary

46. Abstract

47. Keywords

48. References

49. Appendix

50. Index

الفصل الأول

حياة امرئ القيس بين القدماء والمحدثين

امرق القيس :

ليس الحديث عن حياة امرئ القيس مقصودا لذاته ، لأن هذه الحياة بتفاصيلها مبثوثة في كتب الأدب واللغة والتاريخ قديما وحديثا ، عريضا وأجمعا ، كما لا أمل من هذا الفصل أن يضيف جديدا لم يتعرض له القدماء والمحدثون . بل إن الموقف الواحد من مواقف حياة هذا الشاعر يؤخذ بأكثر من رواية حتى تضارب الروايات ، ووصم البعض منها بالافتعال ، وصار الحديث عن امرئ القيس محوطا بالريب والظنون لأعتبارات كثيرة ومتنوعة . ولا يعزينا من الأخبار التي تناولت حياته إلا ما اتصل منها بفن الشعر سواء تحدثنا عنها في هذا الفصل أم في غيره من الفصول ، فقد تكلم عن اليوم الذي قضاه بدارة جلجل ، وعن سرقة لبله في بني نبهان ، وعن قتاله لبني أسد وعن رحلته إلى القسطنطينية ، وعن أمور أخرى كثيرة ،

فأبو الفرج الأصمباني — وهو واحد من القدماء — يعتمد في حديثه عن امرئ القيس على الروايات المتعددة ، والتي تختلف في بعض الأمور ، وربما أضاف إلى بعض الروايات شيئا من شعر امرئ القيس ، فتقوى بذلك رواية على أخرى ، ولناخذ حديثه عن مقتل حجر بن الحارث (والد الشاعر) مثالا على ذلك .

أما المحدثون فقد تعاملوا مع هذه الروايات بحذر شديد ، فهم

يحضنون الراوى لمقاييس الجرح والتعديل ، ويحاول بعضهم التنظير بين الروايات العربية وكتب الأعاجم القديمة ، وقد أفاد الشعر بعض الروايات على حساب الأخرى ، وظهر الوضع أو الالتحال كفضية خطيرة في التراث التاريخي والأدبي ، فتأثرت — مثلاً — بعض الروايات التي نسبت إلى ابن الكلبي لاشتهاره بكثرة الوضع والتلفيق .

ونؤكد أن الحقيقة صعبة المنال ، وتحتاج إلى بحث وجهد وتأن ، كما أنه لا يقبل إطلاقاً عند التأريخ لشاعر كأمريء القيس أن يكون جل الاعتماد على الشعر ، فلم تكن وظيفة هذا الفن في يوم من الأيام أن يكون يوقاً للحوادث أو صحيفة لوقائع الحياة .

وتستحور هذه الإشكالية حول العديد من الروايات القديمة التي تحدث فيها الأدباء والمؤرخون عن حياة ذى القروح ، ولا نظن أن أمراً واحداً فيما يتصل بحياته أمكن التسليم به والإقرار بصحته . ففد تعددت الروايات حول اسمه ونسبه ولقبه وكنيته وكثير الاجتهاد في تحديد سنى حياته ووفاته ، واختفت الأخبار التي اتصلت بنشأته المبكرة إلى أن اكتمل شبابه ، وبدأ في توجيه فنة إلى النساء ، وتصاحب على مجموعة من الصعاليك الشذاذ . كما أن معظم أخباره عن المرحلة الأولى من حياته قد استقاهها المؤرخون من شعره ، فإذا وصم بعض هذا الشعر بالوضع فلا بد أن تنسب الأخبار المستقاة منه إلى الوضع أيضاً .

وتتناول الروايات المتعددة والمختلفة أيضاً تفاصيل حياته عند مقتل أبيه ، وسوا حضر الشاعر تلك النهاية أم كان بعيداً عنها ، فالنتيجة واحدة وهي أن أمراً القيس تحمل عباً استرجاع الملك ، والثأر لأبيه والانتقام لقبيلته .

حياته الأولى :

أقل ما يقال في نسب امرئ القيس ما ذكره الأصمعي، وتقله كثيرون من بعده كابن قتيبة في الشعر والشعراء، وأبي الفرج في الأغاني أنه : امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن معاوية ابن ثور وهو كندة ، ولا امرئ القيس أسماء كثيرة مثل حندج وعذى ومليكة وسلين . أما ألقابه فكثيرة أيضاً وأشهرها امرؤ القيس الذي عرف به ، كما بلغت بالملك الضليل وذو القروح ، ويكنى بأبي وهب وأبي زيد وأبي الحارث . وإليه عن الفرزدق بقوله :

وهب القصائد لي النوايح إذ مضوا

وأبو يزيد وذو القروح وجروول (١)

ومعنى امرئ القيس وهو اللقب الذي اشتهر به شاعرنا : رجل الشدة، وقيل لمرئ القيس من أصنام الجاهلية : ولكن لم يرد اسم لهذا الصنم في كتاب الأصنام لابن الكلبي مما يضمن من هذه الوجهة التي أريد منها جعل الوثنية هي الديانة لهذا الشاعر . ولم يكن هذا اللقب خاصاً بامرئ القيس ابن حجر بل شاركه فيه العديد من الشخصيات المعروفة في العصر الجاهلي .

وقد ولد بأرض نجد في ديار بني أسد في أول القرن السادس الميلادي . وأمه من قبيلة تغلب المعروفة ، واسمها فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن فهر أخت كليب والمهلهل ، وقيل في رواية يتيمة : إن أمه هي تملك بنت عمرو بن زيد من مذحج أي أنها يمنية وليست عذناية .

(١) أبو يزيد : المخبل السعدي ، ذو القروح : امرؤ القيس : جروول : الخطيئة .

ويعد امرئ القيس أصغر لإخوته ، أما أكبرهم فهو نافع ، وبين الاثنين أولاد كثيرون يجهلون النسب ، وله أخت تسمى هند ، وقد انحازت إلى دوير بن شجنة بعد مقتل حجر حيث ارتحلت إلى أخيها امرئ القيس بأرض اليمس .

وذكر المحدثون أكثر من تاريخ ولادته منها عام ٤٩٧ م (١) وعام ٥٠٠ م (٢) وعام ٥٢٠ م (٣)

وفي شعر امرئ القيس ما يدل على طبيعة الحياة التي نشأ فيها بديار بني أسد إذ جمع بين الترف واللذة والمتعة ، كشرب الخمر ، ومصاحبة الشذاذ من القبائل وسعيه إلى الصيد ولإشغاده للشعر واستماعه للغناء من بعض القيان وتغزله بنساء القبيلة وفنائها ، وكل من ربه بهاء أبوه فيها عن قول الشعر ، ولكنه لم يستجب حق طرده من ديار بني أسد إلى أرض اليمس .

وتعود أسباب الخلاف الرئيسية بين الشاعر وأبيه إلى أمور كثيرة ، فقد كان حجر مشغولاً بأمور الملك وتبعة الرئاسة بينما تحول الشاعر إلى حياة العبت والمجون وكل من مرة أراد فيها والده النجى له ، ولكنه لم يوفق ، فقد صرفه إلى رعي الإبل والحيول ، ثم وجهه إلى رعي الغنم فسكرها وانصرف عنها ، ثم كان الطرد إلى خارج ديار بني أسد . ويقال إنه خرج إلى عمه سلة بن الحارث الذي كان ملكاً على قيس غيلان بشرق نجد ، أو انتقل إلى دمنون ذلك الجبل الشامخ في أرض اليمس .

(١) ذكره الزركلي في كتابه (الأعلام)

(٢) ذكره جواد علي قلاعن كتاب (أوليندر) (OLINDER)

(٣) ذكره لويس شيخو في كتابه (شعراء النصرانية)

لكن أين كان امرؤ القيس وقت مقتل أبيه؟ تقول رواية للبيهيم بن عدي إنه كان حاضرا وقت المعركة التي نشبت بين والده وبنى أسد، وعندما أحسن بانهرام قومه فر على فرس له شقراء وتمكن من النجاة.

وجاء في رواية أخرى للبيهيم أن امرأ القيس لما قتل أبوه كان غلاما قد ترعرع، وكان في بني حنظلة بأرض اليمن في موضع يسمى (صليح) وهو كثير الوحش والظباء، فلما بلغه ذلك قال:

يا لهف هند إذ خطئن كاهلا القاتلين الملك الحلا حلا
تالله لا يذهب شيخى باطلا ياخير شيخ حبا وناعلا
وخيرهم - قد علوا - فواضلا يحملنا والأسل النواضلا
وحى صعب والوشيح الذابلا مستنفرات بالحصى جوافلا (١)

وروى ابن الكلبي أن امرأ القيس كان يدمون من أرض اليمن عندما وصله خبر مقتل أبيه جاء به رجل يقال له (عامر الأعور) فلما أناه، قال:

تطاول الليل علينا دمون
دمون إنا معشر يمانون
ولنا لاهانا محبوبون (٢)

ثم قال: ضيعت صغيرا، وحلقت دمه كبيرا، لاصبح اليوم ولا سكر غدا، اليوم غمر وغدا أمر، ويقال إن الرسول الذي جاءه بالخبر وجدته يلعب بالترد فلم يفهم عليه دونه بل أن انتهى منه فسأله امرؤ القيس عن أبيه فأخبره بمقتله فقال: الحتر على والنساء حرام حتى أقتل من بنى أسد.

(١) أبو الفرج، الأغانى ص ٨٦٦
(٢) الديوان ص ١٤٠ وأبو الفرج، الأغانى ص ٨٦٦

مائة وأجز نواصي مائة وهكذا تعددت الروايات عن الجفوة بينه وبين أبيه يمثل تعددها في ذكر الموضع الذي تواجد فيه شاعرنا ابن حجر أثناء مقتل والده .

ولذا كانت رواية الميثم بن عدى التي تقول بتواجده مع والده في المعركة الأخيرة موقدة بشعر عبيد بن الأبرص الذي كان معاصرا لهذه النهاية، وشاهدا على أحداثها حسب استشهاد البعض به ، فإن رواية ابن الكلبي مع تجريحه موقدة أيضا بشعر لامرئ القيس نفسه فضلا عن اتساقها مع ما يعقبها من أحداث .

أما الروايات الأخرى فتفتقر إلى الحجج القوية التي تتجاوز حدود الاجتهاد إلى اليقين .

وقد حرص القدماء على ذكر كل الروايات التي تتناول هذه المرحلة من حياة امرئ القيس ، بدون أن يفاضلوا بين رواية وأخرى ، بينما حرص المحدثون على تعقب هذه الروايات ، والموازنة بينها ، واختيار المتلائم مع الشعر منها ، وربما رفضوها رفضا كليا كما حدث من الدكتور طه حسين .

حياته الثابتة :

عاش امرئ القيس بأرض اليمن يقاوم أحراره ، ويتحسر على حاضره وممه جمع من رفاقه وقيانه ، حتى جاءته أخته هند عند وادي عارض ، وفي صحبتها ما تبقى من ميراث حجر ، وأهم ما كان معها الأذرع الخمسة التي يتوارثها بنو آكل المزار مليكا عن ملك وهي : القنفاضة والصافية والمحسنة والحريق وأم الذبول .

وذكر أبو الفرج في رواية عن الهيثم بن عدي أنه لما قتل حجير
انحازت بنته وقطينه إلى عوير بن شجنة فلما كان الليل حل هندا وقطينها،
وأخذ يحطام جملها، وأشأم بهم في ليلة طخيا مد لهما، ثم رمى بها النجاد
حتى أطلعها نجران وقال لها: إني لست أغني عنك شيئا وراء هذا
الموضع، وهؤلاء قومك، وقد برئت خفارتى، فدرج امرؤ القيس بعدة
قصائد منها قوله:

ألا إن قوماً كنتم أمس دونهم
هم منوا جاراتكم آل غدران
عوير ومن مثل العوير ورهطه
وأسعد في ليل البلبال صفوان
ثياب بنى عوف طهاري نقيّة
وأوجههم عند المشاهد غران
هم أبلغوا الحسى المضال أهلهم
وساروا بهم بين العراق ونجران
فقد أصبحوا واقه أصفاهم به
أبر بميثاق وأوفى بحيران(١)
وله شعر آخر يمدح به عوير بن شجنة.

وقيل إنها انحازت إلى عامر بن جوين، وقيل غير ذلك، والرواية
الأولى هي الأقرب إلى الصحة. لأنها يدها بأكثر من قصيدة، ولأن عامرا
من الفئاة الذين لا يؤتمنون على مال ونساء.

(١) الديوان ص ٨٣، ٨٤

(٢ - القيس)

وقد اجتمع بنو أسد بعد قتلهم لحجر، واتفقوا على اللقاء بامرئ القيس للاعتذار له والإتفاق معه حول قضية مقتل والده، وارتحل إليه جماعة فهم المهاجر بن خديش (ابن عم عبيد بن الأبرص) وقبيصة بن نعيم، وكان مقبلاً في بني أسد فلما وصلوا إلى مكان ابن حجر باليمن أمر بإزالهم والإفضال عليهم، واحتجب عنهم ثلاثاً، ثم خرج في قباء وخف وعمامة سوداء، وكانت العرب لا تعتم بالسواد إلا في الترات، فلما نظروا إليه قاموا له، ثم تحدث إليه قبيصة حيث خيره بين ثلاثة أمور وهي أن يختار واحداً من أشرف بيوت بني أسد ليقتله فأراً بأبيه، وإما أن يتقبل الفداء من نهم بني أسد فهي ألوف تجاوز الحسبة، وإما أن يتفق معهم على الهدنة والمواذعة حتى تضع الحوامل، وتنبأ الجيوش للقتال.

قال الخليل بن أحمد راوية هذا الخبر: «فيكي (امرئ القيس) ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم، ولأنى إن اعتاض به جلا ولا ناقة فاكسب بذلك سبة الأبد وفيت العيذ.

وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنبية في بطون أمهاتها، ولن أكون لعطيا سبياً، وستعرفون طلائع كددة من بعد ذلك، تحمل القلوب حقاً، وفوق الأسنة علقاً(١):

إذا جالت الخيل في مأنق

تصافح فيه المنايا النفوسا

أقيمون أم تصرفون؟ قالوا بل تصرف بأسوأ الاختيار، وأبلى الاختيار لشكروهم وأذية، وحرب وبلية. ثم نهضوا عنه، وقبيصة يقول متملاً:

(١) علقار: دمار.

الملك أن تستوخم الموت إن غدت
كتائبنا في مآزق الموت تمطر (١).

فقال امرؤ القيس: لا والله لا استوخمه، فريداً ينكشف لك
دجائها عن فرسان كندة وكتائب حمير: ولقد كان ذكر غير هذا أولى
بك إذ كنت نازلاً بربعي، واسكنك قلت فأجبت ... (٢).

ثم ارتحل إلى ديار بكر وتغلب للاستعانة بهم في مقاتلة بني أسد،
والنار لأية واسترجاع ملك أجداده، وإحياء مجد كندة، وقد سيروا
معه جيشاً يقوى به على حرب الأسديين الذين أذكوها ما يدبر لهم
فارتحلوا إلى بني كنانة للاحتياط بهم، ولكن علباء بن الحارث وهو
العقل المدبر لبني أسد آنذاك أخبرهم بمقرب امرئ القيس لهم، وكان
أن أشار عليهم بالرحيل ليلاً بدون أن يعلم بنو كنانة.

ثم أقبل امرؤ القيس بمن معه على كنانة، فأوقع بهم، وأعمل السلاح
فيهم وهو يحسبهم بني أسد، وكان يهتف صائحاً: يالنباتات الملك،
يالنباتات الهمام، وهكذا تحملت كنانة ما كان موجهاً إلى بني أسد،
ولم يتوقف القتال إلا بتدخل عجوز من بني كنانة، تحدثت لامرئ القيس
وقالت له: أبيت اللعن لسنا لك بتأر، نحن من كنانة، فدوئك فأرك
فاطلبهم فإن القوم قد ساروا بأجمعهم.

وحاول امرؤ القيس اللحاق ببني كنانة، ولكنه لم يدركهم بخوف.
لذلك الفرصة الضائعة ثم قال:

(١) استوخم الشيء: لم يستمره.

(٢) أبو الفرج، الأغاني ج ٩ ص ١٠٥.

ألا يا لطف هند لئلا قوم
وقام جدم بنى أبيهم
وأفلتن علباء جريصا ولو أدركته صفر الوطاب (١)

وتختلف الروايات فيما أعقب هذه الواقعة ، فبعضها يذكر أن امرأ القيس لحق بنى أسد ظهراً ، وقد تقطعت خيله ، وأثر فيها المطش . بينما بنوا أسد مجتمعون حول الماء ، وقاتلهم قتالاً شديداً ، حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم ، ثم حجز الليل بين الفريقين ، فعاودت أسد الهروب . وأراد شاعرنا اللعاق بهم ، وإشباع نهمه من التأثير ولكن جيوش بكر وتغلب اعترضت على المسير ما دام قد ثار لآييه فقبح لهم : واقع ما فعلت ولا أصبت من بنى كاهل ولا من غيرهم أحدا . قالوا بلى ، ولكنك رجل مشؤوم ، وكرهوا قتال بنى أسد ، وانصرفوا عنه . ويقال إن بكرأ وتغلب تركته بعد قتالهم لبنى كنانة ، ولم يوقع بنى أسد ، ولم يثار منهم ، والنتيجة واحدة وهو أنه لم يشف غليله ، ولم يرو عطشه من دماهم .

وذهب الشاعر إلى أزد شؤمة فأبوا أن يتصروه ، وقالوا : إخواننا وجيراننا ، فنزل بقيل يدعى (مرثد الحزير بن ذى جدن) الحزيرى مستنصرا به على بنى أسد ، فأمدته بمخمصة رجل من حبير ، ومات مرثد قبل أن يرحل امرؤ القيس ، وقام بالملك من بعده رجل يقال له (قرمل بن الحكيم) فلأنفذ له الجيش ، وتجمع حول الشاعر بعض صبايك العرب ، وذوق بانهم ،

(١) الديوان ص ١٣٨ . والجد : الخط . جريصا : غاصا بريته . صفر الوطاب : أى أنهم إذا أدركوه قتلوه . وساقوا إليه ، فصقرت وطابه من اللبس .

وفهم المستأجر وغيره ، ثم سار بهم إلى بني أسد ، ومرت في طريقه بهنم
كانت العرب تعظمه يقال له : ذو الخلصة في وادي تباله (١) ، فاستقسم
بأزلامه وهي ثلاثة أقداح : الأمر والنهي والمقربص ، فلما أجالها
خروج الناهي ثلاث مرات ، فغضب امرؤ القيس ، وجمعها وكسرها ،
فوضرب بها وجه الصنم وقال له : لو أبوك الذي قتل ما عقتني . وواصل
سيره حتى ظفر ببني أسد وثأر منهم وقال مفتخراً (٢) :

يا دار ماوية بالحائل فالسب فالحيتين من عاقل
حم صداها رعباً رسمها

واستعجبت عن منطق السائل

قولاً لدودان عبيد العسا ما غركم بالأسد الباسل (٣)

قد قرت العينان من مالك ومن بني عمرو ومن كاهل

ومن بني غنم بن دودان إذ تقذف أعلام على السافل

وكان الانتقام من بني أسد — إذا صح وقوعه — سبباً للعديد من
التنكبات التي مني بها امرؤ القيس فيما بعد ، فقد عاود المنذر تعاقبه له
خوفاً من عودة السيطرة إلى كعدة من جديد ، حيث أعانه كسرى
أنو شروان على ذلك ، فأمدّه بجيش من الأساورة ، وسرحهم في تعقبه
وطليه ، وتفرقت عن امرؤ القيس جيوش حمير التي شاركته في الظفر ببني
أسد ، ثم لجأ إلى بني حنظلة ، ونزل على واحد منهم وهو الحارث بن شهاب

(١) موضح بين مكة واليمن على بعد مسيرة سبع ليال من مكة .

(٢) الديوان ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٣) دودان : قبيلة من بني أسد .

من بني يربوع ، الذي لم يكن له من القوة والشجاعة بحيث يحصى أمراً
القيس ، واضططر إلى تسليمه هو ومن معه من بني آكل المزار إلى المنذر ،
وتمكن الشاعر من الهرب ومعه أخته ويزيد بن معاوية بن الحارث
والأدوع الحنسة ، وبعض المال المتبقي في حوزته. وأعدم المنذر اثني عشر
قتي من أمراء كندة في بئر الأملوك ، وضرب الشاعر المثل ببني الضباب
الإيادي الذي أكرمه وأجاره ، ومدحه فقال (١) :

لعمرك ما سعد بخلة آثم ولا نأناً يوم الحفاظ ولا حصر
لعمري لقوم قد نرى أمس فيهم
مرابط للأهبار والعكر الدثر
أحب إلينا من أناس بئنة يروح على آثار شائهم أغر
يفاكنا سد ويفدو لجمعنا
بمثنى الوفاق المترعات وبالجزر

ثم تحول عن سعد بن الضباب ، لاستمرار المنذر في تعقبة ، ونزل
في أرض طيء ، وأقام عند الملقى بن تيم من جديلة ، وأحسن عنده
بالأمن والطمانينة فقال ، بمدحه (٢) :

كأنى إذ تولت على المعلى
تولت على البراذخ من شمام
فما ملك العراق على المعلى بمقتدر ولا ملك الشام
أصد نشاط ذي القرنين حتى
تولى عارض الملك المهام

(١) الديوان ص ١١٢ ، ص ١١٣

(٢) المصدر السابق ص ١٤٠ ، ٢٤٢

أقر حشا أمرى القيس بن حجر
بنو تيم مصاييح الظلام

ويلاحظ أن امرأ القيس بعد أن أوقع بني أسد، وأخذ يتنقل بين القبائل خوفاً من المنذر تحول بشعره إلى المديح، وتغلى عن القصائد الغزلية التي كان يتغنى بها في دمون وعندل وغيرها من جبال اليمن، وورد ياءه. أما المقدمات الطليية أو الغزلية لهذه القصائد — إذا وجدت — فلم تكن إلا من قبيل التقليد أو الصناعة الشعرية.

ولقد حفلت إقامته في طيء ببعض الإشكالات التي يحسن أن نعرض لها في شيء من الإيجاز ومن خلال ما يذكره في شعره أيضاً.

تعرضت لإبل القصب في جديلة أثناء إقامته عند المصل، وبدأ أن يني زيد وهم قوم من جديلة قد ضاقوا به، فاغتصبوا لإبله، حتى يتعد عنهم، ثم انتقل إلى بني تيهان من طيء، ونزل على خالد بن أصبح التيهاني، وتحسس له في استرجاع لإبله، وركب خالد وجماعة معه رواحل أمرى القيس، واتجهوا بها إلى بني جديلة، فما كان من بني جديلة إلا أن أنزلوا خالداً ومن معه عن تلك الرواحل، وأخذوها أيضاً، وعاد هؤلاء نفر من بني تيهان إلى أمرى القيس بلا لإبل أو رواحل وقدموا له معزى يحلبها فسخر منهم، ومن نفسه أيضاً وقال (١):

ألا إن لا تكن لإبل فخرى
كأن قرون جلها العصي
وجاد لها الربيع بواقصات فأوام وجاد لها الولي

(١) المصدر السابق ص ١٣٦، ص ١٣٧

إذا مشت حوالها أرت كأن الحى صبحهم نعى
فترسح أهلها أفعلا وسمنأ وحسبك من غنى شيخ ودى

ثم خرج من بنى نبهان ، ونزل على عامر بن جوين الطائى ، وهو يومئذ من الفئاك الخلفاء فى بنى جرم ، ولم يكن امرؤ القيس جاهلا بطبيعة عامر ، ولكنه اضطر للنزول عليه بعد خروجه من بنى نبهان ، ثم خاف منه على نفسه وأهله وماله وسلاحه ، فتركه ونزل على رجل من بنى ثعل يقال له حارثة (١) ابن مر بن حنبل (الطائى) ، وغضب عامر من ذلك ، وتذنب امرؤ القيس ، وحارب بنى ثعل من أجله ، ولكن بنى ثعل لم يتواءوا فى الدفاع عنه ، فشكر لهم صنيعهم ، ومدحهم بقصيدة بدأها بالسخرية من خالده النبهاى للمرة الثانية ، وكشف هذا الشعر عن الألم الذى عاشه امرؤ القيس أثناء إقامته فى بنى نبهان ، فلم يخطر على باله وهو سليل بيت الملوك أن تنهب دوابه ، ويعجز عن استرجاعها ، ثم تقدم إليه معزى يحلبها ... وقد وازن فى هذه القصيدة بين إقامته فى بنى نبهان وإقامته فى بنى ثعل حيث ترحل إليه عند هؤلاء ، ولا يستطيع أحد أن يحسبها أو يقترب منها ، قال (٢) :

دع عنك نبها صبح فى حجراته
ولكن حديثا ما حديث الرواحل
كأن دثارا خلقت بلبونه عقاب تنرفى لاعتقاب القراغل
تلب باعك بدمية خالده
وأودى عصام فى الخطوب الأواتل

(١) أو جارية . انظر تجرود على : المفصل فى تاريخ العرب ، قبل الإسلام ٣ ص ٢٧٣
(٢) الديوان ص ٩٤ ، ص ٩٥

وأعجبني متى الحسرة خالد كشي أمان حلت بالناهل
أبت أجا أن تسلم العام جارها فن شاء فلينهض لها من مقاتل
تبيت لبوني بالقرية أمانا وأسرحتها غياً بأكناف حائل
بنو ثعل جيرانها وحائتها وتمنع من رماة سعد ونائل
تلاعب أولاد الوعول رباعها دوين السماء في رموس المجادل
مكللة حمراء ذات أسرة لها حيك كأنها من وصائل

ولم يبق بإقامته في بني ثعل حيث وقعت الحرب في طيء بسببه مرة أخرى ، فتحول إلى موضع آخر ، وكان هذه المرة في بني فزارة . حيث نزل على رجل فيها اسمه (عمرو بن جاسر بن مازن) وعرفه هذا الرجل على وسيلة يسترجع بها ملك أجداده ، إذ لفت أنظاره إلى الاستمالة بقيصر الروم ، ودله على رجل من فزارة يمكن أن يوصله إلى السموم بن عادياء في بتياء الذي يوصله بدوره إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ، ومن ثم إلى القيصر .. وهكذا كانت إقامته في فزارة مشجونة بالآمال والطموحات السكبار التي بدأت تنتعش في قلبه بعد لقائه مع عمرو الفزاري . وذكر صاحب الأغاني ما دار في هذا اللقاء ، قال : « فقال له الفزاري : يا بن حجر إلى أراك في خلل من قومك وأنا أنفوس بمنلك من أهل الشرف ، وقد كدت بالأمس تؤكل في دار طيء ، وأهل البادية أهل بر لا أهل حصون تمنعهم ، وبينك وبين أهل اليمن ذوبان من قيس ، أفلا أدلك على بلد ! فقد جئت قيصر وجئت النعمان فلم أر لصيف نازل ولا يجتد مثله ولا مثل صاحبه . قال : من هو وأين منزله ؟ قال : السموم بتياء ، وسوف أضرب لك مثله ، هو يمنع ضعفك حتى ترى ذات عيبك ، وهو في حصن حصين وحسب كبير . فقال له امرؤ القيس : وكيف لي به ؟ قال : أوصلك إلى من يوصلك إليه ، فصحبته إلى رجل من بني فزارة يقال له الربيع بن ضبح

الفارسي عن يأتي السموم فيجمله ويعطيه، (١). ثم أكل أبو الفرج ما أعقب ذلك فقال: «ثم مضى القوم حتى قدموا على السموم فأثدده الشعر، وعرف لهم حقيهم، فأنزل المرأة في قبة آدم، وأنزل القوم في مجلس له براح، فكان عنده ما شاء الله، ثم إنه طلب إليه أن يكتب له إلى الحارث بن أبي شمر الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر، فاستنجد له رجلاً، واستودع عنده المرأة والأدع والمال، وأقام معها يزيد بن معاوية بن الحارث ابن عمه ففضى حتى انتهى إلى قيصر» (٢).

وقد هدأت نفس امرئ القيس أثناء تنقله من فزارة إلى قصر الأبلق وتجاه حيث التقى بالشاعر الجاهلي السموم، وتيسرت له الإقامة عنده، وتجدد الأمل في استرجاع ملك كندة. وجاء على ألسنة الرواة ما يحكى بعضاً من مسامرات شاعرنا في تلك المدة، وبخاصة أثناء انتقاله إلى تباه، إذ نعم بالهدوء، وأحس بالأمان اللذين افتقدتهما منذ مقتل والده. ثم كانت وفادته على الحارث الغساني في جلق بالشام، والذي شجعه على الرحلة إلى قيصر، إذ يجمعها هدف واحد وهو محاربة المناذرة (الخصم اللدود للثنين) ويلتقي معها في المهدف المشترك الإمبراطور البيزنطي، الذي يحرص على ضرب اللخمين والفرس معاً، ولذلك لا تستنكر أبداً أن يكون امرؤ القيس قد قام برحلته إلى قيصر طالباً التجدة على بفي أسد والمناذرة. أما ما قيل بأنه أرسل وفداً إلى قيصر لإبان إقامته في طي. أو فزارة، وكان من بين الوفد ابنه معارية فهذا مما لم تتواتر أخباره، كما لم تتواتر أيضاً عما قيل حول كناية قيصر إلى النجاشي يدعوه إلى معاونة امرئ القيس، ولكن الاحتمال كانوا على خلاف مع الكنديين، وكانوا أيضاً مشغولين في البين بالدفاع عنها من الغزو الفارسي. وسواء حدثت

(١) أبو الفرج. الأغاني ٩ ص ٩٦، ص ٩٧.

(٢) المصدر السابق ٩ ص ٩٩.

هذه الواقعة أم لم تحدث فإن شاعرنا قد صمم على الذئاب بنفسه إلى القيصر عندما تبيأت له الوسائل والأسباب .

الرحلة إلى قيصر :

تعد رحلة امرىء القيس إلى قيصر الروم (justinien — جوستنيان) آخر المطاف في طريق حياته ، وإذا كان البعض قد أنكر الرحلة بجملة وتفصيل فإنه — بالطبع — لم يذكر الأسباب الأدبية والعلمية والتاريخية التي استند إليها في هذا الإنكار والرفض . ويعتقد أن الحجج الواهية لا تشكل أهمية كبيرة في مجال الدراسات الأدبية والتاريخية والتأريخية ، وقد قالت الأغلبية بهذه الرحلة ، وأطمأنت إلى الروايات التي قيلت عنها لأنها — أي الرحلة — موكدة بجملة من الحقائق التي لا تحتمل التأويل ، ولعل منها بل من أهمها : حديث الشاعر نفسه عنها في أكثر من قصيدة ومقطوعة ، كما أن الكثير من هذا الشعر الذي تناول الذهاب إلى قيصر قد رواه واحد من المشهود لهم بالأمانة والصدق وهو الأصمعي الأديب الناقد والرواية المعروف .

ولإذا طالعنا الروايات القديمة التي تناقلتها كتب الأدب والتاريخ فإننا نراها تكاد تجمع على ذهاب امرىء القيس إلى قيصر ، وتتفق أيضا على أنه قد مات (أو قتل) بأنقرة عند عودته ، وأنه لم يكن من رحلته شيئا ، أما ما عدا ذلك من التفاصيل فتختلف الروايات فيما بينها اختلافا يتم عن نوع من التدخل في سرد هذه الوقائع . ثم هناك من المصالح التي تجمع بين امرىء القيس والقيصر ما يجعل القول بهذه الرحلة أمرا مقبولا ، وذلك فيما يختص بمقاومة المناذرة والفرس لها كما لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يرتحل فيها بعض العرب إلى قيصر للتخالف أو التصالح ، فضلا عما ذكرته الروايات التاريخية عن الرحلة .

ولقد تحدث الشاعر عبيد بن الأبرص عن ذهاب امرئ القيس إلى الروم مع ما بينهما من عداوة وخصومة وكراهية ، قال :
أزعمت أنك سوف تأتى قيصرًا فتهلكن إذا وأمت شأى
على أننا سنعرض لبعض ما قيل في هذه الرحلة من شعر امرئ القيس في غير هذا الموضع من الكتاب .

ذكر الدكتور جواد على الطريق التي سلكها شاعرنا للذهاب إلى القسطنطينية فقال : « ويظهر من شعر لامرئ القيس ، أنه سلك طريق الشام في طريقه إلى (قيصر) وأنه مر بـ (حوران) وبعلبك وحاص وحماء وشيزر ، أما ما بعد ذلك حتى عاصمة الروم . فلا نعرف من أمره شيئاً ، (١) وذكر أنه ليس في شعر امرئ القيس ما يدل على أنه ذهب إلى القسطنطينية رجاء التوسط في الوصول إلى قيصر مع أن هذا الأمر ليس داخلًا في الرحلة ، ولا يذكر إلا على أنه مقدمة من مقدماتها . وذكر الإخباريون أنه اصطحب في رحلته إلى الروم اثنين من رفقاته أولهما عمرو بن قتيبة ، وثانيهما جابر بن حني الثغلي ، وقيل إن من وفده في الرحلة رجلاً اسمه (الحارث بن حبيب السلمي) .

أما عمرو بن قتيبة (٢) فكان شاعراً جاهلياً معروفًا . وهو أكبر من امرئ القيس . وأول من قال الشعر من نزار ، وقد مات في الطريق إلى القسطنطينية ، ولذلك سمته العرب (عمراً الضائع) ، لأنه مات في غير أرب ولا مطلب . وكان عمرو قد ضجر وبكى لما طال بهما المسير ، وذكر ذلك امرؤ القيس في أطول قصائده عن الرحلة ، قال (٣) :

-
- (١) جواد على المفصل في تاريخ العرب ج ٣ ص ٣٧٠
(٢) هو عمرو بن قتيبة بن سعد الضبي البكري أحد بني قيس بن ثعلبة ، وكان من خدم (حجيج) والد امرئ القيس .
(٣) الديوان ص ٦٥ وما بعدها .

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقات له لا تبك عينك إنما
نحاول ملكا أو نموت فتمذرا
وقال فيها :

أرى أم عمرو دمعها قد تحذرا
بكاء على عمرو وما كان أصبرا
ويؤكد هذا الشعر أن أمال امرئ القيس في الرحلة تمثل في استرداد
ملك آياه متجاوزا بذلك حدود النار والانتقام من بني أسد.
وإن امرؤ القيس في قصيدة أخرى تتصل بالرحلة عن شخص آخر
كان برفقته وهو جابر بن حنن التغلبي الذي كان يعمل على محفة ، وهو
مريض في طريق العودة إلى أنقرة قال (١) :
فأما ترى في رحلة جابر على حرج كالقر تخفق أكفاني
فيارب مكروب كررت وراة وعان فسككت الغل عنه ففداني
ويبقى معه حتى مات ، وربما كان جابر المذكور هو الذي روى
أخبار امرئ القيس وأشماره قبيل وفاته .
أما ثالث الرجال الذين ورد ذكرهم فهو الحارث بن حبيب السلمي
الذي مات في الطريق إلى القسطنطينية بالقرب من بصرى بديار الشام ،
وبكاء امرؤ القيس فقال (٢).

(١) الديوان ص ٩٠

(٢) الديوان ص ٣٤٧

توى عند الودية جوف بصرى
أبو الأيتام والكل المعجاف
فمن يحصى المضاف إذا دعاه
ويحمل خطة الأتس الضفاف

وليس يبعد أن يجمع هؤلاء الثلاثة حول شاعرنا في رحلته ، بل
ربما ضم ركبته أكثر من هؤلاء سواء أكانوا رفاقا أم خدما أم معاونين ،
حتى يكون ذلك لا نفقا به عند دخوله على قيصر الروم .

تختلف الروايات التاريخية فيما بينها حول معاملة قيصر لامرىء
القيس ، كما تختلف أيضا حول موته بأثرة . وترتضي من هذه الروايات
مالايتأرض مع الشعر أو العقل ، إذ يرفض العقل أن يذهب امرؤ
القيس إلى هذا الإمبراطور ثم ينشغل بحب ابنته عن المهمة التي ارتحل
بسببها أو أن يصل به الحال إلى حد دخوله الحمام مع قيصر ، أو أن
يكون الهدف من زيارته زواج ابنة هذا الإمبراطور . أما الخبر الذى
استند إلى الشعر استنادا غير قوى فهو ذلك الرجل المعروف بالطاح
ابن قيس الأسدى الذى أرسلته بنو أسد ليقتل على امرىء القيس خطته ،
وقد جاء ذكره في بيت لامرىء القيس وهو (١) .

لقد طمح الطاح من بعد أرضه
لبلاسى من دأته ما تلبسا

وربما كان (الطاح) رمزا أو كناية عن شخص عدو لامرىء القيس ،
ويتصل بذكر الطاح ما قيل إنه وشى إلى قيصر وشايات مختلفة نتج
عنها إرساله حلة مسمومة إلى امرىء القيس بعد تركه للقسطنطينية ،

وكانت سينا في وفاته حيث تسرب السم في جسمه ، فتهتك بدنه ، وتناثر
لحمه ، وقتل بها في أنثره . وهذه الزيادات من منحولات الرواة إذ كيف
يكون الطلاح عدوا لامرئ القيس ، وعاملا في الجيش الذي أمده به
قيصر في الوقت نفسه !

ونعود لنؤكد أن شاعر كندة قد استقبل في القسطنطينية استقبال
الأمراء وأن القيصرة قد أكرمه ، وأنزله منزلا حسنا ، وأمدته بجيش فيه بعض
الأمراء . وأن امرأ القيس قد يترك بهذا الجيش جنوب فلسطين ، واشتد
عليه مرض الجدري ، فتقرح جسمه ، وزادت علته عندما اقترب من
أنثره ، ولم يستطع إكمال عودته ، فبقي في أنثرة حتى مات ، وتفرق
الجيش الذي كان معه ، وكانت وفاته في نحو عام ٤٤٠م . وقيل إنه توفي
في غير هذا التاريخ . على أن تحديد سنة الوفاة ليست محلا للإتفاق عند
القديما ، ولذلك نكتفي بالتاريخ المذكور ، ولا داعي لذكر سواه .

وذكرت أكثر الكتب القديمة أنه عندما أحس بنهايته قال بعض
الآيات مثل قوله (١) :

أجارتنا إن المزار قريب وإلى مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ها هنا وكل غريب للغريب نسيب

وقوله (٢) :

رب طعنة مشنجره

وجفنة متحيره

وقصيدة محبرة

تبقى غدا بأفقره (١)

ولا تذكر هذا الشعر لتؤكد به على شيء أو تستخلص منه مذهباً
فنياً للشاعر إذ لا تتجاوز بذكره حدود الإخبار عما استشهد به القدماء،
ولأن هذه المرويات لا تلقى منا سوى الشك والارتياب .

ويتصل بحياة امرئ القيس جواب أخرى كزواجه وعقيدته ،
ونفضل أن تعرض لهذه الأمور من خلال شعره في الفصول التالية .

(١) المتنجرة : السائل دميها ، المتنجرة : المتتلة طماناً ودعماً
الحجرة : الحنة بالفتح ، الحنة : الحنة بالفتح ، الحنة : الحنة بالفتح

الفصل الثاني

أولية الشعر الجاهلي

عندما عرض القدماء للبكاء على الأطلال في افتتاح القصائد ذكروا امرأ القيس الذي كان أميراً للشعر في عصره ، حيث سبق الشعراء إلى ابتداء المعاني والتعبير عنها ، وافتتح أبواباً من الشعر ، وطرق موضوعات كثيرة لم يسبق إليها ، وعبر عن كل ذلك بعبارة جولة وسبك محكم وأسلوب رصين . ولكنه ذكر بيتاً أثار العديد من الأقوال والتكهنات وهو قوله :

عرجا على الطلل المحيل لأننا نبكي الديار كما يبكي ابن خذام
(عرجا : اعطنا ، المحيل : الذي أقي عليه الحول فتغير ، لأننا : يمتحن
لعلنا) .

من هو ابن خذام أو ابن حمام كما تقول بعض الروايات ؟ لا ندرى . إذ لم يتحدث القدماء أو المحدثون عن هذا الرجل الذي يبكي على الديار قبل امرئ القيس حديثاً شافياً مفيداً . ويبقى تاريخ الشعر في العصر القديم قبل امرئ القيس محوطاً بالضبابية والحفاء ، وكل ما يقال عن هذه المرحلة لا يعدو أن يكون ضرباً من الخدس والتخمين الذي يقتصر إلى الأسس العليسية والممايير الصحيحة ، كما أنه ليس هناك من النقوش والزنايق ما يخدم تلك الفترة ، ولذلك اضطرب القدماء في حديثهم عن هذه الأولية اضطراباً يبعث على الضحك أحياناً ، وعلى التوقف والمجب في أحيان أخرى .

مرويات القدماء :

ذكر (كارل بروكلمان) مقوله لابي عمر بن الـلاء جاء فيها : لأن
امرأ القيس أول الشعراء وذا الرمة آخرهم ، (١) .

وليس المقصود بالاولية هنا السبق والتقدم ، وإنما يراد بها الإجابة
والتفوق . فليس ذو الرمة آخر الشعراء كما هو معروف ، ومثلها ما جاء
بالعمدة « بن قولم » بديء الشعر بكندة يعنى امرأ القيس ، وختم بكندة
يعنى أبا الطيب ، (٢) .

ويعد ابن سلام من أوائل من بحثوا باهتمام عن أولية الشعر العربى ،
حيث تحدث فى أول الطبقات عن أوائل الشعراء الجاهلين ، وكان يرى
أن الشعر فى أول عمره عبارة عن مقطوعات صغيرة يقولها الرجل فيما
يمرض له ، قال :

« ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الآيات يقولها الرجل فى
حاجته ، وإنما قصدت القصائد ، وطول الشعر على عهد عبد المطلب ،
وهاشم بن مناف ، وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وخير
وتبع .. » (٣) .

ثم قال : « وكان أول من قصد القصائد ، وذكر الوقائع للمهلل بن
ربيعة التغلبى فى قتل أخيه كليب وائل ، قتلته بنو شيبان ، وكان اسم

(١) كارل بروكلمان . تاريخ الأدب العربى ١ ص ٢٢٢ دار المعارف

(٢) ابن رشيق . العمدة ١ ص ٨٩ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٣) ابن سلام . طبقات لؤلؤ الشعراء ١ ص ٢٦ تحقيق محمود

شاكر .

المهلل عديا ، وإنما سمي مهللا لهللة شعره كهلمة الثوب ، وهو اضطرابه وإخلافه (١) .

وهكذا يرى ابن سلام أن الشعر الجاهل قد بدأ في صورة مقطوعات ثم تطور وتحول إلى الشكل المتعارف عليه ، وهو القصيدة بفضل المهلل ابن ربيعة الذي عاصر أحداث حرب البسوس .

وقد أكد الجميع رفضه للأولوية المشبوهة التي قال عنها : « فنحن لا نقيم في النسب ما فوق عدنان ، ولا نجد لأولية العرب المعروفين شعراً ، فكيف يعاد وثمود ؛ فهذا الكلام الواهن الخبيث ، ولم يرو قط عرب منها بيتاً واحداً ، ولا رواية للشعر ، مع ضعف أسره وقلة طلاوته » (٢) .

وهكذا طعن في مرويات ابن إسحاق من الشعر المنسوب إلى عاد وثمود .

ثم جاء الجاحظ لحدد مائتي سنة كأقصى عمر للشعر العربي قبل الإسلام قال : « وأما الشعر لحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله ، وسهل الطريق إليه لمرق القيس بن حجر ، ومهلل بن ربيعة ، ... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له — إلى أن جاء الله بالإسلام — خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بقايا الاستظهار فأتى عام » (٣) .

وهكذا يرجع الجاحظ ولادة هذا الفن إلى مائتي سنة قبل الإسلام على أكثر تقدير ، ونعتقد أن رأى الجاحظ الذي تناقلته الرواة يحجب مرحلة كبيرة من عمر هذا الفن كانت — بالطبع — مشحونة بالديد

(١) المصدر السابق ١ ص ٣ (٢) المصدر السابق ١ ص ١١

(٣) الجاحظ . اليونان ١ ص ٧٤ (الجلبي) .

من التجارب والإرهاصات التي اثبتت من مخاضها شعر امرىء القيس .
ورفاقه المعاصرين له أو المتقدمين عليه ببعض السنين مثل المهلهل
وأبو داود الإيادي ، وكليب بن ربيعة وعبيد بن الأبرص وعمر بن
قتيبة وغيرهم .

ولكن المرحلة المتقدمة التي سبقت هذا الجيل غامضة ، وغير واضحة
المعالم والشخصيات ، ولهذا يعد ما يقال عنها من باب الشك الذي لا يرق
إلى اليقين .

أما ابن قتيبة فقد عقد فصلا تحدث فيه عن هؤلاء الأوائل بإيجاز ،
وهو تابع في ذلك لإبن سلام قال : « لم يكن لأوائل الشعراء إلا الأبيات
القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة » (١) .

ثم ذكر نماذج شعرية لبعض الشعراء القدامى الذين يمثلون المرحلة
الأولى التي تسبق عصر امرىء القيس ، ويلاحظ على النماذج الشعرية التي
تمثل هذه المرحلة أنها مقطوعات قصيرة لا تأخذ شكل القصائد المطولة ،
ولكنها تعبر عن ظرفية هذا الفن ، وأنها البداية الحقيقية للمرحلة الثانية
التي تميزت بعدد من الشعراء النابغين ، إذ أن واقع الأشياء والقائرون
الطبيعي للتطور يؤذن بسبق ظهور القصيدة في أيام المهلهل بالعديد من
المحاولات والتجارب الجادة ... ولا يعقل أن تكون النشأة أو الولادة
قد تمت في حدود الزمن الذي حدده الجاحظ في مقولاته السابقة ، ولكن
الآثار الأدبية التي تصور المرحلة الأولى غير كافية ، ولذلك تضاربت
الآقوال عن الشعر في هذه الفترة وشابتها شوائب عديدة ، ولذا قنع
الكثيرون بمقاله الجاحظ ، وارتضوا تاريخه لحياة شعر العربي . وغضوا

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١١٠ تحقيق أحمد شاكر ط ٣
عام ١٩٧٧ م

أيضاً هم عما اكتشف المرحلة الأولى من خلط وتشكيك واضطراب، وما ساعد على الفئاعة برؤيه الجاحظ — مع عدم الرضا بها — والموافقة الناعمة عليها — ما أوردته بعض كتب الأدب من أشعار منسوبة إلى آدم وإدريس وبعض الملائكة وبعض العماليق وعاد وشمود، بل تجاوزت هذه الآثار القديمة حدود الفصحك والعبث، والإفك أيضاً، فنسبت الأشعار إلى الجن. ولا يليق بنا في العصر الحاضر أن نعرض لهذه المرويات القديمة والتي لا يخفى على أحدها قبحها من تحمل وعبث واقتراء.

آراء المحدثين :

نظر المحدثون إلى الفترة التي سبقت المائتي سنة، والتي ارتضاها الجاحظ كبداية للشعر الجاهل نظرة شك وارتباب، ولم تكن أقوالهم على درجة من اليقين الذي يرقى فوق رؤية ابن سلام وابن قتيبة ومن صادق على وجهيهما.

ورأى (بروكلمان) أن العرب عرفوا السجع في تلك المرحلة الأولى وهو النثر المفتق المجرد من الوزن فقال: « والسجع هو الغالب الذي كان يصوغ العرافون والكهنة فيه كلامهم وأقوالهم كما جاء في القرآن، (١) ».

ثم ترقى السجع إلى بحر الرجز المتألف من تقيلة واحدة، ومن هذا البحر نشأ البناء العروضي للشعر حيث تكون البيت من مصراعين وقافية في نهاية الخطر الثاني. ونتجه نظرة بروكلمان — كما سبق — إلى القوالب الفنية للشعر العربي مع نفيه القاطع لأن يكون العروض العربي قد نشأ على أساس شعر اليونان. ويمسك الدكتور شوقي ضيف عن الخوض في تلك المرحلة الأولى حيث يقول: « والحق أنه ليس بين

(١) بروكلمان. تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ٥١

أيدينا شيء من وزن يدل على طفولة الشعر الجاهلي وحقيقه الأولى ، وكيف تم له تطوره حتى انتهى إلى هذه الصورة النموذجية التي تلقاها منذ أوائل العصر الجاهلي ، (١) .

ويعرض لما قاله بعض القدماء والمحدثين حول ظهور الرجز كأقدم أوزان الشعر العربي ، وأنه تولد من السجع مرتبطاً بالخداء ووقع أخفاف الإيل في أثناء سيرها وسراها في الصحراء ، ثم تولدت منه الأوزان الأخرى ... وهو بذلك يشير إلى رأى بروكلمان الذي ذكرناه آنفاً . ثم قال : « وكل ما يمكن أن يقال هو أن الرجز كان أكثر أوزان الشعر شيوعاً في الجاهلية ، كانوا يتجملونه في كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم في السلم والحرب ، ولكن شيوعه لا يعنى قدمه ولا سبقه للأوزان الأخرى إنما يعنى أنه كان وزناً شعبياً لا أقل ولا أكثر (٢) » .

ويرى الدكتور يوسف خليف في كتابه عن الشعر الجاهلي أن القصيدة العربية التي ظهرت أيام حرب البسوس هي قصيدة مكتملة التقاليد ، ويقود على ضرورة سبقها بمحاولات كثيرة ، وتجارب متعددة قام بها الرواة الأوائل من الشعراء الجاهليين ، ثم يعرض لأراء القدماء والمحدثين من خلال ما أسماه بالنظرية العربية القديمة وبالنظرية الحديثة ، ولم يرتض النماذج التي ذكرها القدماء عن المرحلة المتقدمة حيث يستنفها الشك والاثهام ، ويرى أن ما قاله المحدثون لا يرقى — أيضاً — إلى اليقين وأنه مجرد فرض مثلاً قال شوقي ضيف . ويرى أن الشعر العربي قد بدأ غناء

(١) د / شوقي ضيف . تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ص ١٨٦ دار المعارف

(٢) المرجع السابق ص ١٨٦ .

وأن هذا الغناء بدأ رجزاً ، وأن هذه البداية كانت بداية طبيعية مرتبطة بحياة البداية التي ظهر فيها هذا الشعر أول مظهر (١) ...

وهكذا اقتنع بما رآه (بروكلمان) حول هذه الأولية . أما عن البداية الحقيقية فقد أرجعها إلى المهلهل بن ربيعة بطل حرب البسوس الذي يعد الرائد الأول ، والذي أعطى القصيدة صورتها المعروفة وشكلها التقليدي . ويعد ما كتبه يوسف خليف عن أولية الشعر العربي من أوسع ما كتب حول هذا الموضوع .

وأخيراً :

لقد مر الشعر العربي بمرحلة طويلة من عمر الزمن كانت مليئة بالتجارب الفنية سواء من خلال المقطوعات كما قال القدماء ، أو من خلال الرجز كما ذكر المحدثون ، وأن هذه المرحلة التاريخية مائة أيضاً بالاضطراب لما اعتورها من شك واتهام حيث يرفض العقل كثيراً من النماذج التي رواها القدماء من شعر يرجع بعضه إلى مرحلة لم تكن اللغة العربية قد ولدت هي وأخواتها الساميات .

أما المحاولات الأولى مع الإقرار بأهميتها والاعتراف بها كتعبير عن منطق التطور إلا أنها لا تستند إلى أدلة قوية لإقرارها والتأريخ لها ، وكل ما يمكن قوله لا يتجاوز حدود الظن والافتراض ، ذلك لأن القبايل في عصر التدوين كانت معنية بنسبة الأشعار لإيها ، ولذلك لا نستبعد ما قاله القدماء حول إمكانية الإضافة أو النحل للكثير من الأشعار التي تأتي تعبيراً عن عصية قديمة أو عن أحداث تعوذاً الأدلة والبراهين . فعمر الشعر أكبر بكثير مما قاله الجاحظ ، ولكن هذا الكبير غير واضح لنا تماماً وكل

(١) يوسف خليف . دراسات في الشعر الجاهلي ص ٤٤ .

ما قيل حوله غير معروف كجهلنا بحقيقة ابن خدام الذي ذكره امرؤ القيس في بيته السابق .

أما ما ذكره القدماء من شعر عربي لأدم وإبليس والعاقل القدماء مثل الهكسوس الذين أغاروا على مصر في العصور القديمة والجن والملائكة فإنه من الأمور التي تثير الإشفاق على من تعقبوا هذه الأشعار وتحدثوا عنها ، وأفردوا لها الصفحات تلو الصفحات من غير أن يهتموا العقلية العربية في القديم والحديث على السواء .

الفصل الثالث

شعر !مرىء القيس

لا نود أن نتجسس في حديثنا عن شعر امرئ القيس إلى قضية الانتحال وما أثير حولها قديما وحديثا ، إذ أن هذه القضية سوف تبحث في فصول أخرى ، وإنما يعنينا هنا أن تؤكد أن شعر امرئ القيس لم يسم من الطعن والتشكيك في القديم والحديث سواء من ناحية النقاد والمؤرخين أو من ناحية الرواة أنفسهم .

وقد انتقلت القضية من القدماء إلى المحدثين ، وتجاوزت امرأ القيس إلى الشعر الجاهلي كله ، وبدأ المستشرقون هذه الحملة ، وجاراهم بعض المحدثين العرب . وبدأ الشك في شعر امرئ القيس منذ القدم لأسباب عامة ذكرها ابن سلام وبعض القدماء كالعصبية القبلية ، وعدم تدوين الشعر الجاهلي ، إلا ما قل منه مثل المعانيات — في رأى البعض — والاعتماد على بعض الرواة المشهورين بكثرة الوضع والنحل مثل حماد الرواية وخالف الآخر ، وذلك عند تدوين الشعر الجاهلي في القرن الثاني الهجري ، إلى غير ذلك من الأسباب التي قالها القدماء والمحدثون ، تأكيداً أو نفياً لقضية الانتحال .

أما ما يعود إلى امرئ القيس نفسه فيرجع إلى كثرة من تسموا باسمه في العصر الجاهلي ، وكان معظمهم من الشعراء ، كما انفح حوله بعض الشعراء الفناك مثل عمرو بن لينة ، وأبي داود الإيادي ، وطاهر بن الجون وغيرهم ، حيث اختلطت أشعاره بأشعارهم ، وهجر الرواة عند التفريق

بين ما قاله كل واحد منهم ، غير أن شعر امرئ القيس — مثل أكثر الشعراء — لم يكن على وثيرة واحدة ، فسهل على نقدة الشعر أن يميزوا بعض ماله مما نسب لغيره ، أو يميزوا ما دخل في ديوانه^(١) وليس من شعره ، ولا يعبر عن موهبته وفنه ومذهبه وطبائع حياته .

ولقد اعتنى القدماء بشعره فحكفوا على روايته وتمحيصه بمستول ينله شاعر مثله ، فقد رواه « حاد » وأبو عمرو الشيباني ، والأصمعي ، والمفضل ، وشالدين كلثوم ، ومحمد بن حبيب ، وأبو العباس الأحمول ، وابن السكيت ، ثم صنعه أبو سعيد السكري من جميع الروايات ، (١) .

ودقلاء الرواة منهم البصري ، ومنهم السكوفي ، ومنهم الثبت الثقة كالأصمعي ، ومنهم من اشتهر بالوضع مثل حاد .

وهذا الأخير سيق ورقة رانجة في يد كل طاعن في الشعر الجاهلي حيث نهض برواية القدر الأكبر من الشعر قبل تدوينه ، ويذكر الأصمعي أنه روى شعر امرئ القيس عن حاد ، وسمع القليل منه عن أبي العلاء وبعض الأعراب ، ومع ذلك حذر منه . وبين فساد مروياته . وأظن أن الأصمعي لم يرض من شعر امرئ القيس إلا القليل الذي أحكم نقده وتمحيصه ، وهو ثمان وعشرون قصيدة ومقطوعة من إبداء شكوكه في بعض الرواة .

وتناول القدماء أيضا شعر امرئ القيس بالشرح والتفسير والبيان ، ومن دقلاء الأصمعي والطوسي ، وأحمد بن حاتم ، وأبو حاتم السجستاني ، وابن قتيبة وأبو علي القالي ، والوزير أبو بكر البطليوسي ، والأعلم الشنمري ، وابن عصفور النحوي وغيرهم ، (٢) .

(١) محمد أبو الفضل . مقدمة الديوان ص ٦

(٢) المصدر السابق ص ٦

ولهذا يشكك بعض القدماء في شعر امرئ القيس : ولم يرتضوا كل ما روى له ، فقال أبو حاتم السجستاني ، وهو راوية للأصمعي في آخر ما رواه عن أستاذه في الديوان ، هذا آخر ما صح للأصمعي من شعر امرئ القيس ، والناس يحملون عليه شعرا كثيرا وليس له (١) . واعتقد أنه يتصد بعض الكوفيين الذين يتساهلون في الرواية ، ولا يصنعون ما يصنعه علماء البصرة من التحيص والتثبت . ويقول الرياشي : « يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا يكونون معه مثل عمرو بن نسيئة وغيره » (٢)

أما ابن رشيق فقال : « وكان امرؤ القيس عقلا ، كثير المعاني والتصرف ، ولا يصح له إلا نيف وعشرون شعرا بين طويل وقطعة . ولا ترى شاعرا يكاد يفات من حياته وهذه زيادة في فضله وتقديمه » (٣)

موقف المحدثين من شعر امرئ القيس

لقد اهتم المحدثون بشعر امرئ القيس عناية فائقة ، وتجلي ذلك في الطباعات العديدة للديوان ، إلا أن موقفهم من هذا الشعر قد اختلف من واحد إلى آخر . وبدأ المستشرقون في القرن التاسع عشر الميلادى حملة على الشعر الجاهلي كله ، وشككوا في شعر امرئ القيس أيضا ، ثم جاء الدكتور طه حسين فأثار القضية في كتابه (في الشعر الجاهلي) الذي أعاده طبعة باسم (في الأدب الجاهلي) حيث أضاف إليه بعض الفصول .

(١) المصدر السابق ص ١٤٩

(٢) المرزباني ، الموشح ص ٣٢ أخرجه بحسب الدين الخطيب . المطبعة

السلفية عام ١٣٨٥ هـ

(٣) ابن رشيق . العمدة - ١٠ ص ١٠٥

وحذف بعض الفصول ، وذكر الأسباب التي أسست إليها في الشك في الشعر الجاهلي ، وإن ارتضى لأمرى القيس قصيدتين هما اللامية المعروفة (بالمعلقة) واللامية الثانية (الأعم صباحا أيها الطلل البالي) ورأى أن الشعر المتصل بسيرته إنما هو من عمل القصاص ، وقد أثارت هذه الآراء وغيرها بعد أن كتبها الدكتور طه حسين — ودود فعل عنيفة ولذلك نرجى الحديث عنها إلى موضع آخر .

أما الدكتور شوقي ضيف فقد تابع الدكتور طه حسين في معظم آرائه ، وارتضى من شعر امرى القيس ثلاث قصائد ومقطوعة ، وشك في تسع قطع ، ورد الباقي من مجموع رواية الأصمعي . بل إن بعض مآرده قد اجتمع البصريون والكوفيون على روايته .

أما الدكتور ناصر الدين الأسد فقد ارتضى ما اجتمع الأصمعي والمفضل على روايته وهو عشرون قصيدة ومقطوعة ، لتكون أصلا صحيحا للديوان أو أقرب إلى الصحة ، على أن يتم دراسة هذا القدر ويستخرج منه الخصائص الفنية لشعر امرى القيس ويتخذ منها الحكم من خلاله على الجزء الذي تفرد الأصمعي بروايته ، والجزء الآخر الذي تفرد المفضل بروايته (١) .

أما الدكتور علي الجندی فقد قبل ما رواه الأصمعي والمفضل وهو سبع وأربعون قصيدة ومقطوعة ، واستثنى منه سبع قصائد ومقطوعتين ، فرفضها لما وجه لها من شك وإتهام . وأبقى من هاتين الروايتين ثمان وثلاثين قصيدة ومقطوعة إذ رأها صالحة لأن تتخذ أصلا للديوان (٢) ، ويتفق مع ناصر الدين الأسد في ضرورة استخراج بعض المعايير الفنية

(١) انظر ناصر الدين الأسد. مصادر الشعر الجاهلي ص ١٤٥

(٢) د/ علي الجندی . تاريخ الأدب الجاهلي ج ٢ ص ٧٥٥ الأنجلو المصرية

الطبعة الثالثة ١٩٦٩ م

شعر امرئ القيس مع واقع القدر الذي ارتضاه . مع الاحتكام إليه في قبول الباقي من شعره أو رفضه رفضا تاما .

أما الدكتور الطاهر أحمد مكي فقد ارتضى رواية الأصمعي والمفضل كلا . ولم ير فيهما ما يجزم العقل الحديث باستحالة أن يكون لامرئ القيس ، كما أسقط كل شعر نسبته الأقدمون إلى آخرين مع امرئ القيس ولم يطلوا فيه برأى ، وقال : « ووقفنا من زيادات الطوسي والسكري وابن النحاس وأبي سهل موقفنا متحفظا ، لأن معظمها لا يشاكل شعر امرئ القيس شكلا ومضمونا ، لم نقلها جملة وفيها ما يستحيل أن يكون لشاعرنا ، ولم نرفضها كلا ، لأن بين ما تضمنته شعرا يدعمه واقع الأحداث ويرجع فيه جانب اليقين ، وأسقطناها من الاعتبار عند تعادل الظن وتساوي المرجحات (١) »

وقد تفاوتت آراء بقية المعاصرين من تحدثوا عن شعر امرئ القيس وهي في مجملها لا تصل إلى رؤية طه حسين بما فيها من تعميم الرفض ، وإغفال الرواة ، وطرح كل شعر يتناول حياته ورحلته إلى قيصر . كما لا ترضى هذه الآراء بقبول ما جاء في نسخ الديوان إذ أن بعض القصائد تنعدم صلتها تماما بامرئ القيس ولعل منها القصيدة التي تعرض لها الأستاذ مصطفى صادق الرافعي (٢) وأولها .

لمن طلل بين الجدية وأجبل محل قديم العهد طالت به الطول على أن هذه القصيدة لم ترد في نسخ السكري للديوان ، والتي تعد أصلا لكتاب (العقد الثمين) الذي وجدت به القصيدة المذكورة (٣) .

(١) د/ الطاهر مكي ، امرئ القيس ص ١٢٢ طبعة دار المعارف

(٢) في كتابه (تاريخ آداب العرب) .

(٣) أخرجه هلوارد على نسخة السكري ، وأضاف إليه ما وجدته من .

شعر لامرئ القيس في الكتب الأخرى .

لقد روى الأصمعي شعر امرئ القيس عن حماد الراوية وأبي عمرو ابن العلاء وبعض الأعراب قال: كل شيء في أيدينا من شعر لامرئ القيس فهو عن حماد الراوية، إلا نتفأ سمعناها من الأعراب وأبي عمرو ابن العلاء .

والمعروف أن حمادا أول من جمع أشعار العرب ، وشكك ابن سلام في مروياته ، ولم يكن منهج الأصمعي للسماح بقبول كل ما روى عنه . ونعتقد أن الأصمعي قد روى عنه أكثر مما رواه عنه تليذه أبو حاتم ، ولكنه أخضع هذه المرويات لأعتبارات نقدية كثيرة ، ولذا وصل عددها إلى ثمان وعشرين قصيدة ومقطوعة ، بل إنه شك في بعضها، ودفع الكوفيون بعض هذه المرويات . أما مقطوعة امرئ القيس التي شك فيها الأصمعي فهي (١) :

ألا إن لا تكن لأبل فعزى كأن قرون جللتها العصى
وجاد لها الريح بواقصات فأأرام ، وجاد لها الولي
إذا مشت حوالها أرنت كأن الحى صبحهم نعى
فتوسع أهلها أقطاً وسمناً وحسبك من غنى شيع وري

لم يكن شك الأصمعي في هذه المقطوعة منصرفاً إلى الرواة ، أو إلى الخصائص الفنية التي يتميز بها شعره ، ولكنه قال : «امرؤ القيس ملك ، ولا أراه يقول هذا» .

وأظن أنه لا يخفى على الأصمعي ، أو على من جاء بعده أن امرأ القيس بمة تل جده وأبيه لم يعد ملكاً أو خليفة للملك ، وإنما صار شريداً

طريدا بين القبائل ، خائفا من المنذر أو من غدر جديد ينهض به بنو أسد أو بعض المعاصرين له كما مر بن الجون ، أو غديره ، وكانت عبارة الأصمعي السابقة وبالأعلى هذه المقطوعة ، فاحترس النقاد منها ، وأدخلوها في دائرة الشك والارتياب ، على أن شهادة الأصمعي ليست دوما محل اعتبار عند المتأخرين بخاصة . ففي الديوان مقطوعة أشترك فيها امرؤ القيس والتوهم اليشكري (١) ورواها الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء ورواها أبو عمرو عن ذي الرمة وكاهم ثقات ، ومع ذلك وقع هذا النص في مخالف الشك ، وقالوا عن هذه القطعة إنها من صنع الرواة .

ولقد اشتدت حملة التشكيك في الشعر الجاهلي بعمامة ، وفي امرئ القيس بخاصة في العصر الحديث ، فرفض البعض معظم شعره ، لأن بعض هذا الشعر يتحدث عن رحلته إلى قيصر ، وما داموا قد نفوا الرحلة لأن ابن هشام الكلبي كان واحدا من رواتها ، فلا بد أن ينزوا كل ما يتعلق بها حتى لو كان ذلك قصيدة من عيون الشعر الجاهلي . ومن الأفضل أن يكون هذا الرفض مبني على مواصفات من ناحية الألفاظ والمعاني والأخيلة مع عدم إغفال الرواية في صحة الشعر ونحله . ولو أسلنا شعر امرئ القيس لدواعي الانتحال ، واستبعدنا كل قصيدة تسرب إليها الشك بدون أن نبحث عن أسباب ذلك لما بقي لهذا الشاعر ما ينسب إليه حتى المتعلقة نفاها بعض الناس عنه .

« من الغريب أن بعض الرواة زعم بأن هذه القصيدة (المعلقة) ليست لامرئ القيس ، وأنها ألحقت بشعره ، وإنما هي من شعر بعض

(١) الديوان ١٤٧ (القطعة رقم ٢٨) .

الفرين ، وهذا بلا شك زعم باطل ،... (١) وهل نملك بعد ذلك إلا أن ندافع عن شعر الرجل حتى لا يتحول من الحقيقة إلى الأسطورة ، على أن هذا الدفاع لا يحملنا تقبل كل ما نسب إليه من شعر ، فهناك بعض القصائد التي لم يروها الأصمعي أو المفضل لا يمكن أن تكون لا مري القيس ، وتبدو فيها مظاهر الصنعة والتكلف ، ولهذا نود أن يكون نقد شعره مبنيًا على أسس فنية وقواعد مستوحاة عما رواه الأصمعي والمفضل فما رواه هذان الرجلان من الأصل لشعر امرئ القيس إلا إذا تكاثرت الشكوك حول بعض القصائد فينبغي التوقف عن القول بتمثيلها لشعره ، كما يضاف إلى هاتين الروايتين بعض القصائد والمقطوعات مما رواه غيرهما والتي تتفق مع شعره من وجوه كثيرة وما عدا ذلك مما يتباعد في خصائصه عن شعره فليس لنا أن نستشهد به ، أو ننسبه إلى هذا الشاعر . ولعل هذه الوجهة تقارب إلى حد كبير ما قال به الدكتور علي الجندي في الحكم على شعر امرئ القيس ، ولا نود أن يكون حديثنا عن هذا الشعر مشعورًا بقدر من التعاطف معه ، فينعكس ذلك على مقدار الحقيقة التي نسعى إليها ولكن ذلك غير وارد ، فامرئ القيس مهما تعرض شعره للشك والالتهام من القدماء والمحدثين لم يستطع أحد أن ينزله من الرتبة السامية التي سما لها وأقام فيها ، وبقي محتفظًا — منذ مئات السنين — بإمارة الشعر الجاهلي ، ولم تتأخر معلقته عن الصدارة التي قبعت فيها منذ أن علققت بضدور النليس .

الكتاب الثاني

أمرؤ القيس في مؤلفات القدماء

الفصل الأول : طبقات حول الشعراء لابن سلام الجعفي

الفصل الثاني : الشعر والشعراء لابن قتيبة

الفصل الثالث : الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني

الفصل الرابع : الموشح للردباني

الفصل الخامس : إعجاز القرآن للباقلاني

الفصل الأول

طبقات خول الشعراء لابن سلام الجمحي (١)

يأتى كتاب (طبقات خول الشعراء) لابن سلام الجمحي في مقدمة الكتب النقدية التي وصلت إلينا من السنوات الأولى لعصر التأليف الأدبي حيث لم يسبق هذا الكتاب — في مدى علمي — إلا لكتاب للأصمعي باسم (خولة الشعراء).

وقد اشتمل كتاب ابن سلام على مقدمة ضافية اعتمد عليها الكثيرون قديما وحديثا، لما فيها من قضايا وآراء في الأدب والنقد.

أما موضوع الكتاب فهو الحديث عن الشعراء الجاهليين والإسلاميين من خلال منهج لم يكن غريبا على البيئة الأدبية في نهاية القرن

(١) ولد محمد بن سلام الجمحي بالبصرة عام ١٣٩ هـ، وتوفي بها عام ٢٣٤ هـ، أو بغداد عام ٢٣٢ هـ، وسمع من شيوخ اللغة والحديث والأدب مثل الأصمعي، وبشار بن برد، وسلام بن عبيد الله (أبيه) وسيدويه، وأبي عبيدة (ممن بن المنين) ومروان بن أبي حفصة وغيرهم. وأخذ عنه جمع كثير منهم: أبو خاليفة الفضل بن الحباب ابن محمد الجمحي، وظهر ابن أخت (محمد بن سلام، وثعلب (أحمد بن يحيى) وأبو حاتم والرياشي. واشتهر ابن سلام بكتابه عن طبقات خول الشعراء الذي تعرض لحديثه عن امرئ القيس في هذا الفصل.

وقد أخرج العلامة محمود شاكر الكتاب محققا في جزئين عام ١٩٧٤م بمطبعة المدني في القاهرة، وهي النسخة التي أنماثل منها في هذا الدراسة.

الثاني للهجرة ، حيث قسم المؤلف الشعراء المشهورين إلى طبقات ، بعد تحري الأسماء التي نسبت لهم ، والروايات التي تحدثت عنهم ، ليكون حكمه صائبا ونقده عادلا . وقد جعل من كثرة الشعر وجودته أساسا أو معيارا لاختياره للشعراء وترتيبه لهم ، مع استماتته بأقوال الرواة والإخباريين في تقرير مبدأ الشهرة الذي جرى عليه تقسيم الشعراء إلى طبقات .

قسم المجعبي شعراء الجاهلية والإسلام إلى عشر طبقات ، وجعل كل أربعة شعراء في طبقة . قال : « فقصصنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدكوا الإسلام » فنزلناهم منازلهم ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة ، وما قال فيه العلماء .

وقد اختلف الناس والرواة فيهم... فاقصصنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا ، ألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه ، فوجدناهم عشر طبقات ، أربعة رهط كل طبقة متكافئين معتدلين ، (١)

أى أنه تحدث عن المرزوقين المتقدمين جامع لكل أربعة من النظراء في طبقة واحدة ، وإن بقي هذا التوفيق الطبق مفتقرا إلى الأساس الواضحة التي يستهدى بها في معرفة أوجه التقارب والتشابه بين الشعراء ، إذ نرى بعضهم في طبقة واحدة وليس بينهم شبه ظاهر أو محتمل ، وما زالت أسأل نفسي عن السبب الذي تحول لابن سلام أن يجمع بين أمرى القيس وزهير والنايفة والأعشى في طبقة واحدة . أما منهجه للاختيار فقد بناء على الأساس التاريخي ، حيث تحدثت

(١) ابن سلام . طبقات لحوال الشعراء - ١ - ٢٣ ، ٢٤

عن الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، وإن لم يجعل للمخضرمين طبقات محددة ، بل وزعهم على طبقات أخرى ، وذكر من جميع هؤلاء ثمانين شاعراً . كما بنى اختياره أيضاً على الأساس المكاني ، فتكلم عن شعراء البلدان العربية ، واختار خمسة من شعراء المدينة ، وتسعة من شعراء مكة ، وخمسة من شعراء الطائف ، وثلاثة من شعراء البحرين .

واختار ثمانية من شعراء اليهود كأساس ديني في الاختيار ، كما اختار أربعة من الشعراء المجوس في فن الرثاء ؛ لأن هذا الفن أغزر ألوان الشعر بالعاطفة ، فهو شعر الحسرة واللوعة ، الذي يبين فيه الشعور الصافي والعاطفة الصادقة ، بعد زوال أسباب الرغبة والرغبة من ميت لا يرجى خيره ولا ترهب سطوته» (١).

وبلغ مجموع من أختارهم مائة وأربعة عشر شاعراً على اختلاف أزمانهم وبيناتهم وعقائدهم ومنزلتهم في قول الشعر ، ومقدار ما خلفوه من تراث في هذا الفن .

ويؤخذ على ابن سلام إغفاله لبعض معاصرة مثل مروان بن أبي حنيفة ومسلم بن الوليد ، وبشار بن برد وغيرهم . وليس هناك من سبب مباشر لذلك إلا أن يكون الرجل قد وقع ضحية التعصب للقديم ، أو أنه خشي الصيق والخرج من نقده لشعر من أغفلهم ، وربما خفيت علينا الأسباب الحقيقية لهذا المنزع المريب .

وقد عرض في كتابه إلى بعض الأحكام الأدبية والنقدية التي يتصل الكثير منها بامرئ القيس كواحد من أقدم الشعراء الجاهليين ، ونذكر منها ما يلي :

(١) د/بدوي طبانة . دراسات في نقد الأدب العربي ص ١٦٤ .

قضية الانتحال :

تحدث ابن سلام في مقدمة كتابه عن أولية الشعر الجاهلي ، وانطلق من حديثه عن هذه الأولوية إلى بحث قضية الانتحال بحثاً مبنيًا على الخجج والبراهين ، مع أنه لم يكن أول من عرض لنحل الشعر ووضعه ، فقد سبقه المفضل الضبي ، فإنه قد حمداً الراوية ، وكشفت الحاذية (١).

كما أنتقده أيضاً يونس بن حبيب فقال : « وكان يكذب ويلعن ويكسر » (٢) .

كما تقدم على ابن سلام في الحديث عن الشعر الموضوع الأصمعي وأبو عمرو ابن العلاء وأبو عبيدة وغيرهم ، إذ كان بحث الانتحال في عصر ابن سلام أمراً طبيعياً لمعاصرة هؤلاء الرواة والنقدة للحقبة التي انتقل فيها الشعر من عصر الرواية إلى مرحلة التدوين ، وقد زاد حرصهم على الشعر المدون ، فبدعوا في تميز صحيحه من زائفه ؛ وتأكيد نسبة كل قول إلى صاحبه ، ليكون الناس — في قابل الأيام — على بصيرة من تراثهم وسجل حضارتهم وديوان أجدادهم .

تجاوز ابن سلام مرحلة الأقوال المرسلة إلى مرحلة أخرى جديدة في عمر النقد الأدبي ؛ فعقد في أول كتابه عن طبقات الشعراء مقدمة شاملة . عرض فيها لمجموعة من القضايا النقدية ، وبعيننا منها قضية الانتحال ؛ لأنها من المسائل المهمة في تاريخ النقد الأدبي ، ولاتصالها بتقويم الشعر العربي في العصر القديم .

ولقد تحدث عن الانتحال وذكر أسبابه فقال : « فلما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكر أيامها وآثارها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم .

(١) انظر الأغاني . دار الكتب ج ١ ص ٨٩

(٢) ابن سلام ، الطبقات ج ١ ص ٤٩

وما ذهب من ذكر وقائهم، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار
فقالوا على السنة شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد « فزادوا في الأشعار التي
قيلت، وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا، ولا ما وضع
المولودون ... » (١).

أبان ابن سلام في كلامه السابق قضية النحل في بعض الشعر الجاهلي،
وأرجع ذلك إلى سببين :

أولهما : العصبية القبلية في بعض العشائر التي استقلت شعر شعرائها،
فأرادوا التوصل بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على السنة شعرائهم ما لم
يقولوه.

وثانيهما : الرواة الذين زادوا في الأشعار التي قيلت، على أن نقدة
الأدب يستطيعون كشف هذا الشعر الموضوع وبيان مادونه الرواة،
وما وضعه المولودون. وتصدى صاحبنا لرفض بعض النماذج الشعرية التي
ترجع في تاريخها إلى عاد وثمود والتي تناقلها الرواة من أمثال محمد بن إسحاق
ابن يسار راوى الأخبار والسير، الذي لم يكن له علم بالشعر... فكتب في
السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط، وأشعار النساء فضلاء
الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعاراً كثيرة، وليس
بشعر إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف، ألا يرجع إلى نفسه فيقول:
من حمل هذا الشعر؟ ومن أراه منذ آلاف من السنين والله تبارك وتعالى
يقول: (فقطع دابر القوم الذين ظلموا)، [الأنعام ٤٥]، أى لا بقية لهم،
وقال أيضاً: (وأنه أهلك عاداً الأولى، وثموداً فما أبقى)، [النجم ٥١، ٥٠]
وقال في عاد (فهل ترى لهم من باقية)، [الحاقة ٨] (٢)، ولم يكتف بهذه
الأدلة المتنوعة بل أضاف إليها أدلة أخرى، ليؤكد حجته في وضع هذا

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٤٦ (٢) المصدر السابق ج ١ ص ٨

الشعر ونحله منها : أن العربية لم تكن موجودة على عهد عاد ، فكيف تذكر الأشعار بلغة لم تكن موجودة ؟ وقد استشهد على ذلك بقول يونس بن جبيب : « أول من تكلم بالعربية ، ونس لسان أبيه لإسماعيل بن إبراهيم صلوات الله عليهما » (١) ومنها أن عاداً — التي نسب إليها محمد بن إسحاق هذا الشعر الموضوع — من اليمن ، ولغة اليمن تختلف عن لغة العرب الشاليين مستنداً هنا بقول أبي عمرو بن العلاء : « مالسان حير وأقصى اليمن اليوم بالساننا ، ولا عربيتهم يربيتنا » ، فكيف بما على عهد عاد وثمود مع تداعيه ووهيه ؟ (٢) .

ومنها أن القصائد الطويلة لم تعرف إلا على عهد عبد المطلب وحاشم ابن عبد مناف ، وكان أول من طولها المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب ، وجاء من بعده امرئ القيس وجماعه من شعراء الجاهلية .

ولم يكتب ابن سلام بحديثه عن محمد بن إسحاق — كواحد من الوضعيين — بل ذكر آخرين مثل حماد الراوية الذي قال عنه : « وكان أول من جمع أشعار العرب ، وساق أحاديثها : حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، وكان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد في الأشعار » (٣) .

وقدم ابن سلام عدداً من الروايات المنسوبة إلى أصحابها ، وكما يؤكد على زيادة حماد للاتصال في تلك الفترة ، ثم نقل إلى كتابه رواية لابي عبيدة عن واحد من الوضعيين ، قال : « أخبرني أبو عبيدة أن ابن داود بن مقيم ابن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي من الجلب والميرة فنزل النجيت (قرية صغيرة بالبصرة) فأتته أمها وابن نوح العطاردي ، فسألاه عن شعر أبيه متمم ، وقنا له بمحاجته ، وكفينا ضيعته (٤) ، فلما نفذ شعر

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٩٠
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١١٠
(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٤٨٨
(٤) كسبه وتجارته ج ١ ص ٤٨٨

أبيه جعل يزيد في الأشعار ويصنعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهد بها ، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله (١) .

ومن الشعراء الذين وقعوا ضحية لهذا المنعطف إبان تدوين الشعر الجاهلي طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص ، حيث بقي لهما على ألسنة الرواة آنذاك القليل الذي لا يتناسب مع مكانتهما . « فلما قل كلامهما حمل عليهما حل كثير » (٢)

ولا ينبغي أن يؤخذ بعض ما قاله ابن سلام ويترك البعض فتهم مروياته على أنها طعن في الشعر الجاهلي كله ، ولربما أساء البعض تناول هذه الروايات — بقصد أو بدون قصد — واقتطع من كلام الرجل ما يؤكد متحاة في طعن الشعر القديم طعنة مؤلمة .

كما أنه ليس للبعض أيضا أن يتجاهل كلامه بحجة التماطف مع هذا الشعر ، وعدم تعريضه للأهواء والنزعات ، وكلا الأمرين خطأ جسيم . فلا بد أن نأخذ كلام الرجل كله ، ونقبل على تمحيص التراث . وتقويم الرواة بما يميز الصحيح من الفاسد .

لقد عرض ابن سلام لقضية الانتحال عرضا موسعا ، ودرس أسبابها وتحدث عن الرواة انوضاعين ، ولم يغفل عن حجم ما أثير حولها من نزاع فوضع حداً لفوضى الشك في الشعر الجاهلي ، وذكر عدداً من الرواة واللغويين والإخباريين الذين عرفوا بالصدق في القول والأمانة في النقل منهم : أبو عمرو بن العلاء الذي قال عنه : « سمعت يومس يقول : لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كاه في شيء واحد ، كان ينبغي لأول أبي عمرو ابن العلاء في العربية أن يؤخذ كاه ، ولكن ليس أحد إلا وأمت أخذ من كلامه وتارك » (٣)

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٤٨ (٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٦

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١٦

ومن امتدحهم أيضا ، خيلف الأحمر والأصمعي ، وأبو عبيدة
والفضل الضبي .

وإذا اجتمع هؤلاء العلماء والرواة وغيرهم من المؤثوق بهم على إبطال
شيء من هذا الشعر ، فليس لأحد أن يقبل المدون منه في الصحف المخطوطة
التي لم تعرض على الرواة . فأمّا ما اتفقوا عليه . فليس لأحد أن يخرج
منه ، (١)

وإذا كان بحث ابن سلام لهذه القضية غير منظم سواء في المقدمة أم
في صفحات الكتاب فإن ذلك شأن المحاولات الأولى ، إذ تأتي ما بعدها
لتفيد منها وتضيف إليها . على أن انشغال الرجل بقضية الشعر الموضوع
لم يصرفه عن التعرض لبعض المسائل النقدية الأخرى التي بحثها في كتابه
المذكور .

١ - امرؤ القيس وطبقته :

تحدث ابن سلام عن امرئ القيس في العديد من المواضع بكتابه
طبقات فحول الشعراء ، حيث عرض له المقدمة التي استهل بها في حديثه
عن الشعراء ، ثم تحدث عنه من خلال الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين ،
وهم امرؤ القيس وزهير والناجعة والأعشى ، ثم عرض له أيضا في مواضع
متفرقة من هذا الكتاب .

ولم يذكر الجمن مظاهر التشابه التي تجمع بين هؤلاء الأدبعة سواء
في المقدمة ، أم في عرضه هؤلاء الشعراء بتمن الكتاب ، ولنا لم يتناول
الزم بمنهجه في تنسيقه للشعراء على نظام الطبقات ، ولم يحظ كتاب
طبقات الشعراء لابن المعتز بما قاله كتاب ابن سلام .

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤

ويبدو أن الناس قد عارضت هذا المنهج ، وانحرفت عنه إلى كتب الترجمة للشعراء التي تجعل كل واحد منهم مستقلاً بذاته مثل الشعر والشعراء لابن قتيبة . والأغاني لأبي المرح وغيرها . ولا يقتصر الأمر عند ابن سلام على هذه الطبقة ، بل يمتد ليشمل المنهج كله ، فقد وضع بعض الشعراء في طبقة ، ولا يبدو بينهم أى تلاق واتفاق .

وقد ذكر رواية عن يونس بن حبيب حول هؤلاء الشعراء الأربعة جاء فيها : « أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأة القيس بن حجير . وأهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى » وأن أهل الحجاز والبادية كانوا يقدمون زهيراً (١) (والناطقة) في بعض النسخ . كما جاءت هذه الرواية في العمدة لابن رشيقي ، وأضاف إليها : « وكان أهل العالية لا يعدلون بالناطقة أحداً كما أن أهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحداً » (٢)

ولا تعتمد أن هذه الرواية كائناً ما كانت أو مقنعة بجمع هؤلاء في طبقة واحدة ، والمحول عليه عند الجمع هو التشابه في الفن الشعري إذ لا يعقل أن يأتي الاتفاق مطرداً بين كل أربعة شعراء .

وقد جاء عن القدماء ما يشبه هذا الرأي كقولهم : « أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب وزهير إذا رغب والناطقة إذا رهب » والأعشى إذا طرب » (٣) والرواية مرفوعة إلى كثير أو نصيب

(١) الجيحي . الطبقات ج ١ ص ٥٢

(٢) ابن رشيقي . العمدة ج ١ ص ٩٨

(٣) الشتيري : أشعار الشعراء الستة ج ١ ص ٢٧٤ ، وابن رشيقي .

ونسب إلى أبي عمرو بن العلاء قوله : أشعر الناس أربعة : امرؤ القيس ،
والنابعة وظرفة ومهلل ، (١)

وجعل البعض المتقدمين ثلاثة وهم : امرؤ القيس والنابعة والأعشى (٢)
وهكذا اختلف الناس اختلافاً بيناً في المتقدمين من الشعراء . وإذا كان
هناك من وافق الجمعي في تقديم هؤلاء الأربعة ، فإن الآخرين قد زادوا
عليهم أو نقصوا منهم ، ويبقى التناقض في فن الشعر بين هذه الطبقة محصوراً
في دائرة ضيقة إذ أن الاتفاق نادر وقليل ، لاختلاف الميول والأهواء .

٢ — أشعر الناس في الجاهلية :

يأتى الحديث عن أشعر الناس في الجاهلية امتداداً لما تقدم حول طبقة
امرؤ القيس ، فإذا كان الجمعي قد جمع بين أربعة شعراء منهم امرؤ القيس
في طبقة واحدة ، فإن ذلك لم يكن محل اتفاق بين القدماء ، كما لم يتعرف
المحدثون على ذلك المنهج الذي يجمع بين الشعراء في قرن واحد . ولذا يبعد
الحديث عن أشعر الناس أيضاً أمراً غير متوافق مع القواعد النقدية التي
تأصلت لدى المتأخرين . فالسابقون وفيهم الجمعي كانوا يرددون عبارات
مثل : « أشعر الناس » و « شاعر النين » و « أشعر الشعراء » وغيرها .

ولقد ذكر ابن سلام عدة أقوال فاسبغاً منها إلى صاحبه . وكان
امرؤ القيس فيها مقدماً على شعراء الجاهلية أو أنه أشعر الناس .

والنص الآتي مرفوع إلى الفرزدق حيث سئل : « من أشعر الناس »

(١) ابن رشيقي . العمدة ج ١ ص ٩٧

(٢) انظر المصدر السابق ج ١ ص ٩٧

يا أبا فراس؟ قال : ذو القروح ، يعنى امرأ القيس ، حين يقول :
ماذا؟ قال : حين يقول :

وقام جدم ببنى أبيهم وبالأشقين ما كان العقاب (١)
وواضح أن تفصيل الفرزدق ليس على إطلاقه ، وإنما قرنه بهذا
الشعر المذكور لامرأ القيس ، إذ كان ميالاً لهذا اللون من الشعر ،
ولاً فقد سئل عن أشعر العرب فقال : يشرين أبى خازم لقوله :

ثوى فى ملحده لا يبد منه
كفى بالموت نأياً واغتراباً (٢)

وذكر الجهمي أن ليبدا سئل عن أشعر الناس ، فقال : الملك
الضليل ، ولما أعيد سؤاله أضاف إليه طرفه ، وجعل نفسه ثالثاً (٣) .

وأورد عدة نقول مخفلة حول أشعر الناس ، فذكر من قدم المرقش
وهو ليس من هذه الطبقة ، ومن احتج للطائفة ، ومن احتج لزهير ، ومن
احتج للأعشى (٤) ، كما ذكر المتقدمين من شعراء الإسلام .

أما رأى الجهمي نفسه فقير واضح في هذه الناحية ، وإن كان ميله :

(١) قال ابن حجر هذا البيت وغيره بعد أن أفلت منه بنو أسد ،
وأعمل القتل في بني كنانة ، وانظر المصدر السابق ١ ص ٩٤ ، ص ٩٥ .

(٢) المصدر السابق ١ ص ٩٥ .

(٣) الجهمي . طبقات خول الشعراء ١ ص ٥٤ .

(٤) أنظر المصدر السابق ١ ص ٥٢ ، ص ٥٦ ، ص ٦٣ ، ص ٦٤ .

ص ٦٦ ، ص ٦٧

إلى تقديم امرئ القيس كأهل البصرة ، وهذا ظاهر من عدة نواح إذ أورد له العديد من الأبيات بصورة تفوق بقية شعراء هذه الطبقة ، كما ذكر الأسباب التي جعلته مقدما على الشعراء ، ليس لأنه قال عالم يقولوا ، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها واستحسنها ، وأتبعته فيها الشعراء . وحدد تلك الملائح أو الخصائص التي يتميز بها شعره بصورة عامة ، وإن كان قد ذكر لها بعض الشواهد فيما بعد .

ونقل ابن رشيق في العمدة نصا عن الجبجي قال فيه : « فارس النخعي في بني زيد عمرو بن معدى كرب ، وشاعرها امرؤ القيس ... » (١) وهكذا ارتضى الجبجي أن يكون امرؤ القيس شاعرا لليمن ، وهي مقولة عامة غير مقروية بما يؤكد لها ، ولكنها تكشف عن ميوله نحو هذا الشاعر ولو جعله شاعرا لليمن .

ولا شك في أن الغالبية قد حكموا بالسبق لامرئ القيس لأنه مور كثيرة ، وجعلوه المقدم في الجاهلية بما يتميز به شعره من خصائص قل أن تجتمع في شاعر مثله ولا يعني « هذا أنه كان المقدم في سائر الفنون والموضوعات إذ برز آخرون من طبقاته ومن غير طبقاته إلى نواح لم يرق إليها امرؤ القيس ، ولكن هذه الأحكام مع عدم التمام بها تختلف من شخص إلى آخر . وقد يبرز الشاعر في جانب ، ويبرز غيره في جانب آخر ، ولكن شاعرية امرئ القيس تفوق شاعرية الآخرين من نواح عديدة .

وقد أورث ابن سلام في سيباق كلامه نصا نراه أقرب إلى الصواب في معظمه حيث قال بعد أن تحدث عن الأعشى : « وشهدت خلقا فقليل له : من أشعر الناس ؟ فقال : « ما سمعتني » وفي واحدة يجتمع عليه ، كالأجمع

على أشجع الناس وأخطب الناس وأجل الناس. قلت : فأبهم أعجب إليك يا أبا محرز؟ قال : الأعشى . قال : أظنه قال : كان أجمعهم ، (١) ولوا كتفي الجمعي بأول هذا الكلام لكان حجة في النقد ، وأساساً في تقديم الشعراء ، ولكنه ذكر مقولة أبي محرز في تفضيله للأعشى لبقى هذه الإشكالية قائمة .

٣ - خصائص شعر امرئ القيس :

ذكر ابن سلام بعضاً من مميزات شعر امرئ القيس وهو يصدد حديثه عن أشعر الناس ، وقرأ أنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها ، واستحسنها العرب واتبعته فيها الشعراء . وهي : « استيقاف صحبه ، والبيكاء في الديار ، ورقة النسب ، وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والمضي ، وقيد الأرايد ، وأجاد في التشبيه ، وفصل بين النسب وبين المني ، (٢) .

ونعتقد أن هذا الكلام يختلف عما قاله ابن سلام فيما يختص بأولية الشعر الجاهلي حيث ذكر أن مهلهلاً أول من قصد القصيدة ، بل يختلف أيضاً عما ذكره امرؤ القيس نفسه من أن له سلفاً في البكاء على الديار وهو ابن خديم ، على أنه من الممكن أن تنصرف العبارة السابقة إلى تقديم امرئ القيس من خلال هذه الأمور مجتمعة ، إذ لم يعرف شاعر سابق عليه أو معاصره أن يبرز في كل هذه النواحي مثلما يبرز فيها ، كما أن الجمعي لم يذكر لامرئ القيس شعراً يؤكد به على كل هذه الخصائص المذكورة ، وإن أورد له بعض الناذج التي يمكن الكشف بها عن بعض الملامح

(١) المجلد ١ ، الطبقات ج ١ ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ، ص ٨٨ .

الأخرى والتي لم يخصه بها ، وأشرك غيره معه فيها ، مثل نعيه نفسه
بالفواحش وإظهار التعمر . وذكر لذلك ثلاثة أبيات وهي قوله (١) .
ومثلك حيلي قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمام محول (٢)

وقوله :

دخات وقد ألفت لنوم ثيابها
لدى الستر إلا لبسه المتفضل (٣)

وقوله :

سموت لإليها بعد ما تام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حال (٤)

وما ذكره الجعفي قليل من كثير ، وبخاصة في اللامية الثانية التي أورد
منها البيت الأخير ، على أن حكم ابن سلام المذكور حول تعمر أمرى .
القيس لا تختلف معه فيه حيث طرده أبوه في مقتبل عمره لمجونه وخلاعته
كما تابع النقاد المتأخرون ابن سلام في رفض المجون والتعمر اللذين تفاخر
بهما امرؤ القيس .

(١) البيتان الأول والثاني من المعلقة (الديوان ص ٨) والبيت الثالث
من اللامية الثانية (الديوان ص ٢٧)
(٢) طرق القوم : جاءهم ليلاً ، ذي تمام : صبي ذي تعاويد ، محول :
أتى عليه الحول

(٣) اللبسة : هيئة اللباس ، المتفضل : اللابس ثوباً واحداً
(٤) ذكر الشيخ عمود شاكر أن الشاعر لم يفحش في هذا البيت بمثل
خشفه في البيتين السابقين فإنه أراد أن يصف خفة وطئه ، وإخفاء حجر كته
حق لا يصر به أحد : (دامش الطبقات ص ٤٢ ج ١)

وقد رفض أكثر النقاد التعبير عن التمر والمجنون ، ولهذا ذكر فؤاد البستاني : « أن ملاهى الأمير الجليل الغنى ، مع ما فطر عليه من رقة الجانب ، ولطف المحادثة ، والبصر بمواقع الكلام ، ومفاعيل المحاورات ، كانت تفوقه إلى طرق أنواع الملهذات المختلفة من حسنة وسيئة ، فأثر ذلك في شعره ، حتى دفعه تتبع الوصف وذكر المفامرات إلى الفحش في القول والتصوير ، واستعمال تعابير شوه بها الوصف الدقيق والغزل الرقيق ، حتى نعى عليه الأدباء تمره وتهتكه » (١) .

ولم يكن شاعرنا لئلا واحداً من هؤلاء الذين عبروا عن مجونهم وخلاعتهم بصورة مكشوفة ومباشرة ، وقد نبأيت مواقف النقاد ، فإذا كان الكثيرون قد عارضوا هذا اللون فإن البعض يعطى الشاعر الحرية في التعبير عما بداخله ، وينصل بين الشعر والواقع فصلاً تاماً ، ولعل مقولة الأصمى (أكذبه أعذبه) إن كانت صحيحة تخدم هذا الاتجاه ، وتمضى إلى الفصل بين الشعر والأخلاق . كما سار الغزل الحسى والغزل العذرى في اتجاهين متساويين . وإذا كان التمر راجعاً إلى الغزل فإن الكثيرين قد رأوا أن تكون المنعة سابقة للتبليغ عند الحديث عن أغراض الأدب ، حتى لو كان التمر راجعاً إلى الدين ، فليس لأحد أن ينسك على الشاعر حقه في التعبير والتصوير . ومن أعطوا الشاعر هذا الحق الناقد على بن عبد العزيز الجرجاني الذى قال : « فلو كانت الديانة عاراً على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أى نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ، ولما كان أولام بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمة عليه بالكفر... ولكن الأمرين متباينان ، والدين بمنزل عن الشعر » (٢) .

(١) فؤاد البستاني - الروائع ج ٧ ص ٤٠٣

(٢) على بن عبد العزيز الجرجاني . الوساطة ص ٦١

(٥ - القيس)

وإذا كان التعبر قد غلب في الشعر الجاهلي فإن التعفف كان سمة لدى بعض الشعراء مثل عنترة العبسي .

ونرى أن الخلاء والتعفف يرجعان إلى طبيعة العصر وأذواق الناس ، ولا زال الخلاف قائماً ، فإن لكل لون محبيه ومؤيديه . وإذا جعل الشاعر الفائدة والمتعة في قرن واحد ، وعبر عن مشاعره وخلاجات نفسه بأسلوب عفيف ومعان مستورة كان ذلك أجدى وأسلم حتى لا تأتي في يوم وتجعل هذا اللون المكشوف بعيداً عن أيدي الكثيرين من الشباب والناشئة .

٤ - أحسن الجاهلية تشبيها :

تميز امرؤ القيس على شعراء عصره بكثرة ما في شعره من تشبيهات متنوعة انتقل فيها بين المحسوس والمأقول ، والمفرد والمتعدد ، ومستعملاً الأداة ، وتاركاً لها ، ومتقلداً في أوجه الشبه بين الصورة والهيئة واللون والحركة .

والهدف من التشبيه عند علماء البيان هو الإيضاح والتقريب بين البعدين حتى يصير بينهما مناسبة واشتراك (١) .

ويلاحظ على شعر امرئ القيس كثرة ما فيه من تشبيهات متراكمة ومتلاحقة حتى عد البعض صور التشبيه في شعره وجعلها مآتي تشبيه (٢) ، ولذلك لا تعجب إذا وجدنا ابن سلام يذكر عدداً كبيراً من الأبيات التي

(١) ابن رشيق الصمد ج ٢ ص ٢٨٩

(٢) الذكثور بصوت عبد الرحمن في كتابه (الصورة في الشعر الجاهلي ص ١٨٣)

استشهد بها على حسن التشبيه عند امرئ القيس على غير عادته في الترجمة للرجال من حيث الاختصار على عدد محدد من الآيات للشاعر المترجم له، فضلاً عما كرره في أكثر من موضع بكتابه عن حسن التشبيه عند امرئ القيس قال: «كان أحسن طبقة تشبها» (١).

وذكر خبراً آخر قريباً من هذا، هو قوله: «كن علاناً يقولون: أحسن الجاهلية تشبها امرؤ القيس ...» (٢).

ولم يقرن ابن سلام هذين الخبرين بشعر يدل به على قوله، على عكس الخبر الآتي الذي اتبعه بعدد من الآيات قال: «واستحسن الناس من تشبيه امرئ القيس ...» (٣).

ثم ذكر سبعة عشر بيتاً وشطراً من بيت بدون ترتيب من اللامية الثانية التي أولها (٤):

ألا عم صباحاً أيها الطفل البالي
وهل يعمن من كان في العصر الخالي
ومن المعلقة التي أولها (٥):

قفنا نيك من ذكرى حبيب وم منزل
بسقط اللوى بين الدخول لغول

(١) ابن سلام . الطبقات ١٠ ص ٥٥٥

(٢) المصدر السابق ٢ ص ٥٤٩

(٣) المصدر السابق ١٠ ص ٨١

(٤) الديوان ص ٣٧ (٥) الديوان ص ٨

ونعرض الآن للآيات التي ذكرها ابن سلام مستشهداً بها على حسن التشبيه عند امرئ القيس . قال (١) :

كأن قلوب الطير رطبا ويابساً
لدى وكرها العناب والحشف البالي
وتقدير البيت كما جاء في شرح الديوان : « كأن قلوب الطير رطبة العناب وكأنها يابسة الحشف البالي » (٢) .

ولقد استرعى هذا التشبيه انتباه الكثيرين من القدماء ، وإن اختلفوا عن ابن سلام في بيانهم لمر هذا الإعجاب ، حيث ذكر ابن طباطبا البيت (وغيره) كدليل على امتزاج بعض المعاني ببعض ، وهي ترجع إلى الصورة والمهيئة . ولذا جعل هذا التشبيه قويا وحسنا وصادقا (٣) .

أما أبو هلاك العسكري فقد عد هذا التشبيه من بدائع التشبيهات ، لأن الشاعر شبه : « شيتين بشيتين مفصلا - الرطب بالعناب - واليابس بالحشف ، فجاء في غاية الجرودة » (٤) .

وعن تناولوا هذا البيت بالحديث ابن رشيق حيث جعل امرأ القيس فاتحا للشعراء في تشبيه شيتين بشيتين قال : « وأصل التشبيه مع دخول

(١) الديوان ص ٣٨

- (٢) الضمير في (وكرها) للعناب ، العناب : تمر أحمر غرض ذو ماء .
الحشف : التمر إذا لم يظهر له نوى . البالي : القديم الفاسد
(٣) ابن طباطبا ، عيار الشعر ص ٢٥ تحقيق الدكتور عبد العزيز المانع
طبعة دار العلوم بالرياض (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م)
(٤) أبو هلال العسكري ، كتاب الفناغتين ص ٢٧٢ تحقيق الدكتور مفيد قبيصة - دار الكتب العلمية . بيروت الطبعة الثانية (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م) .

الكاف وأمثالها ، أو كأن وما شاكلها شيء يشيء في بيت واحد ، إلى
أن صنع امرؤ القيس في صفة عتاب :

كأن قلوب الطير رطبا وياسا
لدى وكرها العتاب والخشف البالي

فشبه شيئين بشيئين في بيت واحد ، واتبعه الشعراء في ذلك ، (١) .

أما ابن سنان فقد مثل بهذا البيت للتشبيه المختار ، وبين غرضه ،
وغرام الشعراء به فقال : « وهذا من التشبيه المقصود به لإيضاح الشيء ،
لأن مشاهدة العتاب والخشف البالي أكثر من مشاهدة قلوب الطير رطبة
وياسة ، وروى عن بشار بن برد أنه قال : « وما زلت منذ سمعت بيت امرئ
القيس هذا أطاب أن يقع لي تشبيهان في بيت واحد ، حتى قات :

كأن مشار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكب

فشبهت النقع بالليل ، والسيوف بالكواكب ، وهذا تشبيه للبالغة
والنسخيم ، (٢) .

وهكذا أخذ القدماء البيت الذي ذكره ابن سلام ، وتحدثوا عنه ، أو
فسحوا على منواله ، وكان مثار إعجابهم قدرة الشاعر على تعدد التشبيه في
بيت واحد مع أن له بعض الأبيات التي تجاوز التشبيه فيها هذا العدد .

ويلاحظ أن مفردات هذين التشبيهين مستوحاة من البيئة ، فالبيت

(١) ابن رشيق . العمدة ١٥ ص ٢٩٠

(٢) ابن سنان الحفاجي . سر الفصاحة ص ٢٤٨ الطبعة الأولى بدار

الكتب العلمية بيروت (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م)

يعرض للصيد الذى تفترسه العقاب، وتحمله إلى وكرها، ثم تأكل الطرى من قلوب الطير الذى يشبه العناب، وتترك الجاف منها الذى يشبه الخشب البالى وكأها مركبات حسية ساذجة. وكانت العقبان ماثرا عناية من امرى. القيس فكثيرا ما شبه خيله بها، ولذا رأيناه يتابع حركتها وهي تحمل الصيد إلى وكرها. وبعد التشبيه عند الجاهلين أبسط التصاور التى يخلص فيها إلى المعنى بالمقابلة البسيطة من خلال الظواهر الحسية القريبة، ولم يصل عندم إلى الحالة المعقدة التى يهدف فيها إلى تقريب الجوهر البعيد. وقال (١):

كأنى بفتحاء الجناحين لقسوة

دفوف من العقبان، طأطأت شلال (٢)

وقد شبه فرسه عند تحريكه لما بعقبان سريعة فى دفوها من الأرض وخطفها الصيد، وتحليقها فى الفضاء. وقال (٣):

بمحيرة قد أترز الجسرى لجها

كسب، كأنها هراوة منوال (٤)

فشبه الفرس بالهراوة التى تتخذ من أصول العود.

(١) الديوان ص ٣٨ (فى رواية أبى حاتم عن الأصمى: صيود من

العقبان)

(٢) الفتحاء: العقاب وقد وصفت بذلك اللين جناحها، اللقوة: السريعة

دفوف: حسنة الدفوف من الأرض. طأطأت: دانيت وخفضت وهى جملة معترضة، شلال. سريعة

(٣) الديوان ص ٣٧

(٤) المحيرة: الفرس للصبغة الشديدة الأسر، أترز: أبيض، الكيت:

صفة الفرس، لونها بين الأحمر والأسود، وهو أشد الخيل. المنوال: آله الخاطك

وقال (١):

وصم حوام ما يقين من الوجي
كأن مسكان الردف منها على وال (٢)

شبه مؤخرة الفرس (موضع الردف) لإشرافها ، بمؤخر ولد النعامة
وهذا ، الوصف مستحب في الخيل ، وقال (٣):

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب للقفال (٤)
قال الشاعر : إنه نظر إلى المرأة المشبهة بالنار التي تشب للقفال ،
والنجوم كأنها مصابيح الرهبان في الصحراء ، وجعل ابن طباطبا هذا
التشبيه صادقا لقوله (كأنها) وقال (٥):

كأن الصوار إذ تجاهدن غدوة
على حمزى خيل تجوز بأجلال (٦)

(١) الديوان ص ٣٦

(٢) في رواية الأصمعي : وصم صلاب ، صم : جمع أصم ، حوافر
صم : صلبة مصمتة ، الحوامى : ميامن حوافره وميامرها . الوجي : ما
يصيب باطن الحافر من الحفا ، الرال مخفف الرأل : ولد النعامة

(٣) الديوان ص ٣١

(٤) القفال : جمع قافل وهو الراجع من سفر

(٥) الديوان ص ٣٧

(٦) الصوار : قطع بقر الوحش ، وفي رواية أبي حاتم عن الأصمعي
(لأنه تجهد عدوه) ، حمزى : عدو شديد أو اسم موضع ، أجلال : جمع
جل ، وهو ما يوضع على ظهر الفرس ليصان به

شبه مرب البقر أثناء عدوه بالخليل المسرعة وعليها أجلاها البيض .
وقال (١) :

أبقتى والمشرقى مضاجعى
ومسنونة رزق كأنياب أغوال (٢)

شبه نصال السهام أو النبل بأنياب الأغوال ، تشفيها لها ومبالغة في
وصفها ، (٣) .

ولقد دارت معظم الصور التشبيهية في الأبيات السابقة حول المحسوسات
التي تقع عليها عين الشاعر في حياته بما فيها من خيول وأسراب للبقر وآلات
للحرب والقتل وغيرها .

واختار ابن سلام من المعلقة التشبيهات الآتية التي عبر بها الشاعر عن
عالم المحسوسات الذي يحيط به في الصحراء . قال (٤) :

مكر مفر مقبل مدبر معا
كجلود صخر حظه السيل من عل (٥)

(١) الديوان ص ٣٣

(٢) المشرقى : السيف المنسوب إلى قرى الشام أو اليمن التي تشرق
على حد الريف . السنونة الزرق : نصال السهام التي ترى زرقاء
لحدها

(٣) شرح الديوان ص ٣٣

(٤) الديوان ص ١٩

(٥) جمع في هذا البيت بين الطباق والتشبيه . راجع كتابات
القدماء عنه (ابن طباطبا ص ٣٦ ، وابن رشيق في العمدة ص ٢٥ ص ٩٣)
وغیرها

وذكر له الآيات الآتية في وصف الفرس :

قال (١) :

له أبطلا ظبي وساقا نعاما

وإرخاء سرحان وتقريب تنفل (٢)

وقد شبه الفرس بأربع تشبيهات بدون أداة وهو كما قال ابن رشيق أول من فتح هذا الباب .

وقال (٣) :

ددير كخزروف الوليد أمره

تقلب ككفيه بخيط موصل (٤)

وقد شبه الفرس بالخزروف في سرعته وخفته وصوت مروره في الهواء .

وقال (٥) :

كيت يزل البد عن حال منته

كما زلت الصفواء بالمتزل (٦)

(١) الديوان ص ٢١

(٢) الأبطال : الخاصرة ، الإرخاء : نوع من السير ليس بالشديد السرحان : الذئب ، التقريب : أن يرفع الفرس يديه معاً ويضمهما معاً ، ويرجم الأرض رجماً . التنفل : الثعلب .

(٣) الديوان ص ٢١

(٤) ددير : سريع العدو ، الخزروف : الحرارة التي يلعب بها الصبيان وتسمع لها صوتاً .

(٥) الديوان ص ٢٠

(٦) يزل : يزلق ، الصفواء : الصخرة الملساء .

وشية بذلك ظهر الخيل حالة انزلاق اللبد عليها بالصخرة الملساء .

وقال (١) :

كأن دماء الهاديات بنجره عصارة حناء بشيب مرجل (٢)
شبه حرمة دم الوحش على نحر الفرس بمصارة الحناء على الشيب ،

وقال (٣) :

وليل كوج البحر أرخمى سدوله
على بأنواع المسموم ليبتل (٤)
شبه الليل في تموجه بأنواع المسموم ، بموج البحر في تراكمه
وشدة ظلمته .

وقال (٥) :

فيا لك من ليل كأن نجومه
بأمراس كتان إلى صم جندل (٦)
شبه نجوم الليل بأنها مشدودة بجبال من الكتان إلى صخور
صلاب .

(١) الديوان ص ٢٣

(٢) الهاديات . أوائل الوحش ، المرجل : المرح .

(٣) الديوان ص ١٨

(٤) السدول : الستور .

(٥) الديوان ص ١٩ مع اختلاف الرواية .

(٦) أمراس كتان : جبال من كتان : الصم : جمع الأصم وهو الصاب .

الجندل : الصخرة .

وقال (١) :

تراثها مصقولة كالسججل (٢)

والسججل هي المرأة بالرومية، أى أنه شبه صدر المرأة البراق اللون
المتلألئ. الصفاء بتلألؤ المرأة .

وقال (٣) :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت

تعرض أثناء الوشاح المفصل (٤)

وأضاف ابن سلام بعد أن ذكر البيت فقال: «فأنكر قوم قوله :
«إذا ما الثريا في السماء تعرضت»، وقالوا : الثريا لا تعرض . وقال بعض
العلماء عنى الجوزاء . وقد تفعل العرب بعض ذلك» (٥) ، وللقدماء كلام
كثير حول هذا التشبيه الذى قصد به أن يشبه تعرض الثريا بتعرض
الوشاح ، من غير أن يستعمل أداة التشبيه .

(١) الديوان ص ١٥ ، الشطر الأول : مبهمة يضاء غير مفاضة .

(٢) الترائب : جمع تريبة وهي موضع القلادة من الصدر .

(٣) الديوان ص ١٤

(٤) تعرضت : أرتك عرضها ، الأثناء : النواحي ، الوشاح :

قلائد يضم بعضها إلى بعض ، المفصل : المرصع الذى جعل فيه بين كل
خريزتين لؤلؤة .

(٥) ابن سلام . الطبقات ج ١ ص ٨٩

وقال (١) :

يظل العذاري يرتمين بلحمها
وشحم كهذاب الدمقس المقتل (٢)
شبه شحم الناقة بما تدلى من أطراف الثوب الأبيض المأخوذ من
الدمقس .

وقد ذكر ابن سلام الآيات السابقة مستدلا بها على حسن التشبيه
عند امرئ القيس مكتفيا بذوقه القطري في هذه الاختيارات من غير أن
يكشف عن نقد تفسيري أو موضوعي لهذا الإعجاب ، وكان ذلك منهاج
القدماء في نقدهم ، وإن اعتنق القليل منهم بعض القواعد البسيطة من أطر
النقد الموضوعي .

ولذا أعدنا النظر في التشبيهات السابقة وجدناها تكشف عن
الظواهر الحسية التي تقع عليها عين الشاعر ، حيث كان التشبيه وسيلة
ميسرة للتعبير ، وكذلك لم يأت وجه الشبه صورة منتزعة من عدة أمور
بأسلوب التشبيه الذي عرف فيها بعد باسم التمثيل . وإنما جاءت الصورة
حسية . ولم يتجاوز وجه الشبه حالة الأفراد أو التعدد ، ولم يعمق إلى
حالات التركيب المعقدة . أي أن الشاعر تناول التشبيه في أبسط صورة
ومستعينا في ذلك بمظاهر الطبيعة التي تعامل معها من كل وجوها ، حيث
لفت نظره ما فيها من ليل ونجوم وجبال وبحار وسيول وحيوان إلى غير
ذلك من مركاتها الصامتة والمتحركة ، كما استحوذ الفرس على غالبية

(١) الديوان ص ١١

(٢) هذاب الدمقس : ما تدلى من الثوب المصنوع من الحرير
الأبيض .

الصور التشبيهية إذ أن شاعرنا واحد من أبرز شعراء الخليل ، فقد خبرها وعرف كل صغيرة وكبيرة فيها . كما أن للمرأة نصيب من هذه التشبيهات التي تميزت بالحسية التامة ، وامتعت من حجب المعنويات المتخيلة .

لقد اختار الجمعي من القصيدتين آياتاً مفردة غير متلاحقة أو مترتبة ، ولو جعل اختياره منظماً أو خاضعاً لنوعية واحدة من نوعيات التشبيه لأمكن التعرف من خلال ما ذكره على أسلوب امرئ القيس في التشبيه والبيان .

٥ — من شعر الوصف :

اختار ابن سلام من شعر الوصف عند امرئ القيس ثلاثة نماذج ، جاء الأول منها في وصف الفرس تأكيداً على مقولته السابقة عند بيان أفضلية امرئ القيس .

« ... وشبه الخيل بالعقبان والعصى وقيد الأوابد ... » وجعل النموذج الثاني في وصف معزى ، وسوف نذكر أو نستخلص بعض ما يمكن أن يكون دافعاً لهذا الاختيار ، أما النموذج الثالث فقد سبق بينين في وصف المطر لعبيد بن الأبرص أو لأوس بن حجر . كما روى عن يونس بن حبيب سبعة آيات لعبيد بن الحبحان في الغرض نفسه ، ثم ذكر الجمعي ثمانية آيات أخرى لامرئ القيس في وصف المطر : لتكون آخر ما انتقاء من شعر الوصف .

وبذلك عرض ابن سلام لثلاثة نصوص من شعر امرئ القيس ، وهي في الفرس ، وفي وصف المعزى وفي وصف المطر . وذكر النموذج الأخير مشفوعاً بنصين آخرين ليقف الناس على بعض المقدمات في نقد

الشعر من خلال الموازنة التي اقتصر فيها على النصوص الشعرية من غير استعراض لأوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف ، كما تأصلت قواعدها فيها بعد .

(أ) وصف الفرس :

- نعود إلى ما ذكره امرؤ القيس في وصف الفرس ، قال (١) :
- بذى مية كأن أدنى سقاطه
وتقريبه هو ما ، ذآ ليل ثعلب (٢)
- عظيم ، طويل ، مطمئن ، كأه
بأسفل ذى ماوان ، سرحة مرقب (٣)
- له أطلا ظبي ، وساقا نعامة
وصوه غير قائم فوق مرقب (٤)

-
- (١) الجمل : طبقات لحول الشعراء ١ ص ٩٠ ، ص ٩١
- (٢) المية : النشاط ، وقوله بذى مية متعلق بقوله في البيت السابق :
وقد اغتدى قبل العطاس يساج .
- السقاط : العدو المسترخى ، والتقريب : ضرب من العدو ،
ذآ ليل : جمع ذآ لأن وهو عدو فيه نشاط وسرعة .
- (٣) مطمئن : ساكن ، ماوان : موضع ، والرحمة : شجرة
طويلة يستظل بها ، المرقب : الأرض المشرفة على ما بعدها .
- (٤) الغير : جان الوحش .

- له جوجو حشر ، كأن لجامه
يمال به في رأس جذع مشذب (١)
وعينان ، كالمأويتين ، ومحجر
إلى سند مثل الرناج المضرب (٢)
إذا ما جرى شأوين وأبتل عطفه
تقول هزير الريح مرت بأثاب (٣)
كأن دماء المساديات بنحره
عصارة حناء يشيب مخضب (٤)
واختار الأبيات بدون ترتيب من بامية امرئ القيس :
خيلى مرا في على أم جندب
نقض لبانات القواد المذنب (٥)
التي طارض بها عاقمة بن عبدة (الفحل) ، وقد اضطرب

-
- (١) الجوجو : الصدر .
(٢) المأويتان : المراتان ، المحجر : العظم الذي حول العين .
سند : مرتفع ، الرناج : الباب ، المضرب : المعلق بالحديد ويروى
« مثل الصفيح المنصب » .
(الديوان ص ٣٨٥) .
(٣) الشأو : الشوط ، العطف : الجانب ، هزير الريح : صوتها ،
أثاب : شجر واسع الظلال ينبت في بطون الأودية
(٤) مخضب : أى يخضب .
(٥) الديوان ص ٤١

الرواة في القصيدتين وتداخلت الآيات فيهما ، ولذا كثر اقتضاد الناس لها .

وجاء ما ذكره ابن سلام من هذه القصيدة مكملا لصفة القرس التي بدأها في اختياراته السابقة عند ذكر التشبيه .

وللقرس عند امرئ القيس صورة عامة تناول فيها العديد من الصفات مثل السرعة والكرم والعنق والقوة والنشاط وغيرها . وقد استكمل الشاعر الصورة المفصلة لهذا الحيوان في كثير من القصائد (١) .

وقد عمد امرؤ القيس في البائية المذكورة إلى تقديم صورة للقرس اعتبرها الكثيرون الصورة المثلى للجواد العربي ، لذا احتذاها الشعراء من بعده وتأثروا بها في أشعارهم . ونعود إلى الآيات المختارة فغرى فيها تجسيدا لأعضاء الحصان وحركاته . إنه جواد سريع ، عظيم ، قوى ، متناسق الجسد ، يشبه الظبي في خاصرتيه ، والنعام في ساقها ، والعير في ظهره ، وله صدر ضيق ، وعنق طويل ، وعينان لامعتان صافيتان ، وعظم محكم ، وفي جريه وابلال جانبيه تسمع له صوتا كخفيف الريح بالأشجار وإذا خرج من صيده رأيت دماء الصيد تخضب نحره . وهذه الأوصاف جزء من الصورة العامة لقرس امرئ القيس .

وقد استعمل الشاعر التشبيه في سائر الآيات السابقة ، كأداة يائية لتقريب صورة الحصان الذي وصفه في النص المذكور من خلال رحلة صيد . وجاء التشبيه بصورة من الطبيعة الصامتة أو المتحركة تعبيرا عن شغفه بمظاهرها المتنوعة حيث شبه الحصان في جريه المسترخي بجري

(١) مثل القصائد ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٨، ٩، ١٦، ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣٣ وغيرها من القصائد والمقطوعات الأخرى التي جاءت بالديوان .

التعذب المائي. بالنشاط والسرعة ثم شبهه بالشجرة الكبيرة ، وبالظبي في خصره ، وبالنعامة في ساقها ، وبالغير في صهوته ، وبالجدع المشذب في طوله واستوائه ، وبالمرأتين في اللعان والصفاء . كما شبه صوت جريه بصوت الريح في احتكاكها بالأشجار ، وجعل دماء الصيد في نحره كأنها شيب تنضب ، وبذلك يتضح لنا أن الأبيات التي ذكرها الجهمي لا تقدم إلا جزءاً من صورة الفرس عند امرئ القيس ، ولا تكتمل الصورة إلا بذكر ما جاء عن الفرس في البسائية وفي بعض القصائد الأخرى كما سبق القول.

والشعر — كما قال ابن رشيق — راجع إلى باب الوصف ، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه قال : «وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثل عياناً للسامع ... وقال قدامة : الوصف إنما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات» (١).

ويعد شعر الوصف من أوسع الأبواب في الشعر الجاهلي ؛ لاتساع مناظر الحياة المحسوسة والمتخيلة ، فضلاً عما حظيت به الطبيعة من نصيب كبير من شعر الوصف سواء أكانت صامتة مثل الليل والمطر والطلل والبرق والرعد والبئر ، أم كانت متحركة مثل الفرس والناقة والثور والوحش والأسد والغير وكلاب الصيد وذكر النعام وغيرها من المحسوسات .

ويمثل الفرس في حياة الجاهل أهمية كبيرة للاستعانة به في الحروب وفي رحلات الصيد ، وفي الركوب والزينة ، وقد عبر امرؤ القيس عن هذه الحالات في شعره ، وصاغ منها صورة مثالية للجواد العربي في القديم .

(١) ابن رشيق . المعطية ٢٠ ص ١٩٤

ففي حياته الأولى قبل أن يكون مطالباً بالنار لآبيه انصرف إلى صيده ولجؤ، ولذاته ، فقدم صورة القرس تناول فيها وصفه أثناء رحلات الصيد ، وعبر عن ذلك في المعلقة ، وفي غيرها من القصائد ، وقد ذكر ابن سلام بعضاً من الأبيات مثل النموذج الأخير والأبيات التي مثل بها للتشبيه ، والتي تحدث امرؤ القيس فيها عن القرس .

وملاحظ أن الشاعر عندما يتحدث عن رحلته للصيد يذكر القرس ، ويشبهه بالعقاب والخدروف والجلود والصخرة المساء وغيرها من كائنات الطبيعة ومركباتها . وكان يربط — بقصد أم بدون قصد — بين القرس والماء أو السيل ، وكأنهما سبب واحد من أسباب الحياة ، كما اختار الصفات الملائمة لخصاته في الحالة التي ينشدها ، ويعبر عنها ، بجواد الصيد يختلف في بعض الصفات عن جواد الحرب ، وهذان يختلفان عن جواد الركوب والزينة ، وفي حياته الثانية التي نهض فيها للبطالة بالنار لآبيه انخرط في وصف القرس المجهز للحرب ، وهو لما تحدث عن غاراته السابقة في مقام الفخر والتحدى ، ولما تحدث عن غاراته على بني أسد ، وهو مظهر الشكوى والتحسر ، وربما تحدث عما تصير إليه الخيل بعد الحرب لكننا لم نطالع له وصفا مفصلاً للقرس أثناء الحرب حتى نبين دورها في القتال وتحقيق النصر .

وقد أرجع البعض ذلك إلى سببين أولهما : نفسية الشاعر المتعبئة باليأس التي تنسكت لها الظروف وتغيرت بها الأحوال وتوالت عليها الخطوب، (١) وثانيهما : أنه لم ينتصر على بني أسد انتصاراً حقيقياً ولم ينل ثأره منهم ، ولم يسترد شيئاً من ملك آبائه ، بل أصبح نهباً للطامعين من

(١) د. كامل سلامة . وصف الخيل في الشعر الجاهلي ص ٢٩١ دار
الكتاب الثقافية بالكويت (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) .

القبائل العربية (١) ، ومن شعره في وصف الخيل المجهزة للحرب
قوله (٢) :

وإن أمس مكروبا فيارب غارة شهدت على أقب رغو اللبان
على ريد يزداد عفوا إذا جرى منح حيث الركض والذالان
ويخذي على صم صلاب ملاطس شديداً عقد لينات متان
وقوله (٣) :

وأركب في الروع خيفانة كما وجهها سعف منتشر
لها حافر مثل قعب الوليد يد ركب فيه وظيف عجر
لها ثن كحواقي العتبا به سود يفتن إذا تزبر
وقد تناول الشاعر في القصيدة التي منها هذه الأبيات وصف الفرس
المجهزة للحرب وصفا تفصيلا ظاهريا مكتملا حيث أبرز معظم أجزائه
جسمها ، ووصف لإقبالها وإدبارها ، وإعراضها وسرعتها ، ووثباتها
وعندوها وصفا مرتبا تشعر معه بمعرفة الشاعر بكل صغيرة وكبيرة تتعلق
بالخيل .

وقال (٤) :

وأعددت للحرب وثابة جواد المحشة والمرود
سبحا جرحا وإحضارها كمنعة السعف الموقد

(١) المرجع السابق ص ٢٩١

(٢) الديوان ص ٨٦ من القصيدة الثامنة .

(٣) الديوان ص ١٦٣

(٤) الديوان ص ١٨٧

وهكذا ألح الشاعر في كل ما ذكر على أهم صفة في الخيل وهي السرعة حتى رأيناها مكررة ومؤكدّة في أكثر ما قاله عن الفرس على اختلاف مهامه وتبعاته، كما نجد في شعره عن الخيل قسماً تناول فيه الحديث عن الفرس كأداة من أدوات الركوب ، ومظهر من مظاهر الزينة (١) فلا غرابة إذا أحسبنا — كسائر العرب — لطول الصحبة وكثرة الملازمة ، وللاستعانة بها في الأغراض المختلفة التي يحتاجها البدوي والحضري .

وقال (٢) :

كأنى لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ، ولم أقل خيل كرى ككرة بعد إجحاف

وقد جمع الشاعر بين حبه لركوب الخيل ، وحبه للبراءة ، حتى انتقده البعض في ذلك إلا أنه أراد الربط بين لذتين وجعلهما في قران واحد ، وهذا ما خلق على التقاد والتبس عليهما .

وقال (٣) :

فظلت وظل الجون عندي بأبده
كأنى أعدي عن جناح مبيض

ولننظر كيف أبان الشاعر عن تمتعه وحبه للخيل من خلال اتسكائه عليه كما يتسكى ذو الجناح الكسير على جناحه (٤) ، وذكر ابن

(١) سجل القرآن الكريم ذلك في حديثه عن الانعام إذ قال :
« والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ... » (النحل من الآية الثامنة).

(٢) الديوان ص ٣٥ (٣) الديوان ص ٧٤

(٤) شرح الديوان ص ٧٤

الكلي أن الجون في العين فرس لمرىء القيس، (١) كما ترددت كلمة الجون في مواضع متعددة من الديوان .

وصف امرؤ القيس جواده في سائر أحواله، ولم يكن ما قاله في حدود الآيات التي ذكرها ابن سلام ، فله العديد من القصائد والمقطوعات التي صور فيها الفرس تصويراً تاماً مستعيناً بالتشبيه على إبراز هذه الصورة الحسية ، والتي ارتبطت بمظاهر الطبيعة ، إذ لم يتجاوز الجاهلي الرؤية الحدقية إلى الرؤية الباطنية إلا في مواضع قليلة لا تغير من حقيقة الرابطة بين الشاعر والصحراء بما فيها من مظاهر مختلفة ترجع إلى طبيعتها الصامتة أو تعود إلى السكائن التي تحول فيها ، وتنتقل بين جوانبها المختلفة .

(ب) وصف معزى :

ذكر ابن سلام نموذجاً لمرىء القيس في وصف معزى قال فيه (٢):
تروح كأنها مما أصابت معلقة بأحقيها الدلى (٣)
إذا ما قام حالها أرنت كأن الحى صبحهم نعى (٤)
وقد وصف امرؤ القيس في هذين البيتين المعزى التي قدمت له عندما كان

(١) ابن الكلي . أنساب الخيل ص ٣ تحقيق أحمد زكى طبع الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٧٧ م .

(٢) النجوى ، الطبقات ج ١ ص ٩١ وقد اختلف الرواة في رواية هذه المقطوعة بما فيها البيتان المذكوران .

(٣) تروح : ترجع بعد الرعى عشياً ، الأحقى : الكشح والحصر والجانب . الدلى : جاع دلو .

(٤) أرنت : صاحت حزناً . النعى : خبر الموت .

في طبيه ، وقد سلبت دوايه ورواحله ، فقدموا له هذه المعزى التي
سخر منها . ولا نعتقد أن الأصمى كان على حق في إنكاره نسبة هذه
الآيات لإمرى القيس بحجة أنه ملك ولا يليق به أن يقول هذا بعد أن
قال (١) :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة
كفاني ولم أطلب قليل من المال

وسبق ذكر هذا الرأي والتعقيب عليه في موضع متقدم بهذا
الكتاب .

لم يذكر ابن سلام سبباً لاختياره هذين البيتين من شعر الوصف
عند امرى القيس مع أن له عشرات الآيات في وصف الحيوانات
الأخرى التي تشكل أهمية كبرى لأهل الصحراء والبادى ، وربما كان
السبب راجعاً إلى رغبة ابن سلام في التأكيد على شمولية الوصف عند
شاعرنا إذ لم يترك حيواناً بين جوانب الصحراء التي عاش فيها ، وتنقل
بين ربوعها إلا وصفه ، وتحدث عنه سواه أكان عظيم الأهمية مثل
الفرس أو قليل القيمة مثل المعزى . ونؤكد أن الشاعر قد ساق هذا
الوصف في مرحلة حرجية من حياته إذ كان مطارداً من قبل أعدائه ،
ومتنقلاً بين أحياء العرب . وقد أعرب عن سخريته من المعزى التي تذهب
إلى المرعى ، وترجع وكأن الدلاء قد علقت بحنيتها ، فإذا تقدم إليها
الحالب سمع لها صوتاً كأنه صوت الحى إذا جاءهم خبر بموت عزيز
عليهم ، ولا تتجاوز هذه المقطوعة الشعرية أربعة أبيات (٢) . وهو قد
يكشف عن الضيق والألم ، وفقد الرغبة في الكلام .

(١) الديوان ص ٣٩

(٢) في بعض الروايات مثل رواية أبي حاتم .

ونلاحظ أن الشاعر حرص على الجانب التصويري في هذا الوصف حيث اتخذ من التشبيه أداة لإبراز المعزى في كثرة أكلها وقلة حليبها ، وهي صورة تتوافق مع الحالة النفسية التي عاشها في تلك الفترة ، على أن الدافع الحقيقي لهذا الاختيار من قبل الجمعي غير واضح إلا أن يكون ذلك واجعا إلى التنويع في اختياراته ، وحرصه على التثيل بمعظم ما ذكره امرؤ القيس حتى لو كان قوله مخصصا في وصف حيوان بسيط مثل المعزى .

(ج) وصف المطر .

يمثل الماء أهمية كبيرة للإنسان في البادية ، ولذا كان الجاهلي يتحدث عنه في شعره ، ويصوره مطراً وغيثاً وأبلاً وسيلاً ، أو يتحدث عنه في بئر أو في تأثيره على الطبيعة . كما تناول مقدماته كالرعد والبرق ونحوها بالوصف والتصوير ، ولا عجب إذا تعددت أوصافهم للماء الذي يرتبط في سبيله وطوفانه بالمطر .

لقد ذكر ابن سلام في وصف المطر بيتين لامرئ القيس ، تأكيداً على لمحاته وتفوقه على بعض الشعراء الآخرين . ولو أبان الجمعي عن سر اختياره لهذين البيتين ، فضلاً عن تأكيد جودتهما — كما قال ذو الرمة — لآضاف أبعاداً جديدة للتقدم الموضوعي في مراحل الأولى ، ولكنه اقتنع بما قاله ذو الرمة ، فنقل البيتين ، ثم أضاف بحقق الكتاب الآيات الستة الأخرى (في متن الكتاب) تعبيراً عن إعجابه بهذا الشعر (١) .

(١) كان من الأولى أن يجعل لإضافته في هامش الكتاب لا في متنه وقد ظننت أن الاختيار بأكله من صنيع ابن سلام ، حتى تنبّهت إلى الأقواس الموضوعة .

قال امرؤ القيس (١) :

دبمه هطلاء فيها وطف طبق الأرض تحرى وتدر (٢)
تخرج الود إذا ما أشجذت وتواريه إذا ما تشكر (٣)
وهذان البيتان هما اللذان اختارهما ابن سلام كما قال ذو الرمة ، أما
الآيات التالية فهي التي أضافها محقق الكتاب :
وترى الصب خفيفا مادرا ثانيا برثه ما ينعفر (٤)
وترى الشجراء فى ريقها كرموس قطعت فيها الخمر (٥)
ساعة ، ثم انتحاها وأبل
ساقط الأكاف واه منهبر (٦)

-
- (١) ابن سلام . الطبقات ج ١ ص ٩٤ و الديوان ص ١٤٤
(٢) الدبمة : المطر الدائم فى سكون ، الوطف : دثر الصحابة من
الأرض . طبق الأرض : وجبها .
(٣) الود : الوند أو أسم جبل ، أشجذت : أسكنت وأقلعت ،
تشكر : تهل بالمطر .
(٤) ما ينعفر : لا يصيبه التراب .
(٥) الشجراء : الشجر الكثير ، أو الأرض المثلثة به ، وبق الدبمة :
أولى ذواتها الخمر : جمع نحر وهو غطاء رأس المرأة ، والعمامة بالنسبة
للرجل .
(٦) ساعة : متعلق بالبيت الأول : انتحاها : اعتمدها وقصدها
والضمير راجع إلى الدبمة : الوابل : المطر الشديد .

راح تمر به الصبا ، ثم اتجى فيه شقوب جنوب منفجر (١)
ثم حتى ضاق عن آذيه عرض خيم بجفاف فيسر (٢)
قد غدا يحملنى فى أنفسه لاحق الإطلين محبول بمر (٣)

لقد وصف الشاعر المطر فى أول نزوله عند ما يغشى وجه الأرض ،
ثم عندما يسكن فيبدو الود ، أو يشتد فلا يكاد يرى منه شيء حتى يسبح
الضب ولا تتعفر برائته ، ولا يبدو من الأشجار إلا رموسها ، وكأنها عمام
بيض ، ويزداد المطر وينهمر بغزارة . وينتقل الشاعر إلى تأثير الرياح به
فيذكر صنيح الصبا التي تمرى السحاب ، وتلاقى الجنوب ، فتشقه وتدفعه
فيوالى سقوطه وهطوله ، وعند ذلك ينهمر الوديان فتضيق به ، ثم يندفع
السيل ، خاف الفرس الضامر الكسحين ، الذوى ، مؤكداً على سرعة
فرسه ، وهى الصفة التي يحرص عليها ويكررها دائماً ، وهكذا اقترن وصف
المطر بوصف السيل ، واقترن هذا الأخير بوصف الفرس ، وهذه الأشياء
ذات علاقة حميمة فى حياة الجاهلى لا تباطها بمكانه وزمانه .

ولذا كانت الآيات المذكورة فى وصف المطر — كما تقدم — لكننا
نراها مقدمة لوصف الفرس ، فقد تحدث عن الديمة ، وصور اندفاعها فى
الأودية بسرعة كبيرة ، حتى تجمعت كسيل جارف لم يلقى - على قوته -
بفرس الشاعر .

(١) راح : عاد السحاب بالمطر آخر النهار ، تمر به تحركه ، الصبا :
ريح تهب من الشمال وهى أحد الرياح ، الشقوب : الدفعة من المطر ،
الجنوب : ريح تدفع المطر بغزارة .
(٢) ثج المطر : صب صباً كثيراً حتى ضاقت به ، خيم ، رجفاف
ويسر : أسماء أودية .
(٣) فى أنفسه (المطر) ويقصد السيل ، لاحق الإطلين : ضامر الكسحين
محبول : مدحج الخلق ، مر : محكوم القتل .

٦ - الاحتذاء :

ذكر ابن سلام بيتاً لامرئ القيس من معلقته وهو قوله :
وقوفا بها صبي على مطيهم يقولون : لاتبك أُمى وتحمل
ثم أتبعه بيتاً لطرفة بن العبد من معلقته أيضاً وهو قوله :
وقوفا بها صبي على مطيهم يقولون : لاتبك أُمى وتحمل

ولم يذكر ابن سلام تعليماً حول البيتين المتفقين في كل شيء باستثناء
الكلمة الأخيرة في كل منهما يؤكد به أخذ شاعر من آخر ، وإن كان تقديمه
لبيت امرئ القيس في الذكر وسبق شاعرنا لطرفة في الزمن يؤكد
أخذ المتأخر من المتقدم . على أن هذا الاستشهاد الذي لم يصحب
بتعليق كان فاتحاً لمن جاء بعد ابن سلام في طرح قضية الأخذ والسرقة بين
الشعراء طرحاً جديداً موسعاً .

الفصل الثاني

الشعر والشعراء لابن قتيبة (١)

الشعر والشعراء لابن قتيبة واحد من أمهات كتب الأدب والنقد والتراجم التي لا يستغنى عنها أديب أو باحث فيما يتعلق بالمراحل الأولى من حياة التأليف الأدبي، حيث خطابه صاحبه بعض الخطوط في طريق النقد، وإن اختلف عن سلفه (ابن سلام) ومعاصره (الجاحظ) في التأليف والكتابة.

بدأ ابن قتيبة كتابه بمقدمة ضافية شرح فيها منهجه في التعريف بالشعراء، ثم بسط القول في بعض القضايا النقدية التي سنعرض لها بالبيان والإيضاح والتعليق، كما ترجم في متن الكتاب للشعراء من الشعراء، قال: «هذا كتاب ألفت في الشعراء أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم، وأحوالهم في أشعارهم، وقبائلهم، وأسماء آبائهم، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم. وعما يستحسن من أخبار الرجال ويستجاد من شعره، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم، وما سبق

(١) ابن قتيبة هو: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المولود في عام ٢١٣ هـ بغداد أو بالكوفة، والمتوفى عام ٢٧٦ هـ ينسداد على أرجح الأقوال. كان ابن قتيبة عالماً موسوعياً في الأدب واللغة والتجويد وعلوم القرآن والحديث وغيرها من المعارف، كشافاً القدماء من أمثال الجاحظ، فله زهاء ثلاثمائة مصنف، طبع منها قرابة خمسة عشر كتاباً، منها: الشعر والشعراء وأدب الكتاب، وعيون الأخبار، والمعارف، وهي متداولة بين أيدي الناس.

إليه المتقدمون فأخذوه عنهم المتأخرون . وأخبرت (فيه) عن أقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها ... (١) .

وقد ترجم لستة ومائتين من الشعراء بين جاهلي ومخضرم وإسلامي وعباسي (٢) مع الاستشهاد بالمأثور من أقوالهم وأشعارهم . وكان اختياره للمترجم لهم مبنياً على مبدأ الشهرة ، وهم الشعراء الذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في القريب وفي النحو ، وفي كتاب الله عز وجل ، وحديث رسول الله ﷺ ، (٢) .

كما اختار من ترجم لهم من بين المشهورين ، لاستحالة أن يجمع كل الشعراء القدماء والمحدثين (على عصره) في هذا الكتاب ؛ لأنهم ليسوا بمنزلة رواية الحديث والأخبار والملوك والأشراف ، الذين يبالغهم الإحصاء ويجمعهم العدد ، (٣) .

ثم أكد على كثرة الشعراء في الجاهلية والإسلام فهم أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفذ عمره في التنقيب عنهم ، واستفرغ مجوده في البحث والسؤال ... (٤) .

وقد بسط ابن قتيبة هذا القول وأكدته ، ودلل عليه برواية مرفوعة إلى كرد بن مسمع ، ذكرت أن فتياناً جاءوا إلى أبي خنضم ، فأنشدهم لمائة شاعر ، أو ثمانين شاعراً ، كلهم اسمه عمرو ، حتى عد الأصمى وخلف الآخر ، فلم يقدر إلا على ذكر ثلاثين — ولم يكن أبو خنضم يروى الناس

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ٦٥ تحقيق أحمد شاكر الطبعة الثالثة عام ١٩٧٧ م .

(٢) ترجم للشعراء العباسيين للذين عاشوا حتى أوائل القرن الثالث الهجري .

(٣) الشعر والشعراء ج ١ ص ٦٥ (٤) المصدر السابق ج ١ ص ٦٦ .

« وما أقرب أن يكون من لا يعرفه من المسمين بهذا الإسم أكثر من عرفه ، (١) .

وأضاف ابن قتيبة إلى ذلك أدلة أخرى في التأكيد على كثرة الشعراء القدماء والذين سقط الكثير من شعرهم ، ولم يحمله الرواة والنقلة إلى عصر التدوين .

ووجد على عصره كثيراً من الناس ليس لهم إلا الشذاليسير من الشعر ، ومن المتعذر عليه أن يجمع في كتابه أكثر الناس ؛ « لأنه قل أحد له أدنى سكة من أدب ، وله أدنى حظ من طبع إلا وقد قال من الشعر شيئاً ، ولاحتجاً أن تذكر صحابة رسول الله ﷺ وجملة التابعين ، وقوماً كثيراً من حملة العلم ، ومن الخلفاء والأشراف ، ويجعلهم في طبقات الشعراء ، (٢) . وهو بذلك لا يذكر في كتابه من غاب عليه غير الشعر .

وهكذا استطاع ابن قتيبة أن يبرهن على سلامة منهجه في الاختيار . وإن كان بعض الشعراء المترجم لهم لم يصلوا إلى مرتبة الشهرة التي عناها إلا إذا سلينا بضياح الكثير من الشعر ، وعند ذلك تبرز شهرة الشاعر ، ويسلك في عداد المغمورين بعد أن كان مشهوراً ذائع الصيت « كأبي الغول (النهشل) (٣) وشييل بن ورقاء (٤) وغيرهما .

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٦٧ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٦٨ .

(٣) ترجمته في الجزء الأول ص ٤٣٦ .

(٤) ترجمته في الجزء الأول ص ٤٥٩ .

ترتيب الشعراء .

لم يجعل ابن قتيبة الزمن معياراً في ترتيبه ، للشعراء ، كما فعل ابن سلام في الطبقات ، فكثيراً ما يذكر الجاهلي بعد المخضرم أو الإسلامي قبل الجاهلي أو بعد العباسي (١) .

حيث بدأ بامرئ القيس ، فزهير ، ثم ذكر ابنه كعباً ، وعاد إلى الجاهليين ، فذكر النابغة : فالمسيب بن علس ، متناولاً كل شاعر تناولا مستقلاً على عكس ابن سلام الذي قسم الشعراء إلى طبقات . وهذا التبسط من ابن قتيبة جعله يقدم الشعراء كيفما اتفق ، وبدون ترتيب ، ومن غير أن يصرح بالاعتبار الذي جعله يقدم من قدم أو يؤخر من آخر ، وهكذا سار في كتابه بدون منهج ثابت في الترتيب . ويبدو أن مسألة تقسيم الشعراء إلى طبقات باعتبار الزمن لم ترق لابن قتيبة ، ولذا خالف سلفه ابن سلام في الاختيار والترتيب ، قال : «... ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر (منهم) بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه » (٢) .

وقد انطلق ابن قتيبة من مسألة ترتيبه للشعراء إلى التأكيد على القضية التي شغلته وأرقته ، وهي قضية القدم والجدانة في الشعر فقال : «إني رأيت من علاننا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخوره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه . أو أنه رأى

(١) عبد العزيز عتيق . تاريخ النقد الأدبي ص ٣٧٧ ، دار النهضة العربية بيروت الطبعة الرابعة ١٤٠٦ ١٩٨٦ م
(٢) الشعر والشعر له ج ١ ص ٦٨

قائلة: (١). ولعله قصد بهذا القول أسلافه الذين لم يسايرهم في منهجهم الأدبي كالجمعي وأبي عمرو بن العلاء وغيرهما من كانوا يتعصبون للقديم من الشعر والشعراء. وقد ذكر ابن قتيبة رأيه في جرأه وصراحة، ودلل على صواب رأيه فقال: «ولم يقصر الله العالم وبلاغته على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثا في عصره، وكل شرف خارجية (٢) في أوله، ففقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين: وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كثرت هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته» (٣).

وهذه أهم ميزة في الطرح النقدي لابن قتيبة إذ لم يفصل في الشعر بين القديم والمحدث فكل منهما يأتي جيدا ويأتي رديئا. والقديم في زمنه كان محدثا جديدا، إذ احتسب جريرا، ورفاقه — الذين كانوا محدثين عند أبي عمرو — قديما، وأكد على أن الشعراء المحدثين على عصره سيكونون قديما لمن يأتون بعده، وقال: «فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له. وأثينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولا حداثة سنه، كما أمر الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه» (٤).

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٦٨

(٢) الخارجية: الذي يخرج ويعتمد على نفسه من غير أن يكون له قديم.

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٦٩

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٦٩

قضايا نقدية :

ذكر ابن قتيبة في باقى المقدمة بعض القضايا النقدية : حيث تحدث عن أقسام الشعر ، وجعله أربعة أضرب ، ومثل لكل نوع ، فالضرب الأول : ما حسن لفظة وجاد معناه ، والثانى : ما حسن لفظه وحلا ، فإذا أهدى فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى . والثالث : ما جاد معناه وقصرت ألفاظه ، والرابع : ما تأخر معناه وتأخر لفظه ، وقد تأثر ابن قتيبة فى تقسيمه للشعر وفقده بالزعة الإحصائية التقريرية ، فأغفل حق الذوق فى ضمه للمتنايس التى يحلم بها على جودة الشعر . وبسط القول فى واحدة من قضايا النقد وهى مشكلة اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما وأثرهما فى جودة الشعر ووراءه ، وقدم نظريته باعتبار أن الشعر عنصران لفظ ومعنى ، وكشف عن مقياس جودة المعنى وحسن الصياغة ، كما أكد على مذهبه بأكثر من نموذج ، مع رفض التسليم بمعظم ما ذكره أسلافه ومعاصروه ، وإن استشهد بأقوال بعض القدماء فى تعليقه على الآيات التى استحسناها أو استجبناها والتى خلعت هذه الأقوال من التعليل والإيضاح ، كقولهم : « هذا أبدع بيت قالته العرب » أو « هذا شعر بين التكلف ، ردىء الصنعة » أو « لم يقل فى الكبر شيء أحسن منه » (١) إلى غير ذلك من الأقوال التى تنسب إلى ابن قتيبة أو إلى سابقيه من النقاد والرواة .

وقد عرض لرواية تتعلق بشاعرية امرئ القيس فقال : « وقال العتي : أنشد مروان بن أبى حفصة لزهير فقال : زهير أشعر الناس ، ثم أنشد للأعشى فقال : (بل) هذا أشعر الناس ، ثم أنشد لامرئ القيس فكأنما سمع به غناء على شراب فقال : امرئ القيس والله أشعر الناس » (٢)

(١) انظر المصدر السابق ج ١ ص ٧١

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٨٨

وبعد أن نزل هذا الخبر انصرف إلى قضية أخرى من غير أن يذكر شيئاً يعبر به عن وجهة نظره .

وقد أكد على ضرورة السماع والرواية فيما يخص علم الدين والشعر، لما في هذا الأخير « من الألفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشي، وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه » (١) .

وتحدث عن بناء القصيدة العربية، واختص منها قصيدة المدح التي تبدأ بالبكاء على الديار والدمع والآثار؛ ليجعل الشاعر ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين عنها، ثم يصل ذلك بالنسيب حيث يشتكى شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصباية والشوق؛ (٢) ويصل ذلك بإخديت عن الرحلة وشكوى النصب والسهل . . . مقررًا ما قاله من المسكاره في السير، ثم يبدأ في المدح : قال ابن قتيبة : « فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام » (٣) على أن كثيراً من الجاهليين لم يلتزموا بذلك، ولم تكن المقدمة الطليعة قانوناً جازماً لا يصح الاعتناق منه، ولكن ابن قتيبة لم يلبث أن تراجع عن بعض ما دعا إليه من تجديد، إذ سائر كثيراً من العلماء واللفويين في أن الأصول المتبعة في صياغة القصيدة ينبغي ألا تمس، ويجب ألا يخرج عليها الشعراء المتأخرون .

ثم تحدث عن المتكلف والمطبوع من الشعراء، وكان يقصد بالتكلف الصنعة التي اتخذها زهير وجماعة عبيد الشعر مذهباً أدبياً، حيث قال : « فالتكلف هو الذي قوم شعره بالثقاف، ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر كزهير والخطبة » (٤) .

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٨٨

(٢) انظر المصدر السابق ج ١ ص ٨١ (٣) المصدر السابق ج ١ ص ٨١

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٨٣

والتكلف هنا بمعنى الصنعة يختلف عن نوع آخر من التكلف ذكره فقال : « وتبين التكلف في الشعر أيضا بأن ترى البيت فيه مقرونا بغير جاره ، ومضموما إلى غير لفظه ، ولذلك قال عمر بن لجأ لبعض الشعراء : أنا أشعر منك ، قال : وبم ذلك ؟ فقال : لأنني أقول البيت وأخاه ، ولأنك تقول البيت وابن عمه .

وقال عبد الله بن سالم لرؤية : مت يا أبا الجحاف إذا شئت ! فقال رؤية وكيف ذلك ؟ فقال : رأيت ابنك عقية ينشد شعرا له أعجبنى ، فقال رؤية : نعم ولكن ليس لشعره قران : يريد أنه لا يقارن البيت بشبهه ، (١) .

وهكذا عرف القدماء الوحدة الموضوعية في القصيدة العربية ، وجعلوا الخروج عليها ضربا من التكلف الممقوت .

أما المطبوع من الشعراء فهو « من سمح بالشعر ، واقتدر على القوافي ، وأراك في صدر بيته بحره ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره روافق الطبع ووشى الغريزة ، وإذا امتحن لم يتلثم ولم يتزحر (٢) ، (٣) » ويقصد بذلك الشعراء الذين يقولون على البداة والطبع من غير تصنع وتكلف . ولا نوافق ابن قتيبة على قوله عن الشعر المطبوع (وإذا امتحن لم يتلثم ولم يتزحر ، إذ يقصد بذلك : الارتجال ؛ لعلنا أن الشاعر المطبوع قد يكون قادرا على الارتجال ، وقد يكون غير قادر ، والمعمل عليه في الطبع هو صدق العاطفة وحرارة الشعور .

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٦٦

(٢) يتزحر : يخرج صوته أو نفسه بمشقة وأنين .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٩٦

أما القدرة على تجاوز الامتحان بدون التعلم، فلربما أسفرت عن شعر
تقريري أقرب إلى الصناعة اللفظية البحتة .

وقد أطال ابن قتيبة في بسط هذه القضية ، ومثل لها ، وتحدث عن
بعض الأمور المتعلقة بها ، كالأوقات التي يحسن فيها نظم الشعر، وعن
دور العاطفة في جودة الشعر المطبوع ، وعن حسن الأسماء وقبحها في
جودة الشعر وردائه ، وعن أثر الحالة النفسية للشاعر ، فذكر بعض
الدواعي لقول الشعر كالطبع والشوق والشراب والطرب والغضب ،
وأكد على ذلك مجموعة من الأخبار والروايات منها قصة السكيت في
مدحه بني أمية وآل أبي طالب فإنه كان يتشيع وينحرف عن بني أمية
بالرأي والحوى ، وشعره في بني أمية أجود منه في الطالبيين، ولا أرى علة
ذلك إلا قوة أسباب الطبع وإثارة النفس لعاجل الدنيا على آجل
الآخرة ، (١) .

ثم تحدث عن دواعي حفظ الشعر واختياره فضلا عن جودة اللفظ
والمعنى ، وذكر منها : الإصابة في التشبيه وخفة الروى ، أو لأن قائله
لم يقل غيره ، أو لأنه غريب في معناه ، أو لنبل قائله ، ومثل لذلك بقول
الرشيد :

النفس تطمع والأسباب عاجزة
والنفس تهلك بين اليأس والطمع

وتحدث عن عيوب الشعر التي تتصل بالنون ، وذكر منها الإقواء
والتسناد والإيطاء والإجازة التي استشهد عليها بقول امرئ القيس :
لا يدعى القوم أنى أفر ... فكسر الردف ،

المصدر السابق ج ١ ص ٨٥

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٨٥

وقال في بيت آخر :

وكسدة حولي جميعا صبر فظم الردف

وقال في بيت آخر :

أخفت شرا بشر ففتح الردف

وقد فسر بعضهم الإجازة فقال : « أن تكون التوافيق مقيدة فتختلف الأرواف » (١) وتحدث عن العيب في الإعراب ، وذكر منه تسكين ما كان ينبغي تحريكه ، ومثل له بنول امرئ القيس

فاليوم أشرب غير مستحقب لثما من الله ولا واغل

حيث سكن الفعل (أشرب) وحقه الضم ، وقال ابن قتيبة بعد ذكره لهذا البيت : « ولولا أن النحويين يذكرون هذا البيت . ويحتجون به في تسكين المتحرك لاجتماع الحركات ، وأن كثيرا من الرواة يروونه هكذا لظننته :

فاليوم أسقى غير مستحقب » (٢)

إلى غير ذلك من العيوب التي تحدث عنها ، ومثل لها ، وكلها يتصل بالوزن والإعراب .

ثم أنى هذه المقدمة الصافية بذكر أوائل الشعراء وهو تابع في ذلك لابن سلام ومقصر عنه حيث ذكر هنا بعض القدماء الذين يمثلون بأشعارهم القليلة المرحلة الأولى في طفولة الشعر العربي ، وذكر منهم دويد بن نهد وأعصر بن سعد ، والحارث بن كعب ، ومثل لهم بعض النماذج الشعرية .

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٣

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٤

ثم تحدث عن الشعراء المترجم لهم في متن الكتاب ، وبدأ بامرئ القيس .

ومن خلال هذا العرض السابق لمقدمة ابن قتيبة التي قاربت تحسين صفحة نجد أن الرجل كان رائداً في البحث النظري لعن الشعر ، إذ يعد من أوائل الذين توسعوا في دراسة الأدب بروح العلم على أن الكثير الذي أسهم به كان مسجوقاً إليه ، ولكنه استطاع أن يقدم بعض الحقائق النقدية في صورة منظمة ومرتبطة لم يسبق إليها ، فإذا نظرنا إلى طرح ابن سلام لبعض هذه القضايا والحقائق ، ونظرنا إلى تقديم ابن قتيبة لها وجدنا هذا الثاني أكثر دقة وتحصيماً وتسليقاً للقضايا النقدية المذكورة ، فضلاً عن منهجه في الترجمة للشعراء .

امرؤ القيس بين ابن سلام وابن قتيبة

ترجم ابن قتيبة لامرئ القيس ترجمة مستقلة زادت صفحاتها عن الثلاثين ، ولهذا تعد من أوسع التراجم التي ضمتها كتاب الشعر والشعراء ، كما كان امرؤ القيس أول الشعراء المترجم لهم في هذا الكتاب على عكس ابن سلام الذي تحدث عنه مقروناً بالشعراء الثلاثة الآخرين الذين جعلهم مع شاعرنا في طبقة واحدة . وإذا كان لابن سلام فضل السبق فلا ابن قتيبة فضل الاستقصاء وطول الدراسة ، وتنوع البحث ، ودقة الأخذ عن السابقين ، وبروز شخصيته كناقد أدبي .

ولقد نقل ابن قتيبة عن ابن سلام كثيراً من الأقوال التي تخص امرأ القيس وذكر ذلك ، وأضاف إلى ما نقله بعض الرؤى الجديدة التي تساهل حركه النقد في القرن الثالث الهجري . ونعرض هنا إلى بعض المسائل التي تأثر فيها ابن قتيبة بسلفه ابن سلام .

١ — أشعر الناس :

إن هذه المقولة مع عدم التسليم بها بدأت تنتقل بين النقاد والرواة والمؤرخين في القرون الأولى من عمر الأدب العربي ، وقد أفاض ابن سلام في الحديث عنها مع شعراء الطبقة الأولى ، وإن ظهر ميله إلى تقديم امرئ القيس ، وسار ابن قتيبة على درب هذه المقولات مثلما سار غيره من النقاد الذين جاءوا من بعده كابن رشيق ، ونقرأ بعض السطور الأولى من ترجمة لمرئ القيس في الشعر والشعراء إذ يقول : هو امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندي ، وهو من أهل نجد من الطبقة الأولى ... ثم يقول « قال لبيد بن ربيعة : أشعر الناس ذو القروح يعني امرأ القيس » (١)

وليس في هذا الكلام من جديد يمكن التحدث عنه ، كما لم يذكر ابن قتيبة في قضية (أشعر الناس) سوى امرئ القيس بحكم منهجه في الترجمة ، أما ابن سلام فكان مذهباً بين عدة شعراء جاهليين .

٢ — يقول عن الجمحي :

نقل ابن قتيبة عن الجمحي عدة نقول فيها يختص بالتميز في شعر امرئ القيس ، وسبقه إلى أشياء ابتدعها واستحسنها العرب ، وحول ما يستجاد من تشبيهه ، وفيها يختص بإجادته في صفة الفرس ووصف المطر ، وهذه الأمور قد سبق الحديث عنها في الفصل السابق ، وليس لابن قتيبة جهد أو إضافة حولها باستثناء ما أضافه من بعض الأقوال المؤيدة لهذه الجمج . ونؤكد ذلك فكل بعض ما نقله حيث نسب الأقوال

(١) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ج ١ ص ١١٤

إلى أصحابها قال : « قال أبو عبد الله الجعفي : كان امرؤ القيس من يترعرع
في شعره ، وذلك قوله : فذلك حبلى قد طرقت ومرضع ...
وقوله : سموت إليها بعد ما نام أهلها

وقد اكتفى ابن قتيبة بمصراع من كل بيت على عكس الجعفي الذي
ذكر البيتين كاملين ومعهما بيت ثالث وهو (١) :
دخلت وقد ألفت لنوم نياها لدى السرير إلا لبسة المتفضل

ولم يكتف بهذا الذي ذكره ابن سلام ، فأعاد الحديث بصورة جديدة
في نهاية كلامه عن امرئ القيس ثم قال : « وقد سبق امرؤ القيس إلى
أشياء ابتدعها واستحسنها العرب ، واتبعته عليها الشعراء من استيفافه
صحبة في الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ (٢) ويلاحظ أن هذه المقولة
للجعفي أيضا ، وإن عبد ابن قتيبة إلى الاختصار فيها .

وفيم يختص بسبق شاعرا ذكر ابن قتيبة خبرا عن عمر بن الخطاب
يقول فيه أمير المؤمنين عن امرئ القيس : « خسف لهم عين الشعر (٣)
واعتمد ابن قتيبة على بعض النماذج التي اختارها الجعفي من تشبيهات
امرئ القيس ، ووصفه للفرس ، وذكر ما وجه إليه من نقد حول بيته :
إذا ما أثريا في السماء تعرضت تعرض أئماء الوشاح المفصل

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١١٦

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١١٦

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٣ ، ونسكته الأثر كما جاء في هامش الشعر
والشعر وفي العمدة لابن رشيق « فافتقر عن معان عور أصبح بصرا » يريد
أنه ذلل الطريق للشعراء ، وبصرهم بمعاني الشعر فاحتدروا على مثاله .

حيث عبر بالثريا غلطا وأراد الجوزاء .
وذكر الخبر المرفوع إلى ذى الرمة فيما يختص باختياره لقول امرئ القيس في وصف المطر :
دجاجة هظلاء فيها وطف طبق الأرض تحرى وتدر
مكتفيا بهذا البيت على عكس الجمعي الذي أضاف إليه بيتا آخر .
وهذا يؤكد ميل ابن قتيبة إلى الاجتزاء في النقول التي يذكرها عن الآخرين في كتابه ، وإن نسبها إلى أصحابها .

حياة امرئ القيس

يلاحظ على ترجمة امرئ القيس بكتاب الشعر والشعراء أنها تدور حول أمرين أولهما عن حياته ، وثانيهما عن شعره ، ولكن ابن قتيبة لم يفصل بين الأمرين ، بل جاء الحديث عن حياته متزججا مع الحديث عن شعره تبعاً للروايات التي يذكرها ، بل إن بعض الجوانب في هذه الحياة قد اقترن بما قيل فيها من شعر ، وهذه ميزة تحسب لابن قتيبة في ترجمته لامرئ القيس إذ حاول الموازنة بين الواقع والخيال في حدود مقبولة ، ولعله قد فتح الباب بذلك لمن جاء بعده من تصدوا للكتابة عن الأدباء والشعراء من أمثال أبي الفرج والنعماني وياقوت الحموي وغيرهم ، ولن نعرض هنا لتفاصيل هذه الحياة ، ذلك لأننا تحدثنا عنها في فصل سابق ، وإنما نستعرض بعض الجوانب التي ذكرها ابن قتيبة لئلا نرى معالجته لها ومنهجها فيها .

لقد ابتدأ حديثه بذكر نسب امرئ القيس ، وبيار الديار التي وصفها في شعره ، ثم أعقبها بالحديث عن تملك حجر (والد الشاعر) لبني أسد الذين أطلق عليهم (عبيد العسا) وأسفر هذا التملك عن قتل حجر ، ثم عاد إلى الكلام عن امرئ القيس الذي طرده أبوه لما صنع في الشعر

بقاطمه ما صنع إلى أن وصله خبير مقتل أبيه وهو بدمون . واستعرض تاريخ امرى القيس الذي قال إنه ظفر بين أسد، وذهب إلى قيصر، ودخل معه الحمام، وعشق ابنته، ومات بحلة مسمومة في أنقرة وقال حين حصرته الوفاة :

وطعنة مسخنفره وجفنة مشعجره تبقى غدا بأنقره

وقال ابن الكلبي : هذا آخر شيء تكلم به . ثم مات (١)

ثم عاد ابن قتيبة مرة أخرى إلى ذكر نسب الشاعر، وتملك جده (الحارث بن عمرو) على العرب، وتملك والده (حجر) على بني أسد، وهكذا كرر صاحب الشعر والشعراء ما سبق أن ذكره وأفاض فيه. وربما كان الرجل حريصاً على ذكر أكثر من رواية لحياة امرى القيس، وإن كان من الأفضل أن يذكر الروايات مجمعة في كل موقف أو جانب من جوانب حياته، وليس بالطريقة التي قدمت بها هذه الحياة . فقد أتى بها ثم عاد إليها مرة أخرى باختلافات بسيطة لا تؤثر في تسلسل الأحداث، ففي هذه الروايات الجديدة تحدث عن غزو المنذر لكندة، وهروب امرى القيس إلى طي . وانتقاله إلى السموم ملك تيماء، ومعه عمرو بن قيسمة، وذهابه إلى الحارث بن شمر التميمي، وارتحاله إلى ملك الروم حيث نادى في قصره، وعاد من عنده ومات بالحلة المسمومة في أنقرة وقال (٢) :

رب خطبة مسخنفره وطعنة مشعجره
وجعبة متجوره تدفن غداً بأنقره

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١١٥

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٢٧

وهكذا ذكر ابن قتيبة عدة روايات في حديثه عن حياة امرئ القيس ، واعتمد اعتياداً كبيراً على روايات هشام بن الكلبي (ت ٢٠٤هـ) إلى جانب بعض الرواة الآخرين الذين لم يذكرهم بأسمائهم مثل الهيثم بن عدي (ت ٢٠٦هـ) ، وأحدث هذا اضطراباً وخلطاً في التفاصيل ، وظهر التكرار المخل الذي أنتج بعض الشك والارتباك. وربما عاد الكثير من هذا الخلط إلى الرواة وكتبه الصحائف ، وبما أسهم في نمو هذا الشك الاختلاف الواضح بين الروايات في الشعر الذي قاله عند موته مع اختلاف هاتين الروايتين عما جاء في رواية هذا الشعر بالزيادات التي ألحقها على نسخة السكري (١).

وعلى كل فهذا الشعر لم يرد فيها رواة الأصمعي أو المفضل ، فإذا تجمعت كل هذه الأسباب لم نجد أمناً إلا لرفض هذا الشعر المنحول ، ورفض كل تلك التفاصيل التي تنهل بأيامه التي قضاها في القسطنطينية .

وقد وقع ابن قتيبة في بعض التناقضات الأخرى التي تتصل بحياة امرئ القيس نتيجة اعتياده على أكثر من رواية دون تحديد وتمحيص ولترجع إلى واحدة منها قال : « وكان امرؤ القيس مثناً لا ذكر له ، وغيوراً شديداً النيرة ، فإذا ولدت له بنت وأدها فلما رأى ذلك نساؤه غيبن أولادهم في أحياء العرب ، وبلغه ذلك فتابعهن حتى قتلن » (٢) .

وهذا الخبر على غرابته وتناقضه لم يذكر ابن قتيبة روايته له على عكس ما صنع في معظم ما نقله إلى كتابه ، ثم أضاف إليه خبراً آخر أسهم في زيادة هذا التناقض ، قال : « وكان امرؤ القيس جليلاً وسيماً ، ومع

(١) انظر الديوان ص ٣٤٩

(٢) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ج ١ ص ١٢٧ .

جماله وحسنه مفركا لاتريده النساء إذا جربته، (١).

أما أنه كان مفركا لاتريده النساء فذلك أمر تحدث عنه القدماء ، وربما كان حديث امرئ القيس عن عشقه ومغامراته العاطفية نوعا من التجويض عما يشعر به من ضعف أو نقص .

وقال ابن قتيبة بعد ذلك إنه من عشاق العرب والزناة وذكر ، بعض النساء ممن كان يشيب بهن مثل فاطمة بنت العبيد بن ثعلبة وأم الخوثر وابنة عمه عنيزة صاحبة يوم دارة جاجل ، ولاشك في أن حياة هذا الشاعر مع المرأة غير واضحة تماما ، وما قيل عن زواجه في طيء بأم جندب محل نزاع بين المؤرخين ، وبات معظم ما قيل عن حياته مضطربا وغير واضح تماما .

وقد نقل ابن قتيبة نصا عن محمد بن سلام الذي سمعه بدوره عن أبي شغل وأوية الفرزدق حول ما فعله امرؤ القيس مع ابنة عمه عنيزة وبعض النسوة في يوم دارة جاجل ، ولا يتوافق هذا الخبر الموثق مع ما قاله ابن قتيبة عن امرئ القيس من أنه كان مثنانا لا ذكر له .

وبكذا عبت الرواة بهذه الأخبار التي تتصل بحياة شاعرنا ، وأصبحت الحقيقة عنيرة المنال .

من شعر الخسكة :

تنتثر الخسكة في الشعر الجاهلي بكافة بحيث لا تخلو دواوين الشعراء منها إذ تأتي في تناسيا قصائدهم أو في آواخرها ، دون أن ينظّموا منها قصائد مستقلة ، إذ لم تكن غرضا خاصا للشعراء القدماء ، والخسكة في الجاهلية : دليل على رقي عقلية الشعراء وتفكيرهم ، وتأملهم في قضايا

الناس والحياة ، وهي ثمرة تجارب طويلة وفطنة ونظر ثاقب ، وبصيرة نافذة بالناس وأخلاقهم والمضامين ومضائهم ، وتأمل في سمي الإنسان وظافته ونهايته ، ثم إحساس دقيق بالحياة (١) .

وقد تبعت الحكمة في الجاهلية من معين حوادث الدهر وتجاربها ، ولذا فهي تختلف من شاعر إلى آخر بحسب طبائع حياته المادية والمعنوية ، فالحكمة في شعر زهير مثلاً تدور في فلك الحرب والسلام وما يتصل بهما من الموت والحياة ، كما تنطلق إلى آفاق أخرى من طبائع الإنسان مثل الكرم والشجاعة وغيرها ، وربما ظن البعض أن شاعراً مثل امرئ القيس ليس له شعر في الحكمة لمرامه بالوقوف على الأطلال ، والبيكاء على الديار والوصف ، وربما أدرك ابن قتيبة ذلك فلفت الأنظار إلى احتواء شعره على ضروب من شعر الحكمة التي جاءت ميثوقة في ديوانه كسائر الشعراء ، مع أنه لا يرقى في هذا الفن إلى درجة شاعر كزهير بن أبي سلى .

وكان ابن قتيبة سباقاً إلى ذكر بعض الآيات التي يتمثل بها من شعر امرئ القيس مؤكداً بذلك على تنوع موهبته وتجاوزها للوصف والغزل والأطلال .

ونعرض هنا للآيات الثلاثة التي اختارها من شعره .

قال : « وما يتمثل به في شعره قوله » (٢) .

وقام جدم بني أبيهم وبالأشقين ما كان العقاب (٣)

(١) د / يحيى الجبورى ، الشعر الجاهلى ص ٢٨٧ دار العربية ببيداد .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١١٨

(٣) الجذ : الحظ ، بني أبيهم : بنى كنانة ، فأسد وكنانة أخوان وهما أبنا خزيمية .

وكان امرؤ القيس قد غزا بني أسد ، فأخطأهم وأوقع بني كنانة
وهو لا يدري ، حيث هرب الأسد يون من ديار بني كنانة ليلاً ، ومولاء
لا يدرون فأعمل القتل فيهم ، وهذا البيت واحد من ثلاثة قالها امرؤ القيس
في هذه المناسبة (١) .

وقال في البيت الثاني :

صبت عليه ولم تنصب من كتب
إن الشقاء على الأشقين مصبوب (٢)

وهو من قصيدة بالديوان ، ومطلعها (٣) .

الخير ما طلعت شمس وما غربت
مطاب بنواصي الخيل مصبوب

وهي ليست مما رواه الأصمعي أو المفضل ، وقيل إنها لإبراهيم بن بشير
الأنصاري ، ولولا أن ابن قتيبة ذكر البيت الذي استشهد به لما عرضت له .

وقال في البيت الثالث (٤) :

وقد طوفت في الآفاق حتى
رضيت من الغنيم بالأياب

فالشاعر لم ير خيراً من الرجوع إلى أدله ووطنه ، فهو غنيمة التي
آب بها .

ولإذا رجعنا إلى البيتين الأول والثالث من أبيات المذكورة وجدنا

(١) كان الأصمعي يعجب من جودة هذه الأبيات ويفضلها ، انظر
الديوان ص ١٣٨ . (٢) صبت العقاب على الذئب .
(٣) الديوان ص ٢٢٥ . (٤) الديوان ص ٩٩ .

الحكمة مقترنة عند امرئ القيس بالفخر ، فالبيت الأول حول قتاله
لبنى أسد لطلب النار لأبيه ، أما القصيدة التي منها البيت الثالث فهي قصيدة
نفر ، وهذا ما قاله بعد البيت المذكور (الآخر) (١) :

أبعد الحارث الملك بن عمرو وبعد الحارث حجر ذى القباب
أرجى من صروف الدهر لنا ولم تغفل عن الصم الحساب
وأعلم أنى عما قليل سأثيب فى شيا ظفرونا ب
كما لاقى أبى حجر وجدى ولا أنسى قتيلنا بالكلاب

يريد أنه سيموت كما مات أباه وأجداده وهم الملوك العظام ، فلاحقة
للحياة من بعدهم .

ولا مرئ القيس بعض الآيات الأخرى فى الحكمة التى يأتى بها فى
وسط قصيدته أو فى آخرها ، وإذا كان الشاعر يفتخر بآبائه وأجداده
فإنه يفتخر بياسه وشجاعته التى تهون معهما الحياة ، فالمت هو النهاية
للإنسان كما ذكر فى الآيات السابقة ، وكما قال أيضا (٢) :

وما المرق ما دامت حشاشة نفسه

بمدرك أطراف الخطوب ولا آل (٣)

وقال (٤) :

كأن القتي لم يغب فى الناس ساعة

إذا اختلف اللحيان عند الجريض (٥)

(١) الديوان ص ٩٩ ، ص ١٠٠

(٢) الديوان ص ٣٨ (٣) نولا آل : غير تارك جهدا

(٤) الديوان ص ٧٧

(٥) اللحيان : الضكك ، جريض : جف رقيقة عند الموت .

وقال (١) :

ألا إنما الدهر ليل وأعصر
وليس على شيء قويم بمشعر

إن هذه الأبيات الثلاثة التي لم يذكرها ابن قتيبة مجرد أمثلة محدودة تعطى انطباعاً عن بعض الجوانب الأخرى من شخصية امرئ القيس ، فهو ليس الفتى الذي قصر حياته على الغزل والصيد والحرب لحسب ، بل هو ذلك الإنسان المتأمل الذي أقبل على الحياة ، وشرح منها ، ثم أدرك أن الموت هو النهاية الطبيعية لكل حي ، وهكذا تنطلق الحكمة عنده من الفخر كواحد من جوانب الحياة مثلما تنطلق من الموت كنهاية حتمية للحياة .

من شعر الغناء :

ذكر ابن قتيبة عدة أسباب لتفضيل امرئ القيس منها صلاحية شعره للغناء حيث استشهد بنموذجين له ، ثم أورد فيهما بيت قال كثرة من الناس إنه أرق بيت قالته العرب ، والكثير من الشعر العربي بعامة صالح للغناء ، ونسكاد تحسس الغنائية التي مثل لها ابن قتيبة نتيجة إلى رقة الأسلوب ووضوح المعنى ، وخفة الوزن .

لقد كان الجاهليون يحرصون على ذلك كثيراً حتى لقبوا شاعراً مثل امرئ القيس بن ربيعة التغابي بالمهلل ؛ لأنه أول من هزل ألفاظ الشعر وأرقها . وبعد الغزل من أكثر الموضوعات الشعرية في العصر الجاهل حتى لانسكاد قصيدة تخلو منه سواء في موضوعها أم في مطلعها ، وهو أصل فنون الشعر

للغناء، وهذا الفن كثير في ديوان امرئ القيس سواء أكان في صورة غزل أو حنين أو أطلال أو مقامرات في العشق والتطرف .

إن امرأ القيس من أقدر الجاهليين على التعامل باللغة التي تتجاذبها الصلابة والخشونة، والرقّة والسلاسة بما يتناسب مع التعبير عن أنكاره ومشاعره وقد امتازت لغته بالروعة الفنية فسكّات خير صلة بينه وبين قارئه، تؤدي ألفاظه مهمتها في التعبير عن حالته التي يحسها ويتصورها، وفي الإيحاء الذي يصل القارئ إلى دنيا الشاعر فيجعل حاله كحال مستمعاً يتمتع، وهذا حد الفن في الأدب (١).

ولا يقل دور الأوزان الموسيقية عن دور الألفاظ في صلاحية الشعر للغناء فقد أحكم الجاهليون الأوزان الشعرية، وبرعوا في تجزئتها حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عنوينة وحلاوة موسيقية (٢) ويتميز امرؤ القيس بتنوع أجراسه الموسيقية، حتى تقوم على الألفاظ المفردة أو على انسجام التركيب كما في مطلع المعلقة أو على تداعي الحروف والحركات التي تجمعها التمرجات التي تطول أو تقصر بحسب الحالة التي تستدعيها (٣).

ويعد ابن قتيبة سباقاً في كشف هذه الميزة لدى شاعرنا الذي يعد واحداً من الشعراء الجاهليين الذين يوصف شعرهم بالجرالة والقوة دون انقياض إلى الجانب الآخر وهو صلاحيته للغناء، لما فيه من رقة الأسلوب

(١) بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ص ١٠٦

دار الجيل، بيروت ١٩٧٩ م

(٢) د/شوقي ضيف، في تاريخ الأدب في العصر الجاهلي ص ٢٢٧

(٣) راجع . بطرس البستاني، أدباء العرب (ترجمة امرئ

القيس) .

وتموجه ووحدة التوافي، وجمال الموسيقى. قال ابن قتيبة: «وما يتغنى به من شعره قفا نيك من ذكرى حبيب ومزل قوله» (١):

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً

عقرت بعورى يا امرأ القيس فانزل (٢)

إن هذا البيت الذي مثل به ابن قتيبة قد ذكره الشاعر في أعقاب ما حدث به إدارة جلجل، ولعلنا قد أدركنا ما به من معان غزلية وألفاظ متموجة مواكبة لحركة ميل الغبيط (٣)، وسير الإبل، لذا استطاع الشاعر أن يستعمل الكلمة المناسبة في موضعها الملائم.

أما ابن قتيبة فلم يذكر شيئاً من خصائص هذا البيت الذي اختاره لما يتغنى به من شعر امرئ القيس، وهو سائر بذلك على درب القدماء في إيراد الأحكام الأدبية دون تمثيل أو إيضاح، لكنه استشهد على غناء شعر امرئ القيس بما قاله أبو النجم في وصف قينة (٤):

تغنى، فلن اليوم يوم من الصبي

يبعض الذي غنى امرؤ القيس أو عمرو

فطلت تغنى بالغبيط وميله

وترفع صوتاً في آواخره كمر

(١) أي المعلقة

(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء ١٥ ص ١١٩

(٣) هود ج البعير

(٤) المصدر السابق ١ ص ١١٩

ثم ذكر نموذجاً آخر من شعر امرئ القيس الذي يتغنى به ، وهو قوله (١) .

كأن المدام وصوب الغمام
وريح الخزامى ونشر القطر
يعمل به برد أسيابها إذا طرب الطائر المستعر (٢)
وقد شبه ريقها عند تطريب الطائر في السحر حيث تنفخ الأفواه بالخر ،
وبماء السحاب الذي تخرج به الخمر ، وريح الخزامى الطيبة ، وبرائحة العود
الذي يتبخر به . وأكد ابن قتيبة على سبق امرئ القيس بهذا المعنى فقال :
« وكل ما قيل في هذا المعنى فنه أخذ » (٣) .

ثم اختار بيتاً آخر قيل عنه إنه أرق بيت قائله العرب ، وذكر موقفاً
له فقال : « واجتمع عند عبد الملك أشراف من الناس والشعراء ، فسألهم
عن أرق بيت قائله العرب ، فاجتمعوا على بيت امرئ القيس :

وما ذرنت عينك إلا لتضربي
بسهميك في أعشار قلب مفتل (٤)
إلا أن هذا البيت يصاح للفناء مثل الأبيات السابقة ، فالرقة — التي
اجتمع عليها الأشراف المذكورون — ماثلة في البيت حقاً ، وهي من أهم

(١) المصدر السابق ١ ص ١٩٩

(٢) صوب الغمام : ماء السحاب ، القطر : العود الذي يتبخر به ، يعمل
به : يسقى به

(٣) المصدر السابق ١ ص ١١٩

(٤) المصدر السابق ١ ص ١٢٠

صفات الشعر الذي يتغنى به ، وكان الأصمعي يرى البيت السابق أغزل بيت
قاله العرب (١) .

امرؤ القيس شاعر متميز

ذكر ابن قتيبة خبراً عن أبي عبيدة (معمربن المثنى) حول تفضيل
امرؤ القيس على غيره من الشعراء جاء فيه : «لأنه أول من فتح الشعر»
واستوقف ، وبكى الدمع ووصف ما فيها» (٢) .

أي أنه قد سبق العرب إلى التحدث عن وصف الديار والبكاء على
الدمع ، والوقوف على الطلل ، واستفتاح الشعر بالفرح . وهذا القول
لا يسلم لابن قتيبة أو لأبي عبيدة فيما يتصل بنسبة هذا السبق لامرؤ
القيس ، مع الإقرار له بإمارة الشعر الجاهلي التي لا يعرف عنها شيئاً .
ذلك لأن شاعرنا ذكر سلفاً له في البكاء على الديار وهو ابن حاتم
حيث قال :

يا صاحبي قفا النواعج ساعة

تبكي الديار كما تبكي ابن حاتم

أو ابن خدام إذ قال :

عوجاً على الطلل الخيل لعلى

تبكي الديار كما تبكي ابن خدام

بل إن أبا عبيدة يتناقض مع نفسه ، فيذهب إلى أكثر من هذا حيث
يذكر أن امرؤ القيس قد أخذ بينا لابن خدام ، وخمه إلى المعلقة وهو :

(١) انظر : ابن رشيق . العمدة ٢ ص ١٢٠

(٢) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ١ ص ١٣٤

كأنى غداة البين يوم تحملوا

لدى سمرات الحسى ناقت حنظل (١).

فكيف إذا يقر بسيفه للعرب فيما يتصل بمطلع القصيدة الجمالية ثم يذكر ابن خنزام، على أن امرأ القيس قد أثار على شعره؟ ونعود لنؤكد على موهبة امرئ القيس التي تترفع فوق الإغارة على شعر الآخرين، لكنه لم يكن أول من وقف على الأطلال، وبكى الديار، ووصف ما فيها كما قال أبو عبيدة أو غيره من القدماء.

وقال صاحب الشعر والشعراء فيما يرويه عن أبي عبيدة أيضا في شأن امرئ القيس: «وهو أول من شبه الخيل بالعضا واللموة (الانقباض المريعة) والسباع والطير، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف» (٢).

وربما كان هذا صحيحا إذا علمنا أن امرأ القيس من أسبق الشعراء الجاهليين إلى التعرف على الخيل، وتعتب أوصافها حيث يندر أن تجد قصيدة له تخلو من حديثه عن الخيل سواء أكانت الصيد أم للحرب، أم للزينة والتفاخر.

وقد سبق أن عرضنا للآيات التي اختارها ابن سلام لامرئ القيس في وصف الفرس. كما سنذكر في هذا الفصل بعض الآيات التي قالها في الخيل، وتأثر بها الشعراء.

ونقل ابن قتيبة عن أبي عبيدة فيما يتصل بسبق امرئ القيس للشعراء في أمور كثيرة وتميزه عليهم، قال: «قال أبو عبيدة أول من قيد

(١) انظر شرح البيت بالمصدر السابق ١٥ ص ١٣٤

(٢) المصدر السابق ١٥ ص ١٣٤

الأوابد، يعنى فى قوله فى وصف الفرس (قيد الأوابد) فتبعه الناس على ذلك، (١).

وهو يقصد قول امرئ القيس فى المعلمة :

وقد اغتدى والطير فى وكتاتها

بمنجرد قيد الأوابد هيكلا

أى أن الفرس لسرعته قد صار قيدا للوحوش .

وقال غيره (غير أبى عبيدة): «هو أول من شبه الثغر فى لونه بشوك السيل فقال :

منابته مثل الصدوس ولونه

كشوك السيل وهو عذب فيض (٢)

فاتبعه الناس، (٣). والبيت فى القول بسلى من قصيدة بدأها يقول :

أمن ذكر سلى أن فأتك تنوص

فتنصر عنها خطوة أو تبوص (٤)

(١) المصدر السابق ١٥ ص ١٢٩

(٢) منابته : منابت الثغر، الصدوس : الطياسان ويريد سواد اللثة لأنهم كانوا يذرون عليها الإمد ليظهر يرق الأسنان. شرح المعتزلى ص ١٢٥ . السيل : شجر له شوك أبيض يشبه الأسنان، فيض : يبرق .

(٣) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ١٥ ص ١٣٩

(٤) الديوان ص ١٧٧

وقال ابن قتيبة : « وهو أول من قال : (فعادى عداء) فاتبعه الناس » (١) .

ويشير بذلك إلى قوله في المعالفة :

فعادى عداء بين ثور ونعجة

دراكا ، ولم ينضح بماء فيغسل (٢)

أى أن الفرس أدرك الصيد قبل أن يعرق بالماء فيصير كأنه قد غسل بالماء وقال صاحب الشعر والشعراء : « وأول من شبه الحمار بمقلد الوليد » .

وهى عود القلة . و « يسكن الأندري » والكر : الحبل . وشبه الطفل (بوحى الزبور في العسب) والفرس بتيس الحلب » (٣) .

ويؤكد ابن قتيبة بهذا النص المذكور ، على سبق امرئ القيس للشعراء في التصوير الخيالى حيث شبه الحمار بمقلد الوليد فقال (٤) :

فأصدرها تملو النجاد عشية أقب كمقلد الوليد شخيص (٥)

حيث شبه خمر الحمار بالقلة التى يعبث بها الغلام فى خفتها .

(١) ابن قتيبة الشعر والشعراء - ١ - ص ١٣٩

(٢) عادى : والى ، دراكا : تباعا ، لم ينضح : لم يعرق

(٣) المصدر السابق - ١ - ص ١٣٩ ، ١٤٠

(٤) الديوان - ١٨٢

(٥) أقب : ضامر البطن ، المقلد : العود الذى يضرب به الغلام ، القلة

(اللعبة) .

أما تشبيه الحمار بكر الأندري فغير موجود بالديوان على حد قول الأستاذ أحمد شاكر . وقال امرؤ القيس مشبهاً الظلل بخط الكتاب في العسيب النيان (١) :

لمن ظلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يمان
أما تشبيهات امرؤ القيس للفرس فكثيرة جداً ، وقد عرضنا لبعضها في الفصل السابق . وأشار ابن قتيبة إلى سبق شاعرنا في تشبيه الفرس بئيس الحلب فقال في القصيدة التي منها البيت السابق :

مكر مفر مقبل مدبر معا كئيس ظباء الحلب العدوان (٢)

وقد اعتمد امرؤ القيس في تشبيهاته على المناظر المحسوسة في بيئته ، وكانت حواسه متجهة إلى الطبيعة بما فيها من ساكن ومتحرك ، خاصة في المراحل الأولى من حياته التي عشق فيها الصيد وركوب الخيل والتشبيب بالنساء . وأكد ابن قتيبة تفردة في أبيات أخرى من شعره تنصل ببراعته في التشبيه والبيان حيث قال في العقاب :

كأن قلوب الطير رطبا ويابساً
لدى وكرها العناب والحشف البالي
حيث « شبه شيتين بشيتين في بيت واحد ، وأحسن التشبيه » (٣) ، وقد عرضنا سلفاً لذلك :

وأورد ابن قتيبة قوله في وصف الفرس :
له أطلال ظبي وساقا نعامة وإرعاء سرحان وتقريب تنفل

(١) الديوان ص ٨٥ .

(٢) الحباب : نبت ترعاه الظباء فتضمض بطونها بسقيه ، العدوان أي السريع العدو .

(٣) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ج ١ ص ١٤٠ .

وعقب عليه فقال : « وقد تبعه الناس في هذا الوصف ، وأخذوه ، ولم يجتمع لهم ما اجتمع له في بيت واحد ، (١) . وذكر أن الشاعر (المعدل) (٢) قد سطا على هذا البيت ، وأخفى سرقة فقال :

له قصريا رثم وشدقا حماءة
وسالفتا هيق من الريد أربدا (٣)

وهكذا أكد ابن قتيبة على تميز امرئ القيس في نواح عديدة سبق الحديث عنها ، والتثيل لها .

السرقا الشعرية

أراد ابن قتيبة من حديثه عما أخذه الشعراء من امرئ القيس أن يدل على عبقريته ، وتأثيره فيمن جاء بعده ، ولكنه لم يذكر ما إذا كان الأخذ أو السرقة في المعاني العامة التي يشترك فيها سائر الناس ، أم أنها في المعاني الخاصة التي ينفرد بها الشاعر :

ولقد زادت العناية بموضوع السرقا الشعرية في القرن الثالث الهجري بسبب الانشغال بقضية المعنى ، الأمر الذي جعل النقاد يتوجهون إلى رصد المعاني المشتركة بين الشعراء ، وأخذ اللاحق بينهم من السابق (٤) .

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٠ .

(٢) هو عبد الصمد بن المعدل الذي كان شاعرا سكيرا قويا العارضة ، بصريا . توفي سنة ٢٤٠ هـ . وللمزيد من كتاب عنه (انظر منهج التأليف عند علماء العرب للدكتور مصطفى الشكعة ص ٢٧٢) .

(٣) القصري : ضلع بين الجنب والباطن ، الساقة : أعلى العنق ، الهيق : الظلم ، وهو ذكر النعام .

(٤) انظر الدكتور إحسان عباس . تاريخ النقد الأدبي عند العرب . دار الأمانة بيروت الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ .

ولا تخفى علينا طبيعة الحياة الأدبية في العصر الجاهلي بما فيها من رواة للشعر ، وتعصب قبلي ، وحروب مستمرة ، وخصومة بين الشعراء كذلك التي كانت بين امرئ القيس وعلقمة بن عبدة ، والتي نشبت بأرض طي . أو كالتى كانت بين امرئ القيس وعبيد بن الأبرص في ديار بني أسد إلى غير ذلك من الخصومات . ثم اتسعت دائرة النزاع بين الشعراء في أسواق الأدب سواء ما كان منها في الجاهلية كعكاظ أو في الإسلام كسوق المريد بالبصرة . كما أسهمت ظاهرة التكرار في الشعر الجاهلي سواء ما كان منها واجماً إلى اللفظ أم إلى المعنى في ظهور الأخذ والسرقة . ومن المعروف أن التكرار شيء والسرقة أو الأخذ شيء آخر . حيث أقر بعض الجاهليين بما في أشعارهم من تكرار . ولو ووجهوا بما نسب إليهم من سرقات — في حالة إثباتها — لحجلوا منها ، وربما أنكروها حفظاً لماء وجوهم وخوفاً من ضياع مكانتهم .

وقد توسع النقاد في بحث هذه الظاهرة للدرجة التي جعلت ناقداً مثل الجرجاني (على بن عبد العزيز) يقول : « ولست تعد من جهابذة الكلام ولا من نقاد الشعر ، حق تميز بين أصنائه وأقسامه ، وتحيط علماً برتبة ومنازله ، فتفصل بين السرق والنصب ، وبين الإغارة والاختلاس ، وتعرف الإلزام من الملاحظة ، وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء المرفة فيه والمبتذل الذي ليس له واحد أحق به من الآخر ، وبين المختص الذي حازه المبتدئ فلكم واجتياه السابق فاقتطعه (١) » .

وقال ابن رشيق : « وهذا باب متسع جداً ، لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعى السلامة منه ، وفيه أشياء غامضة ، إلا عن البصير الخازق بالصناعة . وآخر فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل ، وقد أتى الخاتمي في (حلية

(١) ابن رشيق . العمدة ج ٢ ص ٢٨٠ .

المحاضرة) بألقاب محدثة تدبرتها ليس لها محصول إذا حقت: كالاصطراف والاجتلاب ، والاتحال ، والاهتدام ، والإغارة ، والمرافدة ، والاستلحاق ، وكلها قريب من قريب ، (١) .

وتمود إلى ما رصده ابن قتيبة حول: أخذ الشعراء من شعر امرئ القيس . قال :

قال امرؤ القيس :

وقوفاً بها يهصبي على مطيهم
يقولون : لا تهلك أسي وتجمل

أخذه طرفة فقال :

وقوفاً بها هصبي على مطيهم
يقولون : لا تهلك أسي وتجلد (٢)

وقد أطلق البعض على ما بين هذين البيتين اسم (النسخ) بينما جعله أبو هلال من أقبح أنواع الأخذ . ونقل ابن رشيق عن البعض أن طرفة لم يأت له هذا البيت حتى استخاف أنه لم يسمه قط خلف (٣) ، وليس هناك ما يمنع من عبث الرواة ، فيدخلون بيتاً مأخوذاً بكامله . سوى القافية من شعر امرئ القيس فيجعلونه في شعر طرفة .

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٨٠ .

(٢) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ج ١ ص ١٣٠ .

(٣) أنظر ابن رشيق . العمدة ج ٢ ص ٢٨٩ .

وقد سبق أن عرض الجعبي للبيتين من غير أن يذكر شيئاً حول سرقة
طرفة للبيت ، أما ابن قتيبة فقد أطلق لفظ (الأخذ) على مجموعة من
الآيات ، وذكر أحكامها والموضوعات التي تناولتها ، ولا يختلف أحد
حول وضوح السرقة في الآيات المختارة ؛ لأن امرئ القيس كان من
أسبق الشعراء إلى اختراع المعاني (الخاصة) بجاه بعده أو عاصره هؤلاء
الذين ذكروا ابن قتيبة ، وأخذوا معانيه ، وغيروا في بعض ألفاظها ،
وأضافوها لأنفسهم ، كقوله في وصف الفرس :

فلأيا بلأى ما حملنا غلامنا على ظهر محبوبك السراة محب
فأخذه زهير فقال :

فلأيا بلأى ما حملنا غلامنا
على ظهر محبوبك ظمأ مفاصله (١)

وقال امرؤ القيس يصف فرساً :

سلم الشفا عبل الشوى شنج النسا
له حجبات مشرفات على الفأل

فأخذه كمب بن زهير فقال :

سلم الشظا عبل الشوى شنج النسا
كأن مكان الردف من ظهره قصر (٢)
ولا تخفى سرقة زهير وابنه لشعر امرئ القيس كما سبق .
وتنحصر السرقة في الأمثلة التي ذكرها ابن قتيبة في الوقوف على الديار

(١) ابن قتيبة . الشعر والشعراء . ١ > ١٢٧

(٢) المصدر السابق ١ > ١٣٦

ووصف الفرس والناقة والمرأة ، وأكثر السرقة في وصف الفرس لبراعة
امرى القيس في هذا اللون ، ولإعجاب الشعراء بوصفه لهذا الحيوان ، أما
الشعراء السارقون لامرى القيس كما ذكرهم ابن قتيبة فهم طرفة بن العبد ،
والنايفه الجعدي ، والشماخ ، وأوس بن حجر ، وكعب بن زهير ،
والنجاحش وزهير بن أبي سلمى ، والمسيب بن عامر ، وزيد الخيل : وهم
كثيرون مما يؤكد انتشار هذه الظاهرة على نطاق واسع ، وتؤكد أن هذه
القضية شائعة جداً لمخول بعض الرواة كطرف فيها ، وربما برمت ذمة
هؤلاء الشعراء أو بعض منهم بما نسب إليهم من أخذ أو سرقة ، أو احتذاء
لشعر امرى القيس . على أن بعض الشعراء الذين لم يذكرهم ابن قتيبة قد
سرقوا من امرى القيس ، ولم يكتفوا بنقل الألفاظ والمعاني بالطريقة
التي مثلنا لها ، وإنما أضافوا إلى صياغة البيت قالباً مختلفاً ، فكان ذلك
عرضاً جديداً للبنى كقول امرى القيس :

تمشى بأعراف الجياد أكفنا إذا نحن قنا عن شواء مضهب

وقال عبده بن الطبيب بعده :

ثمة قنا إلى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل
فكشفت المعنى وأبرزه (١) .

بل إن بعضهم قد رزق بيته المبروق من شعر امرى القيس خطأ
واشتهارا : كقول عنترة :

وإذا صحت فما أقصر عن تدى
وكما علمت شمائلى وتكرى
الذى أخذته من قول امرى القيس :

(١) انظر ابن رشيق العمدة ٢٠ ص ٢٩٠ .

وشمائل ما قد علت ، وما نبتحت كلابك طارقاً مثلي (١)
وبعض الذين سرقوا امرئ القيس تماوى ما سرقوه مع قوله كييت
عبد بن الطيب :
فما كان قيس هلكت هلك واحد
ولكنه بنيان قوم تهما
الذي سرقه من قول امرئ القيس :
فلو أنها نفس تموت جميعه
ولكنها نفس تسقط أنفسا (٢)

إلى غير ذلك من الأمثلة التي تصحح بها كتب الشعر والنقد ، وهي
تؤكد في مجموعها براعة هذا الشاعر في السبق إلى المعاني المخترعة ، والتي
نالت إعجاب الشعراء فعمدوا إلى أخذها وصياغتها . فالقليل منهم قد وفق
في أخذها ، والكثير قد أخفق فبان بجزءه ، واتهم في موهبته ، وإن الشواهد
التي ذكرها ابن قتيبة لكافية في التأكيد على ما سعى إليه نحو الإقراء
بالسبق لهذا الشاعر الكبير .

ما يصاب من شعره الغزلى

عرض ابن قتيبة لثلاثة نماذج من الشعر الغزلى عند امرئ القيس ،
ورد على ما يمكن أن يوجه إلى الأول والثاني من نقد بيتنا ذكر
النموذج الثالث مشفوعاً برأيه حول ما في شعر امرئ القيس من تعبير
ومجون .

(١) المصدر السابق - ص ٢٨ ص ٢٩٠

(٢) المصدر السابق - ص ٢٩١

وكان ابن سلام قد عرض لبعض هذه الآيات التي تفاخر فيها امرؤ القيس بمجونه وخلاعته وتمهره ، ثم جاء ابن قتيبة فزاد عليها وفصل بينها بتعليلات نقدية صائبة وها نحن نعرض لهذه النماذج الثلاثة لتبين موقفه منها ، قال : « ويعاب من قوله :

فذلك حيلي قد طرقت ومرضع
فألحيتها عن ذى تمام محول
إذا ما بكى من خلفها انحرفت له
بشق وتحق شقها لم يحول

قال أبو محمد (ابن قتيبة) : وليس هذا عندى عيباً ، لأن المرضع والحيلي لا تريدان الرجال ، ولا ترغبان في الكناح ، فإذا أصباها وألحهاها كان لغيرهما أشد إصباها وإلحها ، (١) .

يريد بدفاعه عن امرئ القيس أن يجعل من خلفه ومجونه وتمهره نفراً غولياً ، كالذى قرأناه عند عمر بن أبي ربيعة في العصر الإسلامي ، وإذا كانت المرضع والحامل لا تريدان الرجال — كما قال ابن قتيبة — فإن المشهور عن رجال العرب القدماء أيضاً أنهم يتعمدون عن هذين الصنفين من النساء . وقد أراد الشاعر أن يؤكد على تعقبه للجميلات حتى في حالة الحمل أو الإرضاع ، وإذا وصلنا بقناعتنا إلى التصديق بهذا النوع من الغزل ، والذي قصد منه الفخر والتباهي كان الربط النام بين الواقع أخياتي والصورة الشعرية أمراً غير وارد ، وخارجاً عن الدائرة الأخلاقية التي يرجى للشعر غالباً ألا يخرج عن إطارها المحدود . أما

(١) ابن قتيبة . الشعراء = ١ ص ١٤١ .

التفاخر بالمجون فلم يخل منه عصر من العصور ، والا فلانرجع الى ما روى
عن عمر بن أبي ربيعة عندما دخل المسجد على عبد الله بن عباس وأنشده
قصيدته :

أمن آل نعم أمت غاد فبكر؟
غداة غد أم راح فحجر

فأعجب بها ، وحفظها كاملة ، ولم يحفل باستغراب الذين ضربوا إليه
أكباد الإبل طلبا للعلم والمعرفة .

أما النموذج الثاني فهو واحد من أبيات الغزل التي تعرض النقاد لها
بالتعليق والشرح وبالذند الدائر في تلك اللغة ، كابن قتيبة الذي قال :

أغرك منى أن حبك قاتلي
وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل
وقالوا : لماذا كان هذا لا يغرفا الذي يغرف ؟ إنما هذا كأسير قال
لأمره :

أغرك منى أنى فى يدك وفى لإسارك ، وأنتك ملكك سفك
دى !

قال أبو محمد : ولا أرى هذا عيبا ، ولا المثل المضروب له شكلا ،
لأنه لم يرد بقوله : « حبك قاتلي » القتل بعينه ، وإنما أراد به : أنه
قد برح بى فكأنه قد قتلنى . وهذا كما يقول القاتل : قتلتنى المرأة
يدلها وبعينها ، وقتلتنى فلان بكلامه فأراد : أغرك منى أن حبك قد
برح بى . وأنتك مهما تأمرى قلبك به من هجرى والسلو عنى يطعمك ،

أى فلا تقتري بهذا ، فإنى أملك نفسى وأصبرها عنك وأصرف
هواى (١) .

وقد عرض ابن قتيبة لما قيل عن البيت ، ثم ذكر تعليقه الموسع
المبسوط على غير عاداته في نقد الآيات . ولا يختلف هذا البيت عما ذكر
أولا حول تفاخر الشاعر بهذه المغامرات العاطفية ، وقدرته على ضبط
شهواته والتحكم في غرائزه .

وربما كان ذلك لنشأته في بيت ملك ، وانصرافه إلى اغتنام اللذة في الحياة
بالصورة التي عبر عنها في هذا الشعر غير أننا نعود لتؤكد على ضرورة
الفصل بين الواقع التاريخي والنص الشعري خاصة إذا كانت الحياة مليئة
بالمجون والتعبر . وليس لازما أن يكون الشاعر قد فعل كل ما قال ،
أما أن يكون الحكم متجها إلى النص بصرف النظر عن صدقه وكذبه ، فإن
ذلك أمر آخر ومشكلة أخرى لا نطمح في إيجاد حل جذرى لها ، إذ أن قضية
الشعر وموقفه من الدين والأخلاق قضية شائكة ولم تحسم الكلمة فيها ،
وسوف تبقى مثارا للخلاف بين النقاد . ويتصل بهذا المشكلة في صورتها
الأخيرة تلك الآيات التي تدخل في صميم الخلاعة والمجون ، ومن خلال
بعض المغامرات التي يقوم بها الشاعر في جنح الظلام ، ومن خالف ستار
الليل البهيم . قال ابن قتيبة : « ويعاب عليه تصريحه بالزنى ، والديب إلى
حرم الناس ، والشعراء تنوقى ذلك في الشعر وإن فعلته ، قال (٢) :

سموت اليها بعدما تام أهابا

سمو حباب الماء حالا على حال

(١) المصدر السابق ١٠ ص ١٤١

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢

فقلت : سبائك الله إنك مانحي
ألست ترى السماء والناس أحوالى
فقلت : يمين الله أبرح قاعداً
ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى
حلفت لها بالله حاففة فاجر :
لناموا ، وما إن من حديث ولا صالى
فلما تنازعنا الحديث وأصححت
هصرت بفصن ذى شمادىخ مبال
وصرنا الى الحسى ورق كلامنا
ورضت ، فذلت ، صعبة ، أى إذلال
فأصبحت معشوقاً ، وأصبح بعلمها
عاليه الفتام موى الظرف والبال
إن هذا اللون الغزلى لم يكن عاماً بين سائر الشعراء ، وإن دار على
السنة بعضهم .

ومن المقبول أن يكون ما قيل ضرباً من الخيال الشعرى الذى لا يعبر
عن الواقع الحسى تماماً حيث كانت الفتاة العربية أو المرأة المتروجة
مصونة عما يشبه هذا العبث الساخر المتنافى مع الغيرة العربية القديمة .
وإذا ارتضينا أن يكون ذلك ضرباً من الخيال البحت ... نعود فنسأل :
ما الذى دفع الشاعر إلى هذه التنازع ؟ قالوا إن الشاعر يحمل عيباً جنسياً
حيث وصفوه بأنه كان مفركا أى لا تطيقه النساء ، فكانت هذه المغامرات
الخيالية كنوع من التعويض عما به من نقص ، انطلاقة من الدرامات
النفسية التى تؤكد على أن الذى يحمل نقصاً يحاول تعويضه بسبل أخرى ، ولو
فى صورة تفاخر بما ليس فيه . والبعض كالدكتور إبراهيم عبد الرحمن رأى أن
(٩ - القيس)

يوظف هذه المغامرات في التأكيد على محاولة امرئ القيس الانتصار على المرأة وغيرها من الكائنات، أو كان ذلك سبباً لما لقيه في حياته كطرد أبيه لهو إحساسه بذنبه، وحنينه إلى دفة الأمومة، كما قال الدكتور عفت الشرفاوي (١). ونقول لا داعي البتة لاختلاق أسباب وهمية والاستناد إلى تفسيرات خيالية في هذه القضية. أما فيما يتعلق بحق الشاعر في ذكر هذه المغامرات، وعدم ذكرها فأراها قضية جديرة بالبحث والتناول انطلاقاً من تحديد لنوع العلاقة بين الأدب من ناحية والدين والأخلاق من ناحية أخرى.

(١) د/ عفت الشرفاوي - دروس وتخصص في قضايا الأدب الجامعي ص ٢٥٢ : النهضة العربية . بيروت .

الفصل الثالث

الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (١)

كتاب الأغاني من أوسع الكتب العربية التي ترجمت للشمراء والمغنين والمغنيات في العصر العباسي وما قبله ، وهو حصيلة ضخمة لجهود أبي الفرج في خمسين عاما قضاهما في جمع مادته الإخبارية ، وتنسيقها ، وضمها إلى أوراق الكتاب الذي قال عنه ابن خلدون : «وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني ، وهو ما هو كتابه في الأغاني ، جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم ، وجعل مبناه على الغناء في مادة الصوت التي اختارها المغنون للرشد ، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه . ولعمري إنه ديوان العرب ، وجامع أشقات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ، ولا يعدل

(١) أبو الفرج هو : علي بن الحسين بن محمد بن أحمد صاحب كتاب : الأغاني ، والمولود في أصفهان عام ٢٨٤ هـ . نشأ أبو الفرج ببغداد ، وتتلذذ على علمائها ، وبرز في دراسة الأدب واللغة والتاريخ والأنساب والسير والمغازي والفنساء والقيان والرواية والشعر ، وهو من أعظم الشخصيات الإخبارية في القرن الرابع الهجري . وقد ترجم له ياقوت ، وابن خلكان وابن شاكر وابن النديم والنعالي وغيرهم . كما أثنى عليه ، وأشاد به الكثيرون . وذمه بعضهم لتشبعه وسلوكه ومظهره . ومن مصنفاته : فضلا عن كتاب الأغاني — مقاتل الطالبين ، وأخبار القيامة ، والإمام انشواعر ، والأخبار والنوادر ، وله كتب كثيرة في النسب وأيام العرب . وقد توفي ببغداد في عام ٣٥٦ هـ .

به كتاب في ذلك فيما نعلمه ، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها ، وأثله بها (١) .

ولقد حرص الكثيرون من القدماء والمحدثين على اقتناء هذا الكتاب والاستفادة منه ، ونقده ، وتمحيصه ، وأنطلق البعض إلى اختصاره وتجريده من الأسانيد ومن كل ما لا يحسن ذكره ، ولكن ذلك لم يشن طلاب المعرفة عن إعجابهم بأصل الكتاب ، وبالصورة التي تناقلها الخلف عن السلف منذ القرن الرابع الهجري .

ابتدأ أبو الفرج كتابه بمقدمة مختصرة بالنظر إلى مقدمات الكتب الأخرى في ذلك الوقت ، وبالنظر أيضاً إلى مقدمة ابن سلام وابن قتيبة في كتابيهما (طبقات خواص الشعراء ، والشعر والشعراء) . ولكن الرجل لم يشغل نفسه في هذه الصبغات الست (٢) التي عقدها للمقدمة إلا بالحديث عن منهجه في تأليف الكتاب ، وطريقته في ترتيب من ترجم لهم من الشعراء وأهل الغناء ، وبيان الباعث على تأليفه للأغاني .

ومن الواضح لكل من طالع الكتاب أن أبا الفرج بني كتابه على ثلاثة جوانب متصلة وهي الأصوات (الألحان) ، والمفنون والمغنيات ، والشعراء؛ وهذه الجوانب الثلاثة متصلة ومتراصة ، ثم أتبعها في الأهمية بعض الموضوعات المتصلة بها ، مثل أيام العرب ، وأحداث التاريخ ، والعقائد والمأل والنحل وغيرها .

ولقد جعل الأصوات أساساً لترتيب الكتاب ، وهي الأصوات المائة

(١) ابن خلدون — مقدمة كتاب الأغاني لأبي الفرج ج ١ ص ٣٤٤ (من تصدير الكتاب) ط دار الكتب .
(٢) حسب طبعة دار الكتب التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة .

تلقى أمر هارون الرشيد إبراهيم الموصلي وإسماعيل بن جراح وفليح ابن عوراء باختيارها له ، لكن هذه الأصوات لم تكن الوحيدة بين دفتي الكتاب فقد أضاف إليها الأصوات التي تغنى بها المتقدمون من أهل الغناء ، والأصوات التي تجمع النغم العشر المشتملة على سائر نغم الأغاني والملاحم ، وبالأممال الثلاثة المختارة ، وما أشبه ذلك من الأصوات التي تتقدم غيرها في الشهرة ... واتبع ذلك بأغاني الخلفاء وأولادهم ، ثم بسائر الغناء الذي عرف له قصة تستفاد وحديثاً يستحسن ، (١) .

ولا نريد التوسعة في بيان هذه الأصوات المائة أو الأصوات الثلاثة التي اختاروها للرشيد من المائة ، فإن تلك الأمور المتصلة بالألحان يعرفها أهل الموسيقى والغناء .

ولكننا نذكر أن الأصوات الثلاثة المختارة من المائة كانت تغنى بأشعار لآبي قطفة وعمر بن أبي ربيعة ونصيب ، ولذا كن أبو قطفة أول من ترجم له في الأغاني . كما لا يعنيننا هنا أن نذكر أهل الغناء الذين تحدث عنهم أو ترجم لهم مثل معبد ، وابن محرز وإبراهيم الموصلي ، وغيرهم .

وقد كان اختيار الشعراء الذين تحدث عنهم على أساس الغناء ، فلا بد أن يكون الشاعر الذي سلك في الكتاب من غنى شعره ، بصرف النظر عن كونه جاهلياً أو إسلامياً أو عباسياً ، ولم ينقطع في ترتيبه للشعراء (٢) على أساس زمني أو طبقي أو مكاني . وقلنا إنه بدأ بأبي قطفة وهو أموي

(١) أبو الفرج : الأغاني - ص ١ ص ٢

(٢) ترجم لأكثر من أربعائة شاعر منذ أقدم عصورهم وحتى نهاية القرن الثالث (صاحب الأغاني) للدكتور محمد أحمد خليف الله ص ٤٧ .

غير مشهور. ثم ختم بالملتس وهو جاهلي ذائع الصيت ، ويدور حديثه
عن يترجم له من الشعراء حول نسبه وأصله ، ومولده ، ونشأته ،
وأخلاقه ، ومذهبه الفني ، مع ذكر بعض شعره ، على أنه لا يلتزم بمنهج
واحد في سائر التراجم ، وإنما يختلف من شاعر إلى آخر بحسب المكانة
الفنية لمن ترجم له ، وبمقدار ما توفر له من روايات وأخبار حول
شعره وتاريخه .

أمرؤ القيس

تحدث أبو الفرج عن أمرؤ القيس في قرابة ثلاثين صفحة (١)
حديثاً يختلف في مجموعه عما كتبه عنه ابن سلام في الطبقات ، وابن قتيبة
في الشعر والشعراء ، حيث تناول كل منهما الشاعر من الناحية التي رغب
فيها ، وليست هذه هي المرة الأولى التي تعرض فيها لكتاب الأغاني ،
فقد سبق أن نقلنا عنه كثيراً من الأخبار التي تتصل بحياة أمرؤ القيس
وغسرها .

ونحن نعرض هنا للكتاب ، لا لنوازن بينه وبين الكتابين السابقين ،
فلسكل واحد منها منهجه وأسلوبه في الترجمة للرجال ، وإنما لنعاين ما كتبه
أبو الفرج عن هذا الشاعر ، مع أن هذه الترجمة لا يمكن أن تكشف
عن منهج المؤلف في كتابته عن الشعراء ، إلا أنها — بما حملت من روايات
غورية في الشعر والأخبار — تقفنا على أبواب المعرفة الحقيقية لمنهج الرجل
كراو وإخباري ، وليس كمؤرخ وناقد .

ولإذا كان النقد الأدبي هو مبتغانا من النظر في هذه الترجمة ، فإن

(١) في طبعة دار الكتب التي بين يدي .

أبا الفرج قد استهوته الروايات والأخبار فانشغل بها عن تكرار النظر في شعر امرئ القيس ، لكنه لم يغفل الشعر تماما ، وإنما استعان به في تأكيد الروايات الإخبارية ، كما عرض لقضية نقدية مهمة ، وهي قضية الالتحال التي شغلت الأدباء والنقاد من منتصف القرن الثاني من الهجرة إلى الآن .

ونؤكد أن كثيرا من تفاصيل هذه الترجمة قد نقلناها ، أو استشهدنا بها في حديثنا عن حياة امرئ القيس ، ولا يليق أن نكرر ما سبق أن ذكرناه في الباب الأول . ولتكن نظراتنا هنا متجهة إلى بعض الجوانب المهمة في هذه الترجمة .

١ — نسب امرئ القيس من جهة أبيه وأمه .

ذكر أبو الفرج مجموعة من الروايات في حديثه عن نسب امرئ القيس ، وهي للأصمعي وابن الأعرابي ، ومحمد بن حبيب وبعض الرواة ، ولعل حرصه على جمع الروايات المتعددة حول النسب يؤكد براعته في هذا الفن خاصة وأن له بعض الكتب في الأنساب ، لكن حرصه على الجمع والاستقصاء جعله يذكر رواية في نسب امرئ القيس تخالف الحقيقة ، ولا تتفق مع الأصول الثابتة في سلسلة النسب إذ قال في نسبه على لسان بعض الرواة : « هو امرؤ القيس بن السمط بن امرئ القيس بن عمرو و امرؤ القيس هذا هو غير امرئ القيس الذي نحن بصدد الحديث عنه . ثم تحدث عن أمه ، وقال إنها أخت كليب ومهليل ابني ربيعة ، وهي فاطمة بنت ربيعة ، أما من دُعم أنه امرؤ القيس بن السمط بن امرئ القيس ، فقد قال إن أمه هي تملك بنت عمرو بن زيد ، وقال أبو الفرج إن أصحاب هذا الزعم يشهدون بقول امرئ القيس :

ألا هل أناها والحوادث جمة
بأن امرأ القيس بن تمطك يقرأ (١)

ومع أن هذا البيت من مرويّات المفضل الضبي ، وورد في نسخة الطوسي ، وفي ثلاث نسخ أخرى من الديوان ، فإن تصوده ، وعدم وضوح العلاقة بينه وبين ما قبله وما بعده من أبيات يجعل منه دليلاً هشاً ضعيفاً .

٢ - المزدكية

اعتنق بعض الرجال من كتبة الديانة النصرانية، وجعل لويس شيخو امرأ القيس من شعراء النصرانية ، ووافقه على ذلك فؤاد البستاني وغيره ، وتعد النصرانية أقرب الديانات إلى حياة امرئ القيس وشعره، إذا ما قيس بمعتقدات أخرى . وإن لم يكن في شعره ما يحوز باعتناقه لها ، وكما يقول بلاشير ، « يظل اعتناق امرئ القيس النصرانية في حين الفرضيات » (٢) .

ولكن القرائن التي استخلصت من شعره إذا لم يعث بها ، أو تدخل الصناعة فيها يمكن أن تهتدى بها في الحكم بنصرانيته .

ولقد اعتنق جده (الحارث بن عمرو) المزدكية ، واستعان بها في الظفر بالحيرة ثم كانت العاقبة عليه سيئة للغاية، فضربت رقاب بعض رجاله

(١) يقر الرجل : إذا هاجر (الأغاني ٧٧/٩) ويقر ترك الحز ، أو أحميا ، أو لم يدأين يملك .

(٢) بلاشير تاريخ الأدب العربي . ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني ، دار الفكر بدشق ص ٢٩٢٢

في ديار بني مرينا ، أما هو فقد قتل ، أو مات في أرض كلب ، وتحدث
امرؤ القيس عن هذه الأحداث في شعره ، أما فيما يتصل بالمزدكية
فيحسن أن نقدم نبذة موجزة عنها .

نشأت هذه الديانة في بلاد فارس أيام كسرى قباد ، وعرفت
بالمزدكية نسبة إلى الزنديق (مزدك) . ولنقرأ ما قاله الشهرستاني في
الملل والنحل عنها ، قال : « وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة
والمباغضة والقتال ، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال ،
فأحل النساء ، وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكمهم في
الماء والنار والكلاء » (١) .

كما كان يدعو إلى الاقتيات من النبات ، لذا حرم قتل الحيوان وصيده
ودعا إلى العكوف على اللذات والشهوات . فالمزدكية تستحل كل المنكرات
ما عدا القتل ، وبعض الأمور التي لا يؤمر بها . وتند المراءاة في الدين
من تعاليمها حيث يوافقون كل من يصادفهم دون أن يدينوا له حقيقة دينهم ،
ولعل هذا المبدأ قريب الشبه بما عثر عند بعض الفرق الشيعية بالنقية مع
الاختلاف الكبير بين المزدكية كعقيدة منحرفة آتمة ، وبين الشيعة
كفرقة إسلامية لا يقر أهل السنة بالعديد من آرائها في السياسة والعقيدة
والتاريخ . وقد اعتنق كسرى قباد في أوائل القرن السادس هذه الديانة
ليستولي بها على ما في أيدي الناس من أموال ومتاع ، لإرضاء لأطماعه
واستجابة لشهواته ، ويقال إن الحارث بن عمرو قد فرق نفوذه على
الخيرة بسبب تقربه من قباد واعتناقه للمزدكية اعتناق المنافذين .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل (على هامش كتاب : الفصل في الملل
والأهواء والنحل لابن حزم) ج ٢ ص ٨٦ المطبعة الأدبية بمصر عام
١٣٣٠ هـ .

لم يترك أبو الفرج هذه الديانة دون أن يتحدث عنها ، و يشرح عبادتها ومعتقداتها بعد أن جمع كما هائلا من أقوال الرواة الذين استقى منهم هذه الأخبار استجابة لنتجه في التأليف الذي يقوم على الجمع بين الروايات في الحادثة الواحدة قال : « ولما ملك قباذ بن فيروز خرج في أيام ملكه رجل يقال له مردك فدعا الناس إلى الزندقة ، وإباحة الحرم ، وألا يمنع أحد منهم أخاه بما يريد من ذلك ، وكان المنذر بن ماء السماء يومئذ عاملا على الخيرة وتواحيها . فدعا قباذ إلى الدخول معه في ذلك فأق . فدعا الحارث بن عمر فأجابته ؛ فشدد له ملكه ، وأطرد المنذر عن مملكته ، وغلب على ملكه (١) ، لكن أنوشروان بن قباذ ساء أن يعتنق والده (المزدكية) ، وأن يسايره الحارث بن عمرو في اعتناق هذا المذهب ، ثم حدث لأنوشروان ما جعله ينتقم من (مردك) فيها بعد ، إذ تحكى كتب التاريخ أن (مردك) دخل مرة على قباذ ، فاستأذنه في حرمة وقال له ادفعها لي لأقضى حاجتي فيها ، فقال له قباذ : دونهكها ، ودخل أنوشروان ، وحاول منعه وأخذ يسأله في أن يترك أمه ، وقد تركها بعد أن قبل أنوشروان رجله .

(وربما مضى في سبيله) ، ولما هلك قباذ ، وجلس أنوشروان في مجلس الملك قضى على الزنادقة ، وهم (مردك) وجماعته ، وأعاد المنذر (القمي) إلى الخيرة ، وعاونته في القضاء على الحارث بن عمرو الذي هرب في هجائه وماله وولده ، وكتب أبو الفرج في نهاية هذه الأحداث يقول : « وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفسا من بني آكل المرار ، فقدم بهم على المنذر ، فضرب رقابهم بمقر الأملاك في ديار بني مرينا العباديين بين دير هند والكوفة (٢) ، وذكر بيتا لعمر بن كلثوم وأربعة أبيات لأمرى القيس يعصد بها هذه الأحداث .

(١) أبو الفرج . الأغاني ج ٩ ص ٧٩

(٢) أبو الفرج . الأغاني ج ٩ ص ٨٠

٣ - تعدد الروايات

سلك أبو الفرج منهجه في الترجمة لأمريء القيس المبنى على إيراد الروايات المتعددة في المسألة الواحدة . وإذا علمنا أن واحداً من هؤلاء الرواة الذين اعتمد عليهم أبو الفرج في جمع الأخبار وروايتها هو ابن الكلبي ، كان لنا أن نأخذ هذه الروايات بالحيطه والحذر ، وإلا فأين الحقيقة في مقتل حجر (والد الشاعر) إذا قرأنا الأغاني ، وأطلعنا على أربع روايات تختلف جميعها في التفاصيل . وتتقارب ثلاث في معظم الأحداث بينما تنفرد واحدة بأحداث تختلف عما تقاربت فيه الثلاث وأول هؤلاء الرواة هو ابن الكلبي الذي قال عنه أبو الفرج في ترجمة دريد بن الصمة ، « وهذا من أكاذيب ابن الكلبي . وإنما ذكرته على ما فيه لئلا يسقط من الكتاب شيء قد رواه الناس وتداولوه . ولنقرأ لبعض من كتبوا عن أبي الفرج ، لنكون على يقظة وحذر مما يرويه ، إذ يقول الدكتور محمد أحمد خاف الله : « عقاية أبي الفرج عقلية إخبارية تقوم قبل كل شيء . وبعد كل شيء على رواية الأخبار... والرواة لا يقفون كثيراً لتحقيق المسائل وتصحيح الأخبار ، وإنما يمتصون على روايتها كما أخذوها ، حتى لو كانت من الأكاذيب » (١) .

وربما كان لتعدد الخبر ضرورة وأهمية لإمكان التعرف على وجهات النظر الأخرى فيما يتصل بالرواية المطروحة إلا أن ذكر الروايات المختلفة أو المتضاربة بدون الحكم عليها والفصل بينها يجعل القارئ في متاهة من أمره ، وتصير الحقيقة عزيزة النال .

ونتيجة لطرح أبي الفرج للروايات المتعددة في المسألة الواحدة ظن

(١) محمد أحمد خاف الله ، صاحب الأغاني ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

القارىء أن بعض هذه الأخبار غير صحيح، ولذلك تأكدت قضية الالتحال في الأخبار والأشعار، لأن صاحب الأغاني حاول دائماً في كتابه، وفي ترجمة امرئ القيس خاصة أن يربط بين الشعر والحياة، مؤكداً على ما بين الفن والبيئة من صلات وأواصر.

في الموقف الواحد يذكر عدة روايات مع الاستشهاد لكل منها بشئ من الشعر، ولذا وجب أن يكون بعض هذه الروايات كاذبا، فلا بد أيضاً أن يكون الشعر المتصل بها منحولاً ومصنوعاً. ونستطيع أن نجد ما يؤيد ذلك في حديثه عن مقتل حجر، وحروب امرئ القيس مع بنى أسد، وتواجده في أرض طيء، وانتقاله إلى بعض بنى نزار، ولكل ذلك لم تتضح هوية (هند) التي صاحبت الشاعر بعد مقتل أبيه، فهي في البداية أخته، قال: «فلما قتل حجر انحازت بنته وقطينه إلى عوير ابن شجعة، فقال له قومه: كل أموالهم فإنهم ما كولون، فأني. فلما كان الليل حل هنداً وقطينها، وأخذ بخطام جملها، وأشأم بهم في ليلة طخيا» مدحمة، (١).

وهي بعد ذلك (ابنته) قال أبو الفرج في الترجمة نفسها: «ونجا امرؤ القيس ومعه يزيد بن معاوية بن الحارث وبنته هند (بنت امرئ القيس) والأدروع والسلاح ومال كان يقي معه» (٢) وذكر بعد ذلك أن عامر بن جوين قال شعراً يعرض فيه بهند بنت امرئ القيس (٣). فإذا كانت هند هذه هي ابنته، فأين ذهبت الأولى وهي أخته؟ ومن أين جاءت الثانية وهي ابنته مما يجعلنا نوقن أنها هند واحدة وهي أخته طبعاً جاءت إليه بدمون، أو في أي موضع آخر مع ما نبقى من ميراث أبيه.

(١) أبو الفرج، الأغاني ج ٩ ص ٨٩.

(٢) المصدر السابق ج ٩ ص ٩٣.

(٣) انظر المصدر السابق ص ٩٦.

ونؤكد أن تعدد الروايات المذكورة في الموقف الواحد بدون تمحيص سمة تغلب على كتابات أبي الفرج ، ولذلك يزداد التضارب وتقيب الحقيقة، ولناخذ مثالا على ذلك فيما يخص الموضوعات التي تحدث عنها في حياة امرئ القيس ، فقد ذكر أبو الفرج رواية عن الهيثم بن عدي ، وهي واحدة من أربع في هذه المسألة تقول هذه الرواية إن امرأ القيس كان حاضرا للمعركة التي قتل فيها أبوه حجر ، وأنه هرب على فرس له شقراء ، وأعجزهم (١) ، وذكر رواية أخرى للهيثم نفسه جاء فيها أن امرأ القيس عندما قتل أبوه كان غلاما قد ترعرع ، وكان في بني حنظلة مقيم لأن ظئره كانت امرأة منهم (٢) ولا نريد الاستطراد في ذكر الشواهد المؤكدة لما نقول ، وحتى لا نذهب من روعة الجواب الإيجابية في هذا الكتاب الضخم .

٤ — موقف امرئ القيس من الزواج

لم تتوفر لأبي الفرج الروايات الكافية للحديث عن موقف امرئ القيس من الزواج ، والفقرة السابقة التي نقاناها عنه ، وهي حول إقامة الشاعر في بني حنظلة ، لأن ظئره كانت امرأة منهم لا تكفي في بيان موقفه من الزواج مع أن الأصمعي قد ذكر فيما نقله أبو حاتم خبر زواج شاعرة في طيء بأم جندب وأنها كرهته ، وأنحازت إلى علقمة بن عبدة في تحكيمها بينه وبين زوجها امرئ القيس على مأسوف توضح فيما بعد ، ولا ينهض لأبي الفرج عذرا وهو رواية وإخباري ألا يعرض لها روى عن الأصمعي في زواج امرئ القيس من أم جندب ، مع أنه ذكر شيئا له في الحديث عن تغلاته السابقة لأنها به إلى السموم في ثيابه ، ولم يذكر شيئا عنها في ترجمته لامرئ القيس ، مما حدا بنا للقول بأنها ليست بنسبته .

(١) انظر المصدر السابق ج ٩ ص ٨٥

(٢) انظر المصدر السابق ج ٩ ص ٨٨

الشاعر ، وإنما هي أخته (هند) التي جاءت إليه بعد مقتل أبيه ، ونعود إلى موقف امرئ القيس من الزواج .

ولا نرى في حياته بعد مقتل أبيه ما يجعله أهلاً للاستقرار والزواج كما أن الروايات التي تابعت أخباره أثناء تنقله بين القبائل لم تذكر زوجة لازمته أثناء هذه التنقلات .

ولقد روى الأصمعي قصة هذا الزواج ، وذكر الديوان ذلك في التقديم للقصيدة الباقية التي قالها الشاعر في الموقف الذي تخاصم فيه هو وعلقمة إلى أم جندب : « حدث الأصمعي أن امرأ القيس حين هرب من المنذر بن ماء السماء صار إلى جيلي طيء : أجأ وسلمى ، فأجاروه ، فتزوج بها أم جندب » (١) . وجاء في الرواية المذكورة أنه كان مفركاً مبعثاً حتى أيقظته ذات ليلة من نومه بغصاً فيه ...

وفلما أصبح أتاه علقمة بن عبده التميمي ، وهو قاعد في الخيمة ، وخافه أم جندب ، فتذاكرا الشعر ، فقال امرؤ القيس : أنا أشعر منك ، وقال علقمة : بل أنا أشعر منك :

فقال : فقل وأقول ، وتعاكما إلى أم جندب « فقال امرؤ القيس : خليلى مرا بي على أم جندب . . . القصيدة :

وقال علقمة :

ذهبت من المجران في غير مذنب . . . حتى فرغ منها ، ففضلته
أم جندب على امرئ القيس فقال لها : يم نضائه على ؟ فقالت : فرس
أين عبده أجود من فرسك ، قال : ولماذا ؟ قالت : سمعتك وجرت ،
وضربت ، وحركت ، وهو قولك :

(١) الديوان ص ٤٠ .

فللساق أهوب ، وللوسط درة
وللجز منه وقع أهوج متعب
وأدرك فرس علقمة ثانيا من عنائه وهو قوله :
فأقبل يهوى ثانيا من عنائه يمر كمر الراح المتحلب
فغضب عليها ، وطلقها . تخلف عليها علقمة ، فسمى علقمة
الفحل ، (١) .

إن الثقة في الأصمعي تجعلنا نقبل كلامه فيما يتعلق بزواج امرئ القيس ،
وقضله في الإيتاء عليه ، ربما لعب فيه ، أو خلط سيء في هذه المرأة التي
عرفت بأمر جندب . أما التفاصيل التي اقترنت بهذا الزواج فإننا نقف
منها موقفا مترددا بين القبول والرفض ، ويعني هذا التردد معنا في كل
ما نتحدث به الشاعر من مغامرات عاطفية مصحوبة بتعبر وبجون ، إذ أنها
ترجع — كما رأى البعض — إلى الجانب النفسي ، إذ كان الشاعر مشغولا
بالحديث عن تجاربه ليعرض نقضا وعجرا أمام المرأة ، لكن هذا العجز
لم يكن بالصورة التي ذكرها ابن قتيبة ، وتحدثنا عنها في الفصل
السابق .

أما النقد الذي قاله أم جندب ، أو نسب إليها فهو مقبول على ظاهره
بصرف النظر عن بواعثه وأسبابه التي كانت مليئة — قطعا — بالسكرة
لامرئ القيس ، ولو أنها كانت محبة له لبحث في قصيدته عما أعجبها ،
وتفوق به على خصمه ، ويبقى بعد ذلك موقف الشاعر من الزواج ، ذلك
الموقف الذي لا تنهض الروايات ببيانه والإفاضة فيه وما رواه الأصمعي
لا يكفي لحسمه وإيضاحه .

أما الشعر فلا يمكن الاكتفاء به ، ولا يصح الإعتماد عليه في الكشف عن الحقيقة وتصوير الواقع ، خاصة إذا كانت الحقيقة تتعلق بالمرأة التي يتفاخر الكثيرون من الشعراء بالتحكم في عواطفها ، ويألفون في تصوير مقاماتهم معها ، فسا بالملك بشاعر مثل امرئ القيس الذي تناقلت الروايات خبر ضعفه وقصوره أمام المرأة فليس غريبا أن تراه ينشد الأقوال الصحيحة والزائفة التي تحدث فيها عن النساء سواء أكن زوجات أم معشوقات ، وإنهن لكثيرات .

٥ - الانتحال

الانتحال هو أن ينتحل الشاعر شعر غيره فينسبه إلى نفسه ، والذين درسوا السرقات الشعرية من معيار النقد الأدبي أطلقوا عليه اسم (الاجتلاب) والانتحال . وهو أهم قضية نقدية عرض لها أبو الفرج في ترجمته لامرئ القيس ، ذلك لأن ما كتبه في الأغاني لا يخرج عن نطاق الأخبار والروايات التي تتصل بحياة الشاعر متملا لها بالكثير من شعره ، دون أن يفرق بين درجات هذا الشعر من الصحة أو النحل . أما القضية التي عرض لها أنساء تتبعه أسير الشاعر إلى السموم لما تستحق التقدير والإبراز .

ذكر أبو الفرج أثناء سرد بعض الأخبار التي لم يحدد روايتها أن امرأ القيس وفد على الربيع بن ضبع الفزاري وهو شاعر كان يأتي السموم فينشده العطاء وأخير الربيع امرأ القيس لمعجب السموم بالشعر ، وأخذ الشاعران (امرؤ القيس والربيع) يدربان نفسيهما على ما سوف يقولانه أمام السموم فأنشدا الربيع قصيدة طويلة ، وتبعه امرؤ القيس فقال .

طرقك هند بعد طول تجنب
وهنا ولم تك قبل ذلك تطرق

وبعد أن أورد أبو الفرج هذا البيت المنسوب إلى امرئ القيس في الرواية التي اعتمد عليها أعني بدفع مقولة نقدية لم يذكر صنوا لها في هذه الترجمة إذ قال : « وهي قصيدة طريفة ، وأظنها منحوالة ، لأنها لا تشاكل كلام امرئ القيس ، والتوليد فيها بين ، وما دونها في ديوانه أحد من النقات ، وأحسبها بما صنعه دارم لأنه من ولد السموم ، وبما صنعه من روى عنه من ذلك ، فلم تكتب هذا (١) » .

لم يكن أبو الفرج أول من ذكر الانتقال ، فقد سبقه إلى ذلك الأصمعي وابن سلام الجحى وغيرهما ، وسبق أن تحدثنا عما قاله ابن سلام .

وقد عرض أبو الفرج للانتقال هنا من خلال قصيدة واحدة ومعدة نسبت إلى امرئ القيس ، وليس من خلال شعره كله ، أو من خلال الشعر الجاهلي بعمامة ، ولكن مقولته النقدية مع قصرها تكشف لنا عن تأصيل المنهج النقدي المتبع في معالجة قضية مثل الانتقال .

فقوله : « وهي قصيدة منحوالة » يؤكد أنه رآها وأطلع عليها ، ونظر إليها نظرا دقيقا متفحصا ، ثم نأى إلى قوله « وأظنها منحوالة » فكلمة وأظنها تدل على الحذر واليقظة ، فليس من السهل عايه وهو ناقد أن يحكم بانتحال قصيدة ما حتى تتوفر له الأسباب الكافية لهذا الحكم ، إذ أن الوسائل المتبعة في معرفة الأصل والدخيل من شعر الشاعر ليست جازمة أبداً ، وهي في معظمها لا تسفر إلا عن أحكام ظنية واحتمالية . ثم أورد في مقولته السالفة سيئين أساسيين للانتحال القصيدة أولهما : راجع إلى أسلوبها (متنها)

(١) أبو الفرج . الأغاني ص ٩٥ ص ٩٧

(١٠ - القيس)

وثانها : راجع إلى سندها (الرواة) ، فهي من ناحية الأسلوب لا تشاكل كلام امرئ القيس ، والنوليد فيهما بين ، أى أن صنعه الانتقال فيها ظاهرة ، وترجع من ناحية سندها إلى واحد من ولد السموم بن عادياء (الشاعر اليهودي الذي سكن تيماء في الجاهلية) وهو دارم بن عقاب ابن حبيب الغساني أحد ولد السموم ، وأبو الفرج روى عن أخذه عنه ، ويستطيع أن يحكم على أخباره ومروياته ، ولذا جاء النحل من ناحية دارم . وأكد أبو الفرج شكه في هذا السند بأن القصيدة لم يدونها بديوان امرئ القيس واحد من الثقات . ولما كانت القصيدة منقولة من ناحية دارم أو من ناحية واحد من أخذوا عنه استبعدوا أبو الفرج ، ولم يدونها في الأغاني .

ولم تذكر هذه القصيدة ذات المطلع السابق في نسخ الديوان كما قال أبو الفرج ، ولم تطلع على أبيات منها سوء البيت المذكور (١) .

لقد كنت أتمنى أن ينقل أبو الفرج هذه القصيدة إلى كتابه لنستمع بها في معرفة طرائق التوليد ، ومقدار الصنعة ، وأثر الانتقال عليها . ومن يدري لعله إن ذكرها لأهملت عبارته ، ودخلت القصيدة في ديوان الشاعر أو قائمة الشعر المنسوب إليه ، ولصارت واحدة من تلك القصائد التي لم يروها الثقات ، وعند ذلك يصبح الحكم عليها بالانتحال شائكا وعسيرا .

أما الشيء الذي أنساها عنه فهو انطلاق أبي الفرج لنقد قصيدة

(١) أورد حسن السندوني ذلك البيت الوحيد المذكور في الصفحة السابقة على أنه مما ينسب إلى امرئ القيس (ص ١٤٢) وذكره أبو الفضل إبراهيم في الشعر المنسوب إلى امرئ القيس ، وأعقبه بذكر مقولة أبي الفرج ولم يرد في نسخ الديوان .

أمرى. الفيس بيتا سكت عن كثير من الأخبار والروايات التي لا يمكن له إلا أن يصدق بعضها ويكذب الأخرى ، ولكن غرامه بذكر كل ما قيل عن الحادثة الواحدة كان مقدما على قبول رواية ورفض أخرى .

ويبقى لصاحب الأغاني فضيلة الاستيعاب والشمول والربط بين الواقع والشعر ، مع تحفظنا على هذا الربط ، والحرص على نقل كثير من النصوص التي ضاعت ، ولم يبق منها إلا ما ذكره أبو الفرج في كتابه ، وما ذكره غيره في بعض الكتب الأخرى .

المصنّف المزيّج

الموشح للمرزيّاني (١)

الموشح ثمرة من ثمار التأليف في القرن الرابع الهجري، وكتاب في النقد التطبيقي للقواعد التي اهتمت إليها النقاد حتى عصر المرزيّاني، وغرابة لكثير من النصوص النقدية التي أتت على أصولها يد الحدّثان، وامتدت إلى أوراقها عوادي الزمان.

يعرض الموشح لثلاثة جوانب متصلة بالشعر، وهي في مجموعها لا تحمل جديداً لم يذكره القدماء، وإن تميزت بالجمع والاستقصاء والتبويب من خلال النقل عن مؤلفات السابقين أو الأخذ عن الرواة المعاصرين. لقد تحدث في المقدمة التي عقدها للكتاب عن عيوب الشعر مثل السناد والإقواء، والإكفاء والإيطاء، ومثل لها معرفة بأجزاء القافية وحرّكات حروفها، ثم ترجم لأربعة وستين شاعراً (٢).

(١) المرزيّاني: هو أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى بن عبيد الله الذي ولد سنة ٢٩٦ هـ وتوفي سنة ٣٨٤ هـ ببغداد. لقد كانت حياته ماثمة بالنشاط العقلي والتأليف العلمي، إذ خلف تاجاً ضخماً في شتى فروع المعرفة بين مطبوع ومخطوط ومنقود، ومن أشهر كتبه: الموشح، ومعجم الشعراء، وأخبار شعراء الشيعة، وأشعار النساء وغيرها.

(٢) من واقع النسخة التي أعتمد عليها في هذا الفصل وهي من إخراج محب الدين الخطيب، الطبعة الثانية عام ١٩٨٥ (المطبعة السلفية بالقاهرة).

جاهليا وإسلاميا ومحدثا (عباسيا) فضلا عن جماعة أخرى من الشعراء الذين ترجم لهم مجتمعين لامنفردين ، ويلاحظ أنه يتبع منهاج معيناً في اختياره للشعراء أو في ترتيبه لهم غير أنه بدأ بالجاهليين ، ثم بالإسلاميين ، ثم بالمحدثين ، ثم ختم الكتاب بما جاء في ذم الشعر الرديء . وذكر المرزباني الهدف الأساسي من تأليف كتابه فقال : « سألت ... أن أذكر لك طرفاً مما أنكر على الشعراء في أشارهم من العيوب التي سبيل أهل عصرنا هذا ومن بعدهم أن يحتذوها ، ويعدلوا عنها ، فأجبتك إلى ما سألت » (١) .

فأيس من منهجه إذن أن يتعقب حياة الشاعر كما فعل ابن قتيبة أو أبو الفرج ، وإنما ينحصر هدفه في جمع المآخذ والعيوب التي أنكرها العلماء على الشعراء ، ثم بين خطته في تصنيف الكتاب فقال : « ... وأبدأنا بباب أتينا فيه عن حال السناد ، والإبطاء ، والإقواء ، والإكفاء ، وإن لم يكن هذا الكتاب مفتقراً إلى ذكره ، وإنما أوردناه لما جاء فيه من الأشعار المعيبة وختمنا الكتاب بباب أتينا فيه بما روى من دم رديء الشعر وسفسائه ، وعلى أن كثيراً مما أنكر في الأشعار قد احتج له جماعة من النحويين وأهل العلم بلغات العرب ، وأوجبوا العذر للشاعر فيما أودعه منه وردوا قول طائفة والطاعن عليه ، وضربوا لذلك أمثلة فأسروا عليها ونظائر اقتدوا بها ، ونسبه بعضهم إلى ما يحتمله الشعر أو يحتمل نظيره » (٢) .

وقد سائر المرزباني كثيراً من القدماء في تقديمهم للأمريء القيس ، فكان هذا الشاعر أول المترجم لهم في كتاب الموشح .

(١) المرزباني الموشح ص ١١

(٢) المصدر السابق ص ١١ ، ١٢

امرؤ القيس بن حجر

إن أكثر الأحكام النقدية التي تشملها ترجمة المرزباني لامرئ القيس ليست إلا نقولا جمعها من مصادر مختلفة ، وهي ترجع إلى رجال عصره وسابقه ، والذي يمتدنا — هنا — هو ما قيل عن امرئ القيس سواء أكان نابعا من رؤية المرزباني أو مما نقله عن الآخرين ، لأن الرجل كان حريصا — فيما بدا لي — على الانتصاف للشعراء ، واتباع مذهب الساف في نسبة الأقوال إلى أصحابها متخذاً من سلسلة السند طريقا للوصول إلى مأخذ العلماء على الشعراء .

ولذا راجعنا ما كتبه المرزباني عن امرئ القيس وجدناه يعرض في اثنتي عشرة صفحة — وهي مجموع ما كتبه عنه — لما قاله العلماء بالشعر واللغة والنقد في شعر امرئ القيس .

ومن هنا تأتي أهمية الترجمة التي خلصت للنقد ، وبعدت عن الروايات التاريخية التي كثرت بصورة مكثفة في كتات الألفاني .

تدور الروايات التي نقلها المرزباني في ترجمة امرئ القيس عن العديد من المسائل النقدية ، وهي إما تكرار لما ذكره القدماء ، وسبق أن تحدثنا عنه في الفصول السابقة ولما تجميع لبعض العيوب التي قيلت هنا أو هناك حول شعر امرئ القيس . وقد ذكرنا بعضاً منها من خلال الحديث عن الكتب السابقة ، وإما عرض لألوان من الشعر أجاد فيها الشاعر ، وامتدحه النقاد ، وهذه الألوان هي أهم ما سنعرض له في هذه الترجمة .

أولا - روايات سبق الحديث عنها

نقل المرزبانى بعض الروايات التى سبق أن ذكرها القديما. فبدأ يتصل بنقد أم جندب لشعر امرئ القيس وشعر عاقمة ، ونسب من سعة صدره لهذا الخبر الذى أورده بثلاث روايات مختلفة الإسناد، ولم يتقاربت فى مجموع النقد الذى عرضنا له فى فصل سابق، حيث ظهر تحامل أم جندب على امرئ القيس ، وتلفها على الإساءة إلى شعره ، وتفصيل علقمة عليه ، وترجع الرواية الأولى إلى عمر بن شبة ، وبدأها المرزبانى بقوله : « كتب إلى أحمد بن عبد العزيز الجوهري أخبرنا عمر بن شبة قال : ... » وترجع الثانية إلى أبي عمرو الشيباني .

وقد بدأها بقوله : « وروى محمد بن العباس البزدي ... » وتعود الثالثة إلى المفضل الضبي ، وبدأها بقوله : « وحديث إبراهيم بن محمد العطار ... » .

ويلاحظ اختلاف الروايات فى وسيلة الأخذ فى الأولى (كتب إلى) وفى الثانية (روى) وفى الثالثة (حدثني) .

وربما أراد الرجل أن يوثق هذا الخبر، وأن يجمع الأقوال التى ذكرته ، فأورد الروايات الثلاث بتمامها ثم أعقبها بقوله :

« وقد روى هذا الحديث أيضا هشام بن الكلبي عن هذه الحكاية ، ورواه أيضا عبد الله بن المعتز » (١) .

وبالنظر فى رواية أخرى لم يوردها المرزبانى وهى لأبي حاتم

(١) المصدر السابق ص ٢٩

الدجستاني عن الأصمعي نرى تكرار الروايات حول هذا الموضوع الذي أنكره كثير من المعاصرين.

أما فيما يتصل بالشك في شعر امرئ القيس ، فقد نقل المرزباني روايتين ليستا بمجديدين علينا في هذه الفصول ، وهما عن الأصمعي ، وعن الرياشي : تقول رواية الأصمعي : « ويقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه » (١) وتقول رواية الرياشي (٢) :

« يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا معه مثل عمرو بن قتيبة وغيره » (٣).

وقد أورد تشكيكا آخر في واحدة من القصائد التي رواها المفضل الضبي ، وأنكرها الأصمعي حيث قال : « وقد زعم بعض الرواة أن هذه القصيدة ليست له ، وإنما ألحقت بشعره ، وأنها لبعض الغريرين » (٤).

أما القصيدة المذكورة فهي الرائية التي بدأها امرؤ القيس بقوله :

أحار بني عمرو كأني خمر
ويعمدو على المراء ما يآتمر (٥)

وليس هذا الخبر جديداً على مسيرة النقد الأدبي وإن كنا لم نذكره فيما سبق .

(١) المصدر السابق ص ٣٢

(٢) الرياشي : أبو العباس بن الفرّج الرياشي اللغوي والنحوي ، قتله الزنج بالبصرة سنة ٢٥٧ هـ (هاشم الشعر والشعراء ج ١ ص ٧١) .

(٣) المرزباني الموشح ص ٣٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٤

(٥) الديوان ص ١٥٤ .

ثانياً : بعض المآخذ على شعر امرئ القيس

ذكر المرزبان مجموعة من المآخذ والمعائب على شعر امرئ القيس منها ما عيب عليه في وصف فرسه عندما شبه ذيله بأيل العروس قال :
لها ذنب مثل ذيل العروس تسد به فرجها من دبر (١)
وقالوا : ذيل العروس مجرور ، ولا يجب أن يكون ذنب الفرس طويلاً مجروراً ولا قصيراً . قالوا : والصواب قوله :
ضليح إذا استدبرته سد فرجه
بضاف فوق الأرض ليس بأعزل (٢)

ومن المآخذ التي نقلها المرزبان فيما يختص بشعر امرئ القيس في الفرس ما ذكره الأصمعي من عيب في قوله (٣) .

وأركب في الروع خيفانة كسا وجهها سعف منتشر
حيث شبه ناحيتها بسعف النخلة ، وقال الأصمعي فيما ذكره المرزبان :
« إذا غطت الناصية الوجه لم يكن الفرس كريماً ، والجيد الاعتدال » (٤)
ومن عجب أن هذه المقولة قد تناقلها القدماء فيما بينهم من غير زيادة أو نقص ، فتراها في عيار للشعر لابن طباطبا ، وفي كتاب الصناعاتين لأبي هلال العسكري ، وفي سر الفصاحة لابن سنان الحفاجي .

ثم نقل المرزبان عن مؤدبه (أبي سعيد محمد بن دبيرة) مأخذاً آخر في قول امرئ القيس عن فرسه (٥) :

وللسوط منها مجال كما تنزل ذو برد منهصر

- | | |
|-------------------|--------------------------|
| (١) الديوان ص ١٦٤ | (٢) المرزبان المرشح ص ٣٣ |
| (٣) الديوان ص ١٦٣ | (٤) المرزبان الموشح ص ٣٣ |
| (٥) الديوان ص ١٦٦ | |

قال : « وهذا أيضا ردىء : ما لها وللوسطاء (١) وكان استئمال السوط
للإطاب الفرس مما عاينه أم جندب على امرىء القيس عند تحكيمها بينه
وبين علقمة (الفحل) .

وقتل المرزبان عن ابن طباطبا نقده لبيتين من شعر امرىء القيس ،
وهما حول لهوه وملذاته في ركوب الخيل وشرب الخمر والفحش مع
النساء .

قال : « وقال أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى : روى الرواة
لامرىء القيس :

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ، ولم أقل
لخيلى كرى كرى بعد إجفال

وهما بيتان حسنان ، ولو وضع مصراع كل واحد منهما في موضع
الآخر كان أشكل وأدخل في استواء النسيج ، فكان يروى :

كأنى لم أركب جوادا ، ولم أقل
لخيلى كرى كرى بعد إجفال
ولم أسبأ الزق الروى للذة
ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال (٢)

وقد روى البيتان على الصورة الأولى ، وتحدثت الكتب عن هذا
النقد ، وذكر ابن طباطبا ما يؤكد نقده حيث رأى إمكانية التغيير في الرواية

(١) المرزبانى . الموشح ص ٢٣

(٢) المصدر السابق ص ٣٢

من جهة الرواة والناقلين ، جاء البيتان بما وجه إليهما من نقد . قال :
« وربما وقع الخلل في الشعر من جهة الرواة والناقلين له فيسمعون الشعر
على جهته ، ويؤدونه على غيرها سهوا ، ولا يتذكرون حقيقة ما سمعوه
منه » (١) ، ثم ذكر البيتين المرويين ، وعقب عليهما بنقده ، وبالصورة
التي يمكن أن يأتي عليها .

وذكر صاحب الموشع ما قاله النقاد عن فجور امرئ القيس ، وتعمره ،
وحول تعبيره عن تعرض الثريا ، وهي لا تتعرض ، وعن صموده أمام
محبوبته ، وأنها تقر لأن حبها يثقله ، وذكر أيضاً ما قاله النقاد حول قصد
امرئ القيس للحبلى والمرضع دون البكر ، وهو ملك وابن ملوك ، قال :
« ما فعل هذا إلا لنقص في همته » (٢) .

وذكر أن الشاعر أكذب نفسه عندما قال :

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها

ثم قال : وهل عند رسم دارس من معول

وتعجب للرزائي كيف كرر في ترجمته لامرئ القيس بعض المأخذ ،
وهذا فيما نظن راجع إلى سهو الرواة وجعل النقلة ، ولا نظن أن أدبياً
موسوعياً مثل هذا الرجل يقع في شرك التكرار ، بالصورة التي يذكر
بعض المأخذ ، ثم يكررها بعد صفحة واحدة ، ولو اختلفت الرواية أو
السند لاتفهمنا له أو لمن روى عنه الأعذار . وقد سبق أن ذكرنا ما عرض
له من تكرار في حديثه عما وقع لامرئ القيس مع أم جندب بثلاث
روايات تختلف في السند وفي بعض الألفاظ .

(١) انظر ابن طباطبا . عيار الشعر ص ٢٠٩ طبعة دارالعلوم بالرياض

(٢) الرزائي ، الموشع ص ٣٤

ولذا رصينا بتكرار الأحكام النقدية بين الكتب فلا نظن أن ذلك
منبذير مقبولا إذا حدث التكرار بين صفحات الكتاب الواحد ، ولم
يكن امرؤ القيس مستهدفا بهذه المأخذ حيث إن كثيراً من حذاق الشعراء
قد عيب بعض أشعارهم .

قال المرزباني : « وقد عيب على النابغة و زهير والأعشى والفرزدق
وجرير والاخلط وغيرهم من حذاق الشعراء أشياء كثيرة » (١) .

ثانياً : قضايا مستجدة

تهدف بالقضايا المستجدة تلك المأخذ واللاحظات النقدية التي ارتبطت
بشعر امرؤ القيس ، وعرض لها النقاد والرواة في مراحل متقدمة على
عصر المرزباني ، ثم جاء هذا الأخير فذكرها في صورة جديدة وطرح
جديد ، بما يجعل منها سمة وعلامة لبعض ما قاله امرؤ القيس سواء أكان
النقد محسوباً له أم عليه .

١ — شعر الفخر :

نقل صاحب الموشح إلى كتابه رواية وصل بسندها إلى روبة فيما
يتصل بالفخر عند امرؤ القيس ، وأتى بيتين لهوازن بينهما وبين بيتين
آخرين من شعره في وصف معوى ، واعتبرت الرواية البيتين الآخرين من
أقذال ما قيل ، ثم أكد المرزباني ذلك برواية أخرى قالها أحمد بن عبد الله
ابن عمار ، ومجموع ما يستفاد من هاتين الروایتين لا يتجاوز حدود
الإعجاب بما قاله الشاعر من فخر عندما قال (٢) :

(١) المصدر السابق ص ٣٥ (٢) البديع أن ص ٣٩

فلو أن ما أسمى لأدنى معيشة

كفاني - ولم أطلب - قليل من المال
ولكننا أسمى لمجد مؤثّل وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالي

فلو كان الشاعر يسعى لأقرب معيشة لكفاه القليل من المال الذي
يحقق به ما يكفيه ، غير أن آماله وطموحاته تتجاوز ذلك إلى تحقيق الملك
والمجد المؤثّل ، وعلى التنبّض من ذلك تماماً نراه يقول :

إذا لم تكن لابل فعزى كأن قروب جللتها العصي
والذين أنكروا على الشاعر أن يذكر هذا البيت وإخوته قد تناسوا
تماماً ما أحاط به من هموم وأحزان في مرحلة من حياته .

ونعود إلى أبيات الفخر لنرى أنها الترجمان الحقيقي لأطول فترة
زمنية عاشها الشاعر ، حيث تندرج ضمن الفخر الشخصي ، الذي يتغنى فيه
بنفسه وآماله وطموحاته - وسبق أن عرضنا لبيان جمع فيها بعض
مفاخره عندما ولى عنه الشباب ، وتغيرت به الأيام وهما :

تأني لم أركب جواداً للذه
ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقف
لخيل كرى كرهة بعد إيفال

ونرى في ديوانه - فضلاً عما ذكرنا - شعراً غير قليل في الفخر
الذي قاله الشاعر في ظروف صعبة ، حيث استرجع أيامه التي امتلأت
بالعبث والمجون ، وبركوب الخيل اللصيق والنص ، وبالقوة والشجاعة .

كما افتخر أيضاً بقبيلته كندة بما فيها من ملوك عظام . ونقرأ له أبياتاً
أخرى افتخر فيها بالأخلاق الحميدة كالشجاعة والصبر والوفاء بالعهد ،
قال (١) :

عليها فتي لم تحمل الأرض مثله أبر بميثاق وأوفى وأصبرا
هو المنزل الآلاف من جو ناعط
بني أسد حزاناً من الأرض أوعرا
ولو شاء كان الغزو من أرض حبر
ولكنه عمداً إلى الروم أنفرا

ونراه يفتخر بقدرته على كشف الأمر المهم من إدادة الحرب ، قال (٢) :

فإن أمس مكروبا فيارب بهمة
كشفت إذا ما أسود وجه الجبان

ويتجاوز الشاعر ذاته ، ليصل إلى الفخر بأشراف كندة فيقول (٣) :

وأنا الذي عرفت معد فضله وثبتت عن حجرين أم قطان
على ابن كبشة قد علت مكانه وأبو يزيد ورهطه أعمى

وكانت شجاعة امرئ القيس من أكثر ما افتخر به خاصة في المدة
التي عاش فيها الحروب مع بني أسد من أجل النار لأبيه ، حيث قطع
الأرض ، وجاب الفيافي ، وركب ناقته القوية ونزل بمواطن السكلا ،
وقاد الغارات ، وقتل الرجال ، وسبي النساء والأطفال ، قال (٤) :

قد أقطع الأرض وهي قمر وصاحبي يازل شمال

(٢) الديوان ص ٨٦

(٤) الديوان ص ١٨٩

(١) الديوان ص ٦٥

(٣) الديوان ص ١١٨

إلى غير ذلك من الآيات التي تمثل في مجموعها اتجاهها قويا وفناستغلا
في شعر امرئ القيس :

٢ - وصف الليل

نقل المرزباني رواية عن محمد بن يحيى الصولي حول خلاف الوليد بن
عبد الملك وأخيه مسلمة في شعر امرئ القيس والنايفة الزبياني عن وصف
طول الليل ، وكان حرص المرزباني على نقل الموازنة بين الشعارين في
هذا الوصف قد أعطى بعداً جماليا لهذه المأخذ حيث احتكم الوليد وأخوه
إلى الشعبي ، وأنشد الوليد أبيات النايفة ، وهي (١) :

كأنني لهم يا أميمة ناصب وليل أفاقيه بطيخ السكاكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقص
وليس الذي يرعى النجوم بآيب
وصدر أراح الليل عازب همه
تضاءف فيه الحزن من كل جانب

ثم أنشد مسلمة قول امرئ القيس :

وليل كوج البحر أرغى سدوله
على بأنواع الموم لبيتلى
فقلت له لما تملط بصابه وأردف أعجازاً ونا بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى
بصبح وما الإصباح فيك بأمثل

(١) المرزباني . الموشح ص ٢٩ ، وديوان النايفة ص ٢٩ : طبع
دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ (١٩٨٤ م) .

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مفار القتل شدت يذبل
كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كنان إلى صم جتل
لقد شرح المرزباني بعض الكلمات في شعر امرئ القيس ، لأن
شعره هو المقصود والمستهدف من هذه الموازنة ، ثم نقل عن الصولي كلامه
الآتي : « فأما قول النابغة :
وصد أراح الليل عازب همه ...

فإنه جعل صدره مألفاً للهموم ، وجعلها كالنعم الدازية بالنهار عنه ،
الرائحة مع الليل إليه ، كما ترجع الرعاية السائمة بالليل إلى أمائها . وهو أول
من وصف أن الهموم متزايدة بالليل ، وتبعه الناس » (١)

وذكر من هؤلاء الذين اتبعوه مجنون ليلي وابن الدميني ، وأراد أن يثبت
تقدم امرئ القيس إلى الإحسان في هذا المعنى فقال : « فالشعراء على هذا
المعنى يتفقون ، ولم يشذ عنه ، ويتخالفه منهم إلا أخذهم بالشعر والمبتدئ .
بالإحسان فيه امرؤ القيس ، فإنه يحذقه وحسن طبعه وجودة قريحته كره
أن يقول : إن الهم في حبه يخفى عنه في نهاره ، وزيد في ليله ، فجعل الليل
والنهار سواء عليه في قلقه وهمه وجزعته وغمه ، فقال :

ألا أيها الليل الطويل ألا أتجلى

بصبح وما الإصباح فيك بأمثل

فأحسن في هذا المعنى الذي ذهب إليه ، وإن كانت العادة غريبة ،
والصورة لا توجبه ... » (٢) . أما العادة التي ربما قصدتها هي أن يكون

(١) المرزباني : الموشح ص ٣٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٠

الليل موطنا للهموم ومبعثا للأحزان، بينما يأتي الليل مفرجا وكاشفا لما .

وذكر المرواني سبب إجماع الشعراء على شدة مهم بالليل ، فقال :
« وإنما أجمع الشعراء على ذلك من تضاعف بلائهم بالليل وشدة كلفهم ،
لقلة المساعد ونقد الحبيب . وتقيد اللحظ عن أقصى مرامي النظر الذي
لا يد أن يؤدي إلى الغاب بتأمله سيدا يخفف عنه ، أو يغلب عليه ، فينسى
ماسواه .

وأبيات امرئ القيس في وصف الليل أبيات اشتمل الإحسان عليها ،
ولاح الخلق فيها ، وبان الطبع بها فما فيها معاب إلا من جهة واحدة عند
أمرء الكلام والخذاق بنقد الشعر وتمييزه ، ولولا خوف من ظن بعضهم
أن أغفلت ذلك ما ذكرته ، والعيب قوله بعد البيت الذي ذكرته :

فقلت له لما تمطي بصلبه وأردف أعجازاً وهاً بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ...

فلم يشرح قوله : (فقلت له) ما أراد إلا في البيت الثاني ، فصار مضافاً
إليه متعلقاً به . وهذا عيب عندهم ؛ لأن خير الشعر ما لم يحتاج بيت منه إلى
بيت آخر ، وخير الأبيات ما استغنى بعض أجزاءه ببعض إلى وصوله إلى
النافية من قوله

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيقة الرجل

ألا ترى أن قوله (الله أنجح ما طلبت به) كلام مستغن بنفسه ، وكذلك
باقي البيت . على أن في البيت : وأو عطف عطف جملة على جملة ، وما ليس
فيه وأو عطف أبلغ في هذا وأجود (١)

(١) المصدر السابق ص ٣١

(١١) القيس

ويعد هذا الكلام السابق من أفضل ما قيل من نقد وموازنة في هذه الترجمة .

ولقد أشار المرزباني إلى قضية نقدية كان القدماء يتعصبون لها ، ولا يرون لغيرها مزية عليها ، وهي أن يكون البيت وحدة مستقلة بنفسها ، وغير محتاجة إلى ما بعدها ، ثم ذكر أن الشعراء تبعوا امرأ القيس وساروا على نهجها عندما جعلوا نهارهم كليلهم بدون تفريق ، ولعل هذا ما جعل وصف الليل عنده أشمل وأفضل مع أن أبيات النابغة في غاية الجودة .

٣ — تفاوت شعره

ذكر المرزباني ما حدث به أبو الحسن علي بن إبراهيم المنجم حول تفاوت شعر امرئ القيس من خلال رواية ليست بالقصيرة ، ورد بها أن في شعره ما يفضل به بعضا . وإذا كان النقاد قد أشادوا بسبقه إلى أشياء استحسنتها العرب واتبعه الشعراء فيها ، فإن له شعرا يجمع بين حوشي الكلام وخلو الألفاظ من كثير من الفائدة ، (١) ومثل لذلك بقوله :

يا هتد لا تنكح بومة عليه حقيقة أحسبا
مرسة بين أرساغه به عسم يبتغي أربا
ليجعل في كفه كعبها حذار المنية أن يعظبا
ولست بخزوافة في القعود ولست بطيانخة أخدبا
ولست بذي رثية لأمر إذا قيد مستكرها أحسبا (٢)

(١) انظر المصدر السابق ص ٣٥

(٢) الديوان ص ١٢٨ ، ١٢٩

على أن هذا التفاوت الذي ذكره صاحب الموشح في الرواية السابقة لا يختص به شعر امرئ القيس وحده، إذ تجد في ديوان كل شاعر الجيد والردىء والشعراء في ذلك مختلفون ومتفاوتون .

ولعلنا قد أدركنا أن المراد بانى لم يقصد إلا إلى رصد المآخذ ، وجمع الروايات التي تناثرت في الكتب القديمة حول شعر امرئ القيس ، ولذا لم تظهر شخصيته في كتابه إلا نادرا ، وكان همه متصرفا إلى الرواية عن العلاء . وتسجيل مآخذهم بما أوقعه في شرك الإعادة والتكرار .

الفصل الخامس

إعجاز القرآن للباقلاني (١)

نرى الباقلائي بتأليف كتابه (إعجاز القرآن) للتأكيد على أن معجزة هذا الكتاب المقدس تفرم على بلاغته، وليس بالصرفة (٢) ولأن ذلك يقتضي أن المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، وبذلك يستطع أن يكون القرآن معجزاً في نفسه وبلاغته. وواضح أنه إنما يرد هنا على المعتزلة من أمثال النظام صاحب الفكرة، والرماني الذي عد الصرفة من وجوه الإعجاز القرآني، (٣).

(١) ولد أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي بالبصرة، ونشأ بها، وأخذ عن علمائها ثم ارتحل إلى بغداد، واستكمل علومه بها، إلى أن توفي فيها عام ٤٠٣ هـ. وقد خرج في حياته إلى شيراز، وانضم إلى مجلس عضد الدولة معيراً عن رأي أهل السنة، ومتحدثاً بمذهب الأشاعرة في علم الكلام، ثم عاد إلى بغداد في حوالي عام ٣٦٧ هـ. كما جعله عضد الدولة رئيساً للبعثة التي أرفدها إلى ملك الروم بالقسطنطينية عام ٣٧١ هـ، ألف الباقلائي ما يربو على الخمسين كتاباً، ولم يصلنا منها إلا القليل مثل إعجاز القرآن، واتهميد، وهداية المسترشدين، والأبصار لصحة نقل القرآن، وغيرها.

(٢) أي بصرف العرب عن معارضته.

(٣) د / شوقي ضيف. البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٨ دار المعارف.

بمصر، الطبعة الرابعة عام ١٩٧٧ م

وقال الباقلاني في مقدمة كتابه إن الذين ألفوا قبله في معاني القرآن لم يسيطوا القول في بيان إعجازة ، وأن الجاحظ الذي صنف في نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى ، (١) .

وقد جعل الفصل الأول من هذا الكتاب في بيان أن نبوة محمد ﷺ معجزتها القرآن ، واستدل على ذلك بالعديد من الآيات ، ثم عقد الفصل الثاني لبيان وجه الدلالة على أن القرآن معجز وأكد هذا ببيان عجز الكفار عن الإتيان بمثله ، وأبطل حجة القائلين بالصرقة .

وجعل الفصل الثالث للحديث عن وجوه الإعجاز ، فذكر أن أصحابه الاشتاعرة ردوا ذلك إلى ثلاثة أوجه وهي أنه : يتضمن الإخبار عن الغيوب . وذلك بما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه ، (٢) ، وذكر أمثلة لها . وثانيها أنه : آتى بحمل ما وقع وحدث من عظيات الأمور ، ومهمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه ، (٣) ، مع أنه أي (النبي ﷺ) كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب .

والوجه الثالث : أنه بديع النظم ، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه ، (٤) .

وهكذا بسط رأيه في إعجاز القرآن من الوجهة البلاغية ، ثم أكد على

(١) الباقلاني . إعجاز القرآن ص ٦ تحقيق السيد صقر الطبعة الثالثة ، دار المعارف ١٩٧٣ م

(٢) المصدر السابق ص ٣٣ (٣) المصدر السابق ص ٣٤

(٤) المصدر السابق ص ٣٥

أن الذكر الحكيم لا يتفاوت ولا يتباين بخلاف كلام البشر . وشرح في عدة فصول متواليمة وجوه إعجاز القرآن ، ونفى الشعر والسجع عنه . وعقد فصلا في ذكر البديع من الكلام ، وتحدث في فصل عن كيفية الوقوف على الإعجاز ، وساق لهذا الغرض طائفة من خطب الرسول ﷺ ورسائله ، ومن خطب صحابته ورسائلهم ، وذكر مجموعة أخرى من خطب غيرهم ، حتى يقف القارىء على ما بينها وبين القرآن من فروق .

وعقد بابا أبان فيه عن أن نظم القرآن يزيد في فصاحته على كل نظم . ودرس معلقة امرئ القيس ، وبين ما فيها من تكلف وعوار وحشو وتطويل ، ليؤكد جمال النظم القرآنى الذى وزع على كل آياته بقسطاس وانتقد أيضا واحدة من قصائد البحرى للتأكيد على الغرض نفسه ، وذكر عدة أصول استكمل فيها بحثه عن إعجاز القرآن . واختتم الكتاب بفصل أجمل فيه كثيرا من المسائل التى أفاض فى شرحها حول الإبانة عن معجزة القرآن الكريم .

أولا - إعجاب الباقلانى بشعر امرئ القيس

اعتنى الباقلانى بشعر امرئ القيس فى (إعجاز القرآن) أكثر من أى شاعر آخر ، سواء من خلال الحديث المباشر عن خصائص شعره أم من خلال التمثيل بهذا الشعر فى أكثر الفنون البلاغية التى تحدث عنها فى كتابه . ثم دلل على ما فى ديوان شاعرنا من سوء نظم وفساد تركيب ليؤكد على أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم .

وتعد معلقة امرئ القيس من أهم القصائد التى تحدث عنها ، واستشهد بالمديد من آياتها ، فضلا عما اختاره من القصائد الأخرى .

وعندما أبان عن إعجابه بشعر امرئ القيس كشأن غالبية النقاد العرب قال : « وأمت لا تشك في جسودة شعر (امرئ القيس) ولا ترتاب في براعته ، ولا تتوقف عن فصاحته ، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أمورا أتبع فيها ، من ذكر الديار والوقوف عليها ، إلى ما يصل بذلك : من البديع الذي أبدعه والتشبيه الذي أحدثه ، والتسليج الذي نجد في شعره ، والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله ، والوجوه التي ينقسم إليها كلامه : من صناعة وطبع ، وسلاسة وعلو ، ومثانة ورقه وأسباب تحمد ، وأمور تؤثر وتمدح .

وقد ترى الأدباء أولا يوازنون بشعره فلانا وفلانا ، ويضمون أشعارهم إلى شعره حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين شعره في أشياء لطيفة ، وأمور بديعة ، وربما فضلوه عليه ، أو سوا بينهم وبينه ، أو قربوا موضع تقدمه عليهم ، وبرزوه بين أيديهم ... » (١).

ثم أعقب ذلك بالحديث عن مملقته ، مؤكدا على سبقها للأصنام الأخرى التي قرن العرب بينها إلى غير ذلك مما قاله في التقديم لنقد المعلقة .

فإذا استبعدنا هذا النقد وما أمثلا به من تحامل وإسقاط ، واستبعدنا أيضا الآيات التي جمعها من ديوان امرئ القيس ، واستشهدنا بها على ما في شعره من رداء واضطراب ، ثم نظرنا بعد ذلك في الكتاب لوجدناه يمتلئ بالإعجاب والثناء على شعر امرئ القيس .

وتؤكد هنا على هذا الإعجاب حيث نجده يدلل على تفاوت كلام البشر من خلال النظر في قصيد الشاعر :

قضا نيك من ذكرى حبيب ومنزل

(١) المصدر السابق ص ١٥٨

وذكر رواية تفيد أن العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول ، يوضع على بعض أوزان الشعر كأنه على وزن :

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل (١)

وفى حديثه عن نفي الشعر عن القرآن ذكر أن الكفار زعموا أن قوله تعالى : ويخزم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، (٢) من الوافر .

كقول الشاعر (امرئ القيس) :

لنا غنم نسرقها غزوار كأن قرون جلتها عصي (٣)
ومثل للتوارد الذي لا يعبده أهل الصناعة سرقة إذا لم تعلم فيه حقيقة
الآخذ بقول امرئ القيس :

وقافا بها صهي على مطيهم
يقولون : لا تهلك أمي وتجمل (٤)

وقول طرفة :

وقروفا بها صهي على مطيهم
يقولون : لا تهلك أمي وتجلد

وذكر العديد من أبيات امرئ القيس ، ليستدل بها على الاستدارة كما إحدى طرق البديع في الشعر مثل قوله .

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابن هيكل

(٢) النوبة آية ١٤

(٤) المصدر السابق ص ٥٤

(١) المصدر السابق ص ٦٣

(٣) الباقلاني الإعجاز ص ٥٢

قال الباقلاني : « قوله : (قيد الأوابد) عندهم من البديع ، ومن الاستعارة ويروونه من الألفاظ الشريفة ، وعنى بذلك ، أنه إذا أرسل الفرس على الصيد صار قيذا لها ، وكانت بحالة القيد من جهة سرعة إحضاره ، واقتدى به الناس ، وانبهه الشعراء فقل : قيد النواظر ، وقيداً للحاظ وقيد الكلام ، وقيد الحديث ، وقيد الرهان ، (١) ومثل للاستعارة البليغة التي جعلها بعض أهل الصنعة من باب الإرداف يقول امرئ القيس :

تقوم الضحى لم تنطق عن تفضل (٢)

حيث أراد ترفها بقوله : (تقوم الضحى)

وجعل قوله :

وليل كوج البحر أرخى سدوله ... (٣)

من الاستعارة الجيلة .

وذكر أيضاً قوله :

خقلت له لما تمطي بصلبه

وأردف أعجازاً وناء بكل كل

مستدلاً بهذه الاستعارات على طول الليل .

وذكر أن امرأ القيس أراد إخفاء شخصه عندما قال :

(١) المصدر السابق ص ٧٠

(٢) صدر البيت : ويضحى فتيت المسك فوق فراشها .

(٣) عجز هذا البيت : على بأفراع المسموم ليتلى ،

سموت إليها بعدما نام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حال (١)

واختار للتشبيه الحسن قوله :

كأن عيون الوحش حول خباتنا
وأرحلنا الجرع الذي لم يشقب

وقوله :

كأن قلوب الطير رطباً وياساً
لدى وكرها العناب والحشف البالى
ثم ذكر بيت بشار بن برد الذي تابع فيه امرأ القيس في قوله :
كأن مثار النقع فوق رؤسهم
وأسيافنا ليل تهاوى كواكب

ووازن بين البيتين ، فقال : « وقد سبق امرؤ القيس إلى صحة التقسيم
في التشبيه ، ولم يتمكن بشار إلا من تشبيه إحدى الجملتين بالأخرى دون
صحة التقسيم والتفصيل » (٢)

وجعل من البديع قول الشاعر في أذى الفرس :

وسامعتان يعرف العتق فيهما
كسامعتى مذعورة وسط ربرب (٣)

واتبه طرفة فقال :

وسامعتان يعرف العتق فيهما
كسامعتى شاة يحومل مفرد

(١) المصدر السابق ص ٧٤ (٢) المصدر السابق ص ٧٢

(٣) المصدر السابق ص ٧٢

واختار لوصف الفرس قول امرئ القيس :

وعينان كالماويتين ومحجر
إلى سند مثل الفصيح المنصب (١)

وقال الباقلاني : «ومن البديع في التشبيه قول امرئ القيس :

له أبطلا ظبي وساقا نعاما
وإرخاء سرحان وتقريب تتل

وذلك في تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء ، أحسن فيها » (٢) .

ولعل فياذكرناه ما يكشف عن إعجاب الباقلاني بشعر امرئ القيس
وتفضيله على شعر غيره ، وقد مثل به — فضلا عما ذكرناه — للبائنة —
وهي ضرب من الاستعارة — والمطابقة ، والموازنة ، والإيغال ،
والترصيع ، والعطف . (من البديع) ، وفي وصف ذيل الفرس
والتشبيه (٣) .

أما نقده للعاقبة فلم يكن منزها عن التعامل الذي قصد به التأكيد
على إسقاط معانيها وألفاظها ، وإذا سقط شعر صاحبها فلا حاجة للكلام
على شعر غيره ، وبذلك تنهاوى — حسب وجهة نظره — حجة من يقارن
بين شعر امرئ القيس والقرآن الكريم .

(١) المصدر السابق ص ٧٣

(٢) المصدر السابق ص ٧٣

(٣) انظر المصدر السابق [الصفحات : ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٦ .

[٩٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٤]

ثانياً : نقد الباقلاني للمعلقة

تعد لامية امرى القيس والتي عرفت بالمعلقة من أشهر القصائد العربية حيث اختارها القدماء ، وجعلوها أول القصائد السبع المشهورة ، وقد تحدث الباقلاني عنها فقال : « ولما اختاروا قصيدته في (السبعيات) أضافوا إليها أمثالها ، وقرنوا بها نظائرها ثم تراهم يقولون : لفلان لامية مثلها ، ثم ترى أنفس الشعراء تتشوق إلى معارضته . وتساويه في طريقته ، وربما غيرت في وجهه في أشياء كثيرة ، وتقدمت عليه في أسباب عجيبة » (١) .

ونرى الباقلاني في النص السابق يؤكد إعجابه بشعر امرى القيس وبخاصة معلقته التي برزت غيرها ، ولذا تشبى الشعراء إلى معارضته ومسايرته . ويؤكد أن ما ذكره إنما سواء أكان محمداً لإعجابه أم لنقده واستشهاده أكثر من أي قصيدة أخرى . غير أنه أراد المقارنة بين مالا يقارن ، لحرصه على التأكيد بأن كلام البلغاء متفاوت ، وأن القرآن لا تفاوت فيه .

ولقد اقتطع ثمانية وثلاثين بيتاً من هذه القصيدة ، وانكب عليها متلبساً : « ما فيها من عوار ، ومن تكلف ، ومن حشو وخلل وتطويل ولفظ غريب ، وكيف تفاوتت آياتها بين الجودة والرداءة والسلاسة والغرابية » (٢) وكان يمكنه أن ينصف الشاعر في نقده للمعلقة ، كما أنصفه في سائر صفحات الكتاب . وليس من الضروري أن يحكم بالضعف على خمسة وثلاثين أو ستة وثلاثين بيتاً من مجموع ما انتقده ، وتحدث عنه

(١) المصدر السابق ص ١٥٩

(٢) د / شوقي ضيف . البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٢

في هذا القصيدة . ولكنه أراد — بتحمل لا يرتضيه النقد — أن يؤكد على ما يقع في كلام الشعراء الكبار كأمريء القيس والبحترى من سقوط وضعف على عكس القرآن الكريم .

وقد تحدث عن تفاوت — رآه في المعلقة — فقال : « اعلم أن هذه القصيدة قد ترددت بين آيات سوقية مبتذلة ، وآيات متوسطة ، وآيات ضعيفة مرذولة ، وآيات وحشية غامضة مستكرهة ، وآيات معدودة بديعة .

وقد دللنا على المبتذل منها ، ولا يشتبه عليك الوحشي المستنكر ، الذي يروع السمع ويهول القلب ويكد اللسان ، ويمس معناه في وجه كل خاطر ، ويكفر مظهره على كل متأمل أو ناظر ، ولا يقع بمثل القسح والنفاح . وهو بجانب لما وضع له أصل الإفهام ، ومخالف لما بنى عليه التفاهم بالكلام . فيجب أن يسقط عن الغرض المقصود ، ويلحق باللمز والإشارات المستهينة (١) ، ثم ذكر ما يقع فيه الشعراء من تفاوت فقال : « وإنما أردنا أن نبين الجملة التي بناها لنعرف أن طريقة الشعر شريعة مورودة ، ومنزلة مشمورة يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم ، ويتنازل منها ذووهم ، على حسب أحرارهم » (٢)

ولا نعتقد أن منهج الباقلائي كان سليماً في موازنته بين القصيدة والقرآن الكريم أو في حكمه على آياتها بالتفاوت أو السقوط ، ليؤكد بذلك — وبغيره أيضاً — على إعجاز القرآن . على أن شعر أمريء القيس مهما عابلا قدره لا يصح أن يوازن بالقرآن الكريم ، كما أقر الباقلائي نفسه بذلك ، وكان عليه عند نقده لشعر أمريء القيس أن يحتمس إلى طبيعة الشعر الجاهلي بعامة ، وربما أدرك ذلك ، ولكنه

(١) لباقلاني إعجاز القرآن ص ١٨٠

(٢) المصدر السابق ص ١٨٢

أراد بيان ما في شعره من ضعف وعوار وسقوطوا يتذال ، فتكلف البحث عنها في المعلقة ، وكان يمكنه العثور على بغيته في بعض القصائد الأخرى التي لم تكن في قوة هذه القصيدة ، ولكنه قصد إلى أفضل قصيدة عند أكثر الشعراء شهرة وذيوها ، ليتخذ من إسقاط شعره وتفاوته دليلا على إسقاط شعر غيره ، وبذلك يؤكد التفاوت في الشعر العربي بعامه ، وليؤكد أيضا خلو القرآن الكريم من هذا التفاوت ، وبذلك يصل إلى منتهى رقيته في الإيجاز ، وكشف عن ذلك فقال : «ولذا كنا قد بينا أن شعر امرئ القيس — وهو كبيرهم الذي يقرون بتقدمه ، وشيخهم الذي يعترفون بفضلهم ، وقادهم الذي يأتون به ، وإمامهم الذي يرجعون إليه — كيف سبيله ، وكيف طريق سقوط منزاته عن منزلة نظم القرآن» (١) .

لكننا لا ننفل لإعجاب الباقلائي ببعض الآيات القليلة التي لا تنقدح في النتيجة التي رمى إليها ، بل ربما نخدم المهدف الذي حرص عليه ، وهو بيان التفاوت في جنس الشعر .

ثالثا — نقد الآيات المختارة

اختار الباقلائي من المعلقة ثمانية وثلاثين بيتا ذات أفكار ومضامين مختلفة ، من مجموع آيات القصيدة التي بلغت سبعة وسبعين أو واحدا وثلاثين على اختلاف بين الروايات .

فقد انتقد أربعة آيات من المقدمة التي تمثلت في صورة وقوف على الأطلال ، وبكاء عليها ، ثم انتقد ثمانية وعشرين بيتا من الآيات الغزلية التي تحدث فيها الشاعر عن ذكريات لهوه ، ومغامراته ووصف فيها محبوبته .

(١) المصدر السابق ص ٢١٥

وانتقد ثلاثة أبيات مما قاله الشاعر عن الليل وهمومه ، ثم اختتم ما انتقده بثلاثة أبيات اختارها عما ذكره الشاعر عن الفرس — ولم تكن هذه الأفكار كل ما قاله امرؤ القيس في قصيدته ، إذ تحدث فيها — فضلا عما سبق — عن تشرده وانتقاله في الأرض ، كما وصف الهيد والمطر والبرق والليل تعبيرا عن همومه وأحزانه .

١ — الوقوف على الأطلال والبكاء عليها .

اختار الباقلاقي من مقدمة المعلقة أربعة أبيات ذكر اثنين منها ، وأعتبها بنصيب أكبر من النقد ثم تلاها بالآخرين ، وذكر معها بعض نقده الذي يكشف في مجموعه عن تناول ظاهري للنص ، واحتكام إلى قواعد اللغة من نحو وصرف وغيرهما ، وإلى قضايا الأخلاق كالصدق والكذب وإلى قضية التطويل أو الحشو ، وإلى الأحكام العامة الخالية من البيان والتعليل كمادة القدماء .

ولم يصب بعض النقاد على ما قاله الباقلاقي ، إذ رأوه متحاملا على أمير الشعر الجاهلي حيث تجاهل كثيرا من مفاهيم عصره ، ولم يرض ما قاله القدماء كالاصمعي وأبي عبيدة أحيانا مع أنهم — في مدى على — أعرف بالشعر منه .

وربما كان الباقلاقي بعض العذر ، فقد نشأ في بيئة بلاغية أصولية ، لم تتجاوز بأفكارها حدود المستوى الأول لفهم الشعر ، ولم تنظر إلى البطل — مثلا — مثلا نظرا إليه من عاش في بيئة مختلفة . ولو انتقد واحد من أمثال الأمدى أو علي الجرجاني شعر امرؤ القيس لما قال فيه ما قاله الباقلاقي ، على أن قدرا كبيرا من مأخذه قد سبقه إليها المتقدمون ، ولكنه جمع هذه المأخذ ، ونظر إليها نظرة تعبر عن مراده ومبتهاه ،

ويكتفينا أن نعرض لكلامه على ضوء مفاهيم عصره ، مع تقبل كل فهم جديد لشمرة القديم .

ذكر الباقلاني يبين من مقدمة المعلقة وهما :

فما نيك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول لحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها

لما نسجتا من جنوب وشمال

ثم اتقدما فقال :

وقاؤل ذلك : أنه استوقف من ييكى لذكر الحبيب ، وذكره لانتضى بكاء الحبل ، وإعما يصح طلب الإسعاد فى مثل هذا ، على أن ييكى لبكائه ويرق لصديقه فى شدة برحاته ، فأما أن ييكى على حبيب صديقه وعشيق رفيقه فأمر محال .

فإن كان المطلوب وقوفه وبكاؤه أيضا عاشقا صح الكلام من وجه ، وفسد المعنى من وجه آخر إذ لأنه من السخف أن لا يفار على حبيبه ، وأن يدعو غيره الى التفؤل عليه والتواجد معه فيه .

ثم فى البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه الواضع ، وتسمية هذه الأما كن من «الدخول» و«حومل» و«توضح» و«المقراة» و«سقط اللوى» وقد كان يسكنيه أن يذكر فى التمرىف بعض هذا . وهذا التطويل إذا لم يفد كان ضربا من السعى (١) .

لا أود أن أجعل من نفسى مدافعا عن امرئ القيس ، ذلك لأن ديوانه — كساتر دواوين الشعراء — فيه الجيد والزدى ، فضلا عن

الرحلة الطويلة التي قطعها الشعر الجاهلي ، منتقلا من عصر الرواية إلى عصر التدوين والنسخ بأيدي بعض الوراقين الذين لم يكن الكثيرون منهم يفهمون الفروق اللغوية بين الألفاظ.

ونعود إلى الباقلاني الذي اتتد الشاعر في أن يطلب من صديقه أن يعاونه في البكاء على ذكرى حبيبه، مستكرا أن يبكي الصديق على ذكرى حبيب صديقه ، أما إذا كان الصديق عاشقا فسن السخف ألا يغار له (الشاعر) على حبيبه ، كما رأى أنه لا ضرورة في ذكر الأمكنة التي وردت بالبيتين .

وقد سبق القول بأن الباقلاني يقف عند ظاهر اللفظ ، ولم يتغلغل في بنية النص ، ولم يفتح نفسه بإمكانية اعتبار هذا الصديق شخصا متخيلا من قبل الشاعر ، وحتى لو لم يكن متخيلا فإن الوقوف على الديار والبكاء عليها ينم عن حيرة الشاعر وقلقه وبأسه واضطرابه ، فلماذا لا يطالب من صديقه أن يبكي معه على موت الحبيبة أو على دروس الأماكن وذوبانها في قلب الصحراء ، أو على حاضر القبيلة التي ذهبت بجيبيته إلى وأدى الدم وبتاه النسيان؟ حيث يعبر الوقوف على الأطلال عن الموت والفناء والحيرة التي اعتورت الشاعر في لحظة استرجاعه للماضي والحاضر من الزمان والمكان.

لقد ارتبط الطلل بكثير من الرموز التي لم يستوعبها القدماء استيعابا كاملا ، أو لم ينتبهوا لها أصلا ، مثل قضية التغير التي تؤثر في الأشياء ، وما يرتبط بها من المشاعر والعواطف.

ويقول الدكتور مصطفى ناصف في ارتباط الطلل بالحياة وما يتوردها من تغير ، دلقد قال القدماء إن امرأ القيس بكى واستبكى ، ووقف واستوقف ، ولاحظوا أن عظمتهم كشاعر ترتبط بأشياء من هذا البكاء والوقوف ، ولستهم ظنوا أن امرأ القيس يبكي طلل عنزة أو فاطمة أو غيرها ، الشاعر يروع بفكرة الحياة الذاهبة .

(١٢ — القيس)

لأنه يصحو على الشعور المستعر بأن جانيا من العمر قد ولي ،
والشاعر يقف ويستوقف لكي يعالج هذا الشعور ، لكي يصور نفسه أنه
حتى يملك عقله ذمام الماضي ، ويعيد تخيله وتمثله . كل هذا وهم نشيط ،
ولكنه لا يستطيع أن يفرغ منه .

وقد أخذ هذا البكاء شكل الطقوس الجماعية ، وأصبح العقل الجاهلي
مشغولا بمشكلة الموت الذي يتجسد في الظلل (١) .

ولقد تكاثرت المفاهيم الجاهلية في العصر الحديث عن معنى الوقوف
على الاطلال في الشعر الجاهلي ، ويمكن أن تتلاقى كلها حول الموت والحياة ،
أو حول الزمان والمكان وما يتصل بهما من الحسرة والالام والضيق والخيرة
والمعاناة بحثا عن معنى للوجود الإنساني . كما يقول بعض الباحثين :
« وهكذا يصبح للنص الشعري آفاق جديدة واسعة ومجالات وجودية هائلة ،
إذا نحن تجاوزنا هذا الفهم المباشر الجزئي للمعنى . ففكرة التفلسف في
مشكلة الموت فكرة ليست مقحمة في هذا المجال ، وإنما يمكن العثور عليها
في يسر ووضوح عند هؤلاء الشعراء (الجاهليين) سواء جاء ذلك بعبارة
صريحة مباشرة أو رمزية غير مباشرة » (٢) .

وتأرجح تلك المعاني بين الإقدام لآلها والإحجام عنها أمام التقليدية
في المقدمة الكلية لكن هناك كثيرا من القرائن (٣) التي تدفع بالمقدمة بعيداً
عن دائرة التقليدية .

(١) د/ مصطفى ناصف . دراسات في الأدب العربي ص ٢٣٧ .

(٢) د/ عفت الشرفاوى . دراسات ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي

ص ١٣٥ ، ٢٣٦ .

(٣) لا يعني هنا بحث هذه القرائن ، لكن أمراً واحداً نقدمه لمن
يريد التساؤل حول تغزل الشاعر (بدون تحديد) في بعض المقدمات أو =

ولذا تفهمنا نفسية الشاعر من خلال المقدمة، وتعرفنا على مغزى الوقوف على الطفل أصبح علينا عند ذلك ألا نلوم الشاعر عن تعداد هديار المحبوبة إذ « يصير الهدف من هذا التعدد هو التعبير عن استغراق القلب لجميع ما يكون، فبما تتعدد الأماكن، ومع واقعيتها القريبة التي نعرفها جيداً عن كتب، فهي إلى زوال؛ وسواء ألبسنا آثار الأجيال هنا أو هنالك في هذه أو تلك من الأماكن فالموت في النهاية يشمل كل حي، وذلك هو مغزى الإحساس بالآلم الذي يعبر عنه امرؤ القيس (١).

فالتعدد يكشف عن نفسية الشاعر، وعن واقعياته وللمامة ببعض الجزئيات والتفاصيل.

وقال الباقلاني: إن الأصمعي قد ذكر قول الشاعر: «لم يعف رسمها» من محاسنه إذ أنه باق فنهجن نحرنا على مشاهدته فلو عفا لاسترحنا» (٢).

ثم عتب صاحب إعجاز القرآن على ذلك فقال: «وهذا بأن يكون من مساويه أولى، لأنه إن كان صادق الود، فلا يزيده عفا الرسوم إلا جودة عهد، وشدة وجد: وإنما نزع الأصمعي إلى إفادته هذه الفائدة، خشية أن يعاب عليه، فيقال أي فائدة لأن يعرفنا أنه لم يعف رسم منازل حبيبته؟ وأي معنى لهذا الحشر؟ فذكر ما يمكن أن يذكر، ولكن لم يختصه — بانتصاره له من الخلل.

ثم في هذه السكيلة خال آخر؛ لأنه عقب البيت بأن قال:

فهل عند رسم دأرس من معول

== في بعض القصائد السكلية بأكثر من واحدة، فهذا التغزل في حد ذاته يذوب كحقيقة أمام الرموز المختلفة.

(١) د/عفت، الشرقاوي دراسات ونصوص ص ٢٣٦

(٢) الباقلاني. إعجاز القرآن ص ١٦٠

فذكر أبو عبيدة أنه وجع فأكذب نفسه (١).

لقد عاب الباقلاني امرأ القيس في ذكره عفاء الرسوم ، إذ يرى أنه العناء يزيد صادق الود وصلاً وهياماً ، أما الأصمعي فيرى أن بقاء الرسم يزيد في أحزان المحبين . فرقية الباقلاني حول عفاء الرسوم لا تخلص له ، خاصة وأن هذا التعبير كان يشغل النقاد واللغويين من قبله . أما الحلل الآخر الذي استشهد فيه بمقولة أبي عبيدة فيرجع إلى ما قاله امرؤ القيس في بيته التالين وهما :

وقوفا بها صبي على مطيم يقولون : لا تهلك أسمى وتحمل
ولن شفائي عبيرة «مراقبة»

فهل عند رسم دارس من معول

حيث ذكر قبلاً : ولم يعرف رسمها ، ثم قال بعد ذلك :

فهل عند رسم دارس من معول

عما يؤكد التناقض والكذب ، على أن الوقوف على الاطلال وما يكتنفه من بقاء الرسم وعفائه أو عدم عفائه مسألة لا تتقرر في ضوء الصدق والكذب ، إذ تصاب العواطف في ضوء هذا الموقف بنوع من الاضطراب والتلق لبقد الحيرة . أو أنه أراد كما يقول صاحب الجمهرة : « أن بعضه درس وبعضه ين . أو أراد أنه لم يدرس رسمها من قلب ، وهو في نفسه دارس » (٢) .

ثم قال الباقلاني : « والبيت الثاني مختلف من جهة أنه قد جعل اللمع في

(١) المصدر السابق ص ١٦٠ ، ١٦١

(٢) القرشي . جمهرة أشعار العرب تحقيق على محمد البجاوي ص ٢٢٨
الطبعة الأولى دار نهضة مصر للطبع والنشر

اعتقاده شافيا كافيا ، فما حاجته بعد ذلك إلى طلب حيلة أخرى وتحمل
وهو معول عند الرسوم» (١) .

نقول : إن الشاعر قد يُطلب الشفاء بالدمع [يأسه من وجود حيلة
أخرى ، فهو في الحقيقة لم يطلب هذه الحيلة ، ولو طلبها ، وقنع بها لما
أكد شفاؤه بالعبرات . كما يقول بعض النقاد : « أما تساؤله القاطط بقوله :
(وهل عند رسم دارس من معول) فير من إلى يأسه من الخلاص] وشعوره
بعدم جدوى العواطف الإنسانية المقهورة أمام دوامة الحياة ، وفيه إذعان
للقدر ، واستسلام عن طلب الحرية التي يستجيب بها الإنسان لعواطفه
وينال منها . وبذلك يقدو وصف الطلل تمثيلا لشعور الإنسان بالهزيمة
والاندحار (واللا إرادة) أمام الحياة والكون . ويعانق يؤسه ، وينقاد
له ، ولا سبيل له إلا البكاء يسكب به دموعه ، كما يسيل دمه من جرحه
الصامت الفاجع» (٢) .

وهكذا وضع لنا كيف ارتكز الباقلاني في نقده على التعبيرات اللغوية
المجردة التي تتجاوب مع وجهته في الإيجاز من غير مراعاة للأساسة التي
يعيشها الشاعر أثناء وقوفه على الأطلال .

٢ — شعر النول :

اختار الباقلاني من المعاقبة ثمانية وعشرين بيتا من الشعر النولي الذي
تحدث فيه امرؤ القيس عن مفارقاته مع المرأة ، ووصفاً وصفا حيا

(١) الباقلاني . إيجاز القرآن ص ١٦٢

(٢) مطاع صفدي وآخر . موسوعة الشعر العربي ص ٢١٩ — طبع

بمركز شياط بيروت ١٩٧٤ م

مكشوفاً وقد طال هذا القسم في المعلقة ، ولذا وجد الباقلاني فيه بغيته من النقد لما تميز به شعر صاحبنا من تعبر وجور . حيث انتقد ثلاثة وعشرين بيتاً من حديث الشاعر عن مقامراته وذكرياته مع المرأة ، ثم انتقد خمسة أخرى من أبيات المعلقة التي وصف الشاعر فيها محبوبته .

ونعود إلى بعض ما قاله في نقد الأبيات الغزلية ، إذ نجد يسيراً أكثر القدماء في توجيه النقد حول المآخذ اللغوية القرينة ، أو الحكم على ما قاله الشاعر بالصدق أو الكذب ، أو أن البيت قليل الفائدة ، أو ليس له معنى ، أو ليس فيه معنى يروق ، أو ليس في المصراع الأول من البيت إلا سفاوته ، كما سنرى فيما يأتي .

بدأ الباقلاني اختياراته من هذا القسم الغزلي بيتين وهما :

كد أهلك من أم الحورث قبلها
وجارتها أم الرباب بمأسل
إذا قانتا تصوع المسك منها
نسيم الصببا جاءت بر يا القرمفل

لقد تسلل حزن الشاعر إلى هذين البيتين منذ أن تذكر محبوبته ، ووقف على أطلالها في سقط اللوى ، فاسترجع (هنا) زمانه الماضي ، وتحسر على أم الحورث وأم الرباب اللتين كانتا بمأسل . ورغم ما في هذه الذكريات الغزلية من مبالغاة إلا أنها تكشف عن جو من الحزن الدفين الذي يتلام مع اليأس الذي التحفه الشاعر في أول القصيدة ، فهذه المقامرات تتم عن حالة من التحسر على الماضي ، وفيها ما يتواكب مع مبدأ التعويض الذي تبطن به نفسية الشاعر . وإلا فكيف يتغزل بامرأتين في بيت واحد ؟

ونطالع انتقاد الباقلاني لهذين البيتين حيث يقول : « أنت لا تشك .

في أن البيت الأول قليل الفائدة ، ليس له بهجة ، فقد يكون الكلام مصنوع
اللفظ ، وإن كان متزوع المعنى .

وأما البيت الثاني فوجه التشكف فيه قوله :

إذا قامت تضرع المسك منها

ولو أراد أن يهود أفاد أن بهما طيبا على كل حال ، فأما في حال التيام
فقط فذلك تقصير ١١١

ثم فيه خلل آخر : لأنه بعد أن شبه عرفها بالمسك شبه ذلك بنسيم
القرنفل ، وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص (١) .

إن بعضا من هذه اللفظات النقدية التي تستشف من ظاهر الألفاظ يمكن
الافتناع بها في ضوء المفاهيم النقدية القديمة التي تسير البديهة البلاغية التي
عاش فيها الباقلائي ، ومثل ذلك ما قاله عن قول امرئ القيس :

إذا قامت تضرع المسك منها

حق وإن رد البعض عن المأخذين اللذين قالهما عن بيت امرئ القيس
الذي ذكرنا صدره . قال : « ويعتذر على الأول بأنه جرى على المعروف
من أن الرائحة الطيبة تفوح بقوة زائدة متى وقع الجسم الذي تقوم به في حركة
لتحويج الهواء الذي تنتشر به الرائحة ، وأما الوجه الثاني فقامم على القاعدة
البلاغية وهي أن يأخذ المتكلم في مقام المدح بطريق الترقى من الوجه
الآدنى إلى ما هو أبلى منه ، واعتذر عنه بأن الغرض تشبيه انتشار الرائحة
الطيبة عند قيامها بانتشار الرائحة التي يجب بها النسيم لتشبيه نفس

الرائحة بالقرنفل يمد تشبهاً بالمسك: (١).
ثم يمضي الباقلاني في نقده للآيات القرآنية من المعلقة فيذكر هذين البيتين:

ففاضت دموع العين منى صباة
على النحر حتى بل دمعى محلى (٢)
ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم يدارة جليل
لقد ظفر البيت الأول من هذين البيتين بنصيب كبير من نقد الباقلاني، وهو نقد لغوي قريب وظاهر. على أن هذا البيت يستكمل به الشاعر ذكريات الماضي مع المرأتين السابقتين ذكرهما. كما يؤكد به ما قررناه حول موجة الحزن التي تجتاح الشاعر منذ البيت الأول. وقد كان حريصاً على ذكر كل ذلك والإفاضة فيه تمهيداً لاسترضاء فاطمة بنت عمه، والتي اشتهرت بعتزة - حسب قول البعض - وهي البطلة الوحيدة ليوم دارة جليل. ولنقرأ ما قاله الباقلاني عن البيت الأول: «قوله (ففاضت دموع العين) ثم استعانه بقوله (منى) استعانة ضعيفة عند المتأخرين في الصنعة وهو حشو غير ملبح ولا بديع، وقوله (على النحر) حشو آخر، لأن قوله (بل دمعى محلى) يفتى عنه، ويدل عليه وليس بحشو حسن ثم قوله حتى بل دمعى محلى لإعادة ذكره الدمع حشو آخر، وكان يكفيه أن يقول: حتى يلت محلى فاحتاج لإقامة الوزن إلى هذا كله».

ثم نقديره أنه قد أفرط في إفاضة الدمع حتى بل محله تفريط منه وتقصير، ولو كان أبدع لكان يقول: حتى بل دمعى مغائبهم وعراضهم، ويشبه أن يكون غرضه إقامة الوزن والثافية، لأن الدمع يعد أن يبل

(١) عبد السلام الحوفي. شرح القصائد العشر للبربري. (هامش)
ص ٢١ دار الكتب العلمية: بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م)
(٢) المحمل: سير يحمل به السيف

المحمل ، وإنما يقطر من الواقف والقاعد على الأرض ، أو على الذيل ١١
ولن يله فلقته ، وأنه لا يقطر... (١).

يدور النقد السابق حول مسألة واحدة وهي الإطالة في اللفظ، والى
رصدنا الناقد في ثلاثة مواضع وهي قوله «منى» و«على النحر» و«دمعى»
ولا يخفى علينا جو اخون الذى غمر الشاعر منذ بدء القصيدة، وكان الدمع
في البيت المذكور تعبيراً عن الأسمى الدفين الذى احتوى الشاعر احتواء
كاملاً ، ولم يكن هذا الدمع إلا تخفيفاً من اللوعة التى اكنوى بنارها منذ
أن وقف وبكى على ديار محبوبته . وقد ورد البعض على نقد الباقلانى فقال:

« والجواب عن الأول : أن لفظة (منى) قامت مقام إضافة العين إلى المتكلم،
فلو قال دموع عيني لكان لفظ (منى) حشواً موزولاً، ولا تنكر أن الإضافة
لوساعد عليها الوزن تكون اللطف وأخف على الذوق من زيادة لفظ (منى).

والجواب عن الثانى : أن العيب إنما هو إيراد الكلام الذى يغنى فيه
الأول عن الآخر، أما عكسه فقبول إذ يكون الأول قرر معنى في نفس
السامع ثم أتى الثانى ودل على معنى جديد ، وفي ضمنه الدلالة على المعنى
الذى دل عليه الأول .

والجواب عن الثالث أن قصارى ما فيه الإظهار في مقام الإضمار، وهو
هنا غير معيب إذ لا يذو عنه الذوق ، وقد أكسب التركيب مناعة ، وفيه
قوة الإيماء إلى أن الدمع الذى هو معروف بالقلّة ومعهود بعدم الانحدار
إلى ما وراء الحدود قد استرسل وانتشر إلى أن سأل على النحر وبلى المحمل.
ولم يرد امرؤ القيس أن يبعد عن الحقيقة فيقول : يسيل دمعى مغائريهم
وعراضهم ، والتطوع في المبالغة إلى هذا الحد إنما يسرع إليه المولدون» (٢).

(١) الباقلانى . إيجاز القرآن ص ١٦٣ ، ١٦٤

(٢) عبد السلام الخرفى . هامش شرح القصائد العشر للتبريزى ص ٢٢

ولا يخفى علينا ما قصد به الشاعر من التذليل على حزنه بكثرة البكاء .
ثم يأتي بعد ذلك قوله :

ويوم عقرت للعداري مطيقي فيأجيباً من رحلها المتحمل
فظل العذاري يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتل
حيث عاب الباقلاني سفاهة الشاعر الذي عقر ناقته للعداري، وانقطاع
المصراع الثاني عن سابقه في البيت الأول ، كما عاب تعجب امرئ القيس
من تحمل العذاري لرحله . وقال : «ولو سلم البيت من العيب لم يكن فيه شيء
غريب ولا معنى بدع أكثر من سفاهته مع قلة معناه ، وتذارب أمره ،
ومشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا !

وإلى هذا الموضع لم يمر له بيت رائع ، وكلام رائق (١) .

ولقد وضع لنا تعصب الباقلاني للقديم ، ورأيه لتجديدات المحدثين
على عصره ، وإذا رد بعض معاني امرئ القيس لمشاكرتها طبع المحدثين في
العصر العباسي . كما سجل بعض المأخذ على البيت الثاني ، وإن رد على
معظمها ، فقد انتقد الشاعر في أنه وصف طعامه الذي أطلع من أضاف
بالجوذة ، وإن رد على ذلك فقال : «وقد يقال : أن العرب تفتخر بذلك
ولا يروونه عيباً ، وإنما الفرس هم الذين يرون هذا عيباً شنيعاً» (٢) ،
واغتفر التبعيض بما أطلع للأضياف وذم تبعيضه بما أطلع للأحباب ، ثم
استدرك فقل هذا التبعيض الأخير لا يراد الكلام مورد المجون حيث قصد
الشاعر وصف حاله مع أحبائه في اللعب والترامى بلحم الناقة» (٣) .

(١) الباقلاني إعجاز القرآن ص ١٦٥

(٢) المصدر السابق ص ١٦٥

(٣) انظر : عبد السلام الخوري هامش شرح القصائد العشر للتبريزي

وعرض للآيات التي تحدث الشاعر فيها عن اليوم الذي دخل فيه
خدر عنيزة حيث قال :

ويوم دخلت الحدر خدر عنيزة
فقلت : لك الويلات إنك مرجلي
تقول وقد مال الغيظ منا معاً
عقرى بعيرى يا امرئ القيس فانزل
فقلت لها سبرى وأرعى زمامه
ولا تبعدينى من جنك المعلن
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له
يشق وتتحى شقها لم يحول
ويوما على ظهر الكتيب تعذرت
على وآلت حلقة لم تحلل

ويدور انتقاد الباقلاني لهذه الآيات التي ذكرها اثنين اثنين حول
قضية واحدة ، وإن اختلفت مسمياتها ، وطرق التعبير عنها ، وهى الفجور
والتمهر . فعنده أن كلام الشاعر على لسان عنيزة « لك الويلات إنك
مرجلى ، كلام مؤثت من كلام النساء » (١) .

والبيت الذى يقول فى أوله :

فقلت لها سبرى ...

« قريب النج ، ليس له معنى بديع ، ولا لفظ شريف ، كأنه من
عبارات المنحطين فى الصنعة » (٢) وقوله عن البيت الذى يليه : « وفيه
من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم عن مثله ، ويأنف من

(١) الباقلاني : الإعجاز من ١٦٦ (٢) المصدر السابق ص ١٦٧

ذكره» (١) ويقول مثل هذا عرب البيتين الأخيرين ، ثم يحتمل فقدته فيقول : « وأنت تجد في شعر المحدثين من هذا الجنس في النغول ما يذوب معه القلب ، وتطرب عليه النفس ، وهذا مما تستنكره النفس ويشتمز منه القلب ، وليس فيه شيء من الإحسان والخس» (٢) .

وقد سبق أن بينا ما قاله ابن سلام عن بعض الآيات الغولية التي تعبر بها الشاعر ، وتابعه في ذلك من جاءوا بعده إلا أن الباقلاني قد زاد في عدد هذه الآيات ، وجمع إلى تسفيه الشاعر في المني تسفيهه في طرائق التعبير حتى رأيناه لم يعجب بيت واحد من هذه الآيات التي تقدمت .

وننف هنا وقفة قبل أن ننتقل إلى بعض الآيات الأخرى لنلتبس العذر لكثير من القدماء الذين أخذوا ما قاله امرؤ القيس ونظرائه بعميار الصدق والكذب . متساملين عن مدى صدقه ، وعن غايته إذا كان كاذبا .

ولا شك في أن الشاعر قد تكاشف بفزله الحسى في الآيات السابقة وبخاصه ما ذكره حول دارة جليل .

ولقد جمعت بين هذه الآيات وحدة كلية ، وهي التفاخر باللهو والمغامرة ، والتحدث عن الذكريات القديمة .

ثم نتساءل عن الرابطة التي تولف بين هذه المغامرات ، وما ذكره الشاعر في المقدمة . . ونقول: إن هذه الآيات بما فيها من خلعة ومجون تمكشفت بوضوح عن الحسرة والحزن والضيق ، التي اكتنفت الشاعر ، ولم تكن إلا عرضا وخيها ومغامرة مكشوفة أراد التقرب بها إلى قاطعة التي

(١) المصدر السابق ص ١٦٧ (٢) المصدر السابق ص ١٦٨

طلبها زماناً ولم يصل إليها ، وأزاد الزواج منها فلم يقض له ، مع أنه كان شبه عاجز مع المرأة ، وبأن ضعفه أمامها في بعض المواقف الأخرى ، ولهذا اتهم النقاد له أكثر من مخرج ، فرأى الدكتور إبراهيم عبد الرحمن أن الشاعر كان مشغولاً بفكرة الانتصار على الإنسان والطبيعة فقال : « وانشغال امرئ القيس بتحقيق الانتصار له ما يبرره فقد عاش في ظروف صعبة قاسية بدأت فيها يقص القدماء من أخباره يطرد آبيه له ، وسواء أصبحت هذه الأخبار أو لم تصبح فإن في المعلقة وغيرها من أشعاره وأخباره الصحيحة ما يدل على أنه كان يحيا حياة لم يبعداً عن آبيه وقبيلته ، وأنه علم بمقتل آبيه في غربته وتشرده ، فعاد ليأخذ بثأره في قصة طويلة محزنة » (١) .

ولا يعني أن نستطرد فنذكر ما قيل حول هذه المغامرات ، لأن معظم ما كتب عنها لا يتجاوز حدود الرؤية الشخصية التي إن صححت على بعض الآيات احتاجت إلى ما يؤيدها ويقويها حول بعض الآيات الأخرى .

ويبقى غلاف الحزن كاسياً الشاعر من جميع جوانبه ، ولذا تخالف من قال بأن الشاعر قد قال هذه القصيدة في أول حياته عندما كان بعيداً عن آبيه ، إذ لا بد أنه قد قالها بعد أن بلغت تجاربه حداً كبيراً ، وكان ذلك في الرحلة الأخيرة من حياته التي شغل فيها بطلب النار لأبيه ، حيث تجسعت الأحزان والمهوم عليه ، ووضع ذلك في أكثر الآيات ، وإن كان ظاهراً الغزل والنهر والمجنون .

وينقل الباقلاني إلى نقد بعض الآيات الغزلية التي تشبه العذوية ، قال فيها امرؤ القيس :

(١) د / إبراهيم عبد الرحمن . قضايا الشعر في النقد العربي ص ٤٩٣

أفطم مهلاً بعض هذا التدلل
ولن كنت قد أزمعت صرى فأجلى
أعرك منى أن حبك قاتلى
وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل

والبيت الأول فيه ركازة جداً من وجهة نظر الباقلانى ، كما يرى أن
المصراع الثانى منقطع عن الأول ولا يلائمه ولا يوافقه ، كما عاب البيت
الثانى ، لأنه قد أخبر أن من سبيلها أن لا يفتر بما يريها من أن حبها يقتله ،
وأنها تملك قلبه فما أمرته فعله ، والمحـب إذا أخبر عن مثل هذا صدق .

وإن كان المعنى غير هذا الذى عيب عليه ، وإنما ذهب مذهبا آخر
وهو أنه أراد التجلد فهذا خلاف ما أظهر من نفسه فيما تقدم من الآيات
من الحب والبكاء على الأحبة فقد دخل فى وجه آخر من المناقضة والإحاطة
فى الكلام .

ثم قوله : « تأمرى القلب يفعل » معناه تأمرينى ، والقلب لا يؤمر ،
والاستعارة فى ذلك غير واقعة ولا حسنة (١) .

إذن فلقد عاب امرأ القيس بما أخبر به بحبونه من أن حبها يقتله ،
وأنها تفتر بذلك ، وأنها تأمر قلبه ، وتنصرف عنه . وإذا أراد الشاعر
إظهار التجلد — وهذا غير وارد — فقد ناقض نفسه . كما رفض
الاستعارة فى البيت الثانى مفسراً قوله (تأمرى القلب) بمعنى (تأمرينى)
حيث إن القلب لا يؤمر .

ولا شك فى أن الرجل قد صرف الاستعارة عن وجهها الصحيح ،
لأن الأمر موجه من الحبيبة إلى قلبها فما يأمر به فعلته . وقد جاء فى كتاب

(١) الباقلانى . إيجاز القرآن ص ١٦٩ .

البصائر والذخائر ما يحكيه أبو حيان فيقول : « وقال محمد بن راشد : كنا يوماً مع إسحاق بن إبراهيم الطاهري نتحدث ونخوض في ضروب من الأدب ، فأقبل علينا فقال :

ما أراد امرؤ القيس بقوله :

أغرك من أن حبك قاتلي

وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل ؟

فكل قال بما حضره ؛ فقال : لم يرد هذا . قلنا : فما أراد ؟ قال أراد أنك تملكين قلبك فإن أردت صرفي قدرت عليه ، وإن أردت صلتى قدرت عليها ، وأما أنا فلا أملك من قاي إلا صلتك ، (١).

ويمتد هذا الحوار الوجداني الذي ذكره الشاعر في البيتين السابقين إلى قوله في مخاطبة فاطمة :

فإن كنت قد ساءتلك مني خليقة

فسل ثيابي من ثيابك تنفسل

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي

بسميك في أعشار قلب مقشّل

اتد سبق أن عرفنا بمنهج الباقلائي في نقد القصيدة من حيث وقوفه على جزئيات المعنى وحمله على فجور الشاعر ، وتعبيره ، والنظر إلى ظاهر اللفظ ، وإرتكازه على حرفية التفسير اللغوي . وما قاله عن البيت الأول من هذين البيتين لا يخرج في محناه عما ذكرناه . أما نقده للبيت الثاني فيحتاج إلى وقفة حيث عده من محاسن القصيدة وبدائعها إلا أن البيت — كما يقول — غير ملائم للبيت الأول ولا متصل به في المعنى ، وهو

(١) السيد صقر . هامش إعجاز القرآن ص ١٦٩

منقطع عنه ، لأنه لم يسبق كلام يقتضى بكاءها ، ولا سبب يوجب ذلك ،
فتركيبة هذا الكلام على ما قبله فيه اختلال ، (١) .

كما ذكر تفسيران لهذا البيت أولها عن الأصمعي ومعناه : « ما بكيت
إلا لتجرحي قلبا معشراً — أى مكسراً — من قوالم (برمة أعشار) إذا
كانت قطما ، (٢) .

إلا أن هذا المعنى أوقع الشاعر في خال لفظي ، وصار كلامه —
حسب رؤية الباقلاني — ساقطاً مردولاً .

أما المعنى الثاني ، وهو لنير الأصمعي فقد قيل للنخلص من استكراه
اللفظ على المعنى الأول . وأبان صاحب إيجاز القرآن عن هذا المعنى
فقال : « وقال غيره : وهذا مثل للأعشار التي تنقسم الجزور عليها ،
ويعنى بسميك الممل وله سبعة أنصباء والرقيب وله ثلاثة أنصباء ،
فأراد أنك ذهبت بقلبي أجمع ... وقال : وأنت تعلم أنه على ما يعنى به
فهو غير موافق للأيات المتقدمة لما فيها من التناقض الذي بينا » (٣) ...
« لأنه إن كان محتاجاً على ما وصف به نفسه من الصباية فقلبه كله لها ،
فكيف يكون بكاءها هو الذي ينخلص قلبه لها ؟ » (٤) .

وهكذا رأينا كيف قبل الباقلاني المعنى على الرأى الأول ، وعاب اللفظ ،
وكيف قبل اللفظ على التفسير الثاني ورفض المعنى ، إلا أنه مع ذلك
ارتضى هذا البيت ، وعده من محاسن القصيدة ، ولم يذكر سبباً لذلك ،
فهم ذكر أنه ليس بعجيب أن يسلم للشاعر بيت من عشرين بيتاً . « لأنه

(١) لباقلاني ، إيجاز القرآن ص ١٧٠ ، ١٧١

(٢) المصدر السابق ص ١٧٠ (٣) المصدر السابق ص ٧٠

(٤) المصدر السابق ص ١٧٠

لا يدعى على مثله أن كلامه كله متناقض ، ونظمه كله متباين ، وإنما
يكفى أن نبين أن ما سبق من كلامه إلى هذا البيت مما لا يمكن أن يقال
أنه يتقدم فيه أحدا من المتأخرين فضلا عن المتقدمين ، (١) .

وقد رضح لنا أن هذا المنتقد متعصب للتقدمين على عادة كثير من
القدماء الذين لم يروا أى فضل للتأخرين .

ثم بين الأسباب التي تقدم بها الشاعر غيره وكشف عن توجهه من
نقد قصيدة امرئ القيس فقال : « ولأننا أنكرنا أن يكون شعره متناسبا
في الجودة ، ومتشابها في صحة المدنى واللفظ ، وقلنا : إنه يتصرف بين
وحشى غريب مستنكر ، وعربية كالمهل مستكرهة ، وبين كلام سليم
متوسط ، وبين عامى سوقى في اللفظ والمعنى ، وبين حكمة حسنة ، وبين
سخف مستنقع ، ولهذا قال الله عز اسمه : ولو كان من عند غير الله
لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (٢) .

ويواصل الشاعر حديثه عن فاطمة فيقول :

ويهنئة خدر لا يرام خباؤها
تمنت من هو بها غير معجل
تجاوزت أحراساً وأهوال معشر
على حراس لو يسمون مقتل

وقد استنكر الباقلاني سبق الشاعر إلى تشبيه محبوبته ببيضة الخدر
في البيت الأول ، قال : « فقد قالوا : تمنى بذلك أنها كبيضة خدر في صفاتها »

(١) المصدر السابق ص ١٧١ (٢) النساء آية ٨٢

ورقتها ، وهذه كلمة حسنة ، ولكن لم يسبق لإليها ، بل هي دائرة في أفواه العرب ، وتصديه سائر ، (١) .

وقد بان تمامه في نقد هذا البيت ، ولذا قال مصطفى صادق الرافعي :
« ألا ليت شعري هل كان الباقلاني يسمع من أفواه العرب في عصر
أمير القيس قبل أن يقول : (وبيضة خدر) ١٩ »

على أن الكناية عن الحبيبة (بيضة الخدر) من أبدع الكلام ،
وأحسن ما يؤتى العقل الشعري ، (٢) .

ثم قال : « ... إنما عني الشاعر العظيم أن حبيبته في نعومتها وتردفا
جولين ماحولها ، ثم في سما وحرارة الشباب فيها ، ثم في رقتها وصفاء لونها
وبريقها ثم في قيام أهلها وذويها عاينها وزوهم لهاها ، ثم في انصرافهم
بجملة الحياة إلى شأنها وبجملة القوة إلى حيائها والمقامة عنها ، هي في كل
ذلك منهم ومن نفسها كبيضة الجراح في عشه ، إلا أنها بيضة خدر ، ولذلك
قال بعد هذا البيت :

تجاوزت أحراساً إليهما ومعشراً
على حراساً لو يسرون مقتلي
فتلك بعض معاني الكلمة ، وهي كما ترى ، وكذلك ينبغي أن ينسر
البيان ، (٣) .

أما البيت الثاني من البيتين المذكورين فقد رآه الباقلاني ضميمنا حيث

(١) الباقلاني إعجاز القرآن ص ١٧١

(٢) مصطفى صادق الرافعي مقدمة كتاب (أمير الشعر في العصر القديم)

ص ١٣ دار نهضة مصر ١٩٧٤ م

(٣) المرجع السابق ص ١٤

قال امرؤ القيس : « لو يسرون مقتلي ، وكان عليه أن يقول : لو أسروا ،
فوقع الضعف فيه حتى إن المتأخر ليحتز عن مثله ، ولا نرى أن الضعف
يمكن أن يتسرب إلى البيت لمجرد عدول الشاعر عن التعبير بالماضي إلى
التعبير بالمضارع . الذي ربما كان اضطراره إلى ذلك من أجل الضرورة
الشعرية .

ولقد تحدث القدماء عن البيت الذي يقول شاعرنا فيه :
إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

وقالوا : إن الثريا لا تتعرض ، والتمس بعضهم العذر له وقالوا إنه
أراد الجوزاء وكان الشاعر قد أحب أن يبين تجاوزه للأصول والأحراس
حيث أجهت الثريا للنفيس وأبانت عرضها (أي ناحيتها) « فشبها بالوشاح
المفصل إذا تلقاك بناحيته » (١) .

وذكر الباقلائي أن البيت المذكور من محاسن التصيدة ، غير أنه
لا يفوق أبيات المتقدمين أو المتأخرين في وصف الثريا ، وأورد لذلك
بعض ما قاله الشعراء .

وقال : « ولو نسخت لك كل ما قالوه من البديع في وصف الثريا —
نطال عليك الكتاب ، وخرج عن الغرض ، وإنما نريد أن نبين لك أن
الإبداع في نحو هذا أمر قريب ، وليس فيه شيء غريب ، وفي جملة
ما غفلناه ما يزيد على تشبيهه في الحسن ، أو يساويه أو يقاربه... » (٢) .
ويبدو أنه لم يرد أن ينسب ميزة للشاعر ، فاستأنف قائلا إن في البيت
خبريا من التكلف حيث إن قوله « تعرضت » من الكلام الذي يستغنى

(١) الديوان (الشرح) ص ١٤

(٢) الباقلائي إعجاز القرآن ص ١٧٥

عنه ، إلى غير ذلك من المآخذ التي رصدتها لتكلف الشاعر في هذا البيت .

ويكتمل ما اختاره الباقلاني من أبيات امرئ القيس في الغزل بهذه الأربعة التي قال فيها :

نجت ، وقد نضت لسوم ثيابها
لدى الستر إلا لبسة المنفضل
فقلت : يمين الله مالك حيلة
وما إن أرى عنك الغواية تنجلي
فقممت بها أمشي تحسر وراءنا
على إثرنا أذيال مرط مرجل
فلما أجزنا ساحة الحى وانتهى
بنا بطن خبت ذى حفاف عقتل

وقد تابع الباقلاني بعض النقاد القدماء في اعتراضهم على ترتيب الشاعر للبحان فقال : انظر إلى البيت الأول والآيات التي قبله ، كيف خلط في النظم وفرط في التأليب ! فذكر اجتمع بها ، وذكر الوقت والخال والحراس - ثم ذكر كيف كان صفتها لما دخل عايها ووصل إليها ، من نزعا ثيابها لإلتوبا واحدا ، (١) .

إن الترتيب الذي عناه منقوض بالكثير من القصائد التي تقدمت فيها أبيات في بعض الروايات ، وتأخرت في روايات أخرى . بل إن هذا التقديم والتأخير قد ورد بالتصيدة التي معنا ، كما اعترض البعض عن نقد الباقلاني أو غيره من النقاد فيما يتصل بموضع هذا البيت .

فقال : « وهكذا يسوى هؤلاء النقاد بين المنطق العقلي في ترتيب المعاني والمنطق الوجداني في ذلك ، وينسون أن منطق الوجدان يتحرك في عالم كأنه الحكم المضم بالرموز ... وربما قلنا في تحليل هذا الترتيب إنه يمر عن متعة الذكرى ، وذلك باستعادة الحكاية من جديد بتفصيلات أشمل بعد السرد الأول... وربما قلنا من جهة أخرى إلى شوق المحبين بعد الذي يحجب عنهم تفصيلات الصورة عند أول اللقاء فناء وانهاراً بلدة الوصال، ثم يكون بعد ذلك ما يكون من التحقق من معالم المكان والزمان والوعي بالذات » (١) .

وقد يكون الباقلاني على حق في انتقاده للألفاظ الوحشية المعقدة في البيت الأخير ، إذ قال : « وهذا بيت متفارت من الآيات المتقدمة، لأن فيها ما هو سلس قريب يشبه كلام المولدين ، وكلام البذلة ، وهذا قد أغرب فيه ، وأنى بهذه اللفظة الوحشية المعقدة . وليس في ذكرها والتفصيل بإلحاقها بكلامه فائدة » (٢) .

إلا أن بعض المحققين قد دافع عن الشاعر ، ورأى في هذه الألفاظ الخشنة بما فيها من وحشية وتنافر ما يتلاءم مع الظرف التاريخي الذي تحدث عنه امرؤ القيس في هذا البيت ، قال : « ذلك لأن الشاعر أراد أن يعبر عن مكان فيه صخور ورمال ومرتفعات ومنخفضات ، وفيه تداعل والتواء ، وفيه قطعة من أرض سوية مطمئنة ، ومثل هذا الموطن يصلح للاختباء ، ولا سيما في الليالي الدكناء وقرب موطن الأعداء » (٣) .

وقد اختار الباقلاني خمسة أبيات وصف فيها الشاعر محبوبته وهو :

(١) د/عفت الشرفاوى . دروس ونصوص ص ٢٤٤ ، ص ٢٤٥

(٢) الباقلاني : الإيجاز ص ١٧٧

(٣) د/بكرى شيخ أمين . المعاني السبع ص ٣٤

هصرتُ بفضى دوحه فتأملت على هضم الكشح ربا المخلخل
مهفهفه يضاء غير مفاضة تراثها مصقولة كالسجنجل
تصد وتبدى عن أسيل وثثق بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الريم ليس بفاحش إذا هي تفضته ولا بمعطل
ويضحى فذبت المسك فوق فراشها
تقوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

ونلاحظ أن نقد الباقلاني لهذه الأبيات لا يتجاوز الألفاظ حيث
رأى أن قول الشاعر « بفضى دوحه » تعسف ولم يكن من سيئه أن
يجعلها اثنين .

وأن قوله « بناظرة » لفظة مليحة . أما قول : « من وحش وجرة » فكان
يجب أن تكون العبارة بخلاف هذا حيث « كان من سيئه أن يضيف إلى
عيون الظباء أو إليها دون إطلاق الوحش . ففهم ما تستنكر
عيونها » (١) .

وأن كلمة « مطفل » زيادة لا فائدة فيها . وأن قوله « ليس بفاحش » في
مدح الأعناق كلام فاحش . واستنكر هذه الكلمة فقال : « وإذا نظرت
في أشعار العرب رأيت في وصف الأعناق ما يشبه السحر فكيف وقع
على هذه الكلمة ودفع إلى هذه اللفظة ؟ » (٢) .

(١) الباقلاني ، إيجاز القرآن ص ١٧٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٩ .

وقد رأينا الشاعر معنياً بالأوصاف الحسية لمحبوبته ، فهي ضامرة
الحصر : ممتلئة الساق : ممشوقة القوام ، بيضاء . غير مترهلة ولا محيلة ،
وصدرها كالمرآة المصقولة ، أو كسيكة الفضة . ويتخلى عن الحسية ،
ليصف طباعها بالتلون ، حيث تصدى وتبدى . وإذا ما أدبرت ظهر جانب
من خدها الأملس الجميل ، ولعله بذلك قد عاد إلى الحسية ، وشبه جيدها
بجيد الفؤاد إلا أنه ليس خالياً من الخلق والجواهر ، وقد وصف ترفها
بجعل المسك يعبق فوق فراشها بعد أن تقوم من نومها في الضحى ، وهي
لا تضع النطاق فوق ملابسها استعداداً للغسل لقيام من ينفض ذلك عنها .

٣ — وصف الليل

اختار الباقلاني ثلاثة أبيات مما قاله امرؤ القيس عن الليل في هذه
القصيدة وقدم لها فقال :

وما يعدونه من محاسنها :

وليل كموج البحر أرخى سدوله

على بأنواع المموم ليتلى

فقلت له كما تخطى بصلبه وأردف أعجازاً وناه بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلي

بصبح وما الإصباح نيك بأمثل

لقد كشف الشاعر عن آلامه وأحزانه بعد أن حرم من محبوبته (فاطمة)
فاشتمله الليل بظلامه ، وألقى عليه سدوله ، ليختبر قدراته على الصبر ،
والتحمل ، وقد شبه الليل بموج البحر ، ثم انتقل إلى تشبيه الليل بالجميل
الذى ينوء بصلبه على الأرض في بطنه وتناقل ، فكشف عن تراحم
المموم عليه في هذا الليل الطويل الذي لم يكن الصباح بأحسن حالاً منه .

وليس الحسرة والالام التي اشتملت الشاعر في سائر القصيدة بخافية في هذه
الآيات التي كان القدماء يعارضونها يقول النابغة :

كأني لم يا أميمة ناصب وليل أفسيه بطن الكواكب
وصدر أراح الليل عازب هم
تضاعف فيه الحزن من كل جانب

تفاسر حتى قلت ليس بمنقض

وليس الذي يتلو التجريم بآيب

وقد ذكر الباقلاني آيات امرئ القيس ، وأتبعها بآيات النابغة
حيث جرت الموازنة بينهما بين يدي بعض الخلفاء ثم قال : «فقدمت آيات
امرئ القيس واستحسنست استعارتها ، وقد جعل الليل صدرا ينقل تنجيه ،
ويطوى تقضيه ، وجعل له أردافا كثيرة وجعل له صابيا يمتد
ويتطاول» (١) ، وكان الباقلاني رأى في هذا الإحجاب ما يؤثر على مذهبه
في الإعجاز ، فعقب قائلا : «واعلم أن هذا صالح جميل ، وليس من الباب
الذي يقال : إنه متناه عجيب . وفيه إلمام بالكلف ودخول في العمل» (٢) .

٤ — وصف الفرس :

ذكر الباقلاني ثلاثة لأمري القيس في وصف الفرس ، وأعجب
بها وأقر بمجودتها ، وهي :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوبد هيكلا
مكر مفر مقبل مدبر معا كجلود صخر حطه السيل من عل
له أبطالا ظبي وساقا نعاما وإرغاء سرحان وتقريب تنفلا

(١) المصدر السابق ص ١٨١

(٢) المصدر السابق ص ١٨١

وقد امتدح القدماء هذه الآيات وغيرها مما قاله امرؤ القيس في وصف الفرس . وتمتد سرعة هذا الحيوان من أهم الصفات التي شغل شاعرنا بتصويرها ، والحديث عنها . ولم يعد يخاف علينا أسلوب الباقلاني الذي يتماوج بين البناء والافسكاك منه ، فإذا امتدح معنى أو أثنى على لفظ نراه يتراجع عما قاله مؤكدا على عدم تفرد الشاعر ، وعدم سبقه إلى ما قال ، فيعرض مثلا لقول امرئ القيس «قيد الأوابد» ويذكر أنه مليح ، ثم يعقب قائلا : «ومثله في كلام الشعراء وأهل الصناعة كثير . والتعمل بمثله ممكن» .

وأهل زماننا الآن يصنفون نحو هذا تصنيفا ، ويقولون المحاسن تأليفا ، يوشحون به كلامهم ، والذين كانوا من قبل — لغزارتهم — وتمكنهم — لم يكونوا يصنعون لذلك ، وإنما كان يتفق لهم اتفاقا ، ويتردد في كلامهم طرادا (١) .

ولو راجعنا مقال الباقلاني عن هذا البيت عندما كنا نتحدث عن إعجابه بشعر امرئ القيس ، لوجدنا الهوة صحيحة ، واليون شاسعا بين الاستحسان هناك ، والتكاسل عن إظهار الإعجاب هنا مما يؤكد مذهبية الرجل التي اتجه بها إلى نقد الشعر .

وقال في نقده للبيت الثاني : «وأما قوله في وصفه : «مكر مفر» فقد جمع فيه طباقا وتشبيها ، وفي سرعة جرى الفرس للشعراء مادوا أحسن من هذا وألطف» (٢) .

كما انتقد البيت الثالث بهذه الطريقة فقال : «وكذلك في جمعه بين أربعة

(١) المصدر السابق ص ١٨٢

(٢) المصدر السابق ص ١٨٢

وجوه من التشبيه في بيت واحد—صنعه ولكن قد عورض فيه، وزوجهم
[عليه] والتوصل إليه يسير، وتطلبه سهل قريب،^(١).

ونق كذا في النهاية على فساد الموازنة بين القرآن الكريم وجنس الشعر
عامة، وأن الباقلاني كان متعاملا على شعر امرئ القيس لإثبات أن فيه
سقوطا وعوارا. وأنه لو أنصف في نقده، فإن مأخذا واحدا عما سجله
القدماء حول المعلقة لكاف في إثبات النظرية التي تحمس لها، ودافع عنها
في كتابه عن إعجاز القرآن الكريم.

(١) المصدر السابق ص ١٨٢

الْبَاقِيُ الثَّالِثُ

أمرؤ القيس في مؤلفات المحدثين

- الفصل الأول : تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي .
- الفصل الثاني : في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين .
- الفصل الثالث : أمير الشعر في العصر القديم لمحمد صالح سملك .
- الفصل الرابع : الشواخ (أمرؤ القيس) للدكتور محمد صبري السريوني .
- الفصل الخامس : أمرؤ القيس حياته وشعره للدكتور الطاهر أحمد مكي .
- الفصل السادس : كتابات أخرى .



الفصل الأول

تاريخ آداب العرب

لمصطفى صادق الرافعي (١)

كتاب مصطفى صادق الرافعي بأجزائه الثلاثة موقوف للمستقلين بالآداب منذ أن بدأ طبع الجزء الأول منه سنة ألف وتسعمائة وإحدى عشرة لليلاد .

(١) ولد مصطفى صادق الرافعي عام ١٨٨٠ م ، وحصل على الشهادة الابتدائية ، ثم أصيب بالصرم ، فانقطع عن التعليم ، وواصل دراسته بنفسه ، وكان قد بدأ حياته بكتابة الشعر ، ثم انصرف عنه إلى التأليف والكتابة . وقد ألف كتابه (تاريخ آداب العرب) وعمره ثلاثون عاماً ، وهو من بواكير الكتب في هذا الفن ، إذ كتبه استجابة لدعوة الجامعة المصرية إلى تأليف كتاب في (أدبيات اللغة العربية) ، وانقطع لتأليفه عام ١٩٠٩ م وانتهى منه ، ثم بدأ طبعه عام ١٩١١ م . وكان قد سبقه جرجي زيدان في طبع الجزء الأول (نقط) من كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) ومن مؤلفات الرافعي أيضاً ، وحى القلم (ثلاثة أجزاء) ، تحت راية القرآن ، إبحار القرآن وغيرها . وتوفي عام ١٩٣٧ م وألفت عنه كتب ودراسات عديدة .

وقد درس موضوعات كتابه (تاريخ آداب العرب) بأجزائه الثلاثة في اثني عشر باباً ودرس الأبواب الثلاثة الأولى في الجزئين الأول والثاني ودرس بقية الأبواب في الجزء الثالث الذي طبع بعد وفاته ، وإن كان هذا الجزء قد خرج ناقصاً بعض الأبواب التي خطط لها الرافعي لبحثها في كتابه المذكور.

أما الموضوعات التي بحثت فيه فإنها من الكثرة بحيث لو تحدثنا عنها بتفصيلاتها لاحتجنا إلى كتاب مستقل لا إلى ورقات معدودة .

وقد قدم الجزء الأول (١) بتمهيد من فصلين، تحدث فيهما عن تاريخ كلمة (الأدب) وعن بلاد العرب . ثم بحث في هذا الجزء بابين وهما عن اللغات واللغة العربية ، وعن الرواية والرواة .

ويعد بحثه عن الرواية والرواة ذا أهمية كبيرة ، لأن القدماء كانوا يعدون طائفة الرواة من أهم الأسباب لوضع الشعر ، فأراد الرافعي أن يكشف عن تاريخ هذه الطائفة في الجاهلية والإسلام ، وكيف انضمت بالأدب ، فإذا انتهى من بحث كل ذلك عكف على دراسة الوضع والصنعة في الرواية ، وأسباب الاختلاف في رواية الشعر ، وأشهر الرواة القدماء إلى غير ذلك مما اتصل بتقصية الحكم على الأدب بالصحة والاعتقال، وتحدث في الجزء الثاني (٢) عن تاريخ القرآن والقراءة ، وطرق الأداء ، وعن تأثير القرآن في اللغة ، والجنسيات العربية في القرآن . وآداب القرآن . والقرآن والعلوم ، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية .

وتحدث في الجزء الثالث (٣) عن العديد من موضوعات الأدب العربي وتاريخه ، فعرض في الباب الخامس وهو الأول في هذا الجزء لتاريخ الشعر العربي ومذاهبه ، وبحث الكثير من القضايا المتفرقة ، كحديثه عن أولية الشعر العربي ، ونشأة الشعر ، والباعث على اختراعه ، ثم تكلم عن بيوتات الشعر ، والمعرقين فيه جاهلية وإسلاماً إلى غير ذلك من الموضوعات .

(١) الطبعة الرابعة عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

(٢) الطبعة الثانية عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

(٣) الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م . دار الكتاب العربي بيروت .

وتحدث في الباب السادس عن حقيقة القصائد المعلقة، ودرس شعراءها، وتكلم عن ثلاثة منهم وهم امرؤ القيس وطرفة بن العبد وزهير ابن أبي سلمى.

وعقد الباب السابع لبحث الأدب الأندلسي، ثم جعل بابا للحديث عن التأليف وتاريخه عند العرب. وتوارد الكتب العربية، وجعل الباب الأخير في دراسة الصناعات اللفظية التي أولع بها المتأخرون مثل لزوم ما لا يلزم، والقوافي المشتركة والتخمين والتشطير وما إليها، وتلاحظ الانسكالك بين قضايا الأدب واللغة التي تم بحثها في هذا الجزء. وربما كان ذلك بسبب طبعه بعد وفاة مؤلفه فخرج ناقصا من بعض الأبواب التي لم يكتبها، أو كتبها ولم يعثر عليها بعد وفاته.

امرؤ القيس

يعد مصطفى صادق الرافعي من الأوائل الذين تحدثوا عن امرؤ القيس، حيث أفرد له أكثر من أربعين صفحة بالجزء الثالث من كتابه (تاريخ آداب العرب)، وقد درسه لكونه واحدا من شعراء القصائد الطوال المعروفة بالمعلقات، ولإعجاب القدماء به، ولسبقه للشعراء الجاهليين في أمور أتبعوه فيها فضلا عن مكانته التي أقر بها القدماء والمحدثون مع اختلاف في وجهات النظر بين الأدباء والنقاد.

وابتدأ الحديث عنه بإيضاح معنى اسمه وهو حنيد بن حجر، وبيان كناه وألقابه ثم تحدث عن قيامه بالتأثر لآبيه بعد مقتله، وقوله لعبارة المشهورة بعد أن علم بمقتله: «ضيعني صغيرا، وحلني دمه كبيرا، لأصحر اليوم ولاسكر غدا اليوم غمر وغدا أمر»، وتكلم عن تنقله بين القبائل، وقدمه على السمور، واستنجاهه بالحارث بن أبي شمر الغساني بالشام، وذهابه إلى قيصر الروم (يوستيناس) ومرضه

بالجدرى ، ووفاته عند أنقرة في أثناء عودته من الروم في تاريخ مختلف فيه المؤرخون ، وسبق أن عرضنا لتفاصيل نسب امرى القيس ونشأته ، وحياته ولذلك لا داعى إلى إعادة القول فيها خاصة وأن حقائق التاريخ تكاد تكون واحدة لا تتغير إلا بمقدار الفروق اللفظية بين رواية وأخرى .

أولا - طويلة امرى القيس

عرض الرافعى في إيحاز شديد لطويلة امرى القيس ، وهي المعلقة المشهورة التي قالها يصور فيها ما جرى يوم الغدير عندما كانت تستحم به بعض الغنيمات ، وفيها ابنة عمه فاطمة ثم أحدث ممن ما تحدثت به الأخبار والروايات .

وقد تابع الرافعى القصيدة بين أربع نسخ منها ، بروايات مختلفة ، فوجد كل نسخة تختلف عن الأخرى فهي في الجهرة سبعون بيتا ، وفي الديوان الذى شرحه أبو بكر بن عاصم سبعة وسبعون بيتا ، وفي شرح الزوزنى تسعة وسبعون بيتا ، وفي نسخة أخرى من الديوان (لم يذكرها) خمسة وسبعون بيتا ، حيث تختلف هذه النسخ في تقديم الأبيات وتأخيرها . وفي رواية بعض الألفاظ ، بحيث لم تجتمع روايتان على صورة واحدة .

وإذا كانت مسألة عدد الأبيات ليست بذى بال في مجال دراسة الشعر إلا أنها تتعلق بأمور أخرى في التحقيق والتوثيق كضبط الشعر ، وبيان صحته من زائفه ، ومع ذلك فإن بعض المصنفين السابقين غير صحيح ، فالمعلقة كما جلت في الجهرة تسعون بيتا ، وفي شرح الزوزنى واحد وثمانون بيتا وربما أطلق الرجل على نسخ أو مخطوطات أخرى من النكتانيين المذكورين . فضلا عما تقدم وصلت أبيات المعلقة في ديوان امرى القيس بشرح حسن السندونى إلى اثنين وتسعين بيتا .

وقد أسهم هذا التضارب والتباعد في حصر الآيات وضبط كتابتها وترتيبها في خلق نوع من الاضطراب في الشعر العربي ، وفتح الباب لبعض القدماء ولكنير من المحدثين في التشكيك في الشعر الجاهلي .

ثم تحدث الرافعي عن أفكار هذه القصيدة التي استخلص معظمها من كتابات السابقين فقال: «أما القصيدة فقد وقف فيها واستوقف ؛ وبكى وأستبكى وذكر الديار والآثار، ثم استشعر العزاء وتجلد ، ثم التاع وتهد ، ثم كأنه عفا وتجدد ، وذكر يوم الغدير ، ووصف عقر ناقته للعداوى ، وتبذله لمن تبذل الجساذر وأرتاء من يلحمها وشحمها ، ثم ألم بأطراف العفاف من أبنه عمه ، وتعمر في ذلك حتى كان الكلام لا يمر بقلبه بل يخلقه لسانه خلقا ، إلا في آيات قليلة ، ووصف الجبال وصفا ظاهرا ؛ يبلغ شهوة النظر ، ثم وصف طول الليل ، وخرج من الفخر إلى صفة الخيل ، واستتبع ذلك بالصيد والقنص والطعام ، ثم رفع عينيه إلى البرق والسحاب ، وخفضها إلى الجبل فزمله من المطر في ثياب ، ثم أغضها وسكت كما يسكت على خير جواب ، (١) .

ثم اختار عشرة آيات للتمثيل بها على بعض الأفكار السابقة . منها أربعة آيات في حديث الشاعر إلى فاطمة وأولها ، قوله :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل
ولئن كنت قد أزمعت صرعى فأجلى

وآخيا بثلاثة في وصف الليل . أولها :

وليل كوج البحر أرخى سدوله على بأنواع الموم ليبتلى

(١) الرافعي . تاريخ آداب العرب - ٣ ص ١٩٤

ونملأها بثلاثة أخرى في وصف الفرس ، وبدأها بقوله :
وقد أعتدى الطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكلا
وهكذا جاء حديث الراجعي عن المعلقة مختصرا جدا ، ولا يتناسب
مع مكانة هذه القصيدة في الشعر الجاهلي .

ثانيا - شاعرية امرئ القيس ، وأسباب شهرته .
بحث الراجعي عدة قضايا تتعلق بشاعرية امرئ القيس ، وتميزه على
شعراء عصره ، حتى لقب بأشعر الشعراء ، وبأمرهم وبقاتهم ، إلى غير ذلك
من الألقاب والصفات التي ظفر بها دون سواء ، وهاتين تعرض لما بحثه
الراجعي فيما يتعلق بالشاعرية والشهرة .

١ - فقد شعره

انعكست حياة امرئ القيس على شعره فقد شب خليعا ماجنا حتى
طرده أبوه حسب بعض الروايات ، ثم أراد أن يشغله عن قول الشعر
فجعله يرعى بعض الحيوانات ، ولكنه لم يصبر عليها ، وانصرف إلى
مصاحبة الصعاليك والذويان ، ولم يوفق حجير في أن يطيع ابنة بطايح الملوك ،
فانصرف إلى قول الشعر الذي يتميز بالكشفة والتعبر والفجور ،
وبالكبرياء التي تسمح شعره ، وبالنعمة التي يرف بها رفيقا . كما اتجه إلى
الصيد والغزل ، وعبر عن حياته مع الصعاليك بما جنع إليه في التشبيه
بمسؤولك الأسفل ، وحب الفلفل ، ونقف الحنظل وغيرها . وقد صابه
النقاد المتأخرون في ذلك ، وما أنصفوه ؛ لأنه ليس كابن المعتز الذي انتهى
إليه التشبيه في صناعة الشعر .

وبين الراجعي خطأ الاتقاد من هذه الجهة إذ أن ذلك سبب طبيعي
لا قبل للانتقاد به ، وضرب مثلا لذلك بعيب الطويل لطوله ، والقصير
لقصره ، والجبل لنسعه لأن في تلك مناسبات أخرى تستدعي الإعجاب .

وقال : «ولا يذهبن عنك أن الذين ينتقدون أمراً القيس وغيره بما هو من خصائص الجاهلية ، إنما نشأ عندهم ذلك بعد مقابته بنعمة الحضارة وتعرف العمران ، ولو كانوا في الجاهلية لكانوا أجمل منه ، ولكن في شعر كل شاعر ما يمكن أن ينتقد في كل زمن ، وذلك مما يكون سبيله سبيل المعاني الطبيعية ، ولا يتفاوت في الناس إلا بمميزات أخرى ترجع إلى النشأة ، وسلامة الذوق ، وخلوص الفطرة ونحوها من الصفات التي هي تأويل معنى التفاوت » (١) .

ولذلك كان التعرف على طبائع العصر وخصائص شعره ، وقاموس شعراته أمراً ذا بال ، ومقدمة مهمة في نقد الشعر والشعراء .

وذكر الرافعي أنه ربما اعتقد البعض أن الشهرة التي رزقها امرؤ القيس ليست على مقدار شعره ، ولا هي في وزن براعته ، وإنما جاءت إليه لأسباب أخرى ، لعل منها ما زين به الرواة أخباره وأشعاره حتى كأن الدهر قد عوضه عن ملك النسب ملك الأدب .

وأقر الرافعي بأن ذلك يعثر به بعد قراءة بعض ما نسب إليه جميعه . لماذا ؟ لأن في شعره منحولات كثيرة . وهكذا فتح الباب للدخول إلى قضية الاتهام ، وذكر أن بعض المنحول يلائم ديباجته فيكاد يلتحق به حتى لا يميزه إلا دقيق النظر مع انتقاد البرهان الأكيد على النفي والإثبات في شعره .

ولقد كشف عن التدخل في شعره بالتغيير والتبديل فقال : « وليس من شاعر أوراوية الا وقد أسب أن يكون له في كلامه لفظ أو معنى ، ولذلك تعاوروا ألفاظه بالتغيير والتبديل ، وأدخلوا في شعره ما ليس منه وقد نص بعضهم على أنه لم يصح له إلا نيف وعشرون شعراً بين طويل وقطعة » (٢) .

(١) المصدر السابق ٣ ص ٩٦ (٢) المصدر السابق ٣ ص ٩٧

واستشهد لذلك بما نفاه الأحمى من الآيات المروية والمنسوبة إلى
امرئ القيس والتي يقول فيها :

ألا إلا تكف ليل فمضى

كان قرون جلها العصى

وسبق أن بينا رأينا حول نسبة هذه الآيات إلى منها البيت السابق
إلى امرئ القيس ، وإمكانية قوله لها .

وذكر الباقلاني أنهم (أى رواة الشعر ونقادهم) قد بالغوا فى الخل
عليه حتى كأنه دابة الشعر ، فنسبوا إليه سخرى القول وساقط الكلام
وما يجرى مجرى الخذيان (١) .

ومثل لهذا الشعر المنحول الذى يشبه الطلاس بما جاء فى بعض نسخ
الديوان كاللامية التى ذكر منها بيتين وهما :

فكم كم وكم كم ثم كم كم وكم كم

قطعت الفياض والمهام لم أمل

وكاف وكفكاف وكفى بكنها

وكاف كفرف الودق من كفها انهل

وذكر أن هذه النحل قد جاء على قياس قول امرئ القيس فى القصيدة
التي تروى له :

وسن كسنيق سناء وسنماً

ذعرت بمبدلاج المعير نهوض (٢)

أما اللامية السابقة فلم ترد فى بعض نسخ الديوان وإنما جاءت

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٩٧

(٢) استشهدت بعض النسخ بهذا البيت على التجنيس الرديء المبتكر .

في كتاب العقد الثين ، وضحاها البعض إلى ديوان امرئ القيس في إطار ما ينسب إليه من الشعر (١) .

وذكر الرافعي أن الناقد البصير يستطيع أن يتعرف على أسلوب امرئ القيس بعد قراءة قصيدتين أو ثلاث مما صح له ، فيستخلص منها صفات شعره التي ميزته بالتقديم ، ويجعلته أمير الشعراء وصاحب لوائهم إذ كان أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة (٢) .

٢ — أسباب شهرته

لقد اهتم الرواة بشعر امرئ القيس ؛ لأنه كان من أهل نجد وتولم يكن منها لأهلها رواية شعره ، ثم إنه كان يروي شعر أبي داود الإيادي أحد نعات الخيل المجيد في الجاهلية ، فأخذ عنه صفة الخيل حتى لا يكاد شعره يغلو من هذا الوصف كما كان يروي شعر امرئ القيس بن خدام ، فأخذ عنه البكاء على الطلول .

وذكر الرافعي أنه كان يعاصره من الشعراء المعروفين « علقمة بن ابن عبدة ، وعبيد بن الأبرص ، والشنفرى ، وأبو داود الإيادي ، وسلامة ابن جندل ، والمثقب العبدى ، والبراق بن ريسان ، وتأبط شراً ، والتوم الشكري » ، وكان من حشم أبيه شاعر اسمه عمرو بن (قنبلة) (٣) ، وهو الذي ذكره في قصيدته التي قالها حين توجه إلى قبصر ، وذلك في قوله :

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحتقار بقيصر

(١) انظر السندوني شرح الديوان ص ١٨٦ .

(٢) الرافعي تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ١٩٨ .

(٣) تحريف والصواب (قنبلة) .

وكل هؤلاء لم يقع للرواة في شعرهم مقدار ما وقع في أيديهم لامرئ القيس فكان ذلك سبباً من أسباب تميزه وانفراده (١).

وأعقب الرافعي ذلك بالحديث عن سبب آخر من أسباب شهرة امرئ القيس فقال: «وتم سبب آخر، وهو أن الذي في يد العلماء من أهل الغريب والعميقة وعلماء البيان لا يجتمع منه لشاعر واحد جاهلي ما اجتمع لامرئ القيس، وهو عندهم طبقة متميزة لفصاحته وقده»، فشعره أشبه شيء بأقدم كتاب في اللغة عند من يظفر به من المتأخرين، وكأنما كان بعضهم يحمله عن الانتقاد في ألفاظه، فكل ما استعمله فصيح من حيثما تلقفه، وكيفما جاء به، وإن كان ذلك لاشك في صحته دون فصاحته (٢)، وذكر أن علماء اللغة يحثون عن تأويل لما جاء في شعره مخالفاً لقواعد الفصحى، كقوله:

لها متنتان خطانان أكب على ساعديه الغمر (٣)

وقد تأثر في استعماله لكلمة (خطانان) بلغة طيء حيث يقلبون الياء ألفاً إذ أن أصل (خطانان) خطيتا فقلبت الياء ألفاً. وعلق الرافعي على هذا المنزع من قبل امرئ القيس فقال: «وهي لغة لم يلتزمها الشاعر، ولا وجه لها إلا أن يكون ميزان لسانه قد تعطل في هذه الكلمة كما تعطل في غيره؛ فأنحدرت منه ثقيلة غثة باردة» (٤).

وجاد في شرح الديوان أن أصل (خطانان) خطانان وأما الشاعر النون، ومعناها: مكنتان، ولم تقلب الألف ياء كما ذكر، وإنما أنقيت النون، وهي مخالفة للفصحى أيضاً.

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٩٨

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٩٩

(٣) الديوان ص ١٦٤

(٤) الرافعي. تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ١٩٩

ولقد انتقد علماء المعاني والنحو والعروض شعره، وأخذوا عليه أشياء كثيرة ومات انتقادهم، وبقيت ألفاظ الشاعر حية لم تتأثر بالنقد، ومثل الرافعي لذلك بكلمة (مستشورات) التي مازال أصحاب البيان يضربونها مثلاً في التنافر والثقل، ولكنهم قد رسخت قلوبهم. ويرى الرافعي أن ذلك من عجائب امرئ القيس فإن له ألفاظاً وإن كانت أجيالاً إلا أنها ثابتة من شهرته، ثم ذكر ما قاله العلماء بالشعر حول الأسباب التي تقدم بها امرئ القيس على الشعراء وتبعوه فيها، قال: دلالة أول من لطف المعاني، ومن استوقف على الطول، ووصف النساء بالظباء، والمها والبيض، وشبه الخيل بالمقبان والعنق، وفرق بين النسب وما سواه من القصيدة، وقرب مأخذ الكلام، فقيد الأوابد وأجاد الاستعارة والتشبيه، وقلما يخلو كتاب في الأدب من هذه الكلمة، وهي مع ذلك مقبولة كأنها قاموس من نواميس الطبيعة في شهرة هذا الشاعر، (١).

ولكنه لم يسلّم بهذا الذي قاله العلماء لافتقاده إلى البرهان والدليل، ولك عرضها على محك النقد حتى يخلص إلى حقيقةها كما قال.

وشرع في انتقاد كلام السابقين الذي تناقله الرواة والمؤرخون، وبدأ بقولهم إنه أول من لطف المعاني، واستوقف على الطول، إذ لا يسلّم بهذه الأولوية لافتقارها إلى الدليل، قال: «أما أنه أول من لطف المعاني، واستوقف على الطول الخ، فلا يكون دليله إلا تتبع كلام العرب عما كانوا قبله، وإدارة الأذان في هواء الجزيرة من أكتانه، وهو شيء لا يصدق مدعيه كائناً من كان؛ لأن العرب أنفسهم أهملوا رواية أبي دؤاد كما ذكر الأصمعي، وسبيله سبيل غيره، فضلاً عن أهملهم الزمن، وجلدت صدورهم التي هي دواوين أشعارهم بصفحات من السكفن» (٢).

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٩٩، وأنظر ابن رشيق، العمدة ج ١ ص ٩٤.

(٢) الرافعي. تاريخ آداب العرب ج ٢ ص ١٠٠.

ونؤكد ما ذكره الرافعي ببيت لامرئ القيس نفسه سبق أن استشهدنا به، وهي قوله :

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبيكي الديار كما بكي ابن خدام
فكيف يقولون إنه أول من استوقف على الطلل بينما يعترف شاعرنا
بسبقه يا ابن خدام وتقايده له ؟

وهذا المبهل بل بن ربيعة المتقدم على امرئ القيس يبدأ قصيدة لم يذكر الطلل فيقول (١) .

هل عرفت الغداة من أطلال رهن ربح وديمة مهطال
يستبين الخليم فيها رسوما دارسات كصنعة العمال
قد رآها وأهلها أهل صدق لا يريدون نية الارتحال
يا لقوى للوعة البلبال ولقتل الكفاة والأبطال

وقد رد الرافعي على فقرة أخرى من كلامهم السابق عن امرئ القيس وهي : وأنه أول من فرق بين النسب وما سواه من القصيدة ، وذكر أن هذه الكلمة صادرة عن مولد قصر النظر في مطارح الكلام ، وقال : كأن شعراء العرب كلهم كانوا على سنة الولدين من افتتاح القصيدة بالنسب ثم التخاص بعد ذلك إلى ما يأخذون فيه من المعاني ، وهو رأى لم يقل به أحد ، ولا يزال في القصائد العربية قبل امرئ القيس بقية من القوة على تكذيبه ، ولكن لم يذكر نموذجاً لهذه القصائد المروية قبل امرئ القيس ولعل في النموذج السابق الذي ذكرناه للمبهل ما يؤكد على نهج هذا الشاعر في التخلص من النسب إلى موضوع القصيدة ، وهو المنهج الذي نسب ابتكاره إلى امرئ القيس مع أنه انجاء سلكه بعض الشعراء السابقين .

(١) حسن السندوني ، أخبار المراقبة (ملحق على ديوان امرئ القيس) ص ٨٥ المكتبة الثقافية بيروت .

وانتقل الرافعي إلى تقديم آخر من الكلام السابق للرواة حول مكانة امرئ القيس فقال : « وأما أن هذا الشاعر أول من قرب مأخذ الكلام فتيد الأوابد ، وأجاد الاستعارة والتشبيه ، فهو الصحيح ، ولكن لأعلى أنه أول من ابتدأ ذلك ، بل على أنه أول من اشتهر به وأبتدع فيه ، وجملة ما حفظ له منه أشياء معدودة ، غير أنها لو توزعها شعراء الجاهلية لراحتهم جميعاً » (١) ، ومع أن الرافعي لم يذكر شيئاً من هذه الأشعار التي أجاد امرئ القيس الاستعارة والتشبيه فيها لكنها منشورة في كتب الأدب والتقد مثل عيار الشعر والصناعتين والعمدة وسر الفصاحة وغيرها .

ثم انتقل للحديث عن آخر سبب من أسباب شهرة امرئ القيس ، وبقاء شعره على ألسنة العرب ، وشرح هذا السبب فقال : « وهو أنهم يجدون في بعض كلامه رقة المنادمة وطرب الخمر ، وفتور الغزل وغير ذلك مما هو من حظ القاب ، ثم هم يرويه إذا أخذ في غير هذه المعاني يطبع ألفاظه على قلوبها من الاستعارة والتشبيه ، فإذا قابلوا بخشونة غيره ، وانصرفوا إلى أوصاف البداوة ، وجدوا في شعره كالظل الذي يضيئ . والماء الذي يجري . والحسن الذي يمتيع ، والنسيم الذي يترنح فكان ولا جرم كأنما يستهويهم استهواء ، وكان مجموع شعره في البدو حضارة وفي الحضرة بدابة » (٢) . وهذا الذي ذكره يفسر بأن الشاعر قد جمع في شعره بين الطبع والصنعة ، ونقل في صدر حديثه عن هذا السبب لشهرة امرئ القيس خبيراً أو رواية عن الشاعر مروان بن أبي حفصة عندما أنشده المتنبي زهير ، فقال : هذا أشعر الناس ، ثم أنشده للأعشى فقال : بل هذا أشعر الناس ، ثم أنشده لامرئ القيس ، فكانما سمع به غناء على

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٠

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٠

مخراب فقال : امرئ القيس والله أشعر الناس ، وقد أعجب الرافعي بمقولة مروان بن أبي حفصة فقال : « وعندي أن هذا أعظم ما تتميز به شاعرية امرئ القيس ، لأنه دليل الصنعة التي (تبرز على) الطبع، والطبع الذي يبلغ في سموه مبلغه بالصنعة ؛ وهو الدليل الذي لو سقط من شعره لسقط بشعره لا محالة » (١) .

ثالثاً - شعر امرئ القيس

ذكر الرافعي أن ما قاله حول شهرة امرئ القيس ليس إلا توطئة لنقد شعره ، وقال إن المتأخرين قد رأوا شهرته قدراً من القدر ، فأخذوا بها ، ولم يعترضوا عليها ، مع أن القدماء كانوا يحطون به في العروض والنحو والمعاني ، وفي وجوه من التعرف .

ثم تحدث عن معاني شعره ، والتي تطلق عليها أحياناً (الأغراض) أو (القنون) فقال : « وكل ما يتناوله امرئ القيس في شعره من المعاني لا يتجاوز الغزل ، والاستمثار بالنساء ، ووصف الصيد والخر والطيب والحيل والنرق وحر الوحش والطلول والجبال والبرق والمطر . أما افتخاره في شعره فقليل جداً ، والحكمة فيه أقل وأكثر جودة ، ومن عيوبها قوله :

ولأنك لم يفخر عليك كفأخر ضعيف ، ولم يغلبك مثل مغاب

وإذا كان الرافعي لم يمثل لهذه المعاني المذكورة ، واكتفى بهذا البيت السابق الذي رأى أنه من عيون الحكمة ، مع أن آثار الصنعة الشعرية فيه بادية ظاهرة ، فإننا لا نعتبر ذلك عقبة في سبيل التعرف على أغراض الشعر ومعانيه في ديوان امرئ القيس . إلا أن هذه المعاني التي ذكرها

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠١

ليست هي كل ما يشتمل عليها شعره ، فإن له في الشكوى والتعجب والوعيد والتهديد، ووصف الرحلة، وشعر الحرب والرياء والمدح والمهبط على اختلاف بين مقدار الآيات التي قالها أو نسبت إليه في كل معنى أو غرض من الأغراض السابقة . وربما حانت الفرصة في فصل آخر للحديث عن كل هذه المعاني والتأويل لها .

وأكد الرافعي على تفاوت شعر امرئ القيس ، وعزل ذلك بتفاوت الأحوال التي يقول الشعر فيها ، وأنه لم يكن يقصد إلى قول الشعر قصدا إلا في القليل من الأشعار التي أجاد وبرع فيها ، وأوضح ذلك فقال : «ولإلا فلا معنى لأن يكون مرة نجما في السحاب، ومرة حجرا في التراب. والشاعر الذي ينف لا ينف يسقط في طبقات الغواء لا في طبقات التراب ، ولذلك كان جيد امرئ القيس أجود شيء . ووردته أردأ شيء .» (١) ونحن ندرك ونوقن أن أكثر شعر هذا الرجل جيد ورائع في حدود عصره ، وأن القليل من شعره ردى . كطبيعة الأشياء ومنطق الحياة في أن يجتمع اللونان، بل ويزيد عليهما لون أو أكثر — لكل شاعر ، وإذا كثرت الردى . الذي عناه الرافعي في ديوان امرئ القيس لم يسألم يمكن من صنيعه بل من وضع الرواة المحترمين . وتكلم عن غزله ، وقال إنه ساقط كله ... لماذا يا رافعي ؟ لأن استناده وتبذله معناه أن يتألف في المعاني بما يستلزمه الإبداع في التعريض والكنائية والاكتفاء باللمعة الدالة، فبردت حرارته بذلك التصريح ، وثقل على القلوب ، (٢) . ولكنه تراجع وسحب هذا التعميم ، واستثنى من شعره القليل الذي يحى . حسنه من صنعة المعنى لامن المعنى نفسه ، ومثل لذلك بيتين أولهما قوله :

أغرك متى أن حبك قاتلي وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل ؟

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٢

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٢

وذكر أن هذا البيت لو دار في كل أمة لوجد له في شعرها موضعاً .
وثاني البيتين قوله :

سموت لإليها بعد ما نام أهلها سمو حجاب الماء خالاً على حال
وقال إن هذا البيت من مخترعاته ، وإنه أول من طرق هذا المعنى ،
وابتكره وسلم الشعراء إليه بذلك .

ثم تكلم عن الوصف ، وقال إن مداره على الاستعارة والتشبيه ،
وسوف يأخذ في الحديث عنهما بطرف فيما بعد .

وعرض لمسألة نقدية خطيرة تتعاق بنحل الشعر البديع ، ويتمثل
المهدف لمن يتوهمون بهذا النحل أن يفتضوا من شأن الرواد في هذا المذهب ،
ووقع امرؤ القيس خجعة لهذا المنعطف الخطير . وأحب أن أنقل عبارة
الرافعي في هذه المسألة قال : «ولابد لنا هنا من التنبيه على أن الأدباء قد
وضعوا أشعاراً من البديع ونحلوها امرأ القيس ، يقصدون من ذلك إلى
الغرض من شأن الذين اخترعوا تلك الأنواع حتى يومئذ أنهم سبقوا
إليها . أو إقامة الشاهد على بعض ما يتباغضون فيه من مبتذل الشعر» (١) .
ونقل لذلك مثالين من كتاب العمدة لابن رشيق : أولهما يتعلق بالمعنى
الذي قاله امرؤ القيس في البيتين التاليين وهما :

لمن طلل دارس آية أضر به سالف الأحسن
تشكره العين من جانب ويعرفه شفق الأنفس
وذكر هذين البيتين بعد أن أورد لأبي نواس بيتين آخرين في نفس
المعنى . وقال إن ما نسبوه لامرؤ القيس ليس له والتوليد فيه بين .

أما المثال الثاني فيتعلق ببيت للتنبي ورد في باب التقطيع والتقسيم
بكتاب العمدة لابن رشيق الذي ذكر أنه من قول لامرؤ القيس ، أي أن

المتنبى قد سبق إلى ما قاله ، وعقب الرافعى عما ذكره ابن رشيق بقوله :
«ومهما تهافت امرئ القيس ، فلا أراه يسقط على مثل هذا» (١) ،
على أن ابن رشيق لم يقتصر على ما ذكره للمتنبى بل أورد أمثلة
لشعراء آخرين قال فيها من قول امرئ القيس الذى أكد الرافعى على
رفضه (٢) .

رابعاً - استعاراته

تحدث الرافعى عن استعارات امرئ القيس معتمداً فيما قاله على
كتاب العمدة لابن رشيق ، حتى الشواهد التى ذكرها مأخوذة من الكتاب
المذكور ، وإن اختلف ترتيبها فى كتاب الرافعى ، وقد ابتدأ هذا البحث
عن استعارات امرئ القيس فقال :

«قالوا : إن الاستعارة إنما هى من اتساعهم فى الكلام ، اقتدارا
ودالة وليس ضرورة ؛ لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم ، وليس ذلك
فى لغة أحد من الأمم غيرهم ، فهم إنما استعاروا مجازاً واتساعاً ، ومرجع
ذلك إلى شرح المعنى وفضل الإبانة عنه ، أو تأكيداً والمبالغة فيه أو
الإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو بحسن المعروض الذى يبرز فيه ، تبسطاً
فى اللغة ، واسترسالاً فى طرق التعبير» (٣) .

وتحدث ابن رشيق عن منزلة الاستعارة فقال : «الاستعارة أفضل
المجاز وأول أبواب الديدج ، وليس فى حلى الشعر أعجب منها ، وهى من
محاسن الكلام إذا وقعت موقفاً ، ونزلت وضعها والناس مختلفون فيها» (٤) .

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٣ .

(٢) انظر ابن رشيق : العمدة ج ٢ ص ٣١ .

(٣) الرافعى . تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ٢٠٣ - وراجع أكثر هذا

الكلام فى ابن رشيق العمدة ج ١ ص ٢٧٤ .

(٤) ابن رشيق العمدة ج ١ ص ٣٨٨ .

ثم نقل مجموعة أقوال في تفسير الاستعارة للقاضي الجرجاني وابن وكيع وابن جني والزمان وغيرهم ، وهي في مجموعها تكشف عن اختلاف النقاد حول وضع ضوابط للاستعارة .

وليس الغرض من هذا الكلام أن تبسط القول في شرح هذا الضرب من المجاز ، وإنما نعرض لها من خلال تعليق الرافعي عليها والتبثيل لها من شعر امرئ القيس ، فهي التي ميزت شعره ، وقلدت في جيد الزمان دره وأكسبته شهرة أنه أول من أفلح في شق هذه الصدفة حتى زعم ابن وكيع (انظر العمدة) أن أول استعارة وقعت في الكلام قوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
على بأعوار الحموم ليلتي
فقات له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازا وناء بكلل (١)

وذكر ابن رشيق هذه الاستعارة فقال : « فاستعار ليل سدولاً يرخاها وهو الستور ، وصلباً يتمطى به ، وأعجازاً يردفها وكاسلاً ينوء به » (٢) ولعل في هذا التناقض ما يؤكد اعتماد الرافعي على ابن رشيق اعتياداً كلياً في هذا الموضوع .

وقد خط الرافعي في هذين البيتين كلمة موجزة امتدح فيها تشبيه الشاعر الليل بموج البحر : لأنه تشبيه لأحسن منه ، لما يجيش فيه من الظنون ويتأب من الخواطر ، وذكر أن قول الشاعر أرخى سدوله ذهب بالحسن كله ، وهي عمود الاستعارة في هذا البيت ، لأن هذا القول منه

(١) الرافعي تاريخ آداب العرب ٣ ص ٦٩٣

(٢) ابن رشيق . العمدة ج ١ ص ٢٧٦

أن الغرض من التشبيه غرض محسوس ، وهو أدنى أنواعه ، وعلى ذلك بأن إرخاء السدول يدل على السكون والحجاب لأكثر من ذلك ، وصارت كلمة الموج لامتني لها .

ولا نعتقد أن جمال الاستعارة يتوقف على كونها مبنية على تشبيه محسوس أو غير محسوس ، وإنما اكتمال الصورة الاستعارية لا يتعارض مع اشتغال البحر على الجيضان والقلب الذي تفيد كلمة البحر ، وعلى المندوب والسكنة اللتين تفيدهما جملة : (أرخى سدوله) . بل إن ذلك أوقع والطف .

ثم تحدث عن الاستعارة في البيت الثاني ، وهي قول الشاعر :

لما تمطى بصلبه

ولا يتفق الرافعي مع النقاد في كون الاستعارة لوصف طول الليل وإنما أراد ثقل الليل وفنونه . وأنه كلما هم أن يتجلى سقط كما يفعل الذي يتمطى ، ثم يردف أعجازه ثم ينوء بكللكه (١)

واتنزل إلى الحديث عن نموذج آخر للاستعارة التي تصرف فيها امرؤ القيس ، وهي التي جاءت في قوله :

وهو تصيد قلوب الرجال

وأفأت منهسا ابن عمرو حجر

وذكر أن القدماء نظروا إلى استعارة الصيد مع الهر ، ورأوا أنها مضحكة وهذا ما قاله ابن رشيق ، وأضاف إليه : ولو أن أباه حجرا من

(١) انظر الرافعي تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ١٠٤

فأرادت ببيت ما أسف على إفلاته منها هذا الأسف (١) وقد أكد صاحب
العمدة استعجانه لهذه الاستعارة ، ووازن بينها وبين استعارة أخرى في
بيت زهير الآتي :

ليث بعثر بصطاد الرجال إذا
ما كذب الليث عن أقرانه صدقا

وأعجب باستعارة زهير ونضلها على استعارة امرئ القيس ، لأن
الاصطیاد هنا من الليل ، وليس من الحركة هو في قول شاعرنا -

ورأى الرافعي أن الاستعارة في بيت امرئ القيس متوسطة ، وأن
القدماء قد غفلوا عن المعنى الذي قصد إليه ، قال : د ولكنهم جهلوا فيها
هذا الجهل وكيف يمثل عن مثله ؟ والذي أرى أنهم غفلوا عن المعنى الذي
قصد إليه ، فإن هرا كانت من كلب ، وكان امرؤ القيس في كلب وطوي -
أيام نفاه أبوه ، فهو إنما يتنادر عليه ، وإذا خرج البيت على هذا المعنى
كانت الاستعارة فيه متوسطة ، ولكنها تكون سبباً لكناية من أبلغ
الكنایات ... (٢)

وأرى أن الشاعر قد ذهب إلى أبعد من مجرد التندر على أبيه ، حيث
أراد من هر الافتتان بها والوقوع في حياقلها ، وأفادت منها حرج بما لها
من تأثير وربة ، تتجاوز بهما حدود هذا الحيوان المسمى بالهر ، ولذا
كان الاعتناق منها مهما وذا بال ، لما لها من تأثير تصيد به قلوب الرجال .
ثم تحدث الرافعي عن استعارة ثالثة لامرئ القيس وهي قوله وقيد
الأوابد ، والتي كأنما قيد بها شهرته في هذه الحياة وهي في بيت من المعاقبة
سبق أن ذكرناه وهو قوله :

(١) ابن رشيق العمدة ج ١ ص ٧١

(٢) الرافعي تلخيص آداب العرب ج ٢ ص ٢٠٥

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكلا
وذكر الرافعي أن المولدين قد حاولوا الإتيان بمثل هذه الاستعارة
غير أنها بقيت مفردة ، وعقب على ما فرد به امرؤ القيس وأتى به فقال :
« وهذا وأمثاله مما يدل على فطنة الشاعر وحدة فؤاده ، وأن له من قوة
الفطرة ما يقوم مقام الصنعة ، وذلك صفات يدل عليها كثير من كلامه ، غير
أن امرأ القيس إنما كان مبتدئا فيما ابتدع ، ولذلك لا يمكن أن يؤخذ
البديع كله من شعره ، وليس هذا بضأفه » (١)
وقد تعاقب في الإشادة بالاستعارة الأخيرة أكثر المنقذين ، ورأوا
أن امرأ القيس تقدم بها شعراء عصره ، وأنها من مبتكراته التي لا يلحقه
فيها أحد .

خامساً : — تشبيهاته

لا أدري لماذا آخر الرافعي الكلام عن تشبيهات امرئ القيس ، وكان
من الأنسب أن يقدم على الحديث عن استعاراته ، فالمعروف أن الاستعارة
تشبيه حذف أحد ركنيه ، كما أن تشبيهاته أكثر من استعاراته ، بل إنه —
كما سبق أن ذكرنا — أكثر أهل الجاهلية تشبيها .

وقال الرافعي في حديثه عن تشبيهات امرئ القيس إنه كان شاعرا
من شعراء الفطرة ، وإنه لم يمرض شعره على محل تجويد الصنعة ، بل كان
حريصا على تقديم شعره من معيار الطبع ، قال : « ثم هو إنما كان شاعرا
من شعراء الفطرة ، يمرض للسانه القول كما يمرض لعينه الوحش ،
فيطلق كلاهما على نفس واحد يصنع القليل ولا ينقع الجملة ، فكان
ما يجيء في كلامه من بدائع الصنعة هو الدليل على فضل قوته التي تفر
فؤاده وتصره إلى مشايعة طبيعة اللغة في النحو ، ولو صرفت تلك القوة

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٦

الى الصنعة التي [يفرق] فيها الكلام من كثرة تاليه لسان الكلام في شعره
مذهب آخر ... (١)

وتكلم عن تشبيهاته ، وبين غرضها فقال : « أما تشبيهاته فهي بحماتها
ترى الى غرض واحد ، وهو تصوير الحقيقة تصويرا غير ملون ، وله فيها
طرائق بدعية هو أول من ابتكرها » (٢) ثم ذكر أربعة تشبيهات لامرئ
القيس للتدليل بها على غرض التشبيه في شعره ، وهذه التشبيهات ليست
بغريبة علينا في هذا الكتاب ، فقد سبق أن بحثناها وتحدثنا عنها في فصول
سابقة ، وبخاصة فيما كتبناه عن كتاب الجحى تحت عنوان (أحسن الجاهلية
تشبيها) ، ولا يحسن أن نكرر هنا ما ذكرناه هناك خاصة وأن هذه
التشبيهات كانت مادة حية ومتكررة في كتب القدماء ، وهم يتحدثون عن
التشبيه في ألوانه المتعددة سواء ما اختص منها امرئ القيس أو غيره
من الشعراء .

ولقد توسع القدماء في الحديث عن هذه التشبيهات ، وبسطوا القول
في خصائصها ولذلك سوف يكون عرضنا لها في إيجاز شديد وبالطريقة
المختصرة التي تعدت عنها الرافعي ، وحتى لا نكرر — كما قلت — ما سبق
أن ذكرناه في الباب السابق .

وأول هذه التشبيهات قول امرئ القيس في وصف الفرس :

له أعطلا ظبي وساقا نعامه وإرخاء مرحان وتقريب تنفل
وهو من تشبيه الإضافة بغير أداة ، وفيه تشبيه أربعة بأربعة ،
ولذلك زعم الفرزدق أنه أكل بيت قاله العرب أو قال أجمع بيت .

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٧

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٧

وعرض للتشبيه الثاني ، وقال إنه قد جاء مخدجاً أى غير تام الأجزاء
كقوله فى صفة الفرس :

وأركب فى الروح خيفانة كسا وجهها سمع منتشر
وقد شبه الفرس بالجراقة التى انسلخت من لونها الأول ، وتحولت
إلى الحرة ، وأراد بذلك وصف الفرس بالحفة ، كما شبه ناصيتها بسعف
النخلة .

أما التشبيه الثالث فى قوله :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالاً على حال
وعرض له الراهى فبدأ بإيضاح معنى (حباب الماء) وقال إنها : إما
طرائفه ، والمعنى أى جئت أتدفع إليها كما يتدفع الماء شيئاً بعد شيء حتى
صرت إلى ما أريد .

وإما أن يقصد بالحباب الفقاقيع ، وبذلك أراد خفة الوطء وإخفاء
الحركة ثم قال : « وكلا المعنيين غاية فى تصوير تلك الحال ، مع اللطف
والرقة وبراعة التشبيه » (١) .

ثم أفاض الراهى فى الحديث عن التشبيه الرابع وهو قول شاعرنا :
تكن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العتاب واخشف البالى
وذكر أنه قال ذلك يذكر العقاب حين شبه فرسه بها ، وهى من
الاختراعات وطرائفه المبتكرة ، ولاشك فى أن الرواة قد أجمعوا على أن
هذا أحسن بيت جاء فى تشبيه شيتين بشيتين فى حالتين مختلفتين .

وسبق أن عرضنا لأقوال القدماء فى بيان هذا التشبيه وإيضاحه ،
حيث لم يزد الراهى شيئاً ملحوظاً عما قالوه وتوسعوا فيه .

سادسا — تمة الانتقاد

تحدث الرافعي بكتابه الذى معنا عن جملة وجوه من النقد مستدلا على أكثرها بشعر لامرئ القيس ، ومعتمداً فى هذه الوجوه على ما قاله القدماء ، وسوف نعرض لها كما ذكرها الرافعي إذ أنها لا تحتل بحثاً أو تعليقا .

وأول هذه الوجوه أن امرأ القيس أول من فتح باب الاحتراس كقوله :

إذا ركبوا الخيل واستلاموا تحرقت الأرض واليوم قبر

أى واليوم بارد فاحترس ، وشرح الرافعي ذلك فقال : « وكان الاحتراس بالقافية التى هى تمام البيت ، وهذا من أبداع ما يجيىء ، لأنه يزيد فى تمكين القافية ، ويكسبها عزة لا تكون لكلمة غيرها فى البيت بحملته » (١) .

ومنها التثنية ، وهو من أنواع الإشارة ، وقد شرحه ابن رشيق فقال : « أن يريد الشاعر ذكر شيء فيتجاوزه ، ويذكر ما يتبعه فى الصفة ، وينوب عنه فى الدلالة عليه ، وأول من أشار إلى ذلك امرئ القيس يصف المرأة :

ويضحى فتيت المسك ، فوق فراشها

تقوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فقوله « يضحى فتيت المسك ، تثنية ، وقوله : « تقوم الضحى » تثنية ثان وقوله « لم تنتطق عن تفضل » تثنية ثالث ، وإنما أراد أن

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢١١ ، ص ٢١٢ .

يصفها بالتعرف والنعمة وقلة الامتهان في الخدمة ، وأنها شريفة مكفية المونة ، لجاء بما يتبع الصفة ويدل عليها أفضل دلالة (١) .

وإذا رجعنا إلى ماقاله الرافعي في التثني نجد لا يختلف في شيء عما ذكره ابن رشيق ، حتى نؤكد لنا أن أكثر هذا الفصل يرجع إلى كتاب العمدة ، ثم تحدث الرافعي عن التمثيل ، واعتمد أيضا على ماقاله ابن رشيق وهو من ضروب الاستعارة ، وذلك بأن تمثل شيئا بشيء فيه إشارة إليه وامرؤ القيس أول من ابتكره ولم يأت أصلح من قوله فيه :

وما ذرفت عينك إلا لتضربي

بسهميك في أعشار قاب مفتل

وقال ابن رشيق عن هذا البيت : « فتل عينها بسهمى الميسر ، يعنى المللى ، وله سبعة أنصباء ، والرقيب وله ثلاثة أنصباء - فصار جميع أعشار قابه للسهمين اللذين مثل بهما عينها ، ومثل قابه بأعشار الجوزور ، فحسب له جهات الاستعارة والتمثيل » (٢) .

ثم تحدث الرافعي عن الإيغال ، وهو ضرب من المبالغة إلا أنه في القوافي خاصة لا يعمدها ، واعتمد على ابن رشيق أيضا في بيان أن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى بقوله في وصف الفرس :

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه

تقول هزير الريح مرت بأثاب

قال ابن رشيق : « فبالغ في صفته ، وجعله على هذه الصفة بعد أن يجري شأوين ، وابتل عطفه بالعرق ، ثم زاد إيغالا في صفته بذكر

(١) ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ٣١٣ ، ص ٣١٤

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٧

الأناب وهو شجر للريح في أضعاف أغصانه حفيف عظيم، وشدة صوت،
ومثل ذلك قوله :

كأن عيون الطير حول خباتنا
وأرْحِلنا المزعج الذي لم يثقب

فقوله (لم يثقب) إيغال في التشبيه (١).

وذكر ابن رشيق، (واعتمد عليه الرافعي كما هو كائن في هذا الفصل)
أن زهيراً والأعشى قد تبعاً امرأ القيس في هذا الإيغال. وأورد الرافعي
بعض الأنواع الأخرى من البديع سوى ما ذكر، مثل الالتفات والتقسيم
والمقابلة والغلو ونفي الشيء بإيجابه كقوله :

على لاجب لا يهتدى بمنارة

والإشباع، والاشتراك، والإشارة، والإرداف، والترصيع، وجمع
المؤتلف والمختلف وغيرها، من غير أن يستدل على ذلك بشعر شاعر
معروف قبله أو معاصر له كما صنع القدماء، ولذلك يعدون ما قاله في ذلك
سبقاً وابتكاراً، ثم ذكر له حسن التخلص، واستشهد عليه من شعره،
واستدرك قائلاً بأن امرأ القيس اتبع في تلك الأنواع غيره، كما احتذى
في الغلو قولاً للهلل. كما اتبع النابغة في قول له يصف السيوف. على أن
المؤلف سوله بعض المدرس لم يستطع أن يفصل بين ما اتبع امرؤ القيس
فيه غيره، وبين ما ابتكره وابتدعه على نظام سابق. ثم استرجع الرافعي
ما قاله القدماء حول بيت الشاعر :

كأن لم أركب جواداً للذة
ولم أتطن كاعباً ذات خلخال

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٧، ٥٨

ولم أسبأ الزق الروى، ولم أقبل
لخيلى كرى كره بعد إجفال
ثم تحدث عن بعض المآخذ في شعرا مرى القيس . ذكر منها أن له
استعانة ضعيفة بالحروف والكلمات كقوله :

ألا رب يوم لك منهن صالح
• وأن له تكراراً قبيحاً في الألفاظ والمعاني يحى بها على وجه واحد
في مواضع مختلفة من غير أن يتصرف في ذلك بما يخفى قبح هذا
التكرار... (١).

وذكر منها أيضاً دخوله في وجوه المناقضة والإحالة في بعض الكلام
كما يدل على أنه كان يرسله إرسالاً كما اتفق ، ولهذا كان يختم قصائده
متنصفاً حتى كأن الشعر يقترح عليه اقتراحاً . ومنها استعمال الكلام المؤنث
في شعره كقوله :

لك الويلات إنك مرجلى

وهذا ما سبق أن ذمه الباحثون في نقده للعلقة ، ثم اختتم الرافعى
حديثه عن هذه التهمة بقوله : • أما ما وقع له غير ذلك من اضطراب
بعض القوافي ونقل الألفاظ مما يكدر لسان الناطق المتحفظ ، فذلك متجاوز
عنه بعذر البداوة ، والغريب عندنا مألوف عند أهله ، (٢) .

وقد وضع اعتياد الرافعى على غيره من القدماء في هذا الفصل اعتياداً
كاليا . وبخاصة ابن رشيق الذى نقل عنه أكثر الوجوه النقدية والمآخذ
البلاغية السابقة .

(١) الرافعى : تاريخ أديب العرب - ٣ ص ٢١٦

(٢) المصدر السابق - ٣ ص ٢١٧

سابعاً — المنازعة بين امرئ القيس وعلقمة

ذكر الرافعي مجموعة من الأقوال التي اقتبسها من كتب القدماء والمحدثين حول المنازعة التي جرت في طيء بين امرئ القيس وعلقمة حيث حكمت بينهما أم جندب (زوج امرئ القيس) في أيهما أشعر من الآخر، أو في قول علقمة لامرئ القيس: «فقل شعرا تمدح فيه فرسك والصيد، وأقول في مثل ذلك، وهذا الحكم بيني وبينك يعني تلك المرأة» (١).

وبنى نقد أم جندب على بيت امرئ القيس:

فللساق المصوب والسوط درة

وللزجر منه وقع أهوج منتهب

وبيت علقمة:

فأقبل يهوى ثانيا من عنائه يمر كمر الراح المتحلب

وقد شك بعض القدماء في داتين القصيدتين، وما دار حولهما من تحكيم تقدي لأم جندب، وصادق هذا الشك هوى في نفوس بعض المعاصرين فرفض القصيدتين والنقد الذي أثير حولهما جملة وتفصيلاً. ولم يعبأ من انحاز إلى الشك أو الرفض بإسناد الرواية في القصيدتين والنقد المتنازع حولهما إلى رواية ضليع ومشهود له بالأمانة والصدق وهو الأصمعي.

على أن في هذه الرواية بعض المرغبات في الشك لا في الرفض

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢١٧

وبخاصة فيما يتصل بمقولة أم جندب التي لم تكن منصفة لقصيدة امرئ القيس .

وقد بين الرافعي دوافعها في التحامل فقال : « وما أرى أم جندب إلا أرادت ما تريد الفارك من بعلمها ، فقرعت أنفه على حية ونخوة ، وهي تعلم أنها لا يد مسرحة في زمام هذه الكلمة... » (١) .

كما أن قصيدة علقمة في جملتها ليست بشيء ، وأكثر ما فيها من ألفاظ بارعة ومعان حسنة مأخوذ من قصيدة امرئ القيس . ونسأل حول هذه المنازعة وكيف حكمت بينهما أم جندب ، وأنشد كل منهما قصيدته لأول مرة ؟ ونرى التوافق الكبير بين القصيدتين ، أو بمعنى آخر . نرى سطو علقمة على قصيدة امرئ القيس ، ثم تأق أم جندب لتتصر علقمة على زوجها بالتحامل وعدم النصفة حتى تسرح منه بهذا الأسلوب الذي أنكشف لامرئ القيس كما تقول بعض الروايات .

وربما ورد إلى ساحة هذه المنازعة احتمال بأن يكون الشاعران قد أخذوا من ثالث ما دام الاتفاق أو التقارب قد وصل بينهما إلى الحد الذي لا يمكن أن يطلق عليه ما يسمى بتوارد الخواطر ، وهذه أيضا تدفع إلى إشكالية أخرى ، فمن هو هذا الشخص الثالث ؟ وأين شعره ؟

ونأق إلى آخر هذه المرغبات في الشك وهو ، أن أكثر ما في قصيدة امرئ القيس مفرق بالفاظه ومعانيه في قصائد أخرى له ، ومنها أبيات لم يغير منها إلا القافية ، (٢) .

(١) المصدر السابق ٣٠ ص ٢١٨

(٢) المصدر السابق ٣٠ ص ٢١٩

ولكل ما سبق ارتاب البعض في هاتين القصيدتين ، والنقد الذي أثير حولهما فشك فيهما ، وربما رفضهما ، ورأى آخرون أن رواية الأصمى تدفع أى شك واتهام حول القصيدتين وما قيل فيهما من نقد ، وذلك للثقة فيه كنا قد رواه .

وربما عبث الرواة والإخباريون بالقصيدتين ، فغيروا فيهما ، وأضافوا إليهما ، حيث تركت بصماتهم على القصيدتين واضحة جليلة عما أسهم في زيادة القرائن والخجيج حول الشك أو الرفض التام ، كما سيأتى في بعض الفصول الأخرى .

الفصل الثاني

في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين (١)

أصدر الدكتور طه حسين في عام ١٩٢٦ م كتابه (في الشعر الجاهلي) فنارت حولة ضجة كبيرة عمت أرجاء مصر والعالم العربي ، ثم حذف منه بعض الفصول ، وأضاف إليه بعض الفصول ، وصار عنوانه (في الأدب الجاهلي) على أن القضية الرئيسية التي شغل طه حسين بها نفسه ، وهي قضية الاتحال لم تتأثر بما حدث للكتاب من تغيير بالحذف والإضافة .

وقد قسم كتابه (في الأدب الجاهلي) إلى سبعة كتب ، جعل الأول منها للحديث عن الأدب وتاريخه ، فتحدث عن درس الأدب في مصر من خلال بيانه للنزاهة الثلاثة في تدريسه ، وهي المذهب القديم الذي ينتهجه

(١) ولد طه حسين في عام ١٨٨٩ م بإحدى القرى القريبة من مدينة مغاغة بمحافظه المنيا في صعيد مصر ، وكف بصره وهو صغير ، وحفظ القرآن الكريم ، وتعلم بالأزهر ، والتحق بالجامعة المصرية ، وحصل منها على الدكتوراة في ذكرى أبي العلاء عام ١٩١٤ م ، ثم سافر إلى فرنسا وحصل على الدكتوراة من السوربون في فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، وترقى في الوظائف التي شغلها حتى صار وزيراً للمعارف عام ١٩٥٠ م ، وتوفي في القاهرة عام ١٩٧٣ م . بعد حياة حافلة بالكفاح والنشاط . ومن بحوثه الأدبية والنقدية : من حديث الشعر والنثر ، مع المتنبي ، فصول في الأدب والنقد ، مع أبي العلاء في سجنه ، تجديد ذكرى أبي العلاء . في الشعر الجاهلي الذي طبع عام ١٩٢٦ م ثم غيره إلى (في الأدب الجاهلي) وطبعه عام ١٩٢٧ م ، وغيرها .

الأزهر، والثاني مذهب المستشرقين الذي يدرسونه في الجامعة المصرية حسب منهجهم في تدريس الآداب الأوروبية، أما المذهب الثالث فهو الذي كان قائماً بمدرسة القضاء ودار العلوم، وفي المدارس الثانوية كلها، وهو: مذهب مشيئة ردى. كله شر، والخير كل الخير في أن يصرف عنه الأساتذة والطلاب صرفاً (١)، وتحدث الدكتور طه حسين عن الإصلاح ورأى أنه يتجمل في تقريب النصوص من تلاميذ المدارس بأن نجيبهم في قراءتها وتذوقها، ونحسن لهم اختيارها، ونهض بإعداد المعلمين الذين يعلون اللغة العربية. ثم ذكر رأيه في عدد من القضايا المتصلة بتاريخ الأدب مثل الثقافة وتعريف الأدب والصلة بين الأدب وتاريخه، ولأدب الإنشائي والأدب الوصفي.

وعقد فصلاً في الكتاب المذكور للحديث عن مقاييس التاريخ الأدبي، وأعقبه بآخر حول الإجابة عن السؤال الآتي وهو: متى يوجد تاريخ الآداب العربية؟ ثم جعل الأخير للكلام عن الحرية والأدب. وبحث قضية الانتحال في الأدب الجاهلي من خلال عدة كتب وهي (الثاني والثالث والرابع والخامس) حيث أبان في الثاني عن دوافع شك في الشعر الجاهلي، قال: «ذلك بأن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منتحلة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين». ولا أكاد أشك في أن ما بقى من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جداً، لا يمثل شيئاً، ولا يدل على شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي» (٢).

(١) د/ طه حسين في الأدب الجاهلي ص ٧ طبعة دار المعارف بمصر

(٢) المرجع السابق ص ٦٥.

ومن هذا الكلام السابق يتضح أن الدكتور طه حسين لم يبلغ الشعر الجاهلي كله ، ولكنه أبقى على بقية قليلة لا تمثل الصورة الأدبية الصحيحة لهذا الشعر . كما طالب في حديثه عن منهج البحث في الأدب العربي - بأن « ننسى عواطفنا الدينية ، وكل ما يتصل بها ، وأن ننسى ما يضاد هذه العواطف القومية والدينية ؛ يجب ألا تنقيد بشيء ، ولا تدعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح » (١) .

ثم عاد للحديث عن دوافع شكك في الشعر الجاهلي ، وانتهى إلى أن كثيره المطلقة منحولة بعد ظهور الإسلام . وحصر شكك في الأمور الآتية :

١ - لا يمثل الأدب الجاهلي الحياة الدينية والعقائدية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين ، قال : « فإذا أردت أن أدرس الحياة الجاهلية فلست أسلك إليها طريق امرئ القيس والناطقة والأعشى وذهير وقس بن ساعدة وأكثم بن صيفي ؛ لأنني لا أثق بما ينسب إليهم ، وإنما أسلك إليها طريقاً أخرى ، وأدرسها في نص لا سبيل إلى الشك في صحته أدرسها في القرآن . فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي ، ونص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه » (٢) .

وقد مضى يفصل الحديث عن كل جانب من جوانب هذه الغيبة ، مؤكداً على خلو الشعر الجاهلي من التعرض لهذه الجوانب ، مؤكداً أيضاً على ما في القرآن من تمثيل للحياة الجاهلية .

٢ - تحدث عن الأدب الجاهلي واللغة ، وذكر أن هذا الأدب لا يصور اللغة الموجودة في جزيرة العرب تصويراً كاملاً ، قال : « فهذا

(١) المرجع السابق ص ٦٧ . (٢) المرجع السابق ص ٧٠ .

الأدب الذي رأينا أنه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في المقعد الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه ، (١) .

أى أنه لا يمثل اللغة العربية بشقيها الجنوبي والشمالي ، حيث يضيف إلى الجنوبيين (الصحفيين) أشعاراً بلغة الشماليين (العدنانيين) . وأكد على ما بين هاتين اللغتين من فروق أثبتها البحث الحديث ، وقال : « ونحن إذاً ، لفتين : إحداهما كانت قائمة في الشمال وهي التي نريد أن نؤرخ آدابها ، والأخرى كانت قائمة في الجنوب ، وهي التي تمثلها النصوص الحميرية والسبئية والحيميّة . ونحن لا نسرب ولا نشطط حين ننسك ما يضاف إلى أهل الجنوب من أشعر وسجع ونثر قيل بلغة أهل الشمال قبل الإسلام » ، (٢) .

٣ - بين أن الشعر الجاهلي لا يمثل لهجات القبائل العدنانية ، واستشهد على ذلك بالقصائد المشهورة فقال : « تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه أن يكون اختلافاً في اللهجة أو تباعداً في اللغة أو تبايناً في مذهب الكلام ... » (٣) في حين أن هذه اللهجات تمثلها قراءات القرآن الكريم .

٤ - جعل الدكتور طه حسين - من دوافع شكه - حرص العلماء على الاستشهاد بالشعر الجاهلي على ألفاظ القرآن . قال : « نلاحظ أن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلي مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث ونحوهما ، ومذاهبيهما الكلامية . ومن الغريب أنهم لا يكادون يحدون في ذلك مشقة وعسراً ، حتى إنك لتحس كأن هذا الشعر الجاهلي

(١) المرجع السابق ص ٨٠ . (٢) المرجع السابق ص ٩٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٣ ، ص ٩٤ .

لإما قد على قد القرآن والحديث كما يقد الثوب على قد لابسه لا يزيد ولا ينقص عما أراد طولاً وسعة ... (١).

وختم هذا الكتاب بالتأكيد على شكك في هذا الشعر الذي رأى أنه لا يمثل حياة العرب الجاهليين ، ولا يمثل لغتهم ، وأنه قد وضع وضعاً ، وحمل على أصحابه بعد الإسلام ، ويصل إلى الكتاب الثالث الذي بسط فيه القول عن أسباب الانتحال ، مؤكداً أن هذا النحل ليس مقصوداً على العرب ، وأنه شمل الأمم القديمة كاليونانية والرومانية ، وأرجع أسباب النحل إلى السياسة والدين والقصص والشعرية والرواة ، ولم يقصد من السياسة ما نفهمه منها الآن ، وإنما أراد بها العصبية القبلية التي لعبت دوراً كبيراً فيما كان بين قريش والأنصار من عدا ، حيث أضافت قريش نفسها أشعاراً توجهت بها إلى هجماء الأنصار . على أنه قد استشهد على كلامه بشعر إسلامي ، ولم يذكر تأثير هذا السبب في الشعر الجاهلي .

وتحدث عن الدين ، ومثل له بما قيل من شعر قبل البعثة تبشيراً بالنبي ﷺ ، قال : « وأنت تستطيع أن تحمل على هذا كل ما يروى من هذا الشعر الذي قيل في الجاهلية مهداً لبعثة النبي ، وكل ما يتصل بها من هذه الأخبار والأساطير التي تروى لتفتح العامة بأن علماء العرب وكهانهم وأخبار اليهود وردبان النصارى كانوا ينتظرون بعثة نبي عربي يخرج من قريش أو مكة ... » (٢).

ومثل لذلك أيضاً — بما أضيف إلى الجاهليين من عرب الجن وإلى الأمم القديمة السائدة مثل عاد وثمود ، وإلى شعراء اليهود والنصارى ، مع عدم ظهور أي أثر للديانتين اليهودية والمسيحية في هذا الشعر .

وجعل القصص سبباً ثالثاً للانتحال حيث رفض كل ما يرويه عن أخبار النبي في العصور القديمة مثل سيل الهرم ، وأخبار السكاهان ، وقد رفض كل ما يروي عن أيام العرب وحروبها وخصوماتها فإن لم يكن كل ذلك موضوعاً فإن الكثرة المطلقة منه موضوعة من غير شك . كما ارتأى في كل ما يروي من أخبار وأشعار تتصل بعلاقات العرب بالأمم الأخرى قبل الإسلام مثل علاقاتهم بالفرس واليهود والحبيشة ، قال : « ومن هنا نستطيع أن نقول مطمئنين إن مؤرخ الآداب العربية خائف أن يقف موقف الشك — إن لم يقف موقف الإنكار الصريح — أمام هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين ، والذي هو في حقيقة الأمر تفسير أو تزوير لقصة من القصص أو توضيح لاسم من الأسماء ، أو شرح لمثل من الأمثال » (١) .

واعلمنا إذا رجعنا إلى كلام ابن سلام لتكشف لنا تحذيره من مرويات ابن إسحاق وأضرابه ، ولكن القضية عنده لم تبحث بهذه الجراحة أو بهذه الشولية التي ذكرها طه حسين ، وكان النحل قد شمل القصص والرواة جميعاً .

وتحديث عيد الأدب العربي عن تأثير الشعوية في نحل الشعر كلبح ظاهر للخصومة بين العرب والموالي ، حيث نحل الشعوبيون أشعاراً وأخباراً كثيرة ، وأضافوها إلى الجاهليين والإسلاميين ، وأجبروا بذلك خصومهم على النحل والإسراف فيه . ولم يذكر مثلاً واحداً على ما قاله الموالي في هجماء العرب ، وإن أسال على الأغاني وغيره من الكتب .

وتكلم عن آخر سبب للانتحال وهو الرواة حيث تعرض لجونهم وإسرافهم في اللهو والعبث ، وإنصرافهم عن قواعد الدين والأخلاق .

ومثل لهذه الطائفة بمجاد الراوية وخلف الآخر وأبى عمرو الشيباني الذين كانوا ينحلون الأشعار ويتكسبون بالروايات .

وجعل الكتاب الرابع للشك في بعض الشعراء الجاهليين من اليمن وربيعة ، أما بالنسبة لليمن فقد قال : « لم يكن لليمن في الجاهلية إذن شعراء ، وما كان ينبغي أن يكون لها شعراء ، لأنها لم تكن تتكلم العربية ولا تلم بها لما يكفى لأن تتخذها لغة الشعر » (١) .

ثم قال عن شعر ربيعة : « أما ربيعة فخطأ من الشعر والشعراء في الجاهلية أقل من حظ المضربين ، ولكنه أكثر من حظ اليمن ؛ فالرواة يسمون لربيعة شعراء غولا في الجاهلية ، ولكنهم لا يرون لغولا للشعراء الفحول إلا شيئا قليلا من الشعر ، نحن مضطرون إلى رفضه » (٢) .

وقد شك في شعر امرئ القيس وعبيد بن الأبرص وعلقمة الفحل وعمرو بن قتيبة والمهازل ، وجليلة بنت مرة ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث ابن حلزة ، وطرفة بن العبد ، والمتلمس والأعشى ، وأكثرهم من ربيعة .

ثم تحدث في الكتاب الخامس عن شعر مضر ، وسأول أن يتخذ منه مقياسا تعرف به صحة الشعر الجاهلي ، وحسب تقويمه لذلك في الكتاب السابق عندما ذكر شعر مضر ، قال : « فأما مضر فقد كان لها في الجاهلية شعراء ومن قبائل مختلفة منها في قيس وتميم وضبة وغيرها . وكان هؤلاء الشعراء يتخذون الشعر صناعه وفنا ، وكان كل شيء يدل على أن هؤلاء الشعراء يمثلون نهضة عقلية فنية في هذا الإقليم من جزيرة العرب » (٣) .

(١) المرجع السابق ص ١١٤

(٢) المرجع السابق ص ١٩١

(٣) المرجع السابق ص ١٩٢

لقد حاول — كما ذكرت — أن يتخذ من شعر مضر مقياساً للحكم به على صحة الشعر ، مستبعداً السند من هذا المقياس ، ومتخذاً من الخصائص الفنية للنص التي يشترك فيها جماعة الشعراء أساساً لمعرفة الشعر الصحيح ، ومثل لذلك بمدرسة أوس بن حجر وتلاميذه .

وجعل الكتاب السادس الحديث عن بعض الآمور المتعلقة بالشعر ، كتحريفه وموقف المعاصرين منه ، وفنونه وفنونه ويجوره . ثم تحدث في الكتاب الأخير عن النثر الجاهلي ، ورأى أن حفظه من الفساد والتحلل لا يقل عن حفظ الشعر ، وأن الموجود منه لا قيمة له ولا غناء فيه .

الانتحال

لقد وضح من العرض السابق أن كتاب الدكتور طه حسين في مجموعه يدور حول قضية الانتحال التي بسط فيها كل حجه وبراهينه . ولعل قد حرصت في الصفحات السابقة على أن أستشهد بقدر كبير من أقواله التي يصعب تلخيصها بصورة قريبة من الجور الذي يشيعه في النص سواء من ناحية التكرار المتعمد ، والإلحاح على تأكيد المعنى أو من ناحية التهمك والبخرية ، أو من ناحية الاستدلال وبسط الحجة ، أو من ناحية الاكتفاء ببعض الأدلة والروايات ، ما دامت في صالح القضية التي يدعوا إليها .

وتؤكد أن كثيراً مما قاله حول الانتحال قد عرض له القدماء ، وأفاضوا في الحديث عنه ، كما ذكرنا ذلك في حديثنا عن ابن سلام الذي كشف عن أسباب التحل أو الوضع ، وأرجعها إلى القبائل والرواة ، ولكن الرواة لم يذهبوا في حديثهم عن التحل إلى حد الشك في مجموع الشعر الجاهلي . وإذا كانوا قد نصوا على الرواة الوضاعين فإنهم أبانوا

عن فريق آخر من الموثوق فيهم ، والذين إذا اتفقوا على أمر فليس لأحد أن يخرج عليه ، وكأنهم قد وضعوا بذلك حدا لفوضى الشك في الشعر الجاهلي . أما طه حسين فقد أهمل الرواة إهمالا تاماً ، ولم يمتد برواياتهم ولا بشهاداتهم ولو كان الراوى معروفاً بالأمانة والصدق ، ولكنه قبل رواياتهم إذا ذكروها للتشكيك في الشعراء ، أو فحوا بها على الرواة الوضاعين ، أو تنازعوا حول رواية قصيرة تنسب لأكثر من شخص ، ففي حديثه عن مالك بن الريب التيمي ذكر قصيدته التي أدلها :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة

بجنب الغضى أزجى القلاص النواجيا

وعقب عليها في هامش الكتاب فقال : « ويقول أبو عبيدة إن الذي قاله ثلاثة عشر بيتاً ، والباقي منحول ولده الناس عليه » (١) .

وقد بدأ بعض المستشرقين في منتصف القرن التاسع عشر تقريباً البحث في قضية الانتحال ، فقد عرض المستشرق (نولدكه) في سنة ١٨٦٤ م للشكوك التي أثبتت حول هذا الشعر . وبعد ثمانى سنوات — كما يقول بلاشير : « تساؤل المستشرق (أدلوارد) المسألة بدورها دون أى تحديد فيها فعرضها بدقة لم يتوصل إليها سلفه » (٢) .

وذكر ذلك وعرضه في مقدمة كتاب دواوين الشعراء الستة الجاهليين .

(١) طه حسين . هامش كتاب (في الأدب الجاهلي) ص ١٨٦

(٢) بلاشير . تاريخ الأدب العربي ص ١٩٧ دار الفكر بدمشق الطبعة الثامنة ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) .

وقد شايخ جماعة من المستشرقين أمثال (موير وباسيه وليال وبركلمان) طوال ثلاثين سنة (نولدكه وأهلوارد) في موقفهما الحذر . (١) .

ومن خلال ما كتبه جيمس ليال في مقدمة الجزء الثاني من المفضليات، وفي مقدمته لديوان عبيد بن الأبرص يتضح موقفه المتحيز في الدفاع عن الشعر الجاهلي حيث رد على الكتابات الأولى لمرجليوث التي هاجم فيها هذا الشعر . ويذكر ليال أن الذين وضعوا هذا الشعر على فرض التسليم بذلك ... كانوا يحاكون نماذج سابقة وتقاليد أدبية موروثة قلدوها وحاكوها . ونفس هذه المحاكاة تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه إذ لا يمكن أن يحاكونا شيئاً لم يبق منه ما يتيح لهم هذه المحاكاة، ولإذن فلا بد أن يكون هناك شعر جاهلي عرته الإسلاميون ، وحاكوه وحتما دخله استعمال أمثال حماد وخلف ، ولكن وراء استعمالهم شعر صحيح ، ينبغي أن نتهدى في معرفته بالرواية الوثيقة ، وصفاته الشخصية وال أسلوبية المميزة (٢) .

وبقي الأمر على ذلك إلى أن جاءت سنة ١٩٢٥ م فنشر سرجايوڤ بحثه بعنوان (أصول الشعر العربي) نشره في مجلة الجمعية الملكية الروسية عدد يوليو سنة ١٩٢٥ م ورجح فيه أن هذا الشعر الذي نقره، على أنه شعر جاهلي إنما نظم في العصور الإسلامية، ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيّفون لشعراء جاهليين، (٣) .

(١) انظر المرجع السابق ص ١٩٨

(٢) د / طه حسين . تاريخ الأدب الجاهل (العصر الجاهلي) ص ١٦٧ ، ١٦٨

(٣) د / ناصر الدين الأسد . مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٥٣ دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة عام ١٩٧٨ م .

كما عرض بلاشير لقضية الاتحال ، وذكر مقالة مرجليوت وكتاب
طه حسين ، وتحدث عن رأيه الذي كان متموجاً إلى حد كبير بين الشك
في جملة الشعر وقبول قدر منه ، وكشف عن العجز التام في التعرف على
الدلائل التي تميز بين الصحيح والفساد .

أما فيما يتصل بمقالة مرجليوت فقد تكلم عنها الدكتور ناصر الدين
الأسد وإفاضة من خلال حديثه عن الوضع والنحل في الشعر الجاهلي ،
وناقش الأدلة التي استند عليها مرجليوت ، وذكر من ردوا عليه من
المستشرقين .

وبحث مصطفى صادق الرافعي هذه القضية في كتابه (تاريخ آداب
العرب) الذي نشره عام ١٩١١ م ، واعتمد في بحثه على سرد آراء القدماء
من غير استقصاء طويل لها ، وتمحيص فيها ؛ ليزيد زائتها من صحتها ،
وأقر ببعض الوضع الذي خلق شعر الشواهد النحوية والسكلامية ، ورأى
أن الكوفيين أكثر الناس وضعا للأشعار ، لحاجتهم إليها في اعتبارها
أصولاً يقاس عليها .

ورأى — مثل القدماء — أن الرواة أحد الأسباب لوضع الشعر ،
ومثل لهم بآئتين وهما : حماد وخلف الأحمر .

ثم جاء طه حسين فبحث الاتحال من جميع جوانبه ، وبالغ في رؤيته ،
واعتمد على بعض الروايات التي تستخدم منهجه .

وقد وفق في عرض وجهة نظره إلى حد كبير — بصرف النظر عن
المنهج الذي تمسك فيه كثيراً — كما أنه لم يهدم الشعر الجاهلي كله مثل
مرجليوت ، بل أبقى على القليل منه الذي أرجعه إلى شعراء مضر بينما
رفض معظم شعر ربيعة ، ولم يقبل من شعراء اليمن إلا امرئ القيس الذي
استعرض حديثه عنه بالتفصيل .

وقد تصدى للرد على طه حسين جماعة من الأدباء والباحثين مثل محمد فريد وجدي في كتابه (نقد كتاب الشعر الجاهلي) ومحمد لطفي جمعة في كتابه (الشهاب الراصد) والسيد محمد الخضر حسين في كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) ، ومحمد الحصري في كتابه (محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي) ومحمد أحمد النمراني في كتابه (النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي) ومصطفى صادق الرافعي في بعض الفصول من كتابه (تحت راية القرآن) .

وهكذا كثُر الحديث عن الانتحال عند القدماء والمحدثين من مستشرقين وغرب ، وكثبت حوله أبحاث عديدة فوق ما ذكرنا ، على أن كلام الدكتور طه حسين عن امرئ القيس لا يمكن فصله عن قضية الوضوح في الشعر الجاهلي ، إذ أنه لم يذكره مع غيره من الشعراء إلا ليؤكد نظريته في الشك في هذا الشعر .

ويمكن أن تصل بحكمها على الشعر الجاهلي إلى الأخذ بما قاله القدماء ، وبما بسطه الرافعي من حيث وجود قدر من التحلل الذي لا يمكن التعرف عاياه بسر وسهولة والذي تختلف أسبابه وبواعثه ، لكن الشك في هذا القدر من التحلل لا يدفعنا إلى رفض الشعر الجاهلي كله كما قال مرجليوث أو الشك في معظمه كما قال الدكتور طه حسين ، وإنما نقر بوجود شعر منحول ظهر أثره واضحا في كثير من الروايات والقصاصات الموضوعة ، ويمكن الأخذ بما في علم الحديث النبوي من نقد للسند والمأثن في بيان الزائف والصحيح من الشعر ، فضلا عن بعض المعايير الأخرى التي يستهدى بها في نقده وتمييزه .

امرق القيس

لقد رفض الدكتور طه حسين شعر اليمين في الجاهلية ؛ لاختلاف لغتهم عن لغة قريش التي جاء الشعر الجاهلي بها ، ونزل القرآن الكريم بلهجتها ، خاصة وأن بعض الشعراء اليمانيين لم يهاجروا إلى الشمال . ولم يستوطنوا نجداً أو الحجاز، كما لم يظهر أي أثر للغة قريش في النفوس التي تركوها ، وتم اكتشافها بما ينفي تعرفهم على هذه اللغة في الجنوب ، كما استبعد أن يكون لليمن لغتان :

إحداهما : تتخذ في الكلام والحوار وكتابة التاريخ ، وتحديد المسأثر على العبارات والأبنية وغيرها ، وتتخذ الأخرى للشعر والنثر .

لكن هذا الرافض لشعراء اليمين لم يكن عاماً ، فقد استثنى منهم امرأ القيس ، ونبه على ذلك في أكثر من موضع ، ففي حديثه عن الشعر اليميني القديم ذكر عدة نماذج لشعراء قال إنهم عاصروا لإسماعيل بن إبراهيم أو عاصروا أبناء الأديين مستبعداً أن توغل لغة قريش في القدم إلى هذا الحد ، وأضاف إليها بعض النماذج الأخرى ، والتي قال عنها إنها لشعراء من اليمين في حين أن بعضها لشعراء إسلاميين أو لشعراء هاجروا إلى الشمال واستوطنوا نجداً ، وبعد أن ذكر هذه النماذج ونبه إلى ما فيها من سوء النظم وضعف اللفظ قال : « ومن غريب الأمر أنك تحصى شعراء اليمين هؤلاء . وتقرأ ما يضاف إليهم من الشعر ، فتراه كله على هذا النحو من السهولة والسخف واللين والإضطراب لا نستثنى منه إلا ما يضاف إلى امرئ القيس » (١) .

وألح على هذه الحقيقة فقال : « لفظ اليمين من هؤلاء الشعراء قليل

(١) د/ طه حسين ، في الأدب الجاهلي ص ٢٨٤

أو قل لا يكاد يوجد ، فليس لما في الجاهلية شاعر إلا امرؤ القيس ،
وسترى رأينا فيه ، (١) .

وأكد في نهاية حديثه عن شعراء اليمن عدم رفضه لشعر امرئ القيس
وإن علق ذلك بالوقوف عنده وقفات ، قال : « ... نرفض في غير تردد
كل ما يضاف إلى اليمن وأهلها من شعر ، ولكننا لا نستطيع أن نرفض
شعر هذا الرجل الذي اعتدت به الإنسانية واتخذته لها غزراً ، والذي
اعتدت به العرب كلها في عصر من العصور ، حتى اختلفت في أنه أكبر
شعراء العصر الجاهلي ، وهو امرؤ القيس — نقول : لا نستطيع أن
نرفض شعر هذا الرجل جملة دون أن نقف عنده وقفه خاصة ، (٢) .

وعقد عدة فصول للحديث عن بعض الشعراء الجاهليين ، وبدأ
بامرئ القيس مبيناً رأيه في نسبه وحياته وشعره .

أولاً — نسبه وحياته

ذكر طه حسين في حديثه عن امرئ القيس اختلاف الرواة في اسمه
ولقبه وكنيته واسم أبيه واسم أمه ، ونسب قبيلته وتفسير اسمها وأخبار
رجالها ، غير أنهم متفقون على أنها قبيلة يمانية ، وأن امرأ القيس
واحد منها .

قال : « فقد كان اسمه امرأ القيس ، وقد كمال اسمه حندجاً ، وقد
كان اسمه قيساً ، وقد كان اسم أبيه عمراً وقد كان اسم أبيه حيراً أيضاً
وكان اسم أمه فاطمة بنت ربيعة أخت مهمل وكليب ، وكان اسم أمه تملك

(١) المرجع السابق ص ١٩٠

(٢) المرجع السابق ص ١٩٤

وكان امرؤ القيس يعرف بأبي وهب وكان يعرف بأبي الحارث، ولم يكن له ولد ذكر ، وكان يمد بناته جميعاً ، وكانت له ابنة يقال لها هند ، ولم تكن هند ابنته ، وإنما كانت بنت أبيه ، وكان يعرف بالملك الضليل وكان يعرف بذي القروح، (١) .

ثم بين ما اتفق عليه أكثر الرواة حول اسمه ولقبه وكنيته واسم أمه ، ولكنه عاد فرفض رؤية هذه الكثرة .

وقد تناقل الرواة والإخباريون هذه الأقوال التي ذكرها طه حسين ، فيما يخص امرأ القيس ، وهي مختلفة فيما بينها ، وأغلب الظن أن ذلك راجع إلى الإعتقاد على الرواية في العصر الجاهلي ، ولم تستعمل الكتابة في تدوين الشعر والتاريخ للشعر إلا قليلاً أو نادراً .

وكان بعض الرواة في الجاهلية والإسلام تستهويهم الأخبار والقصص ، فينسخون بعضها ، أو يعتمدون على بعض المواقف التي تنصل بحياة الشاعر ، فيضيفون إليها من خيالهم أو من خيال غيرهم . على أن الباحث المنصف يستطيع أن يهل بعد تمحيصه للأخبار والروايات إلى قبول ما اتفقت عليه الكثرة وهو الذي يمكن أن يكون صحيحاً أو قريباً من الصحة .

أما ما عدا ذلك فيجب طرحه وإهماله ، وإلا فما القيمة لاسم أضافه بعض المتأخرين لامرئ القيس قد يكون لإثباته راجعاً إلى شهر من الرواة أو ممن كانوا ينسخون المؤلفات في العصور النسالية أما طه حسين فقد رفض رأى الكثرة ، ورأى أنه منظر إلى قبول كل ما يقال .

وإذا جازينا عييد الأدبي العرب في وجهته وسلمنا له بما قال حول عدم قناعته بأراء الكثرة لسكان علينا ألا نتق في شيء أبداً ، وذلك أن الناس — حتى في عصرنا الحاضر — عصر الطباعة والتصوير يختلفون في أشياء كثيرة تتصل بحياة الأدباء والأعيان والمشاهير ، فيمكن أن تقرأ مجموعة من الكتب عن واحد من هؤلاء حتى ترى الاختلاف بيننا والآراء متضاربة، فما بالك بعصر الرواة الذين عرف بعضهم بالكذب والتلفيق ، أو بعصر النسخ الذي اعتمد فيه على جماعة من الكتاب عن كاهنوا ينسخون المؤلفات ويفتقدون الأمانة العلمية في ضبط الأعلام وتصحيح الأسماء ، ونقل النصوص إلى غير ذلك من الأمور التي ظهر أثرها واضحاً في انفرق بين نسخ الكتاب الواحد : « ولقد رووا أن كيسان مستعمل أبي عبيدة كان يكتب غير ما يسمع ، ويقرأ غير ما يكتب ، ويفهم غير ما يقرأ » (١) ولماذا لا نسلم — بعد ذلك — بتعدد من التحريف أو التضارب الذي صاحب رحلة الضر والشمراء عبر العصور .

ولذا رجعنا إلى ما كتبه أبو الفرج عن امرئ القيس رأينا يذكر اختنا للشاعر وأسمها هند : ثم يجعل هنداً بنت الشاعر في الترجمة نفسها بما حدا بنا للقول أنها أخته وليست بنته أو نقول هنا كما قال الدكتور طه حسين بأنها بنت أبيه حسب كلامه السابق .

ولقد أراد الدكتور طه حسين أن يدفع باحتيال يقوى به وجهته نحو القصص والروايات التي تتصل بحياة امرئ القيس في العصر الإسلامي فذكر أن حياة هذا الشاعر كانت تمثيلاً لحياة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي الذي قتل في زمن ولاية الحجاج على العراق وخراسان

(١) مصطفى صادق الرافعي . تحت راية القرآن ص ١٠٦ نشر دار الكتاب العربي الطبعة السابعة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) بيروت .

وسجستان . ووضعها التماس إشادة بذكر قبيلة كندة . وأورد لذلك بعضاً من تاريخ كندة في القرن الأول الهجري وتحدث عن وفد كندة . الذي جاء إلى النبي ﷺ وفيه الأشعث بن قيس ، وعن ردة هذه القبيلة عن الإسلام في عهد أبي بكر ، ورجوعها إلى الإسلام بعد حصارها في النجيب ، ثم ذكر وفدها الذي جاء قسراً إلى أبي بكر وفيهم الأشعث الذي تزوج بأُم فروة أخت الصديق ، وعاش بالمدينة ، وشارك في حرب الفتوح الإسلامية ، كما كان ابنه محمد بن الأشعث سيداً من سادات الكوفة ، واعتمد عليه زياد في أخذ حجر بن عدي الكندي الذي قتله معاوية في نهر من أصحابه ، مما ترك أثراً قوياً في نفوس المسلمين والنجيين خاصة .

وتحدث عن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذي ناز على الحجاج ، وخلع عبد الملك ، وعرض ملك آل مروان للزوال ، وأن القتل بسببه يلقون عشرات الألوف . وقد تنقل في مدن فارس ، وغدير به ملك الترك ، وبعث به إلى الحجاج فقتل نفسه في الطريق إلى العراق . وسواء أكانت حياة عبد الرحمن بن الأشعث على هذه الصورة ، أو أنها تختلف عن ذلك ، بعض الاختلاف كما ذكر البعض (١) فإن تفاصيل هذه الحياة حسب ما ذكرها الدكتور طه حسين تختلف عن حياة امرئ القيس اختلافاً كثيراً فحجر ابن عدي الذي قال إن ابن الأشعث قد ناز للانتقام له لا يلتقي معه إلا في الأب الخامس ، وأن حكاية قتل معاوية له قد مر عليها قرابة الثلاثين عاماً وتسام : كيف يعتمد زياد على (محمد بن الأشعث) في أخذ حجر

(١) انظر كتاب محمد الحضر حسين (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) ص ٢٩٨ المكتبة العلمية بيروت

ابن عدى تمهيداً لقتله ، ثم يخرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث للنار الحجر
على أن كل ما ذكره من تمثيل تاريخ امرىء القيس لحياة ابن الأشعث
لا يتجاوز الشبه إلى التمثيل الكامل كما قال :

«واقعة امرىء القيس بنوع خاص تشبه من وجوه كثيرة حياة عبد الرحمن
ابن الأشعث» (١)

ولذا كان الدكتور طه حسين يفترض أو يرجح أن حياة امرىء
القيس ليست إلا لونا من التمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث فإنه لم يذكر
خبراً أو رواية عن القدماء يرجح بها هذا الاحتمال ، واكتفى بهذا الربط
الضعيف أو الشبه الواهي بين هاتين الشخصيتين ، على أن هذا التكلف
والادعاء بنحل اليمينين لهذه القصص والروايات التي تنصل بحياة امرىء
القيس تمثيلاً لحياة ابن الأشعث لا تقوى الحجة التي يذهب إليها ، ولا
يتوافق تقديمها أو الاستشهاد بها في المنهج الذي اتبعه طه حسين في حياته
العملية والعلمية .

ولذا كان رأيه الذي أعانه وألح عليه في أكثر من موضع مبنياً على نحل
هذا القصص المتصل بحياة امرىء القيس في العصر الإسلامي ، فلم يقوى
هذا الرأي قوله بأن حياة امرىء القيس تشبه تاريخ ابن الأشعث . وأن اليمينين
قد وضعوا هذه الروايات في العصر الإسلامي .

(١) طه حسين ، في الأدب الجاهلي من ١٩٨

ثانياً - الشك في شعره

تحدث الدكتور طه حسين عن شعر امرئ القيس ، فذكر أنه ينقسم إلى قسمين :

أحدهما يتصل بالقصة التي تقدمت الإشارة إليها ، وهي قصة عبد الرحمن بن الأشعث ، ورأى أن هذا القسم ليس جاداً . وإنما هو إسلامي نحل لتفسيرها أو تسجيلها ، ولتمثيل التنافس القوي الذي كان قائماً بين قبائل العرب في الكوفة والبصرة ، وللأسباب التي ذكرها في وضع الشعر .

أما القسم الثاني وهو الشعر الذي لا يتصل بهذه القصة ، وإنما يشمل فنوناً أخرى من القول مستقلة عن الأهواء السياسية والحزبية ، فقد أرجأ القول فيه لحين الانتهاء من القسم الأول . وعاد للحديث عن شخصية امرئ القيس وما اتصل بها من الشعر القصصي الذي شك فيه ووصفه بالحل في العصر الإسلامي وعقد مشابهة بين شخصية امرئ القيس وشخصية الشاعر اليوناني (هوميروس) . فوردخو الآداب اليونانية لا يشكون في أن هذه الشخصية قد وجدت حقاً ، وأثرت في الشعر القصصي حقاً ، وكان تأثيرها قوياً باقياً ، ولكنهم لا يعرفون من أمرها شيئاً يمكن الاطمئنان إليه ، وإنما ينظرون إلى هذه الأحاديث التي تروى عنه ، كما كانوا ينظرون إلى القصص والأساطير لا أكثر ولا أقل ، (١) وحكم على شخصية امرئ القيس بهذا المقياس . ورأى أنه الملك الضليل حقاً الذي لا يعرف عنه شيء . يمكن الاطمئنان إليه ، ورفض الشعر الذي قاله أثناء تنقله بين المدن اليونانية ، لأن شيئاً مثل هذا قد لوحظ في حياة (هوميروس) إذ تنقل بين المدن اليونانية ، ولقي الإكرام من بعضها . ولقي الإعراض من بعضها الآخر .

(١) المرجع السابق ص ١٩٩

و.فسر مؤرخو الآداب ذلك بأنه مظهر من مظاهر التنافس بين المدن اليونانية، ووجد ما يشبه هذا في تاريخ امرئ القيس. فاستشهد بما ذكره صاحب الأغاني من أن دارم بن عقاب من ولد السموم قد انتحل امرأ القيس القصيدة الغافية التي أضافوها إليه.

وإذا كنت أقنع كثيرًا بقدره المذكور طه حسين على بسط حجته، وشرح وجهة نظره - بهدرف النظر عن قبولها أو رفضها - لكنني أجد نفسي غير مقتنع هنا برفضه لشعر امرئ القيس الذي قاله أثناء تنقله بين القبائل، لا لشيء إلا لأن (هو ميروس) الشاعر الإغريقي الكبير قد تجول بين المدن اليونانية، ولقى من بعضها الاحترام، ولقى من بعضها الآخر الإعراض، ولأن المؤرخين قد ارتابوا في هذا الشعر الذي قاله أثناء تجواله في المدن اليونانية، ولذلك فهو يذهب هذا المذهب في تفسير الشعر الذي قاله امرؤ القيس أثناء تنقله بين القبائل العربية. ولا أعنفد أن هذه المقارنة يمكن أن تكون دليلًا أو حجة يستند إليها طه حسين في رفضه لشعر امرئ القيس المذكور. إذ لا يختلف الناس حول مقياس القبول والرفض الذي يرجح إلى الرواة (السند) وإلى النص (المتن).

وإذا كان اليونانيون قد شكوا حقًا في شخصية (هو ميروس) وشعره، فليس بلام أن نشك نحن في شخصية امرئ القيس وشعره إلى المستوى الذي رآه طه حسين. أي أن الرفض لهذا الشعر جاء على غير أهياس. على أن العلماء قد نقدوا هذا الشعر، ونفوا قسما منه. وقالوا: إنه يحول على الشاعر، مثل تلك القصيدة التي قال أبو الفرج: إن دارم بن عقاب قد أضافها إلى امرئ القيس بمتدج بها السموم. ووجد طه حسين فيما ذكره أبو الفرج حينًا ثمنيا، فأقبل على روايته، واستشهد به، وأضاف إليه.

فقال: «وأكبر ظننا أن دارم بن عقاب لم ينتحل القصيدة وبعبدها،

ولأنما نحل القصيدة كلها ، ونحل ما يتصل بها أيضاً : نحل قصة ابن السموم الذي قتل بمنظر من أبيه حين أبي تسليم أسلحة امرئ القيس ، ونحل قصة الأعمى الذي استجار بشرح بن السموم... (١).

وأعجب من طه حسين كيف يقبل رواية أبي الفرج حينما ينفى قصيدة عن امرئ القيس ، ولا يقبل روايته حينما يحدثنا عن شعر امرئ القيس الذي قاله أثناء تنقله بين القبائل لجثا على معاوته في النار لأبيه ، ولخوفه من خصومه وأعدائه الذين كانوا يتعقبونه. ويحاولون الفتك به ، والقضاء على بقايا كندة في وسط الجزيرة العربية وشمالها .

ولقد استشر طه حسين مقولة أبي الفرج في القصيدة التي نحلها ولد السموم امرأ القيس ، وقال إن نحل هذه القصيدة كان سيئاً في نحل قصة أخرى، وهي قصة ذهاب الشاعر إلى القسطنطينية وما يتصل بها من الأشعار كالقصيدة التي قال في مقدمتها :

سمالك شوق بعد ما كان أقصرا

وحلت سليمى بطن ظبي فمرعرا

حيث جاء رفض هذه الرحلة ورفض ما جاء عنها من شعر ، لكونها في أعقاب ذهاب الشاعر إلى تيماء ولقائه بالسموم، ونحله القصيدة التي تحدث عنها أبو الفرج .

ولا يخالفني شك في أن القارئ يلحظ معنى أن هذا الرفض مبني على غير أساس ولا يستند إلى حجة يقوي بها في ساحة النقد . وقد امتد حكمه بالنحل على كل ما اتصل بالرحلة من غير أن يستعمل أساليبه المعروفة في الطرح النقدي المتصل بقضايا الاتهام في الشعر ، قال : « منحول هذا

الشعر الذى قاله امرئ القيس حين دخل الحمام مع قيصر ، والذى نزهه هذا الكتاب عن روايته ، متحول هذا الحب الذى يقال إن امرأ القيس أضمره لابنة قيصر . متحولة هذه الأشعار التى تضاف إلى امرئ القيس حين أحس بالسلم وهو قافل من الروم (١) .

والدكتور طه حسين أن يرفض أو أن يشك فى بعض التفاصيل التى ذكرتها الروايات ، الإخبارية أو الشعر الذى لا يتوافق مع المقاييس الفنية التى ارتضاها العلماء لشعر امرئ القيس ، والتى يمكن بها — إلى حد كبير — التعرف على الصحيح والموضوع من شعره . ولقد أراد أن يؤكد رفضه لهذه الرحلة زما قبل فيها من شعر فذكر بعض الأسباب الأخرى مثل عدم ظهور أى أثر فى شعر امرئ القيس لما شاهده فى بلاد الروم ، والإحساس بالضعف والاضطراب والجهل بالطريق إلى القسطنطينية بعد قراءة الشعر الذى قيل عنها . وقد وصف الشاعر طريقته إلى القسطنطينية ، وأبان عن سبب توجهه إليها ، وتحدث عن بعض آلامه هناك غير أنه لم يكن فى حالة تسمح لموهبته أن تصف هذه البلاد ، إذ لم يكن ذاهباً للتعرف على القسطنطينية ومشاهدة آثارها ، والتعرف على مواطن الروعة فيها .

كان الشاعر منهوكة من تعب الرحلة ، وألم المرض ، ومشقة الغربة وعناء الحروب ، وكان يأمل فى النصرة والعون على الأعداء ، أما الشعر الذى جاء بالديوان حول هذه الرحلة فلم يكن فى طبقة واحدة ، فبعثته موتى من قبل الرواة المشهود لهم كالأصمعي والمفضل وغيرهما . ونرى فيه شخصية الشاعر ، كما يظهر النحل والوضع فى البعض الآخر ، وهذا القسم قد استبعد النقد والرواة ، فالرحلة ثابتة فى حياة امرئ القيس ، وتحدثت

عنها المصادر العربية : وذكرت في كتب الروم (١)، وتحدث عنها الشاعر بشعر يتلأم مع موهبته وأسلوبه ، وأضيفت إليها أشعار منحوالة ظهر عليها الضعف ، وكشفها الجدول من الرواة .

ثالثاً — المختار من شعره

رأى طه حسين أن الشعر الذي يتصل بسيرة امرئ القيس إنما هو من عمل القصاص ، ولذا فهو منحول ، أما القسم الثاني من شعره ، وهو الذي لا يفسر سيرته ولا يتصل بها فأحقه بالعناية قصيدتان ، الأولى :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومزل

والثانية :

ألا أنعم صباحاً أيها السطلل البالي

وأما ما تبقى من هذا الشعر بعد هاتين القصيدتين « فالضعف فيه ظاهر ؛ والإضطرابات فيه بين ، والتكلف والإسفاف يكادان يلسان باليد » (٢) .

وهكذا ارتضى للشاعر قصيدتين — رأى أنهما أحق بالعناية — ورفض ماعداهما . وبعد أن قبل للشاعر هاتين القصيدتين عاد للشك في شعره مقدماً بعض الحجج الأخرى التي تقوى رأيه في الشك منها : « أن امرأ القيس — إن صحت أحاديث الرواة — يمني ، وشعره قرشي اللغة ، لا فرق بينه ، وبين القرآن في لفظه وإعراجه وما يتصل بذلك من قواعد

(١) انظر . لويس شيخو ، شعراء النصرانية ج ١ ص ٣٥ وكتاب محمد

الحضر حسين (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) ص ٣٠٣

(٢) طه حسين . في الأدب الجاهلي ص ٢٠٢

(١٧ — القيس)

الكلام . ونحن نعلم — كما قدمنا — أن لغة الين مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز ، فكيف نظم الشاعر اليني شعره في لغة أهل الحجاز بل في لغة قريش خاصة (١) .

إن الدليل اللغوي أقوى حجة استند عليها الدكتور طه حسين في رفضه لشعراء الين في العصر الجاهلي بصفة عامة ، ولشعر امرئ القيس بصفة خاصة ، وما دمنا مشغولين هنا بإيضاح حجته حول الشك في شعر امرئ القيس فلا داعي — إذن — لأن نتحدث عن التقارب بين العدنانية والقحطانية قبل الإسلام ، والذي ازداد في العصر الإسلامي زيادة كبيرة إلى الحد الذي لم يجد أهل الين مشقة أو صعوبة في فهم هذا المدين الجديد . ولاداعي لأن نتحدث عن هذا التقارب ، ونستشهد له ، ونمدلك عليه ؛ لأن شاعرنا لا يحمل من القحطانية إلا مجرد الذكرى — فقط — لأجداده القدماء الذين نزحوا إلى الشمال قبل نهاية القرن الرابع الميلادي تقريبا ، وتخلوا لإبان الحقب الطويلة التي أقاموا فيها بنجد عن بقايا لغتهم القحطانية ، وصارت العدنانية هي لغتهم التي يتعاملون بها .

ونأتي إلى امرئ القيس فنجد قد ولد بنجد ، ونشأ في ديار بني أسد ، ولهج بلغة العدنانيين ، ونظم شعره بالنصحى التي كان ينظم بها سائر شعراء ربيعة ومضر ، والتي في مجموعها لا تختلف عن لغة قريش اختلافا جوهريا ، فإذا كان الشاعر يعني الجنس فإنه يتحدث باللغة . ثم كيف يقبل طه حسين من الرواة أن يكون امرؤ القيس يميننا ، ويأبى لهم أن يكون ولادته ونشأته في نجد ؟

(١) المرجع السابق ص ٢٠٢

لقد سادت لهجة قریش منذ أوائل العصر الجاهلی بین الشعراء بخاصة لاعتبارات كثيرة لعل منها موقع مكة المكرمة، وقربها من أماكن الأسواق الأدبية في الجاهلية أثناء موسم الحج، وبعدها عن التأثيرات الأجنبية سواء من الحبشة أو الفرس أو الروم أو غيرها.

لكن هذا لا يني تمیز كل قبيلة ولهجة خاصة (يمكن أن نسميها محلية) لم يعبأ بها الشعراء في نظم أشعارهم، وإن ظهر أثرها في كثير من النماذج الشعرية التي جمعها العلماء في عصر التدوين. ونجد قريبا من ذلك في عصرنا الحاضر، حيث تختلف اللهجة في كل بلد عربي عن الآخر، لكننا لا نجد أي اختلاف بين الشعر الذي ينظم باللغة الفصحى في سائر البلدان، ولذلك قال ألكنتور شوقي ضيف: ويدل ما بين أيدينا من شعر جاهلي دلالة قاطعة على أن القبائل العربية الشمالية اصططلحت فيها بدينها على لهجة أدبية فصحي كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعداها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبياته المحلية إلى هذه اللهجة الأدبية العامة (١).

وكادت هذه اللهجة الفصحى هي عين اللهجة القرشية التي نزل بها القرآن الكريم، ولم يقتصر انتشارها على الحجاز ونجد بل عمت وسادت معظم القبائل العربية في الشمال والغرب والشرق، وفي مواطن أخرى كثيرة بجزيرة العرب.

ونعود إلى ما ذكره ألكنتور طه حسين حول الشك في شعر امرئ القيس، ونسأل: كيف يقبل قصيدتين للشاعر، ثم يعود فيتشكك في شعره لأنه مكتوب بلغة قریش والشاعر من اليمن؟ أي أنه مادام قد راض شعره

(١) شوقي ضيف. تاريخ الأدب (العصر الجاهلي) ص ١٣١

لأنه يبنى — كما قال — وشعره قرشى اللغة فلا ينبغي أن يقبل من شعره ما يهدم به شكه ، أو حجته في الطعن بسبب اللغة .

كما أنه قد قبل الشعر المضرى ، وهو مكتوب بنفس اللغة التي كتب بها شعر امرئ القيس ، ولم يكن شعرا مضرا يعيشون جميعا في مكة ، فكيف قبل شعرهم الذي كتب باللهجة القرشية وهي الفصحى التي سادت في الجاهلية ؟

ولا أدري أن هناك فرقا بين امرئ القيس وعبيد بن الأبرص ، وهو من مضر سوى أن الأول كان جده الرابع أو الخامس يعيش في اليمن ، ولهذا لا أعقد أن لغة الشعر الجاهلي يمكن أن تنهض دليلا على التحل في شعر امرئ القيس .

ومن الأدلة التي ساقها طه حسين على تحل شعر امرئ القيس عدم اشتغاله على الأخبار التي واكبت حرب اليموس كقتل كليب بن ربيعة وبلاء المهمل في النار لأخيه ، ولذلك نقول إنه من الأفضل دوما في نقد الشعر أن نبحث عن الأسباب التي من أجلها قيل الشعر . أما أن نتحرى في معرفة الأسباب التي من أجلها لم يقل الشعر فهذه مسألة غير مقنعة وله لك نحاول أن نبحث عن إجابة لهذا التساؤل الذي أثاره طه حسين .

وقد روى أن الكثيرين لم يسلبوا بحقولة امرئ القيس المذكورة . وقيل إن أخت المهمل وكليب لم تكن إلا زوجة لوالد الشاعر ، وجاء في شعره ما يقوى هذه الحجة ، على أن الشاعر — إن صحت هذه الحقولة — لم يكن مشغولا بما كان في حروب أخواله بقدر ما كان مشغولا بقضية النار لأبيه من بني أسد ، واسترجاع ملك كندة وتاريخها القديم ، ولا أرى ما ذكره محمد الحنظلر حسين مقنعا حول احتمال أن يكون امرئ القيس قد أشار في شعر آخر إلى مقتل عماله كليب وبلاء عماله المهمل .

والجن التي أصابت أخواله ، والمآثر التي كانت لهم ، وذهب هذا الشعر
مع الرواة الذين قتلوا في حرب الردة أو الفتن أو الفتوح (١) .

رابعا — نقد القصيدتين :

لقد شك الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي ، وقال بنحله بعد
المصر الجاهلي ، ورفض شعراء البين ، واستثنى منهم امرأ القيس ، ثم شك
في شعره أيضا ، وحاول أن يقتعنا بأن شخصيته الشعرية قد ذابت إلى
الجذ الذي لم يبق منها إلا هاتان القصيدتان ، وهما :

١ — قفا بك من ذكرى حبيب ومنزل .

٢ — ألا أنعم صباحا أيها الطال البالي .

ووجد أثناء بحثه للاتصال ، وفي حديثه عن امرئ القيس بأنه يتحدث
عن هذا الشعر الذي أقره للملك الضليل ، وكرر وعده بالجديث عن القصيدة
الثانية إلا أنه جاء هنا ، فدار معظم كلامه حول المعاقبة ، ولم يذكر اللامية
(الثانية) إلا في إشارة خاطفة كما سنوضح بعد .

وقد بدأ كلامه عن المعاقبة فقال : « فاسنا نعرف قصيدة يظهر فيها
التكلف والتعمل أكثر مما يظهران في هذه القصيدة ، لانهفل بقصة تعليق
هذه القصائد السبع أو العشر على الكمية أو في الدفاتر ، فما نظن أن أنصار
القديم يحفلون بهذه القصيدة التي نشأت في عصر متأخر جدا » (٢) .

لم يرق لي الجزء الأول من الفقرة السابقة أو بمعنى أدق لم أقنع به تماما
فكيف لا يعرف عميد الأدب العربي قصيدة يظهر فيها التكلف والتعمل

(١) محمد الحضر حسين نقض كتاب (في الشعر الجاهلي) ص ٢٠٥

(٢) طه حسين . في الأدب الجاهلي ص ٢٠٤

أكثر من هذه القصيدة؟ هل يقصد بذلك قصائد امرئ القيس التي أنكرها سوى هاتين، أو يقصد الشعر الجاهلي كله الذي أنكره باستثناء ما قاله شعراء مضر وبعض شعراء ربيعة أو أنه يذكر الشعر العربي كله؟ وأظنه يقصد هذا الأخير.

واعتقد أن حكمه السابق مبالغ فيه جدا، ففي التراث الشعري قصائد عديدة يظهر فيها الكثير من التكلف والتعمل أكثر بكثير مما في قصيدة امرئ القيس إذا صح ذلك فيها مع أنها أشهر المعلقات حتى ضرب بها المثل فقيل «أشهر من قفا نيك»، وقال عنها فؤاد البستاني: «دفعت شهرة هذه المعلقة الكثيرين من العلماء إلى شرحها، فشرحوا أبياتها بيتا بيتا، وعلقوا الشروح والآراء الوافية على ما أراد الشاعر التعبير عنه من التشابه والأفكار، وقابلوا بينها وبين غيرها من شعر امرئ القيس، ومن الشعر الجاهلي بالإجمال، فكان لعملهم فائدة جلية» (١) وأعني بذلك بذكر شروحها وترجماتها إلى اللغات الأجنبية.

أما قصة تعليق هذه القصيدة مع أخواتها فإن أكثر القدماء لا يحفلون بها كما أن أنصار القديم في العصر الحديث لا يبالون بها، ولا حرج في ألا يحفل بها أيضا الدكتور طه حسين.

ثم ذكر في حديثه عن هذه القصيدة أن القدماء يشكون في بعض أبياتها وهي قوله:

ترى يمر الأرام في عرصاتها وقيعائها كأنها حب فلفل
كأن غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل

(١) فؤاد البستاني، الروائع (امرئ القيس) ص ١٤ ج ١ «عام

وقوله :

وقربة أقوام جعلت عصاما
على كاهل منى ذلول مرحل

وأورد بعد هذا البيت ثلاثة أخرى .

إن ما ذكره الدكتور طه حسين صحيح ، فالبيتان الأولان من رواية
أبي عبيدة ولم يروهما الأصمعي ، ونقل عنه أبو جعفر أنهما من المنحول .
أما الأبيات الأربعة الأخرى فقال عنها الأصمعي وأبو عبيدة ويعقوب
ابن السكيت وغيرهم إنها ليست من المعلقة .

وقد خرج محمد الخضر حسين هذه الأبيات المشكوك فيها ، وعلق عليها
فقال : « ونقد الرواة القصيدة ، وتميز هذه الأبيات الستة بالانتحال ، يدل
على أن أصلها ثابت النسبة لامرئ القيس أكثر مما يدل على انتحال
القصيدة بأسرها » (١) .

ولمّا قد لاحظنا عناية الدكتور طه حسين بالبحث عما في القصيدة
من شكوك للقدهاء يؤكد بها رأيه حول الانتحال في الشعر الجاهلي ، وفي
هذه المعلقة بخاصة فقال بعد ذلك : « وهم بعد هذا يختلفون اختلافا كثيرا
في رواية القصيدة في ألفاظها وفي ترتيبها ، ويضعون لفظا مكان لفظ ،
وبيتا مكان بيت ، وليس هذا الاختلاف مقصودا على هذه القصيدة ،
ولمّا يتناول الشعر الجاهلي كله » (٢) .

على أن اختلاف الرواة في ألفاظ القصيدة أو في ترتيب أبياتها أمر طبيعي .

(١) محمد الخضر حسين ، نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٣٠٩

(٢) طه حسين ، في الأدب الجاهلي ص ٢٠٤

لقد كان القدماء يعتمدون على الرواية في حفظ الشعر ونقله للأجيال التالية، وطريق الرواية طريق وعر؛ للاعتداد على الذاكرة الإنسانية التي تخون أحيانا خاصة إذا كثرت محفوظات الراوى، وتشابهت الأشعار في الألفاظ والمعاني، وربما كان هذا الاختلاف راجعا إلى الشاعر الذي قال قصيدته على صورة، ثم قالها مرة أخرى مقرونة ببعض التغيرات، وهذا يحدث كثيرا في حياة الشعراء قديما وحديثا، فيأخذ بعض الرواة القصيدة من الشاعر في صورتها الأولى، ثم يروونها الآخرون مع بعض التغيرات، فيحدث هذا الاختلاف سواء في الألفاظ أو في ترتيب الأبيات.

وقد نبه طه حسين على وجود بعض الأبيات الفارقة فقال: «دونظن أن أنصار القديم لا يخالفون في أن هذين البيتين قلقان في القصيدة وهما:

وليل كسوح البحر أرغى سدوله
على بأنواع المهرم ليتلى
فقلت له لما تمطى بصلابه وأردف أجازا وناء بكلكل

فقد وضع هذا البيتان للدخول على البيت الذي يليهما وهو:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى
بصبح وما الإصباح منك بأمثل
وهذا البيتان أشبه بتشكلف المشطر والخمسة منهما بأى شئ.
آخر» (١).

لقد رمى البيتان ببعض الشك في القديم إذ قيل إن خالفا الآخر قد وضعهما على أمرى القيس للتمثيل بالاستعارة، ولم يجوزوا بذلك، بل تحدثوا عنهما معجيين متذوقين، ولم ينقل عنهم إثبات التشكلف الذي

ذكره طه حسين ، إنما قال عنهما المرزباني : « وأبيات امرئ القيس في وصف الليل أبيات اشتمل الإحسان عليها ، ولاح الخنق فيها ، وبأن الطبع بها ، فما فيها من معاب إلا من جهة واحدة عند أمراء الكلام والحناق بتقد الشعر وتمييزه » (١) .

أما العيب الذي نص عليه صاحب الموشح فهو التضمين ، ومعناه عدم استقلال البيت بإعادة المعنى ، قال : « وهذا عيب عندهم ، لأن خير الشعر ما لم يحتج بيت منه إلى بيت آخر ... » (٢) .

وقد أعجب الباقلاقي بالبيتين مع تعرفنا على تشدده في نقد الشعر غير أن الشيء الذي لم ينجبه فهما هو المبالغة في الخيال ... وهي لا تنفي أن يكون صاحب الشعر جاهلياً ، فإن للمبالغة في الخيال مثلاً وأردة في الأشعار المعروفة لدى الجاهليين » (٣) .

وقد اختار ابن سلام البيت الأول منهما من مجموع ما اختاره من تشبيهات امرئ القيس ، ولم يذكر أن به أو بالبيت الثاني عيباً أو تكلفاً .

ثم حدد طه حسين أجزاء القصيدة فقال : « هي أولاً وقوف الشاعر على الدار وما يتصل بذلك من إكباء وإعوال ، ثم ذكره أيام لهوه مع العذارى ، ثم عتابه لصاحبه وما يتصل بذلك من وصف خليلته ، ثم ذكر الليل والاستطراد منه إلى الصيد ، وما يتوصل به إلى الصيد من وصف القرس ، ثم ذكر البرق ، وما يتبعه من السيل » (٤) .

ثم انتهى ينتقد هذه الأجزاء واحداً تلو الآخر ، وأغفل الحديث

(١) المرزباني : الموشح ص ٣١ (٢) المصدر السابق ص ٣١

(٣) محمد الخضر حسين : نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٣١١

(٤) طه حسين في الأدب الجاهلي ص ٢٠٥

عن وقوف الشاعر على الدار وما يتصل به ، وتحدث عن أيام اللبو مع العذارى فقال : « ولتسرع القول بأن وصف اللبو مع العذارى وما فيه من خش أشبه بأن يكون من نحل الفرزدق منه بأن يكون جاهلياً .. » (١) ونقل عن الأغاني خبراً يتصل بالفرزدق عندما شاهد نساء يستجمعن بتقدير في ضاحية البصرة ، وقص عليهن قصة امرئ القيس في يوم دارة جاجيل ، ثم أعقبه بقوله : « والذين يقرءون شعر الفرزدق ويلاحظون غشوه وغلظته ، وأنه قد ليم على هذا الفحش ، وعلى هذه الغلظة ، لا يجدون مشقة في أن يضيفوا إليه هذه الآيات ، فهي بشعره أشبه ، وكثيراً ما كان القدماء يتحدثون بمثل هذه الأحاديث يضيفونها إلى القدماء ، وهم ينحلونها من عند أنفسهم » (٢) .

ونقض مصطفى صادق الرافعي في كتابه (تحت راية القرآن) ما ذكره طه حسين في كلامه السابق ، واستبعد أن ينحل الفرزدق شعر امرئ القيس ، وصحح الرؤية التي لها الدكتور طه حسين عن الأغاني ، كما أنه ليس بلازم أن ينحل الفرزدق شعر امرئ القيس لمجرد إتفاقهما في الهجاء والسب والافتداع ، ثم بين الفحش والتعبر في شعر امرئ القيس ، وقال إن ذلك أغلب عليه ، وهو يجري في شعره من ذلك على خلق وطبيعة وله جراءة عليه تشعرك أنه ابن ملك يرى لنفسه كلمة فوق كلام الناس ، فكلامه إنما يشا كل نفسه ، وغشوه إنما يأتيه من قبل الغزل والنسيب ، لا كفحش الفرزدق فذاك من قبل الهجو والقوم . والفرزدق لا يعد من شعراء الغزل ، وقد كان أهل الهجاء يتقدمون (جملًا) عليه وعلى جرير معاً لموضع جميل من النسب وقلة غنائهما فيه ، وكانا يعلمان ذلك من نفسيهما ، ولا يريان الشعر إلا في بابهما في الفخر والهجاء ، (٣) ويستبعد

(١) المرجع السابق ص ٢٠٥ (٢) المرجع السابق ص ٢٠٦

(٣) مصطفى صادق الرافعي ، تحت راية القرآن ص ٢٩٨

أن يضع الفرزدق على امرئ القيس ، لأنه يذكره في شعره ، ويقدمه ، ويجعله أحد النواحي الذين وهبوه قول الشعر . وقد كان من طبع الفرزدق الإغارة على شعر الآخرين مما يحمل قضية وضع شعره على امرئ القيس بعيدة الوقوع (١) .

وانتقل طه حسين إلى الحديث عن جزء آخر من القصيدة وهو الذي تحدث فيه امرؤ القيس إلى صاحبه وما يتصل به من وصف الخيلة وزيارته لها ، وتجشمه ما تجشم للوصول إليها ، وتخوفها الفضيحة حين رآته ، وخروجها معه وتعفيتها آثارهما بذيل مرطها ، ومشاركتها له في العبث واللهو ، إلى غير ذلك من المعاني التي يشتمل عليها الشعر الغزلي . وذكر أن هذا اللون أشبه بشعر عمر بن أبي ربيعة منه بأي شيء آخر قال : « فهذا النحو من القصص الغرامية في الشعر فن عمر بن أبي ربيعة قد احتكره احتكاراً ، ولم ينافعه فيه أحد . ولقد يكون غريباً حقاً أن يسبق امرؤ القيس إلى هذا الفن ، ويتخذ فيه هذا الأسلوب ويعرف عنه هذا النحو ، ثم يأتي ابن أبي ربيعة ، فيقلده فيه ، ولا يشير أحد من النقاد إلى أن أبي ربيعة قد تأثر بامرئ القيس ، مع أنهم قد أشاروا إلى تأثير امرئ القيس في طائفة من الشعراء في أنحاء من الوصف » (٢) .

ليس هناك ما يمنع أن يكون هذا القصص الغزلي من فن امرئ القيس ، خاصة وأن القدماء قد أشاروا إلى أنه سبق الشعراء إلى كثير من المعاني ، وأن الشعراء اتبعوه فيها ، ثم سار على نهجه ، وتأثر به عمر ابن أبي ربيعة في واحد من هذه الجوانب ، وهو النسب على أنثى . فلاحظ فرقا كبيراً بين هذا اللون في شعر امرئ القيس وشعر ابن أبي ربيعة ، إذ كانت القصيدة الغزلية عند الثاني موجهة إلى هذا الفن وحده .

(١) انظر كتاب (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) ص ٣١٣

(٢) طه حسين . في الأدب الجاهلي ص ٢٠٦

(غالباً) أى أنها تميل إلى التوحد وترقيق النسب ، وهذا ما نفتقده في غزل امرئ القيس . أما ما يتصل بالفحش والتعبر فلا يخفى تأثر عمر بن أبي ربيعة بأمر الشعراء الجاهليين ، ولو أن ابن ربيعة نحل امرأ القيس شعراً لما فات ذلك على القدماء ، وبخاصة في المدة التي كان الشعر ينتقل فيها من الرواية إلى التدوين .

وقد تحدث الرافعي عن هذا النقد ، ورد على طه حسين بأسلوب شديد وقاس ، ومن كلامه : « فإذا كان ابن أبي ربيعة قد استحسن أسلوباً من أساليب امرئ القيس في النسب فأكثر منه ، واستنفذ فيه جانباً من شعره فليس معنى ذلك أنه اختلج الطريقة ولا احتكر الفن » (١) واستبعد وجود نص يثبت اختراع ابن أبي ربيعة لهذه المعاني التي قال القدماء إن امرأ القيس قد سبق إليها . وذكر أن غزل الشعراء يسبقون إلى ابتداع المعاني والأساليب ثم يأتي من يتبعهم ويتأثر بهم . ولم يكن ابن أبي ربيعة بدعاً في ذلك ، فقد تأثر أبو نواس بالأعشى ، وتأثر البحتري في حديثه عن طيف الحبيب وزيارته ببعض الشعراء المتقدمين ، كما تأثر أبو تمام بمسلم بن الوليد في البديع والاستعارة والتشبيه والمجاز .

وذكر طه حسين أن النحل يشمل القصص الغرامية في المعلقة وفي القصيدة الثانية :

ألا أنعم صباحاً أيها الطفل البالي

ثم انتقل إلى الجزء الأخير من نقده الذي جعله عن الوصف في المعلقة واللامية الأخرى ، ولا سيما وصف الفرس والصيد ، ووقف من هذا الصخر موقف التردد أيضاً ، وإن كان شكه في شعر الوصف أقل من شكه في الشعر الآخر حيث أقر هنا بنبوغ امرئ القيس في وصف الخيل

(١) الرافعي . تحت راية القرآن ص ٣٠١

والصيد ، والسيل والطر واستحدثته في ذلك أشياء كثيرة لم تكن مألوقة من قبل ، لكنه لا يعرف إن كان امرؤ القيس قد قال هذه المعاني حقاً في الشعر الذي بين أيدينا أم قالها في شعر آخر ضاع وذهب به الزمان ، ولم يبق منه إلا الذكر ، أو جعل مقتضبة أخذها الرواة ، ونظموا منها شعراً أضافوه إلى هذا الشاعر القديم ؛ وأوضح ذلك فقال : « فنحن نقبل أن امرأ القيس هو أول من قيسد الأوابد ، وشبه الخيل بالعصى والعقبان ، وما إلى ذلك ، ولكننا نشك أعظم الشك في أن يكون قد قال هذه الأبيات التي يرويها الرواة . وأكبر الظن أن هذا الوصف الذي نجده في المعلقة وفي اللامية الأخرى فيه شيء من ربح امرئ القيس ولكن من ربحه ليس غير » (١) .

ونلاحظ أن كلام طه حسين في نقده هذا الجزء لا يتجاوز به حدود الظن إلى الحقيقة ، مع أن القدماء قد نبهوا على تأثر الشعراء بامرئ القيس في المعاني المذكورة ، وسبق أن تحدثنا عن ذلك في عدة مواضع من الباب السابق .

خامساً - القصيدة البائية

قال الدكتور طه حسين بارتحال القصيدة البائية التي يقال إن امرأ القيس أنشأها يخاضع بها علقمة بن عبدة (الفحل) وكأنت تحكم بينهما أم جندب (زوج امرئ القيس) ، وإنما قد غلبت علقمة زوجها ، وأول قصيدة امرئ القيس :

خليلي مراني على أم جندب لنقضي لبانات القواد العذب

(١) طه حسين في الأدب الجاهلي ص ٢٠٧

وأما قصيدة علقمة فطلتها :

ذهبت من المحجران في كل مذهب

ولم يك حقا كل هذا التجنب

وجزم طه حسين بان تحال قصيدة علقمة أيضا فقال: « وأنت تستطيع أن تقرأ القصيدتين دون أن تجد فيهما فرقا بين شخصية الشاعرين ، بل أنت لا تجد فيها شخصية ما ، وإنما تحس أنك تقرأ كلاما غريبا منظوماً جمع ما يمكن من وصف الفرس جملة وتفصيلا » (١) .

أما فيما يتصل بشك في قصيدة امرئ القيس ، فنذكر أن بعض القدماء قد سبقوه إلى هذا الشك ، وإن لم يذكر ذلك أو يشر إليه ، وكان مبعث القدماء على الشك في هذا النقص الذي حكمت به أم جندب بين قصيدة زوجها وقصيدة علقمة أن ابن الكلبي كان أحد رواة ، كما رواه أيضا ابن المعتز ، وذكره فيما أنكر من شعر امرئ القيس .

وجاء طه حسين فقبل ما قاله القدماء حول الشك في قصيدة امرئ القيس ، ورفض الخبر من أساسه ، مع أن الأصمعي كان أحد رواة ، وهو من المشهود لهم في صدق الرواية وتمحيص الأخبار . وقد نبه القدماء على الشك في كثير من قصائد امرئ القيس ، على أن هذا الشك لم يكن بدرجة واحدة لضبطه وتحديد عدد يسكنين من المعايير التي تسهم في تحديد المسافة بين القصيدة والشاعر بدرجة كبيرة .

(١) المرجع السابق ص ٢٠٨ .

أخيراً :

ونعود إلى مجموع ما قاله طه حسين حول الانتحال في شعر امرئ القيس بخاصة ، لنرى كلامه وسطا بين الشك الذي نص عليه القدماء من أمثال ابن سلام والأصمعي والرياشي وغيرهم ، وبين الرافض التام الذي قال به أكثر المستشرقين ، والذي لم يشمل امرأ القيس بحسب ، بل عم سائر الشعراء الجاهليين .

وكان طه حسين متأثراً بصنيع المستشرقين في مناهج البحث وطرق التفكير ، وظهر ذلك في عرضه لقضية الانتحال ، فضلا عن ثورته العلمية التي أراد أن يواجه بها مناهج تدريس الأدب في مصر ، ولكنه كان يعيل إلى المبالغة أحيانا ويقبل الرواية التي تؤيد وجهة نظره ، ويرفض الأخرى التي تعارض قضيته ، فكانت مبالغته تصل إلى الحد الذي يرفض الشعر الجاهلي كله ، وكان يتناسى تأثير الأخطل وغيره من شعراء القرن الأول بالشعراء الجاهليين . إذ لم يمكن ينسج أولئك من فراغ ، ولابد أنهم عرفوا ذبيرا وطرفة والأعشى وامراً القيس ، وتأثروا بقريضهم . في الألفاظ والمعاني على السواء .

ولا يوجد من ينفي النحل عن الشعر الجاهلي لأسباب كثيرة ودوافع مختلفة فتحدث القدماء عن ذلك ، ونهبوا إلى الوضعين من الرواة ، ولكنهم لم يشكروا في جملة الشعر الجاهلي إذ أنهم نبهوا أيضاً إلى الرواة المشهود لهم بالصدق في القول والأمانة في النقل . وأقر المحدثون بذلك على تفاوت فيما بينهم ، وكان طه حسين أشدهم جرأة في البحث وجورا في الحكم وأدبا في الحوار .

الفصل الثالث

أمير الشعر في العصر القديم لمحمد صالح سمك (١)

لأنه من المثير حقاً ، ومن المدهش أيضاً أن نجد كتاباً في خمسين وخمسين صفحة تقريباً قد ألفه طالب جامعي في الثانية والعشرين من عمره ، ثم يقر الكتاب إوياني عليه مصطفى صادق الرافعي نابعة البيان العربي في العصر الحديث . ولذلك يمكن أن يرفع الجرح عن منهج المؤلف في بحثه عن امرئ القيس وشعره ، خاصة وأن الكتاب ينقعه التقسيم والترتيب الذي يأخذ بهما أصحاب التأليف الأدبية والنقدية . كما أن الكتابات التي تحدثت عن امرئ القيس والتي ألفت قبل هذا الكتاب كان أغلبها لا يدور

(١) تخرج محمد صالح سمك من كلية دارالعلوم عام ١٩٣١ م ، واشتغل بالتحرير الصحفي ، والتدريس في دور المعلمين ، وبعض المعاهد العليا ، والكليات الجامعية حتى أحيل للعاش عام ١٩٦٧ م .

ومن مؤلفاته (تاريخ الأدب العربي) طبع عام ١٩٣٣ م ، ونبغ في التأليف عن التربية وطرق تدريس اللغة العربية . ومن أشهر كتبه (أمير الشعر في العصر القديم) الذي يعد من أوائل الكتب التي ألفت عن امرئ القيس ، إذ يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ١٩٢٩ م . وكتب مقدمته نابعة مصطفى صادق الرافعي في العام نفسه ، ووقتها كان المؤلف طالباً في دار العلوم . وقد نشرت بعض فصوله في مجلة المقتطف في عام ١٩٣٠ م . ١٩٣١ م ثم طبعه لأول مرة عام ١٩٣٢ م ، وأعيد طبعه في عام ١٩٧٤ م ، وقد تحدثت في الطبعة الثانية عن كثير من القضايا ، وعرض للعديد من الموضوعات التي لم يكن قد بحثها في الطبعة الأولى .

في هذا الإطار العام الذي قدم به محمد صمك كتابه المذكور . ولكن هذه التضاريس التي تحيط بها الكتاب لا تمنع في أن نتناوله بالدرس والبحث، وأن نذكر ما لصاحبه وما عليه من خلال دراسته عن أمير الشعر في العصر القديم .

١ - منهج الكتاب :

سبق القول بأن الكتاب المذكور ينقصه الترتيب المتبع في التأليف، وربما كان صاحبه حريصاً على إعداده في صورة بحوث ودراسات تصلح للنشر في المجلات المتخصصة قبل أن تنتظم من مجموعها الصورة الكاملة للكتاب، ولذلك - أو لأسباب أخرى - جاء الحديث عن الشاعر متفرقا موزعا بين العديد من صفحات الكتاب، حيث تكلم المؤلف عن أسرة امرئ القيس، ومولده، ونشأته، ثم تحدث عن يثاته (الطبيعية والاجتماعية والعلمية) في قرابة مائة صفحة . وقد رآها تشكل ثقافته ومعارفه وأخلاقه، فاهتم بها، وأفاض في بحثها . ثم عاد إلى الحديث عن امرئ القيس ومنزلته الشعرية، كما تكلم عن المعلقة واللامية الثانية، وتحدث عن صفات الشاعر وعقيدته، وحالته بعد مقتل أبيه، وأثر الحوادث في شعره . وتكلم عن أغراضه الشعرية، وبين مآخذ العلماء على أشعاره، وتحدث عن الشاعر من خلال التأثير والتأثير، ثم عاد للحديث عن شعره، وختم الكتاب بدراسة موسعة لأراء الدكتور طه حسين حول قصة امرئ القيس وشعره .

ولقد سار المؤلف على نهج القدماء في الاكتفاء بذكر المراجع والمصادر في متن الكتاب، كما أنه لا يبالي بذكرها في مواضع كثيرة، وعند ما يذكرها لا يحدد النص الذي استشهد به تحديداً تاماً فيصعب كثيراً تمييز كلامه عن كلام غيره من نقل عنهم . أما بالنسبة للشعر الذي اختاره لامرئ القيس فلم يكن موثقاً، حتى اختلط الشعر الذي أقره الرواة الموثوق فيهم (١٨ - القيس)

كالأصححى بالشعر الذى قال بعض الرواة بنحله كالأشمار التى صممتها نسخة الطوسي ، والتي رأيناها من مصادر الكتاب حسب ثبت المؤلف بذلك فى نهاية الكتاب . على أن هذه المأخذ لا تقال من قيمة الكتاب كواحد من أسبق الآثار التى تحدثت عن امرى القيس . ولذلك نقدم فيما يلى استعراضاً لأهم القضايا التى تحدث فيها المؤلف عن امرى القيس مع بيان ما لهذا الكتاب وما عليه .

٢ — امرؤ القيس (حياته وشعره)

لا نود الإفاضة فى تناول حياة امرى القيس أو إعادة ما سبق أن ذكرناه فى الباب الأول من هذا الكتاب ، وإنما نهدف هنا — إلى بيان منهج المؤلف ودوره ومصالحه — أسلوبه فى البحث عن حياة هذا الشاعر . فقد تحدث عن مولده وشاعريته المتوارثة ونشأته ، ثم تكلم عن شبابه وعن النساء اللاتى ذكرهن فى شعره ، ثم عقد ثلاثة فصول للحديث عن صفاته وعقيدته وحياته بعد مقتل أبيه . ولعل المؤلف قد بحث معظم القضايا التى تعلقت بحياة الشاعر منذ أن ولد بديار بنى أسد إلى أن مات فى طريق عودته من القسطنطينية كما تقول بذلك كثير من الروايات .

ولقد تحدث عن قبيلة كندة منذ أن كانت فى اليمن حتى انحدرت إلى الشمال فى منطقة نجد ، كما تحدث عن حجر — الملقب بأكل المرار وأبنائه الذين توارثوا ملك كندة حتى مقتل حجر (والد امرى القيس) وقيام هذا الشاعر بالنار لأبيه من بنى أسد .

ونقل إلى كتابه شعراً لا أكل المرار باللغة الفصحى ، علماً بأن هذا الرجل كان من سكان كندة بمحيط فى أوائل القرن الخامس الميلادى .

ولقد لاحظنا أن الأستاذ محمد سركى يجمع بين عدة روايات فى الموقف الواحد ، دون أن يقدم واحدة على الأخرى ، أو ينسب تلك الروايات

إلى أصحابها ، أو يذكر المصادر التي استقى منها هذه الروايات . واكتفى بأن يعرض لتاريخ كندة من خلال جمعه للأخبار وتوفيقه بينها . كما يتحدث عن مولد امرئ القيس وشاعريته المتوارثة ، وذكر عدداً من القصائد والمقطوعات للعديد من رجال كندة كحضر (أكل المزار) وهو الجند الثالث للشاعر وسبق أن ذكرناه وعمه سلة في رثاء عمه شرحبيل قتيل يوم السلاب الأول ، وعمه معد يكرب في رثاء شرحبيل أيضاً مؤكداً بهذه الاختيارات على توارث الشعر في كندة وانتقاله إلى امرئ القيس من جهة أجداده وأعمامه ، ثم اختار المؤلف أيضاً عدة قصائد طويلة للبهل بن ربيعة ، وعدة مقطوعات لكتيب بن ربيعة ليؤكد انتقال الشعر إلى امرئ القيس من جهة أخواله ، قال : « والشعر وإن كان سليفة في النفس ، إلا أن الورادة لها أثر كبير في تلك السابقة الشاعرية ، وقل أن نجد شاعراً ليس في أحد أصوله ملسكة الشعر » (١) . على أننا لا نعتقد بورادة الشعر ؛ لأن قرضه موهبة يختص الله بها من يشاء من عباده ، ولا دخل فيها للورادة إطلاقاً ، فنجد أن بعض الشعراء قد أنسلخ من عرق شاعر ، أو نجد بعض أبنائه يقول الشعر ، مثلما نجد الكثيرين من الشعراء لم يكن آبائهم وأخوالهم يدرون ماذا تعني كلمة الشعر . فما بالك بقرضه والتفنن فيه ، وإلا فكيف خرج المتنبي شاعراً وكان والده سقاء ، ولم يؤثر عن أجداده أي فضل يتحدث به الشاعر . وفي العصر الحديث كان أحد شوقي شاعراً كبيراً ، ولم يكن أجداده — فيما نعلم — شعراء ، كما لم ينظم أبناؤه الشعر ، والأمثلة على ذلك كثيرة . وتحدث محمد سمك عن نشأة امرئ القيس ببلاد نجد الواسعة ، وفي ربابها المعشبة ، وأوديتها المتلاقية بين أبناء الملوك العرب الصياد في ذلك العهد . وذكر شعراً لامرئ القيس قال إنه أول ما ألحج به ، وأوله :
أذود القوافي عني ذوادا ذباد غلام جرمي جوادا

(١) محمد صالح سمك . أمير الشعر في العصر القديم ص ٣٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٤ م .

وهذا الشعر ليس من رواية الأصمعي أو المفضل فضلاً عما زعمه ابن الكلبي من أنه لرجل يلقب بالزائد ، ولذلك نتوقف عن استحكال هذا الشعر والنحدث عنه للشك في نسبته لا مريء القيس .

ثم تكلم عن شباب الشاعر ، وبين كيف وقعت الجفوة بينه وبين أبيه ، مع الاستمرار في منهجه من حيث إغفال المصادر وعدم توثيق الشعر ، والجمع بين الروايات من غير تدقيق فيها ، وتقديم بعضها على البعض الآخر . وعقد فصلاً مطولاً تحدث فيه عن النساء في حياة امرئ القيس ، وكشف عن ملاح النزعة الجنسية في الشعر الجاهلي بعامة ، وفي شعر النزل بخاصة ، ثم استشهد على رقيته بنماذج لبعض الشعراء ، كما تحدث عن مكانة المرأة في شعر امرئ القيس فقال : « على أننا لا تكاد تعدو الحقيقة إذا قلنا إن المرأة احتلت في شعر امرئ القيس مكاناً مرموقاً بارزاً أهم مما احتلته عند أي شاعر جاهلي آخر ، وعلى نحو تفرد به ... »

وقد تعرض لها في مراقب ثلاثة : متذكراً ومتأملاً وماجناً ... وهو في الموقف الأول يبكي الأطلال والدمع ، وبأسى على أيامه الخوالي ... وفي الموقف الثاني ... يتناولها مخلوقة جميلة ساحرة فائقة رقيقة ، يصفها ويتحدث عن جمالها ، ويستغرق في وصف محاسنها الجسدية ...

وفي مرقفه الثالث جعلها مناط مغامراته وحديث لغيره وعينه ولذاته ... (١) .

وبعد أن ذكر هذه المواقف الثلاثة التي تعبر — بصدق — عن نظرة الشاعر للمرأة نراه يعود فينقل موقفين ، ويبقى على واحد منها فيقول : « ولم يكن امرؤ القيس عبياً ولوطاً ، ولا عاشقاً متنباً ، وإنما كان أسير

فدات، وصنو شهوات، وخدين خلاعة ولهو؛ ويظهر أثر ذلك في شعره، فتحق لا نجد فيه برحاء الحب المستهام، ولا لوعة الصب الولوع، وكل ما في شعره من نصيب إنما هو من ذكر للنساء ومحاسنهن، ووقوف على ديارهن وأما كنهن، ووصف عبثه معهن ولهو بهن، (١).

وقد استعرض أسماء بن تغزل بهن امرؤ القيس في شعره واللائق وصل عددهن حسب إحصاء المؤلف إلى أربع وعشرين، وإن كان عدد أسمائهن يفوق ذلك.

واستشهد لكل واحدة مما ورد فيها من شعر من غير منهج واضح في اختياره، فكان يذكر البيت والبيتين والمقطوعة والقصيدة، بل كان يذكر — أحيانا — عن المرأة الواحدة أكثر من نموذج إلا أنه لم يصل إلى رأى قاطع حول التفريق بين الكنى والألقاب والأسماء لمولاء النساء، كما لم يفرق أيضا بين من كانت زوجة أو عشيقة، أو محبوبية من نسج الخيال، باستثناء واحدة منهن وهي أم جندب التي كانت زوجة لا مري. القيس في طي. وبعد هذا الفصل من أفضل فصول الكتاب وأرقها رؤية وأكثرها شمرا واتساعا.

وتحدث عن صفات امرئ القيس وأخلاقه وبعض أخباره وحوادثه، حيث غير المؤلف منهجه هنا بذكر المصادر والمراجع في متن الكتاب على عادة القدماء، فقد نقل عن ابن قتيبة وعبد الرحيم العباسي (صاحب معاهد التنصيص) وابن سلام والجاحظ (في البيان والتبيين) والميداني، وعلى ابن ظافر (صاحب كتاب بدائع البدائع) وأحمد أمين (في كتابه بخر الإسلام) ولويس شيخو (في شعراء النصرانية) وصاحب الأغاني

وأبي عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء ، كما أخذ عن كتاب نزهة ذوى الكيس ،
والموشع للربزبانى وغيرها .

ومن الملفت للنظر أن نجد صاحب كتاب (أمير الشعر في العصر
القديم) يغفل توثيق الأخبار والأشعار التي يعتمد عليها ويتحدث عنها
ويؤرخ بها في العديد من الفصول ثم يأتي في فصل لا تتجاوز صفحاته العشر
فيذكر كل هذه الأسماء السابقة أو أكثرها مقرونة بمؤلفاتها أو غير
مقرونة بها . إلا أن هذا التوثيق لا يمنعنا من استنكار بعض ما ذكره
في هذا الفصل ورفضه تماما ، كذلك الألفاظ التي أخذ عبيد بن الأبرص
يلقبها شعرا على امرئ القيس ، وهذا يحجبه على البديهة بالشعر أيضا مع
أن هذه الألفاظ والأحاجي لم ترد في أية نسخة من نسخ الديوان .

وفي حديثه عن نساء امرئ القيس ذكر واحدة من كندة وقال عنها :
« ولم تصبر عليه من زوجاته إلا امرأته من كندة ، وكان أكثر ولده
منها » (١) .

ولم يذيل هذه الجملة بما يكشف عن غموضها وإبهامها ، فمن هذه المرأة ؟
وكم عدد أولاده منها ؟ ومتى تزوجها ؟ وهل لها نصيب من الشعر الغزلى
في ديوان امرئ القيس ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الحائرة التي تحوم حول
المباراة السابقة .

ثم عقد فصلا يتحدث فيه عن عقيدة امرئ القيس ، ورفض أن
يسكون يهوديا ، وأبقى على احتمال كونه نصرانيا أو مزدكيا أو وثنيا قال :
« أما تهود ذلك الشاعر العظيم فلم يقل به أحد ، ولم يقم عليه دليل ، فلم يبق
إلا أن يكون نصرانيا أو مزدكيا أو وثنيا ، آراء ثلاثة قال بها الباحثون »

ولكل حجة يدلي بها ، ودليل يستند إليه ويعتمد عليه ، (١) وعرض حجة من قالوا بوثنيته ، ورد عليهم ، ثم تحدث عن الرأي القائل بأنه كان مزدكيا ، والمنسوب إلى (الآب أنستاس الكرملي) .

وعرض للرأي القائل بأنه كان نصرانيا ، قال : « ولا بد أنه كان نصرانيا » .

ولقد عده الآب لويس شيخو في شعراء النصرانية ، وليس أدل على نصرانية هذا الشاعر من أننا نجد في شعره كثيرا من إقراره بالله وقدرته وحسابه ، وغير ذلك من عقائد النصارى والأديان السماوية التي لا يعرفها ولا يقرها الوثني ولا المزدكي ، وإنما يقول بها من كان متألها ، (٢) .

وقد استخرج من ديوانه بعض الإشارات التي يستهدى بها في معرفة عقيدته الدينية ، ولكن أكثر هذه الإشارات ليست محلا للثقة ، لأن المؤرخين والإخباريين والمسجدين للشعر الجاهلي في عصر التندوين كانوا يحذفون كثيرا من أسماء الأصنام ، ويضعون محلها أسماء لا تتنافى مع العقيدة الإسلامية . على أن الأستاذ محمد سمك استطاع في هذا الفصل أن يعرض لعقيدة امرئ القيس عرضا منظما ، وأن يكشف عن وجهة الرأي القائل بنصرانيته وهو الرأي الذي أقتنع به ، وقال عنه : « ومن كل هذا نقف على حقيقة دين ذلك الشاعر وهو النصرانية » . ولئن قلنا بنصرانية امرئ القيس فلا يمكننا أن نقول إنه كان متمسكا بدينه تمسك البررة الأطهار والقسس والرهبان بل إنها كانت نصرانية شخص مستهتر لا ينال كثيرا بالدين وفرائضه وأفعه أعلم ، (٣) .

(١) المرجع السابق ص ٢٥٨

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٣

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٠

على أن قضية تدوين هذا الشاعر لا تشكل منعطفاً في توجهاته الشعرية، ولا يمكن القطع باعتناقه ديانة معينة، وأغلب ما قيل من حجاج عن عقيدته لا يتجاوز حدود الظن، إذ حفل الديوان بالعديد من الصور والتخييلات الشعرية التي اقتنيسها الشاعر من العالم المحيط به في جزيرة العرب التي لم تعرف ديناً واحداً قبل الإسلام، كما أنه لم يباشر في حياته أية طقوس أو شعائر يستهدى بها في التعرف على ديانته.

وتحدث الأستاذ محمد سمك عن امرئ القيس بعد مقتل أبيه باستيعاب وتفصيل يزيد عما ذكره أبو الفرج في هذا الجانب، مع بقائه على المنهج المتبع من حيث إغفال المصادر والمراجع وتقبل الروايات بغير تدقيق، ومحاولة التوفيق بينها والاستشهاد عليها بما قاله الشاعر أو نسب إليه من أشعار وأخبار.

٣ - منزلة الشعرية

عقد محمد سمك فصلاً للحديث عن منزلة امرئ القيس الشعرية، كما عقد فصلاً آخر لبيان ما أخذ العلماء على شعره. وتؤكد أن ما ذكره في هذين الفصلين ليس بجديد في التأليف، كما أنه ليس بجديد أيضاً على فصول كتابنا.

ولقد سبق الحديث عن مكانة امرئ القيس بين شعراء عصره من خلال ما ذكره ابن سلام في كتابه، كما اعتمد كثير من الرواة والمؤرخين والنقاد على توجهات الجمعي نحو إعجابه بامرئ القيس، وجمعه لأكثر الأقوال التي أشادت به وامتدحت ابتكاراته في الشعر العربي. وتبرز جهود محمد سمك في هذين الفصلين على الجمع والاستقصاء والترتيب لإدخال كتابه بفيض هائل من أقوال القدماء الذين يسبقون الجمعي، أو الذين عاصروه أو جاءوا بعده ونقلوا عنه.

وبدا حديثه عن منزلة امرئ القيس فقال : « امرئ القيس لحل من
غول شعراء الجاهلية، وعلماء البصرة يجعلونه رأس الطبقة الأولى، وغيرهم
متفق على أنه من الطبقة الأولى ، وإن كانوا يقدمون عليه سواء ، فأهل
الكوفة يقدمون عليه الأعشى وعلماء الحجاز والبادية يقدمون عليه زهير،
والناطقة ، وابن سلام قد قرئة بزهير والناطقة وأعشى قيس ، ولكن الغالبية
مع امرئ القيس في زعامته ورئاسته لتلك الحلبة الجاهلية» (١).

ثم نقل أقوالاً أخرى كابها تشيد بامرئ القيس . وهي للفرزدق وليد
وسيدنا عمر بن الخطاب في حديثه عن الشعراء حيث قال : « امرئ القيس
سابقهم خسف لهم عين الشعر ، فافتقرت عن معان عور أصح بصراً ،
وسيدنا على إذ قال « رأيت أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة ، وأنه لم يقل
برغبة ولا رهبة » والخطبة وكثير ونصيب وأبي عبيدة وابن سلام ، كما
نقل أقوالاً أخرى، وذكرها بدون نقد أو مناقشة وهي للامدني في الموازنة
وابن قتيبة في عيون الأخبار الذي ذكر قصة القوم الذين قدموا على النبي
من اليمن بعد أن ضلوا الطريق ثلاثة أيام ، راهتدوا إلى ماء غدق بعد
استماعهم لراكب أنشد شعراً لامرئ القيس فقال النبي : « ذلك رجل
مذكور في الدنيا شريف فيها منسى في الآخرة حامل فيها ، يحيى يوم
القيامة ويبدو لواء الشعراء يقودهم إلى النار » ، كما روى ذلك الخبر أيضاً
الألوسي في بلوغ الأرب .

كما جاء في المزهري أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « امرئ القيس
أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار » ويقصد بذلك الجاهليين . وذكر محمد سمك
أن أهل الحديث وعلماء السنة وهم الحجة فيما ينسب إلى الرسول ﷺ
يضعفون هذه الرواية بل ينكرونها (٢) .

(١) المرجع السابق ص ١٧٦

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٧٩

كما نقل أفعولا في الإشادة بامرئ القيس ليونس النحوى ولويس شيخوخو صاحب كتاب (شعراء النصرانية) والبغدادي في (خزانة الأدب) وخلف الآخر ويشار بن برد .

ثم اختار عدداً من الآيات التي اشتملت على بديع التشبيهات لامرئ القيس كقوله :

كأن غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل
وقوله :

كأن عيون الوحش حول خباتنا
وأرحلتنا الجزع الذى لم ينقب

وذكر بعض الآيات الأخرى التي انتقها من المعلقة في وصف المرأة وتلاها بقوله : « ويجب أن نذكر أن خيال امرئ القيس خيال شاعر عاش في البادية بين الوهاد والتجساد ، والربا والآكام ، والظباء الوادعة والوحوش النافرة ، ولكل هذا جمال خاص ، وجلال يقف على حقيقة من طبع نفسه بطابع البداء ، وجعلها مرآة لذلك العراء فلا غرابة بعد هذا لمن وجدنا لامرئ القيس في بعض تشبيهاته نزعة لا تروق أهل الحاضرة وسكان الأمصار (١) .

وأورد بعض الآيات التي قال عنها : إنها أحسن غزل امرئ القيس الذى جمع فيه بين عذوبة اللفظ ورقه المعنى وهى من المعلقة أيضاً ، كما نقل قولاً لابن قتيبة حول أرق بيت قالته العرب ، ثم ذكر قولاً لبقاعلى حول جودة شعر امرئ القيس .

(١) المرجع السابق ص ١٨٢

وقد وضح من خلال ما قاله في هذا الكتاب إجماعه الشديد بامرى القيس حيث جعله أجود الشعراء فيما طرقه من الأغراض ، وما ابتدعه من المعاني . قال : « وينتهي بنا القول إلى أن الأدب العربي في العصر الجاهلي لم يعرف أحداً من الشعراء بلغ ما بلغه امرؤ القيس فيما أتى به من مقلدات الشعر وغرر القصائد ، وما تصرف فيه من فنون البيان ، وابتكره من المعاني والأساليب ، واتخذ من مذاهب الكلام » (١) .

ثم بين منزلته عند النقاد القدامى وعند أصحاب اللغة ، وقال إن شعره لم يسل من أن ينفذ إليه الناقدون ، فيكشفوا عيوبه ومثالبه ، وبخاصة في النحو واللغة والعروض . ومثل هؤلاء الباقلاقي الذي اتقد معلقة امرؤ القيس في كتابه « إعجاز القرآن » .

وقد خصص محمد سمك فصلاً للحدِيث عن ما أخذ العلماء، وبدأ بالباقلاني، وحاول أن يرد على كل عيب وجه إلى الحلقة حتى لو استعار . في ذلك بالروايات الأخرى للآيات التي تخلو من العيب الذي وجه إلى البيت المنتقود . وسبق أن عرضنا لنقد الباقلاقي ، فلاداعي — إذن — لأن نعيد ما ذكرناه ، وإن كان من المهم هنا أن نذكر نموذجاً لنقد الباقلاقي ، ورد محمد سمك عليه ، لنعرف أسلوبه في النقد والتمييز والحكم على شعر امرؤ القيس ، علماً بأنه نقل مجموع مآقاله الباقلاقي في نقد الآيات الغزلية بالملقطة .

ومن الآيات التي طابها الباقلاقي :

فقل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المقتل
وجاء في النقد والرد عليه ما يأتي : « وقال الباقلاقي أيضاً : « أمانشيه
الشحم بالدمقس فتى . يقع للعامة ، ويجري عل السنتهم ، فليس يشي . قد
سبق إليه . ونحن لا ندرى ماذا يقصد الباقلاقي » بقوله : إن هذا التشبيه

يقع للعامة أكان ذلك في عصر امرئ القيس ، أم في عصر الباقلاقي ؟ ولكن الذي يلوح لنا أن الباقلاقي يريد بالعامة أهل زمانه هو ، وإذا كان الأمر كذلك فليس هذا بضائر امرئ القيس ، لأن العبرة بعصر الشاعر وزمانه هو لا بالأجيال الآتية بعده ، على أن استعمال العامة لهذا التشبيه واشتغاره في عصر الباقلاقي إلى تلك الدرجة مما يدل على براعة امرئ القيس في تشبيهه حتى أخذ كل إنسان يحريه على لسانه لجودته ، وحسن تنسيقه وعظمته قائله (١) .

والذي يلوح لنا من هذا التحقيب من قبل محمد سملك أنه كان معجباً إلى حد كبير بامرئ القيس حتى جعل من نفسه مدافعاً عنه ، ومتعصباً له ، وكان يرى ملازمته للجودة ، وأنه أفضل الشعراء الجاهليين على الإطلاق (٢) . ومن ذلك ما قاله حول كلام الباقلاقي في بيت امرئ القيس الآتي :

فقصت بها أمشي تجر وراءنا على أثرتنا أذيال مرط مرجل
قال : « وقال الباقلاقي أيضاً : قوله : أذيال مرط كان من سبيله أن يقول ذيل مرط » ونحن نحيل القارئ على رواية أخرى في هذا البيت عبر فيها امرؤ القيس بالمفرد وهي :

خرجت بها أمشي تجر وراءنا على أثرتنا ذيل مرط مرجل
نحيل القارئ على هذه الرواية ليرى أن البيت سلم لامرئ القيس ، وأنه لا عيب فيه ، وليدرك مقدار تحامل الباقلاقي على شاعرنا

(١) المرجع السابق ص ٤٢٦

(٢) انظر ألواناً من دفاعه عن امرئ القيس في بعض الصفحات من كتابه مثل ٤٢٨ ، ٤٣٣ ، ٤٤١ وغيرها .

العظيم، (١) ثم تنبه محمد سملك واستوقف هجومه على الباقلاني ودفاعه عن امرئ القيس، فأثر في نهاية نقده للباقلاني أنه بحق فيما ذهب إليه أو أن البيت معيب على امرئ القيس.

وختم هذا الفصل بحديثه عن نقد ابن رشيق حول تكرير الماني في بعض الآيات بالمعنى، كما رد على ماوجه إلى القصيدة الثانية من نقد، وأقر ببعض ماقاله الأصمعي حول بيت لامرئ القيس.

كما انتقد بعض الأقوال الأخرى التي قصد بها نقد أبيات أخرى لامرئ القيس وكان فيها مدافعة عن الشاعر ومتحمساً لفنه، ومتساهلاً مع سهوه وخطئه.

٤ — دراسة المعلقة واللامية الثانية

تعد المعلقة واللامية الثانية من أشهر النضائد في ديوان امرئ القيس، وقد تبين لنا مقدار ما اختاره منها الجعفي في حديثة عن الطبقة الأولى من الشعراء الجاهلين، كما اختارهما طه حسين من شعر امرئ القيس، ولأن كان شكك قد تسرب إليهما أيضاً من نواح عديدة. ولا شك في أن موهبة هذا الشاعر وفته قد وضحاً في هاتين القصيدتين وضوحاً تاماً، ويمكن أن يمثلا شعره تمثيلاً كبيراً حيث تحدث فيها عن بعض معشوقاته من النساء ووصف الفرس والصيد والليل والبرق والمطر وغيرها من مظاهر الطبيعة المتحركة والصامتة، وكشف فيهما عن بعض الجوانب الاجتماعية والأخلاقية، كما تحدث عن تجاربه ومغامراته العاطفية مع بعض النسوة، وتلك هي جوانب الحياة التي يدور حولها معظم الشعر الجاهلي.

(١) المرجع السابق ص ٤٤٤

وقد تابع محمد سمك القدماء والمحدثين في عنايتهم بهاتين القصيدتين من شعر امرئ القيس ، فتحدث عنهما بإفاضة ، وأبان الباعث على نظمهما ، وأوضح ما فيهما من أفسار ، وكشف عن عبقرية امرئ القيس في التعبير والتصوير .

وابتدأ حديثه عن المعاقبة ، وذكر ما قاله الرواة عن سبب نظمها ، وهو ما حدث يوم الغدير بدارة جلجل ، ثم أضاف قائلاً : « ومهما يكن من تحدث الرواة عن يوم الغدير ، وجعله سبباً لتلك المعلقة ، فالباعث الحق على هذه القصيدة هو اللهو والعبث والرغبة في قول الشعر ؛ لأنها لم تقتصر على النسيب والتشبيب .

بل تناولت عدة فنون وأغراض . وذلك معناه أن الباعث على تلك القصيدة إنما هو الرغبة في الشعر بمختلف فنونه جرياً على سنة الشعراء في أشعارهم (١) .

وقال إن هذه القصيدة من شعر امرئ القيس في أيام شبابه تلك الأيام التي كان يزدهر فيها بخفض العيش وخلق القلب من هموم الحياة وأثقالها ، وهي التي أناخت عليه بكلها بعد موت أبيه وقيامه بطلب الثأر له ، ولا شك في أن الأستاذ محمد سمك قد تابع الكثيرين في هذه الرؤية التي تستند على ظاهر الألفاظ ، وعلى المأاني القرينة .

أما منطق الأشياء فلا يقر بأن تكون هذه القصيدة قد قالها الشاعر في أول حياته إذ أنها أفصل ما في ديوانه بشهادة الكثيرين ، وهي تدل على أن صاحبها ليس في أول حياته الشعرية بل تؤكد أنه قد قالها بعد أن استوى الفن المعصرى عنده . وبلغ أقصى مرحلة له من التمدن والتطور

ولما لا يكون الشاعر قد قالها في المرحلة الثانية من عمره بعد أن طال منه الصيال في ساحة الفن مسترجعاً فيها أيام شبابه وطوه ومغامراته ١٩ فاقاله محمد سمك لا يسلم له، وإلا لجعلنا كل ما يقوله أي شاعر من غول وتشبيب مقتصرأ على المرحلة الأولى من عمره ، وهي مرحلة الشباب والقوة والعنفوان .

ثم تحدث عن المورثات في تلك القصيدة ورأى أنها دماظر تلك الأماكن التي رادها والمياه التي وردھا ، والصعاري التي ضرب فيها ، والجبال التي شاهدها ، حيث الدخول وحرميل وتوضع والمقراة ودارة جلجل وطقن خبت ووجرة وطي ودوار وضارج والعذيب وطقن والستار ويذبل وكتيفة والفنان وتيماء وثبير والمجير وصحراء الغبيط (١) .

واستدل على هذه المواضع بأبيات المعلقة ، ليدل بذلك على ارتباط الشعر الجاهلي بالبيئة المحيطة به ، ثم أكد ذلك بما في القصيدة من ظواهر اجتماعية وعادات أخلاقية ، منتهاً إلى كون المعلقة مرآة صادقة للحياة في العصر الجاهلي .

وقد عكس على تحليل القصيدة ، وكشف ملامحها ، فتحدث عن العلة التي جعلت الشاعر يشرك معه صاحبيه في هذه التجربة العاطفية التي ذكرها في المعلقة ، ثم يتوسع في هيكلة المشاركة عندما يوقف أصحاباً آخرين يحطمهم سوى رفيقه ليتجاوبوا معه في أحاسيسه ومشاعره ، ويخففوا عنه كوعته ، ولا يتخلوا عنه في مراقبه الغرامية .

وتوسع في الحديث عن التجارب العاطفية التي خاضها الشاعر في شبابه

وتحدث عنها في المعلقة ، ووازن بين مغامراته مع العذارى في يوم دارة
جلجل وبين تجربته مع فاطمة التي تتدل عليه ، وتتمتع عنه ، وهو يجتهد
في استرضائها والتوسل إليها .

ويحاول أن يكشف سر هذا التناقض فيقول : « فتفسير ذلك التناقض
إنما يرجع إلى تعدد تجاربه الغرامية التي عايشها ، وخبرته الطويلة التي
اكتسبها في هذا المجال ، وانسياحه طول أيام شبابه وصباه مع توارع
الهوى والغرام ، حتى غدا القول في الغزل طوع لهاته بصرفه كيف يشاء
فيجيد أحاديثه ويفتن في تدبيره وتميته وتلويته ، ويعرف للقول مواقفه
لدى كل أمثى على قدر ما تستأدله عنده وما يناسبها لديه » (١) .

وقد تابع امرأ القيس في وصفه الليل ، وفي تجربته مع الشذاذ
والصعاليك الذين اختلط بهم ، وعاش معهم فترة من حياته ، وذكر
أربعة أبيات تحدث الشاعر فيها عن تجاربه مع هؤلاء الطوائف من الناس
وهذه الأبيات ليست في رواية الأصمعي ، وشك فيها بعض الرواة مثل
ابن قتيبة ونسبوا إلى واحد من الصعاليك وهو (تأبط شراً) إلا أن الأستاذ
محمد سمك لا ينكر شيئاً لأمريء القيس ، وإذا وجد شعراً مشكوكاً فيه
بحسب عمن ضمه في ديوان الشاعر وقال برأيه إلا أن هذا التساهل
في قبول الشعر ومحاولة تفسيره بما لا يتوافق مع سيرة الشاعر أمر لا يليق
قبولاً أو استحساناً في الدراسات المعاصرة .

واستكمل تحليل المعلقة تحليلاً موسعاً ، واعتنى بحديث الشاعر عن
الفرس وعن مظاهر الطبيعة المختلفة من جبال ووهاد وسباع وطيور
وغيرها ، ورأى أن امرأ القيس قد وفق في هذه القصيدة

أعظم توفيق ، وأنه بلغ بهافة أدبية سامقة ، وأنه وثق نفسه بمظاهر الطبيعة التي تحقق له مشاعره وتحلو أحاسيسه ، ثم تكلم عن القصيدة الثانية :

ألا عم صباحاً أيها الطفل البالي

وعرض للأشعار التي تحدث عنها امرؤ القيس في هذه اللامية ، ومثل لها بالعديد من الآيات وكان إعجابه بها لا يقل عن إعجابه بالقصيدة السابقة ، وذكر أن الشاعر قال هذه القصيدة بعد المدة ، وأنه قالها في شبابه أيضاً مثل المعلقة ، وهذا ما لا نوافق عليه إذ لا يوجد ما يؤكد ، وقد عرضنا لذلك في الحديث عن القصيدة السابقة .

أما ما وافقه عليه فهو استبعاد أن يكون الشاعر قال هذه القصيدة في ابنة قيس . أما المرأة التي تحدث عنها — هنا — فهي سلمى التي كان أهلها يثرب . وحدد الباعث على نظمها والمؤثرات التي ظهرت فيها ، فقال : « أما الباعث على تلك القصيدة فهو القهقهة العام والعبث والرغبة في قول الشعر ، والمؤثرات التي ظهرت آثارها في هذه القصيدة هي عين المؤثرات التي تأثر بها في المعلقة ، لأن الأماكن التي ذكرها هنا في هذه القصيدة هي من معاهد البلاد التي جاء ذكرها في المعلقة » (١) .

ثم انتقل إلى تحليل هذه اللامية ، وكشف عن تحية الشاعر للطفل ، وعن ذكريات المكان والزمان ، وعن رد امرؤ القيس على ما عبرته به بسباسة . وتحدث عن التجارب التي ذكرها الشاعر ، وعرض للآيات التي وصف بها فرس الصيد ، وأبرز ما صاده الشاعر بهذه الفرس ، ونتم تحليله لهذه اللامية بالحديث عن الآمال التي سعى إليها امرؤ القيس كالمجد المؤثر ، فهو خليق به وبأمثاله من طلاب المجد والسودد .

(١) المرجع السابق ص ٢٣١ .

(١٩ — القيس)

٥ - أثر الحوادث في شعره

ذكر محمد سمك أن شعر امرئ القيس كان صورة لحياته ، وتعبيراً عن أفراحه وأتراحه . ولا يختلف مع المؤلف في أن هذا الشعر قد استمد مادته من حياة الشاعر بكل مراحلها وأطوارها ، كما صور بيئته أصدق تصوير ، ونقل المناظر الطبيعية والمشاهد الحسية نقلاً يمكن أن يكون أميناً ، لأنه لا يتحدث إلا عما شاهده بعينه ، ولذلك إذا رجعنا إلى تشبيهاته وجدنا أنها يستمدّها من المظاهر الطبيعية الماثلة أمامه . وإذا انحلت لنا مشكلة اللغة في الشعر الجاهلي استطعنا أن نعرف على وضوح هذا الشعر وواقعيته ، وأن أكثر الشعراء كانوا صادقين في تصويرهم للحوادث التي ألمت بهم ، وبقيائهم ومجتمعاتهم ، لكن لا يجب أن نسرف في تصديق ما يقوله هؤلاء الشعراء وفيهم — بالطبع — امرؤ القيس .

إن للحوادث تأثيراً في شعر كل واحد لكن هذا التأثير يبقى مقروناً بطبيعة الشاعر وظروف حياته . وكان امرؤ القيس لصيقاً بقبيلته ، وبخاصة في المرحلة الأخيرة من عمره التي نهض فيها بالثأر لأبيه . ولذلك اعتمد كثير من الرواة والمؤرخين على شعره في التأريخ لحياته ، وحياة كندة في شمال الجزيرة وشرقها ووسطها . وكانت عنايتهم — للأسف — تدور في فلك الشعر الذي يصور الطور الأول من حياته بما فيها من لحوشبابي وترف قبل وعيث أخلاق ، ذلك لأن عنايتهم لم تتجاوز المعلقة واللامية الثانية ، وهما لا يتجاوزان تلك المعاني السابقة . أما الجاهل الآخر من حياة امرئ القيس بما فيه من هموم وأحزان فلم يكن محل عناية عند القدماء .

أما المحدثون فقد تذهّبوا له ونظروا نظرة شاملة لديوان هذا الشاعر ، وعرض بعضهم شعره على محك الصحة والوضوح . ويبدو أن ثورة الشك على هذا الشعر لم تنير كثيراً من مناهج المحدثين في تناولهم لشعر امرئ القيس ، ولشعر الجاهلي بعامة . فالاستاذ محمد سمك يدلّل بكل ما في ديوان

أمير الشعر على حياته ، ويبرز ما في هذه الحياة من حوادث من خلال الشعر دون أن يذكر احتمالاً واحداً لمعيار الصدق والكذب عند الشاعر أو لمعيار الصحة والوضع في شعره ، وإنما إذ تعرض لما قاله في هذا الفصل لنقدم هذه التوطئة السابقة لتسكون بين يدي القارئ وهو يقبل على مطالعة السطور الآتية :

لقد تحدث المؤلف عما اعتوره الشاعر من اللغو والطرب والمهم والحزن في قوله :

ظلت ردائي فوق رأسي قاعداً أعد الحصى ما تنقضي عيراتي
أعنى على التهام والذكرات بيتن على ذي المم معكرات
بليل النمام أو وصلن بمثله مقايضة أيامها مكرات (١)

وقد ارتبط الحزن بامرئ القيس منذ مقتل أبيه ، وقيامه بطاب الثأر له فتحول بفته إلى المدح والمجاء ، وإلى الرثاء والتفجع والبكاء حسب البواعث على ذلك . أما أنه قد عرف المدح فلا شك في ذلك حيث توجه به إلى عوير بن شجنة الذي حمل قطبته وأخته إلى مقامه في دهن ، فقال بمدحه :

ألا إن قوماً كنت أمسر دونهم هم منعوا جاراتكم آل غدران
عوير ومن مثل العوير ورهطه وأسعدني ليل البلايل صفوان
ثياب بني عوف طهاري ندية وأوجهم عند المشاهد غران

ويبدو أن ذكر محمد سملك للشاعر عدداً من الأبيات في مدح بني عوف وهم قوم عوير بن شجنة قال : « هذا أول عهده بالمدح ، والمدح ليس من

(١) الأبيات من قصيدة بالديوان رواء الأصمعي والمفضل رغيرهما
في من القصائد المقبولة (الديوان ص ٧٨) .

صناعة الملوك فهم لا يمدحون ولكنهم يمدحون ، لذلك جاء امرؤ القيس مقصراً في مديحه ، كما جاء مقصراً في رثائه ، لأن ذلك ليس من سايقته ولا طبعه (١) .

وربما يكون الشاعر مقصراً في المدح — كما يقول المؤلف — لكن ذلك ليس بسبب أنه ملك ، والملوك لا يمدحون بل يمدحون ، إذ لم يكن امرؤ القيس في هذا الموقف ملوكاً بل كان خائفاً مذعوراً مطارداً بعدد من الخصوم والأعداء ، ولذا نرى شعره على اختلاف ضروبه — في هذه المرحلة من حياته — صادقاً بليغاً ، لأن الحوادث التي ألمت به جعلت منه إنساناً جديداً في حياته وفي تناوله الفن الشعر .

ولقد أعقب المؤلف ذلك الشعر الذي قاله امرؤ القيس في المدح بنماذج أخرى في الفكوى والتفجيع ، وانتقل إلى التمثيل للشاعر بما قاله في مدح سعد بن الضباب ، واختار نموذجاً له يتحدث فيه عن شدة وطأته على خصومه . وذكر من محاسن شعره تلك القصيدة التي يقول فيها :

رب رام من بني ثعلب مُتَلَجِّج كفيه في مُقْتَرَةٍ (١)

كما عرض للقصيدة التي تصور رحلته إلى الروم ، وتذكره لآيام اللوز والشباب ، وأولها :

سمالك شوق بعدما كان أقصرا
وحلت سليمى بطن قور فعرعرا

(١) محمد سمك : أمير الشعر في العصر القديم ص ٢٩٧ .

(٢) مع أن هذه القصيدة من مرويات الأصمعي والمفضل وغيرهما . فقد شك فيها البعض ، لأنها تصف عمرو بن المسيب الطائي ورميه للصيد . وهو متأخر زمناً عن امرئ القيس (انظر الأدب الجاهلي لشوقي ضيف ص ٢٤٦ طبعة دار المعارف) .

كتابية بامت وفي الصدر ودها

مجاورة غسان والحى يعمرا (١)

وأكد المؤلف على تأثير الأحداث في شعر امرئ القيس بما اختار
له من هذه القصيدة وغيرها ، مدللا على أن شعره كان صورة لحياه في
جميع مراحلها وأطوارها .

٦ - أغراض شعره

يعد كتاب (أمير الشعراء في العصر القديم) من أول الكتب التي عرضت
علينا الأغراض الشعرية في ديوان امرئ القيس عرضا مفصلا مع تحفظنا
على طريقة هذا العرض وعلى إهمال المؤلف لرواية الديوان الذي نقل
عنه ، وبيان قصائده وسنة طبعه .

وقد ذكر الغزل من هذه الأغراض وقال إنه استغرق ربع الديوان ،
ثم ذكر الوصف أى وصف الطبيعة المتحركة والساكنة ، وأضاف إليها
وصف المدن والظلمات ، مبينا رؤية النقاد المتباينة حول ضم (النعم
والظلمات) إلى الغزل وفصلها عنه ، وجعلها غرضا قائما بذاته ، ورجح
أن تكون مقدمة للغزل ، كما ذكر من الأغراض الشعرية المسموم والشكوى ،
والمدح والهجاء ، والخر ، والفخر والحاسة ، والثناء .

أولا - الغزل :

عرض محمد سمك للغزل في فصل متقدم في كتابه بعنوان (نساء في
حياة الشاعر) .

(١) شك البعض في هذه التمهيدة التي منها هذان البيتان لمجرد أن
الشاعر ذكر فيها رحلته إلى قيصر الروم .

وأحال القارىء عليه .

وتحدث عن الأطلال والدمى والظمان بوصفها تقديمًا أو تمهيدًا للغزل والنسيب ، وملتقط عبارة من كلامه قال فيها : « ويمتاز امرؤ القيس عن سبقوه بأنه جعل الأطلال عنصراً مستقلاً ، فقد أطل الغزل فيها ، رنوع صورها ورسومها » (١) لكنه لم يذكر واحداً من هؤلاء القدماء أو مثالا له يؤكد به مقولته السابقة ، ولكنى أظنه تابعاً فى ذلك لمنهج القدماء الذين كانوا يتناولون أمثال هذه العبارة بدون نقد ومراجعة .

ولا أظن أنه فرق بين الوقوف على الأطلال والبكاء عليها، إذ تحدث عن ذكر الأطلال، فقال : « هو بداية النسيب ، ومطلع الغزل ، واسترجاع الماضى الحلو ، واستحضار الحالة الشعورية الخاصة بتجاربه المخزونة فى الوجدان والأحاسيس » (٢) .

وقد تنبه المحدثون لما فى الوقوف على الأطلال والبكاء عليها من رموز وإشارات تتلاءم مع طبيعة الحياة فى الصحراء ، وسبق أن أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن نقد الباقلانى للعلقة ، ولا حرج على الأستاذ محمد سمك فى عدم تعرفه على أمثال هذه الإشارات ، ويكفيه أنه بذل ما استطاع فى حديثه من الأطلال ، وربط بينها ، وبين حياة البدو فى الصحراء كقوله ، « فالبكاء على الأطلال ثمرة البيئة الممتلئة لهؤلاء البدو الرحل عبر الصحارى والقفار لا تتجاع مواطن السكّاء والمرعى ، والرباع الذى يجودها الغيث ، وتهمى عليها الأمطار .. والوقوف على الأطلال يهيج الذكريات ويستدعى الاستغراق فى تأملها ، واستحضار ماضيه ومقارنته بحاضرها الذى آلت إليه ، وما فعلت بها الرياح والأمطار وتعاور الليل والنهار » (٣) .

(١) محمد صالح سمك ، أمير الشعر فى العصر القديم ص ٣٢١

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٢ (٣) المرجع السابق ص ٣٢٢

وقد ربط بين الوقوف على الأطلال والعاطفة ذات الجانب الإنساني العميق ، وذكر أن المرأة في جانبها النفسي وواقعها المعنوي أكثر وضوحاً في شعر الأطلال منها في شعر الغزل عند امرئ القيس ... لأنه في مقدماته الطللية لا يلاحق المرأة كيئافاً مادياً حسياً يصف دقائقه بحسب ، وإنما يعرض لها معنى إنسانياً يأسى لفراقها ويحزن لرحيلها ، وتمتلئ (عينيه) (١) بالدموع لما تبيحه الذكرى عند تذكر تلك الأيام الخوالي التي نعم فيها بصاحبه ، وهذه اللحظات السعيدة التي قضاهما معها ، (٢) .

وقال إن امرأ القيس في مقدماته أوضح ما يكون شاعرنا ... حيث تتجلى مظاهر فنه في التراجع بين الحزن القاتل والرجاء المؤمل ، ليخرج من تجربته وقد اتجه إلى واحد مما تأرجح فيهما . وأبان المؤلف عن دور العاطفة في المقدمات الطللية عند هذا الشاعر، وهي تعكس البيئة التي تناولتها بكل ما فيها من عادات وتقاليد؛ لصدق الشاعر وواقعيته وحرصه على ذكر الحقيقة إذ لم يكن فناً يرسم من الذكرة رسم المظهر الهادي . وإنما كان فناً يستجيب لدواعي العاطفة منفلاً نشيطاً ، يملك شعاباً وخبائصاً .

وذكر أن امرأ القيس يحدد في مقدماته المكان غالباً والزمان قليلاً، ومن النادر أن تجده متعرفاً على الرسوم والأطلال ، وإن كان يعبر عن خلل الديار بالحديث عن سكنى الوحش لها وانطلاقه في ودياتها، كما يذكر ما فعلته الرياح بها، إلى غير ذلك من المبادئ الجزئية التي يعرض لها الشاعر في حديثه عن الأطلال وبكائه عاينها .

(١) أظنها (عيناه) .

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٤

وقال المؤلف إن المقدمة الطللية تتراوح بين ييتين وسبعة عشر بيتاً.

ثم انتقل إلى الجانب التطبيقي فاقتار إحدى عشرة قصيدة (١) ،
وتحدث عن مقدماتها ، وكان يذكر الأبيات الطللية ثم يشرحها شرحاً
منفصلاً ، وهو عدد كبير حقاً إذ كان يكفي نموذجان أو ثلاثة للدلالة على
منهجهم في الحديث عند شعر الأطلال عند امرئ القيس .

وبما اختاره من هذا الشعر مقدمة القصيدة النائية الآتية :

غشيت ديار الحى بالبكرات فعارمة فبرقة العبرات
فغزل خلعت فأكناف منعج إلى عاقل فالجب ذى الأمرات
ظلت رداى فوق رأس قاعدأ
أعد الحصى ما تنفضى عبراتى
أعنى على التهام والذكرات يبتن على ذى المم معتكرات
بايل النمام أو وصلن بمثله مقايسة أيامها نكرات
كأنى وردنى والقراى ونسرقى
على ظر غير وارد الخبرات (٢)

(١) حى القصائد : (٣٠، ١٦، ١٥، ١٤، ١٣، ١٢، ٩، ٨، ٦، ٤، ٣) :
ويلاحظ أنها من رواية الأصمى باستثناء الأخيرة فإنها من رواية المفضل
وإن اختارها الأصمى فى نسخته .

(٢) محمد سملك ، أمير الشعر ص ٣٢٩ ، والديوان ص ٧٨ ، ويلاحظ
من خلال النص المذكور أن المؤلف قد اختار النموذج مطاقاً لنسخة
البطليوس التى اتخذت من رواية الأصمى أساساً لها ، وأضيفت إليها قصيدة
من رواية المفضل ، ومقطوعة لما ألحق على نسخة الطرسى ، ونسخة السكرى
وابن النحاس (كما سبق القول) .

وقال في أعقاب ذكره لهذه الآيات التي افتتح بها الشاعر هذه التسمية التي تبلغ خمسة عشر بيتاً : « يبدأ بتعداد المواضع والامكنة والمياه التي مر بها وهي كثيرة : البكرات وهي مياه لبنى ذوية من الضباب عندها جبال سود شواخ وعارمة ، وهي مياه لبنى تيم بالرمل حيالها جبل لبنى عامر بنجد ، وبرقة الديرات وهي أرض بها حجارة سود ورمل أبيض تشرح فيها الحر الوحشية ، وغول وهو رضع ماء لبنى الضباب يحوف طففة ، وحليت وهو موضع عند جبال ضرية فيه ذهب ، ومنعج وهو مكان في جانب حم ضرية ، وعاقل وهو جبل ، والجلب وهو موضع ، والأمرات وهي العلامات في الطريق ترشد المسافرين جمع أمرة وهو الجبل الصغير » (١) .

وأعقب ذلك بشرح دقيق ومفصل لهذا الشعر . وهكذا كان يفعل في كل ما ذكره عن وقوف امرئ القيس على الأطلال وبكائه عليها وتنقله بين الديار والمواضع والآثار .

ولم يكن امرؤ القيس من الشعراء الثوابت الذين يكتفون بأنماط محدودة في تعاملهم مع الأطلال وتبويرهم عن الوقوف عليها . فتد تنقل بين المرور على الديار ومشاهدة الطلل والوقوف أو النزول عليه ومصالحته أو التسليم عليه ، أو يتجاوز كل ذلك ليربط بين الوقوف والبكاء مؤكداً على ما حق الديار من تغير رسومها ، سواء بتغية الرياح لها أم بما لحقها من الصمت التام نتيجة رحيل أهلها أم لغير ذلك .

كما يلاحظ أن كثيراً من قصائده لم يبدؤها بالوقوف على الأطلال ، أو بالمرور عليها أو بغير ذلك مما يتصل بهذا التقليد القديم ، وإنما كان

يبدأ مباشرة في الحديث عن غرضه وموضوعه ، كقوله في مدح عوير بن شجنة :

إلا إن قوماً كنتم أمس دونهم
هم منعوا جاراتكم آل غدران (١)

وقوله في مدح جارية بن مر من بني ثعل :

دع عنك نبأً صبح في حجراته
ولكن حديثاً ما حديث الرواحل (٢)

وقوله في الحسكة والفخر :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب (٣)
وغيرها كثير .

على أن ارتباط الوقوف على الأطلال أكثر ما يكون بفن الغزل، لكي يأتي كقدمة له أو على أنه جزء منه ومتصل به وغير منفك عنه ؛ كما يرى أكثر النقاد .

ثانياً — وصف الطبيعة

عرض صاحب كتاب (أمير الشعر في العصر القديم) للطبيعة في شعر امرئ القيس عرضاً ظاهرياً متكاملاً ، لاستعراض هذا الغرض نصف ديوانه سواء أكانت الطبيعة حية أم صامتة ، وعنى بالطبيعة الحية وصف الشاعر للفرس والناقة والظباء والعقاب ، وحر الوحش والظالم (ذكر

(٢) الديوان ص ٩٤

(١) الديوان ص ٨٣

(٣) الديوان ص ٩٧

النعام) وكلاب الصيد وبقر الوحش ومعاجه والثعالب والأرانب البرية ،
والذئب والأوبد والضباب . وما إلى ذلك من كل كائن حي متحرك على
رمال الصحراء . وعبر الفياض والقفار (١) .

كما عني بالطبيعة الصامتة : «مظاهر الكون من سماء وأفلاك ونجوم ،
وكواكب وسحاب ومطر وسيل وبرد ورعد وبرق ، ونهار وليل ،
ومهمالي وقفار ، وجبال ووديان ونجد ووهاد وأغوار ومقوى
وأطلال ودمن وعرصات ونسائم ورياح : ونخيل ونبات ، ودوح
وأكام ، وأوتاد وأمراس وجبال وبيمر وتراب وصخر وخصب ومحل ...
ونحو ذلك من مظاهر الطبيعة التي لا تفيض بالحياة ، ولا تقدر على الحركة
الإرادية التي فيها سر الموت والبقاء» (٢) . وقد شمل المؤلف بهذين
التعريفين :

كل ما عرض له الشاعر فيما يهمل بوصف الطبيعة، ذلك لأنها بمنحركاتها
وسواكها كانت مرآة امرئ القيس التي تعكس عواطفه ومشاعره تجاه
الكون ، ففيها ملاعب صباه ومسارح شبابه ، يقضى بها نهاره وليله ،
ويعيش فيها حبه وشتاهه ، وسلامه وحربه ، ويشهد بها آلاف أيامه والضعفاء
والإنسان والحيوان والجبال والسهول والرعود والبرق ، وكانت الطبيعة
بمكوناتها الحية والصامتة مناط عناية الشاعر ومبعث اهتمامه ، فإذا تحدث
عن مشاعره وغزله تطرق لوصف المرأة ، وإذا تحدث عن حروبه وصف
الفرس وآلات القتال ، وإذا انتقل من رجاء إلى آخر تناول ناقته بالوصف
لكل أعضائها ... وهكذا كان امرؤ القيس وسائر الجاهليين يوظفون
الوصف في معظم أغراض الشعر إن لم يكن فيها جميعاً .

(١) محمد سميك — أمير الشعر ص ٣٤٣

(٢) المجمع السابق ص ٣٤٣

أما الوصف بمعناه العام فلا يخرج من التحديد السابق الذى ذكره
محمد سمك .

وصف الطبيعة المتحركة

إذا رجعنا إلى حديث المؤلف عن وصف الطبيعة المتحركة فى شعر
أمرى القيس نراه يذكر أن الشاعر قد عرض فى أكثر وصفه إلى اثنين
من مكونات هذه الطبيعة وهما الفرس والناقة ، أما بالنسبة للفرس فوظيفته
معروفة حيث يتخذ للحرب والصيد ، ولأمور أخرى سبق أن تحدثنا عنها
أما بالنسبة للناقة ، وهى عنصر مهم من عناصر الطبيعة ، فلم يسبق أن
تكلمنا عنها فى الفصول السابقة ، ولذى يأق الحديث عنها — هنا — فى
موضعه تماما ، وهى سفينة الصحراء ، وعليها البلاغ فى الشيع والرى ، وفى
الارتحال وحل الأتقال ، والسفر بها عبر الصحارى والرمال والفيافي ،
والقفار (١) .

أما ما أورده الشاعر وتحدث به عن مظاهر الطبيعة الحية الأخرى ،
فإن حديثه عنها لم يكن مقصودا لذاته ، بل جاء به فى مجال الحديث عن
الفرس ومتعة الصيد ، أو جاء به فى مجال الحديث عن الناقة ، وضرورة
الارتحال على مطاها (٢) .

ويمكن بذلك أن نقسم كلام المؤلف عن شعر الطبيعة الحية عند
أمرى القيس إلى ثلاثة أقسام وهى وصف الفرس ، ووصف الناقة ،
ووصف الصيد وما يتصل به من المظاهر الأخرى .

(١) المرجع السابق ص ٣٤٣

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٣ ، ص ٣٤٤

(١) وصف الفرس

سبق أن عرضنا لحديث القدماء عن وصف امرئ القيس للفرس ،
ويكاد إجماعهم يتفق على أن هذا الشاعر رائد لا ينازع في شعر الخيل
من خلال حديثه عن الفرس كأداة للحرب أو الصيد أو المتعة أو الزينة .

وقد عرض محمد سمك لحديث امرئ القيس عن الفرس في المعلقة،
وفي اللامية الثانية كما عرض لذلك في باقي القصائد الأخرى ، ومنها تلك
البياتية، التي يرى بها امرؤ القيس علقمة بن عبدة (الفحل) ، وذكرها
أثنين وثلاثين بيتاً من مجموع أبياتها التي تبلغ خمسة والثلاثين . وما اختاره
من وصف الشاعر للفرس قوله : (١)

ولن أمس مكروبا فيارب غارة
شهدت على أقب رخو المياف
على ربذ يزداد عفوا إذا جرى
منح حثيث الركض والذالان
ويتغدى على صم صلاب ملاطس
شديدات عقد لينات مثار
وغيت من الوسمى حو تلاعه تبطنه بشيظم صلتان
مكر مفر مقبيل مدير ممّا كنيس ظباء الحلب العدوان
إذا ما جنبناه تأود منه كعرق الرخاى اهتر في البطلان
وكان صاحب الكتاب الذي يتحدث عنه يعرض لهذه الأشعار
ويشرحها كما صورها الشاعر .

(١) محمد سمك . أمير الشعر ص ٣٥٣ ، والديوان ص ٨٦ ، ٨٧ .

(ب) وصف الناقة

قال محمد سملك إن امرأ القيس قد أجاد أيضا في وصف الناقة ، لأنها « وسيلة انتقاله عبر الصحارى والقفار ، حيث تصعب الأرض ، ويفوز الرمل ، وتندم المياه ، ويقل العشب ، وتكثر الأحمال ، ويثقل المناخ » (١) وذكر أن قصائد الشاعر التي قالها في شبابه تخلو تماما من ذكر الناقة مثل المعلقة واللامية الثانية وأن أول إشارة لها في البائية التي يارى بها علقمة عند زوجه أم جندب في طي .

وأرى أن السبب الذي لم يجعل الشاعر يذكر الناقة في الشعر الذي تحدث فيه عن شبابه هو أنه لم تكن تربطه بالناقة علاقة كالتى تربطه آنذاك بالفرس الذي اعتمد عليه في الصيد أو في الحرب بعد مقتل أبيه . أما الناقة فهي حيوان أقرب إلى البطة عندما يقاس بغيره من الحيوانات .

وقد ربط الدكتور مصطفى ناصف بين الساقية والانتباه إلى الأم ، وهذا الانتباه شاغل مهم في المجتمع الجاهل . ذلك أن الأم هي المنبت الحقيقي لفكرة المحبة والرضا والسلام . والشاعر القديم يشاق إلى أن يتصورها هائلة الجسم ، لأن ذلك يعنى أنها معين لا ينضب ، وطاقة لا يسبر غورها كله ، (٢) .

وكان الشاعر الجاهلي يهتم دوما بماله صلة بالحرب من الحيوانات ، ولم تكن الناقة بمعزل عن طبيعة الحياة في المجتمع الصحراوي . وذكر مصطفى ناصف أيضا أن فكرة الناقة من أكثر الأفكار تنوعا : « فالناقة منبت كل ما أهم وأقوى وأحزن الشاعر الجاهلي ، أوهى التي تخلق الأفكار

(١) محمد سملك . أمير الشعر ص ٣٥٥

(٢) مصطفى ناصف . قراءة ثانية لشعرنا القديم ص ١٠٣، ١٠٢

التي ترفع الإنسان عن رتبة الحيوان . الأفسار العالية التي تتصل بإشباع الحاجات الأولية . الناقة في هذه الحالة ليست وسيلة إلى غاية بل هي مجمع كل شعور بالفائضة الواضحة والغامضة . الناقة هي عالقة الأساطير التي أخرجت الشعر من الغناء الساذج إلى التصدى الملح لفكرة المشكلات ، أو لنقل : إن الناقة هي التي نقلت الفكر العربي قبل الإسلام ، نسيجه طبيعة الملاحم إلى طبيعة الدراما والصراع ، (١) .

وكان القدماء يتحدثون في قصائدهم عن الناقة ثم يشبهونها بحيوان آخر ، ثم يسردون قصة ذلك الحيوان ، ويعودون إلى الناقة فيشبهونها بحيوان آخر وهكذا ، ولذا جاء حديثهم عن الناقة نورا يسيرا ، باستثناء القلة منهم ، من أمثال طرفة الذي عرض لها في معلقته عرضا مفصلا ، ووقف عندها وقفة متأنية ، وتحدث عنها في ثمانية وعشرين بيتا ، ورسم لها صورة عامة ومتكاملة .

وهي عند سائر الشعراء الجاهلين : « قوية متينة صلبة قبل السفر ، وهي نحيلة مهزولة بعد أن قطعت القياقي ، وجابت الفلوات في حر الحواجر وقر الشتاء ، يعتنون بوصف شكلها ولونها وصفاتها ويشبهونها بالبقرة الوحشية ، والثور والحمار والأتان والظليم (ذكر النعام) ، كما يشبهونها بالبناء الشاخ والسفينة والسيف والدلو والسحابة ، وفي كل تشبيه من هذه التشبيهات يصورون حالاً من أحوالها ، وصفة من صفاتها ، (٢) .

ورأى البعض (٣) أن الحديث عن الناقة يمثل الخاضر ، ويقود

(١) المرجع السابق ص ١١٥

(٢) د / يحيى الجبوري . الشعر الجاهلي ص ٢٥٠

(٣) د / مصطفى الشورى في كتابه (الشعر الجاهلي) ص ١٣٧

استمرارية الحياة التي يحرص الناس عليها يكمس الحديث عن الطلل الذي يمثل المأوى ، وإذا ارتضينا أن تكون الناقة زمرا للحياة فلا نكتفي بالإشادة بها وهي وسيلة للرحلة في الصحراء بل ننظر إليها وهي تؤدي دورها في الحياة إذ تقدم الغذاء من لبنها، والكساء من وبرها ثم الطعام من لحا، فهي — إذن — جزء من الحياة التي يعيشها البدوي في الصحراء، ولذلك توقف مقدار ما تحدث به كل شاعر عنها بمقدار عطائها له أو بمقدار الصلة التي بينها وبينه، ولذا لا تستبعد أن تكون منزلتها في شعر امرئ القيس أقل من منزلة الفرس، لأن احتياجه أو ارتباطه بهذا الحيوان كان أعظم وأكبر من أي ارتباط بحيوان آخر، ولكنه لم يتجاهل الناقة فلها دورها في الصحراء الذي يخصها، ولا ينوب عنها فيه حيوان آخر

وذكر محمد سميك قدرا كبيرا من الشعر الذي قاله امرؤ القيس في الناقة، وهو شعر يمكن تناوله ضمن الحديث عن الرحلة أو عن وصف بعض الحيوانات الأخرى .

في قصيدته البائية (الأعم صباحا) يتحدث عن الناقة فيقول :

ولمك لم تقطع لبانة عاشق بمنزل غدو أو رواح مؤوب

حيث يذكر الناقة ويشبهها بحمار وحشي، ثم يدعها ويمضي إلى وصف الحمار .

وفي قصيدته (غشيت ديار الحى) يعرض لوصف الناقة في كلمة عاطفة، ويذكر أنها تسرع مثل الحمار الوحشي، وينتقل عند ذلك إلى وصف الحمار .

لكن ذلك لم يكن ديدنه في كل ما قاله عن الناقة، فله قصائد تحدث

ففيها عن هذا الحيوان حديثا مطولا، حيث وصف أعضائها وصفا ظاهريا
أو تناول وصفها وصفا معنويا، كالسرعة وغيرها .
في قصيدته القافية : (الأعم صابحا أيها الربيع وانطلق) وصف الناقة
في سبعة أبيات ، فقال (١) .

فعزيز نفسي حين مانوا بحسرة
أمون كبنيان اليهودى خيفق
إذا زجرت ألفتها مضملة تنيف بعقد من غراس ابن معق
تروح إذا راحت رواح جهامة
ياشر جهام رائح متفرق
كأن بها درا جنيا تجره بكل طريق صادفه ومأزق
كأنى ورحلى والقربا وتمرق على يرفتي ذى زوائد مقنق
تروح من أرض لأرض نظيسة
لذكره قبض حول يض مقلق
يجول بأفاق البلاد مغربا ويسحقه ريح الصبا كل مسح

لقد عوى الشاعر نفسه على فراق أحبابه بارتجاله على ناقة تقنق طويلة
كبنيان اليهودى ، وذكر عددا من صفات تلك الناقة مثل السرعة، إذ رأى
نفسه ومتاعه فوقها ، كأنه يركب ظليما من النعام ويصفاته المذكورة في
الشعر السابق ، ومع أن طريقة رائد في حديثه عن الناقة إلا أنه احتذى
بيت امرئ القيس الذى قال فيه :

وعنس كألواح الإران نشأتها على لاجب كالبرد ذى الجبرات (٢)

(١) محمد سملك أمير الشعر ص ٣٦٢، ٣٦٣ والديوان ص ١٦٩، ١٧٠، ١٧١

(٢) البرد ذو الجبرات : ثياب اليمن الموشاة

(٢٠ - القيس)

ووصف طرفه ناقة فـال :

أمون كألوان الإبران نشأتها على لا حبر كأنه ظهر برجد
وهذا يدل من جانب آخر على قناعة الجاهليين بإمارة امرئ القيس
للشعر بعمامة ، وإلا لما بان استذاقهم له في الألفاظ والمعاني على السواء .
(ح) وصف الصيد ما يتصل به .

يتلازم حديث الشاعر عن الفرس والناقة بحديثه عن الصيد وما يتصل
به من وصف لسكلاه ورحلته ورماته وحر الوحش وبعض الحيوانات
الأخرى .

وقد عرض محمد سملك لنماذج متعددة من شعر امرئ القيس حول
هذه الموضوعات لعناصر الطبيعة الحية ، واختار من قصيدة الشاعر (خليلي
مراي ...) ثمانية وعشرين بيتاً رسم فيها صورة واضحة لمشاهد الصيد
ومتعة ومزاولة نشاطه ، كما شمل الوصف الفرس وهو يصرع الثور والنعجة
والفحل بيتاً الغلمان يلاحقون بقية الثيران حتى انتهت المعركة بمصرع
ما صرع وهروب ما أملت ، وخروج الفتيان لإعداد الطعام من اللحم
الذي كان كثيراً جداً .

ويضيق المقام هنا عن تناول كل ما في الديوان حول رحلة الصيد ،
ونكتفي بنموذج واحد قاله الشاعر وهو في طريقة إلى السموم يصف
فيه أشهر الرماة في عصره ، وهو عمرو بن المسيب الطائي من بني ثعل ،
قال (١) :

رب رام من بني ثعل متلج كفيه في قتره (٢)

(١) محمد سملك . أمير الشعر ص ٢٧٣ ، والديوان ص ١٢٣

(٢) بنو ثعل : قبيلة من طيء . متلج : مدخل .

- طارض ذؤراء من نثم غير باناة على وتره (١)
قد أتته الوحش واردة فتتحى الزرع في يسره (٢)
فرماها في فراصها بإزاء الخوض أو عقره (٣)
برهيش من كنانته كذاظى الجمر في شرره (٤)
راشه من ريش ناهضة ثم أمهاه على حجره (٥)
فهر لا تنمى رميته ماله لا أعد من نفره (٦)
مطعم للصيد ليس له غيرها كسب على كبره (٧)

وقد شرح محمد سلك هذه الآيات فقال : « يصفه امرؤ القيس بأنه
صياد ماهر يصيد الوحش غتالا ، يكنى في القتر التى يكنون فيها للوحش
ثلا يرام فينفر منهم .

وقد أعد قوسا مائلة الجوانب ليرمى بها ... إنه لا ينحنى على الوتر
عند الرمى ، وحين ترد الوحش عليه ، يضع ما يريد صيده منها قبالة وجهه
وجهته ، حتى إذا أصبح الصيد قريبا من الماء مطمئنا ، رماه في فراصه ،

- (١) غير باناة . غير باناة عن الوتر ، ورجل غير باناة على وتره أى
غير منحن على القوس عند الرمى .
(٢) فتتحى الزرع : تحرف حيال وجهه ، فى يسره : قبالة وجهه .
(٣) عقره : أى أى الخوض ، وهى موضع أخفاف الإبل عند
الورود ، يقصد أن هذا الرامى أرصد للوحش عند الماء .
(٤) البرهيش : السهم الخفيف .
(٥) راشه : أى جعل للسهم ريشا . أمهاه : أرقه وحدده .
(٦) لا تنمى رميته : لا تنفض بالسهم وتغيب عنه ، بل تستقط مكانها
(٧) مطعم للصيد : صائد لا يخطئ . سبها .

وأصاب مقاتله بسهم يستله من كنانته ... لأنه سهم يتوهج حدة وبريقاً
كجمر مشتعل ، جعل له ريش طائر ، وأرقه وحدده .. يسقط ما يصاد به
مكانه ولا يستطيع حراكاً ، ياله من صياد ماهر !! إذا عد قومه فلا مثيل
له فيهم لأنه صياد محترف لا يكاد سهمه يخطئ . وليس له وسيلة يكسب
منها عيشه وطعامه غير الرماية والصيد على كبر سنه (١)

لم يكن حديث الشاعر عن الرامي للأجزاء من حديثه عن الصيد الذي
ارتبط في مواضع كثيرة من الديوان بالحديث عن الخيل ، وعن الناقة
أيضاً في عدد من القصائد والمقطوعات ، ولقد امتد حديثه إلى أوابد
الصحراء التي لها صلة بالصيد كالعسير الوحشي وأتته وثيران الوحش
وأبقارها وتماجها . ووصف الحمار في خلقه وخلقه ، ورسم له صورة
متكاملة ، وجاء حديثه عن الصيد ليشمل : ظليم التمام وكلب الصيد وبازي
الاجواء وعقاب السماء ، وأرانب الصحراء ، وفئران البيداء (٢)

وكان يتجاوز الوصف الظاهري في حديثه عن حيوان الصحراء
ليكشف بخبرته في الصيد عن طباع هذا الحيوان وصفاته ، وهي طباع
تختلف من حيوان لآخر ومن حالة إلى أخرى .

وصف الطبيعة الصامتة

ليس حديث الشاعر عن مظاهر الطبيعة الصامتة بمجديد علينا ، فقد
سبق أن عرضنا لشعره في المطر والبرق والرعد والسحاب والليل وغيرها .
وقد اختار محمد صالح سلك تسعة أبيات في وصف البرق في أول
قصيدة لامرئ القيس قال : (٣)

(١) محمد سبك : أمير الشعر ص ٣٧٣ ، ٣٧٤

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٩

(٣) المرجع السابق ص ٣٨٧ ، والديوان ص ٧٢

- أعنى على برق أراه وميض
بيضيه حيا في شماريح ييض (١)
ويبدأ تارات سناء وتارة
ينوء كتعتاب الكبير المبيض (٢)
وتخرج منه لامعات كأنها
أكف تلقى الفوز عند المفيض (٣)
قدمت له وصحيتى بين ضارج وبين تللاع يثاث فالعريض
أصاب قطيات فسال لواهما
فوادى البدى فانتحى للأريض
بميك دماث فى رياض أنيسة
تحيل سوافها بماء فضيض (٤)
بلاد عريضة وأرض أريضة مدافع غيث فى فضاء عريض
فأضحى يسح الماء عن كل فيقة
يحوز الضباب فى صفاصف ييض (٥)
فأسقى به أختى ضعيفة إذ نأت
ولاذ بعد المزار غير القريض (٦)

- (١) الحبيب : السحاب المتداني ، الشماريح : إما ارتفع من أعالى السحاب
وقيل : الجبال المشرفة .
(٢) تعتاب : سير
(٣) المفيض : الذى يضرب فى القداح باليسر
(٤) الميك والدماء : الأرض اللينة السهلة
(٥) الصفاصف : جمع صفصف وهو المستوى من الأرض
(٦) بعد المزار : بعد مزاولها متى فلا أصل إلى لقائهما .

لقد تابع البرق وهو يلعب من خلال السحاب المتقارب بعضه من بعض، وهو برق متغير يبدأ ويسكر ثم يتحرك ويمشى في تناقل، كأنه حيوان من ذوات الأربع يمشى على ثلاثة أرجل، وتخرج منه السحاب نشيطة سريعة، وقد ترقبه الشاعر في عدة مواضع ليعلم المكان الذي سيصب فيه المطر. وقد نزل على أرض مباركة، بها الضباب التي تخرج من أوجارها وتتلاقى في أرض مستوية، ويدعو أن تسقى أخته بهذا الماء كهدية لها مع شعره وقريضه الذي يرسله لها حيث نأت بها الديار.

وهكذا تابع الشاعر رحلة البرق وتسلاطه على السحاب الذي ينزل مطرا على مواضع متعددة. ويعكس هذا التصوير غرام امرئ القيس بناصر الطبيعة، وبقيمة الماء في البادية، حيث تتغير صورة الأرض من الخفاف والجذب إلى الحظرة والنفاء.

ثالثا — هموم وأحزان

اتخذ محمد سملك من شعر امرئ القيس تأريخاً لحياة مع الهموم والأحزان، وذكر أن هذا الشاعر قد صاحب الهم في صباه وبقائه ورجولته، غير أنه لم يقل إن لكل مرحلة من هذه المراحل لونا معينا من الهموم يختلف عن مثيله في المرحلة الأخرى.

وعرّض لبعض الآيات من المعلّمة التي قالها الشاعر في أيامه الأولى — أو بمعنى أدق — عن أيامه الأولى عندما كان فتيا ... « يهينق البديلة بشبابه وآماله، وقدمها في صورة رائعة بلغت الذروة في جمال التصوير والخيال وحسن التعبير والإداء اللفظي ... » (١). قال (٢):

(١) محمد سملك. أمير الشعر ص ٣٨٩

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٠، والديوان ص ١٩٠١٨

وليل كسوح البحر أرخى سدوله
على بأنواع المموم ليتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف إبحازا وناء بكسكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى
بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مفار القتل شدت يذبل
كأن الثريا علقت في مصاهها
بأمرأس كستان لال صم جندل

لم يفصح الشاعر عن لون الهم الذي ألم به في هذه الأبيات ، والتي
جعل فيها الليل ينفخ بكل أنثاله وأحماله عليه ، فيكاد يسحقه سحقا وهو
جاثم عليه ثم ماذا يرجى من الصبح ؟ لن يجد فيه أقل مما وجدته في الليل
من هموم وأحزان .

وذكر الأستاذ محمد صالح سمك في معرض حديثه من هموم الشاعر
وأحواله ثلاثة أبيات من لاميته (الأعم صباحاً) ، ولازى فيها لإلا
تعبيراً من الشاعر عن أماله وطموحاته ، قال (١) :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة
كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكننا أسعى للجد مؤثّل وقد يدرك الجهد المؤثّل أمالي
وما المرء ما دامت حشاشة نفسه
بمدرك أطراف الخطوب ولا آل

فهذه الأبيات التي يذكر الشاعر فيها سعيه للجد المؤثّل الذي يليق

(١) محمد سمك ، أمير الشعر ص ٣٩٢ ، والديوان ص ٣٩

به وبأمثاله ، وليس له أن يقلق أو يضجر ، لأن الإنسان مهما بذل من جهد لا يستطيع أن يحقق كل ما تصبو نفسه إليه .

وكشف امرؤ القيس عن كثير من أنواع الموم التي ألفت به في حياته ، وتحدث عنها في القصيدة الراحمة التي أفاض فيها عن بعض الجواب من رحلته إلى بين تطة ، وأولها :

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا

وحلت سليمى بطن قور فعرعرا

وقد ذكر فيها أن الحزن تسلل إلى أعماقه منذ أن تذكر بقايا أهله الصالحين ، وهو يقطع الفياق ، ويجتاز المدن ليصل حاضره الممض بماضيه الخافل بالماثر والأبجاد ، كما كشف عن المرض الذي ألم به وعن الغربة التي واجهته حتى ظنه الناس في البلدان التي مر بها عابر سبيل ، وليس أميرا أو ماسكا ، مع أن أمره لا يعينهم ولا يهيمهم ، كما جعل من أسباب حزنه في رحلته إلى قيصر ما ألم بأهل رفاقه من جوع عليهم ويأس من لغائهم .

ورسم في هذه الراحمة صورة للموم التي عرضت له بسبب ما لقيه من الناس والراق الذين اتخذهم أصحابا ثم ما لبثوا أن تغيروا عليه ، وخانوا صداقته ، قال (١) :

إذا قلت هذا صاحب قد رضيت

وقرت به العينان يدك آخر

كذلك يجدى ، ما أصاحب صاحباً

من الناس إلا خائى وتغيرا

(١) محمد سلك ، أمير الشعر ص ٣٩٣ ، والديوان ص ٦٩

وقال في شعر آخر يندد فيه بالرفاق (١) :

وخليل قد أفرقه ثم لا أبكى على أثره
وابن عم قد تركت له صموءاء الحوض على كدره
فهو لا يحزن على فراق من أصنى له الود ، وأخلص له الحب ، ثم
اكتشف فيه الغدر .

وذكر محمد سبك قصيدة للشاعر ، « تفيض كلها بزفرات المحزون ،
وتأملات المبهوم ، واستسلام المقبور ، وتقلق المضطرب الحائر ، أمام
صروف الدهر وأحداثه ، وأسرار الحياة ونوازها » (٢) وهي البائية التي
قال في أولها (٣) :

أرأنا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب
وأظن الشاعر قد قالها بعد أن عجز عن التأمل لآييه ، واسترجاع ملك
أجداده ، ولذا فإني تعبر عن حالة من اليأس التام الذي شمله في سنواته الأخيرة
إذا جاء فيها :

وقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنمة بالإياب
أبعد الحارث الملك بن عمرو وبعد الخير خير ذي القباب
أرجى من صروف الدهر ليلاً ولم تغفل عن الصم البضاب
ولذا بحثنا عن بعض الأسباب لهذه الأحزان والبهوم نجدها لدى
الشاعر كثيرة فلقد فشل في كل محاولاته التي قصد بها إلى تحقيق أماله
وطموحاته ، كما فقد الصديق الذي يخلص له الود ، ويخفف عنه وقوع
الحزن ، وفقد الأمان أيضاً أثناء تنقله بين القبائل ، وشعر بالعربة

(١) محمد سبك ، أمير الشعر ٣٩٣ ، والديوان ص ١٢٦

(٢) محمد سبك ، أمير الشعر ص ٣٩٤ .

(٣) الرجوع السابق ص ٣٩٤ ، والديوان ص ٩٧

والمرارة وهو بين أهله ورفاقه وأثنا. رحلته إلى قيصر ، وهكذا توالت الخطوب عليه من كل جانب ، ولم يجد مأوى يخرج منه للهروب من كل هذه الأحران .

وقد جعل محمد سمك الهم الذي ألم بالشاعر لوئين : أولها الهم الذي ابتابه كفتان (شاعر) حيث يشكل هذا اللون جزءا من كيانه العام ، وثانيهما الهم الذي مصدره تناقض الحياة أمامه ، واختلافها عليه ، وفشله في تحقيق أماله ، وبأسه من حاضره ، وآسائه على ماضيه ، وقد استعرض في هذا اللون علاقته بالحياة والأشخاص وبالموت والفناء كما جاء في الديوان .

رابعاً — مدح وهجاء

جاء في ديوان امرئ القيس عدد من المقطوعات والقصائد القصيرة في المدح والهجاء وهي مع قلة أبياتها لا تكشف عن شاعريته وموهبته في هذين الغرضين .

ولقد ظهر في الجاهلية عدد كبير من الشعراء الذين برعوا في المدح وفي الهجاء مثل النابغة ذهير والأعشى ، فهؤلاء الشعراء وغيرهم يتخذون من المدح وسيلة للكسب ، ولذا يعرفون طرائق هذا الفن ، ويعرجون فيه كقول ذهير في مدح هرم بن سنان :

تراه إذا ما جئته متمالا كأنك تعطيه الذي أنت سائله

أو قول النابغة في مدح النعمان :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منها كوكب

وهكذا يعرف الشعراء أساليب المدح طمعا في الكسب حتي لو ساقوا تنأيرهم في شيء من النفاق والتحايل ، وبقدرة ما ينجح الشعراء .

فى المديح ينجحون! غالباً فى الهجاء مادام غرضهم لم يتحقق وهو للتكسب،
وأكثرنا يعرف من تاريخ الأدب فى العصر العباسى — مقدرة أبي الطيب
المتنبنى على المديح والهجاء معاً ، فلقد مدح كافوراً الإخشيدى طمعاً فى
التكسب وتحقيق بعض الآمال ثم هجاه وأسرف فى هجائه عندما غاب ظنه
وتبدد طموحه .

أما امرؤ القيس فكان شاعراً فى الغزل والوصف وبعض الفنون
الآخرى التى ليس منها المديح والهجاء ، فقد كان ملكاً أو ابن ملك ،
ولم يكن محتاجاً للتكسب من أحد حتى يمدحه ويثنى عليه ، كما لم يكن
مضطراً لأن يذم أحداً لأنه لم يعطه ، ولم يبذل له المعروف ، ثم لما
تلاعبت به النسوة ، وقلبت له ظهر الحين وصار ينتقل بين القبائل فهذه
تقف معه وتساعدنه ، وتلك تسانده ، وأخرى تحاربه وتقاومه ، فضلاً
عن الأمان الذى كان يبحث عنه ويسعى إليه ، وهو مع ذلك مطارد من
عدو وخصم لدود ، وهو المنذر بن النعمان الذى قتل طائفة من شباب
كندة فى ديار بني مرينا — عند ذلك احتاج الشاعر إلى المديح والهجاء ،
ولكنه افتقد الأداة أو الوسيلة التى يعرفها الموهوبون فقال شعراً فى
هذين اللونين نرى الشاعر فيها صادقاً وصحوتاً ، ولكن الصديق وجدده
لا يخاف الشعر الجليد الرائع .

وهكذا وجدت الدواعى لقول المدح والهجاء فى المدة التى كان
الشاعر ينتقل فيها بين القبائل بعد مقتل أبيه وقبل رحلته إلى قيصر ،
ولكن مديحه فى تلك المدة يدور ما بين البيتين إلى السبعة ، وكأها أبيات
معدودة فى مقطوعات متغيرة لم تكتمل منها قصيدة طويلة كالتي نراها
فى سائر شعره . وقد مدح عوير بن شجنة وسعد بن الضباب وبني عوف
قوم عوير والمسل التميمي وطريف بن مالك وبني ثعل وابن حنبل
التمليبي وبعض الأشخاص الآخرين الذين ورد مديحهم فى شعر لا يثق فيه
الثقة التامة .

وهجاء بنى حنظلة، وهاني. بن مسعود، وبني عدوان والبراجم ومن معهم
من يربوع ودارم وآل مجاشع، وكان يجمع في المقطوعة أو القصيدة بين
المدح والهجاء كما في هجاء خالد النبهاني ومدح بني ثعل، وفي هجاء هاني.
ابن مسعود ومدح سعد بن الضباب. على أن هجاءه قليل جداً، ويتراوح
بين البيتين والأربعة، مما يؤكد قصر نفسه في هذا اللون.

ولم يذكر محمد سملك في حديثه عن المدح والهجاء نماذج لامرئ القيس،
وأحال على ما سبق التمثيل به في (أثر الحوادث على شعره). ولم ير للشاعر
شأوا في هذين الغرضين لأنه «ملك وابن ملك، والملك بمدح ولا بمدح..
والملك ليس بصخاب ولا عياب ولا شتام» (١).

ونحن نذكر للشاعر — هنا — بعض ما قاله في هذين الغرضين، لنؤكد
على ما سبق أن ذكرناه. قال في مدح المعلى أحد بني تميم من جديلة طيء.
وكان أجاره، ومنع عنه شر المنذر بن ماء السماء: (٢)

كأنى إذا نزلت على المعلى نزلت على البواذخ من شمام
فأملك العراق على المعلى بمقتدر ولا ملك الشام
أصد نشاط ذي القرنين حتى تولى عارض الملك الهمام
أقر حشا امرئ القيس بن حجر
بنو تميم مصاييح الظلام

وقد تحقق لامرئ القيس الأمن والأمان وهو نازل عند المعلى
التيمنى من جديلة طيء. واشتهر قومه بمصاييح الظلام لمقولة امرئ
القيس فيهم.

(١) محمد سملك. أمير الشعر ص ٤٠٠

(٢) الديوان ص ١٤٠، ١٤١

وله بيتان يمدح فيهما طريف بن مالك بالشهامة والكرم في أوقات
الشدة والعسرة .

قال (١) :

لنعم الفتى تعيش إلى ضوء ناره
طريف بن مال ليلة الجوع والحصر
إذا البازل الكوماء راحت عشية
تلاوذ من صوت الميسر بالشجر (٢)

ويروي أنه نزل على خالد بن أحصح النبهاني فلم يستطع حمايته حيث
أغار بنو جديلة على إبله فأنتهبوها، وذهب خالد لاسترجاعها على رواحل
امرئ القيس فأنزلوه عنها وأنتموها أيضا، فتحول امرئ القيس عنه، ونزل
على جارية بن مر بن حنبل أخى بنى ثعل، فأجاره وأكرمه، فقال يهجو
خالدا ويمدح جارية وبنى ثعل (٣) :

دع عنك نهباً صبيح في حجراته
ولكن حديثاً ما حديث الرواحل
كان دثاراً خلقت بلبونه
عقاب تنوفى لاعتقاب القواعل (٤)

(١) الديوان ص ١٤٢

(٢) البازل : المسنة من الإبل ، الكوماء : العظيمة السنام لسمها .
تلاوذ : تلاوذ بالشجر . الميسر : الذى يدعو للعلب فيقول : يس يس .

(٣) الديوان ص ٩٥ ، ٩٥ ، ٩٦ .

(٤) تنوفى : جبل . القواعل : الجبال الطوال .

تأعب باعث بدمية خالد
وأودى عصام في الخطوب الأوائيل (١)
وأعجبنى مشى الخوقة خالد
كشى أنان 'حلات' بالمناهل (٢)
أبت أجا أن تسل العام جارها
فن شاء فليتهض لها من مقاتل
تبيت لبونى بالقرية أمنا وأسرحها غبا بأكتاف حائل
بنو ثعل جيرانها وحمايتها
وتمنع من رماة سعد ومائل
تلاعب أولاد الوعول رباها
دوين السماء فى رموس المجادل
مكلملة خرا. ذات أمرة
لها حيك كأنها من وضائل (٣)

وهكذا توقفت طموحات الشاعر عند حزمه على أن ترعى وواحه
فى أمان فى ديار بنى ثعل، كما شعر هو أيضا بالآمان الذى انتقده فى ديار
خالد النيهانى .

(١) باعث : رجل من طبع. وهو الذى أثار على الزواجل .

(٢) الخوقة : الرجل القصير .

(٣) الأسرة : الطرايع فى النبيل، الخليلك : الطرايع أيضا .

عامساً - نحر وراح

ذكر محمد سملك أن ديوان امرى القيس لم يشتمل على ذكر النحر إلا في نحو عشرين بيتاً منها في أربعة عشر موضعاً ، جاء بعضها في بيت واحد وبعضها الآخر في بيتين أو ثلاثة على أكثر تقدير .

وهذا يدل على عدم عناية الشاعر بذكر النحر على عكس ما كان منه في غرامه بالنزول والصيد ، كما أنه لم يذكر لنا نسخة الديوان التي اعتمد عليها في هذا الإحصاء ، وإلا فقد ذكر ألياناً لم يقطع الرواة في نسبتها إلى الشاعر . كما أورد بعض الآيات التي ذكرت في نسخة واحدة من الديوان ، ولم يروها الأصمعي أو المفضل كالبيت الذي قاله امرؤ القيس عندما جاءه خبير متل أبيه وهو يدمون :

خليلي ما في اليوم مصحى لشارب
ولا في غد إذ ذاك بالكأس تشرب

فقد تفردت به نسخة السكري (١) .

وهكذا نجد أن الآيات التي ذكرها محمد سملك لشعر النحر عند امرى القيس غير مقطوع بصحة بعضها ، وحتى لو افترضنا الصحة في كل الآيات فإنها لا تشكل غرضاً شعرياً لدى واحد من أمراء الشعر في العصر القديم .

وعما أورده له من شعر النحر قوله في الفهيدة التي وصفت فيها رحلته إلى الروم : (٢)

(٢) الديوان ص ٦٠ .

(١) الديوان ص ٣٤٢ .

إذا نال منها نظرة ربيح قلبه
كما ذعرت كأس الصبوح المخمر
وقوله في آخر هذه القصيدة :
ونشرب حتى نحسب الخيل حولنا
نقاداً وحتى نحسب الجون أشقرا
وقوله في القصيدة التي مدح فيها سعد بن الضباب، وهما هاتئ بن
ممدود (١) :

أغادى الصبوح عند هر وفرتي
وليدا وهل أفنى شبابي غير هر
وعقب مؤلف (أمير الشعر في العصر القديم) على الأشعار التي قالها
امرؤ القيس ومنها الآيات السابقة فقال : «وتخرج من هذا على أن امرؤ
القيس لم يبلغ حد الجودة والبراعة في وصف الخمر ، وذكر مجالسها
وسقاتها ... إلخ وهو في هذا المجال لم يكن على مستوى أقرانه من الشعراء
من مثل الأعشى وعلقمة الفحل ، والأسود بن يعفر النهشلي وعدى بن زيد ،
وعمر بن كلثوم وغيرهم » (٢) .
ثم ذكر عدداً من الشواهد للشعراء السابقين ، وشرحها وعلق عليها ،
وتمنعت موازنته بين ما قالوا ، وبين ما قاله امرؤ القيس عن قرله :
« ومقارنة ما قاله امرؤ القيس بما قاله هؤلاء الشعراء نجد أنه كان
مقصراً عنهم ، وأن شعره في الخمر كان سطحي المحتوى ، ليس فيه تصوير
بارع . ولا خيال رائع ، ولا فن رائع ... » (٣) .

(١) الديوان ص ١١٠

(٢) أمير الشعر في العصر القديم ص ٤٠٣ ، ٤٠٤

(٣) المرجع السابق ص ٤٠٧

ولا نعتد أن هذا القدر من الآيات - الذى يمكن أن يتسرب الشك إلى نصفه - يشكل عرضاً مستقلاً أو فناً مستهدفاً لدى امرئ القيس ، وهى حيلة بسيطة قالمها عرضاً ، أو تقليداً ، أو تعبيراً عن بعض المواقف البسيطة فى حياته الصاخبة .

سادساً - غر وحامس

حرص المؤلف على أن يعامل امرأ القيس كملك أو أمير ، ولذا استبعد أن يقول مالا يقوله الملوك ، ولا أدرى كيف نسى أن هذا الملك - الذى قال عنه إنه ليس بحاجة إلى الفخر - قد لعبت به الأيام ، وعصفت به الخطوب وانقطع ما بينه وبين الملك ، ولم يبق له منه إلا الذكرى الملية بالدم والحراب . ثم استشهد لامرئ القيس بثلاثة نماذج قال : إنها كل ما احتواه ديوانه من الفخر ، وهى غرّه بالظفر بين أسد الذى قتلوا أباه (عشرة آيات) وغرّه على شهاب وعاصم اليربوعيين من بنى مالك (ثلاثة آيات) وغرّه بقوته وشجاعته فى جلاء الأعداء والغتلك بهم (خمسة أشطار من الشعر المسط)، وذكر هذه النماذج الثلاثة ، وشرحها مؤكداً فى هذا الغرض على أن الملوك ليسوا بحاجة إلى الفخر .

ومن خلال قراءة ديوان وجدنا أن امرئ القيس شعرا فى الفخر أكثر وأجود مما ذكره محمد سمك ، وهما نحن نذكر أمثلة لهذا اللون حتى نستخلص منها طبائع هذا الغرض ، قال ملخصاً مفاخره فى اللامية الثانية (١) :

كأنى لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خائخال

(١) الديوان ص ٣٥ ، ٣٦

(٢١ - القيس)

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل - الخيل كرى كرة بعد لإجفال
ولم أشهد الخيل المغيرة بالضحى على ديكل نهد الجواراة جوال
ويبدو أنه قال هذه الآيات بعد أن تغيرت أحواله ، فقد صار أمره
لدى وضع كانه لم يركب جوادا للصيد ، ولم يستمتع بالكواعب من النساء ،
ولم يشرب الخمر ، ولم يلحق بأصحابه فى الكر على الأعداء ، وكأنه لم يشهد
الخروب على الخيل المغيرة فى الضحى . وقال فى الرائية التى تحدث فيها عن
رحلته إلى قيصر (١) :

عليها قى لم تحمل الأرض مثله
أبر بميثاق وأوفى وأصبرا (٢)
هو المنزل الآلاف من جونا عط
بنى أسد سحرنا من الأرض أوعرا (٣)

وهو يفخر بنفسه ، ويتباهى بأخلاقه ، ويتوعد بنى أسد الذين قتلوا
آباه بأنه سوف يجبرهم على التحصن بالجبال ، ثم ختم هذه الرائية بخمسة
آيات فى الفخر ، وهى (٤) :

وكننا أناساً قبل غزوة قرمل ورنسا المجد أكبر أكبرا
وما جنت خيلى ولكن تذكرت
مرابطها من يربيعى وميسرا
ألا رب يوم صالح قد شهدته
بتأذى ذات التل من فوق طرطرا

(١) الديوان ص ٩٥ (٢) عليها : أى على الناقة
(٣) فاعط : حصن بأرض همدان ، جو : أرض باليمامة
(٤) الديوان ص ٧٠ ، ٧١

ولا مثل يوم في قذاران ظلته
كأني وأصحابي على قرن أعفرا
ونشرب حتى نحسب الخيل حولنا
نقادا وحتى نحسب الجون أشقرا

وهو يتعذر عما لحق بقومه من هزيمة في لقاءهم مع قريش (ملك النخيل)،
ويذكر أن ذلك لم يكن لجين منهم، ولكن لأن خيله تذكرت لقاءاتها
السابقة التي كان ينتصر فيها ويكفف بعدها على شرب الخمر حتى يغفل
عن التمييز بين الألوان.

ومن شعره الذي يصور فيه جانباً من صراعه مع أبيه في المرحلة
الأولى من عمره عندما شرب بهرزوج والده أو واحدة من سباياه، فطلق
أبوه يماً في عنقه حتى أدى منخريه، ورفع به إلى مولى له اسمه
(ربيعة)، وأمره أن يقتله في مكان بعيد، وذهب به المولى، وذبح
جؤذرا، وأتى بعينيه إلى والده حجر، فقرأ الندامة والفضب في وجهه،
وأخبره بأنه لم يقتله، وأنه في مكان كذا، وأطلق إليه ليحضره إلى أبيه
فسمعه يقول (١):

لا تسلمني يا ربيع لهذه وكنت أراي قبلها بك واثقا
مخالفة نوى أسير بقرية نوى عريات يشعن البوارقا
فإما تريثي اليوم في رأس شامق
فقد أغتدى أقود أجرد تامقا
وقد أذمر الوحش الرثاع بقفرة
وقد أجتلى بيض الحدود الرواقا
نواعم تجلو عن متون نقيه عبيدا ورطاً جاسدا وشقايقا

ويذكر لربيعه قائلاً : إنه إذا كان اليوم في رأس جبل فسوف يأتي يوم آخر يكون فيه فارساً مفواً يرهب الوحوش ، ويعجب النساء الجيلات المزينات بأنقرأ أنواع الثياب .

ولقد اخترت هذه النماذج بحسب ترتيب ورودها بالديوان ، ومؤكد في الوقت نفسه أنها ليست كل ما قاله امرؤ القيس في الفخر والحاسة فله غيرها الذي لم أذكره ، ولم يذكره محمد سمك في هذا الفصل من كتابه .

ونقر بأن ما قاله شاعرنا في الفخر يختلف عما قاله غيره من الشعراء الجاهليين في هذا الفن ، فإن فخره من الملون الشخصي الذي يتغنى فيه بنفسه وبأخلاقه ، وصفاته التي كان يراها من المفخر ، ولم يتجاوز بفنه حدود نفسه إلى رحاب القبيلة الأوسع . وتذكّر تماماً بأن شعره في الحاسة والفخر لا يصل إلى ما قاله أقرانه الجاهليون ، وأين هذه المظروعات والأجواء من القصائد عما قاله عمرو بن كلثوم مثلاً ؟ ولا نعتبر أن امرؤ القيس شاعر نثر بل هو شاعر قال في الفخر بعض الشعر الذي عبر فيه عن بعض طمرحاته ، وافترض به على خصومه وأعدائه .

وتؤكد على أن معظم ما روى لامرؤ القيس من شعر الفخر يرتبط بظروف غير عادية في حياته ، ولم يسكن في حال رضا نفس ، بل كان في حال إثارة أو غضب أو محنة أو تهديد أو تدم ، حتى إن ما نفسه إليه الأخبار في هذا الميدان ، وتدعى أنه قاله ، وهو في أول صباه يظهر أنه كان في وقت عصيب كذلك (١) .

(١) د/عل الجندى . تاريخ الأدب الجاهلي الجزء الثاني ص ١٥٣
مكتبة الأنجلو المصرية ط ٣ عام ١٩٦٩م

على أن شعره في هذا الغرض يكشف عن غفيرة باللهم والمتعة بمقاماته
مع النساء ، وبركوبه الخيل للصيد والحرب ، ثم بقتاله للأعداء ، وكرهه
عليهم ومنازلته لهم ، حتى يحقق النصر عليهم .

سابعاً — رثاء وعبرة

لامرئ القيس شعر قليل جداً في الرثاء الذي يختلف — قطعاً — مما
قاله في التحسر والالام والبكاء على الأجداد التليدة لقبيلة كندة ، وقد ذكر
محمد سملك أن ماروى عن الشاعر من الرثاء مرثيتان أولاهما — وهي
يبدتان — في رثاء الحارث بن حبيب السلمي ، أما الثانية فقد قالها في رثاء
عفر من قومه قتلهم المنذر في ديار بني مرين (١) :

قال :

ألا يا عين بكى لي شفيئاً وبكى لي الملوكة الذاهبة
حلوكاً من بني حجر بن عمرو يساقون العشية يفتلونها
فلو في يوم معركة أصيبوا ولكن في ديار بني مرين (٢)
فلم تفسل جراحهم بنسل ولكن بالدماء مرلين
تظل الطير عاكفة عليهم وتنزع الحواجب والعيونا

ولاشك في أن حزن الشاعر على هؤلاء الشبان واضح ومؤثر ، ذلك
لأنهم قتلوا في وقت كان الشاعر فيه أحوج إلى كل واحد من أبناء كندة ،
فهم إن قاتلهم لم يكن رجلاً بهم ، فلم يأخذهم كأمرئ مثلاً ، وإنما أراق
دماءهم في ديار قوم من بني عدى بن أوس بن مرين بالحيرة ، كما أنهم لم

(١) الديوان ص ٢٠٠

(٢) بنو مرين : قوم من أهل الحيرة بناحية الكوفة .

يقتلوا في معركة يدافعون فيها عن شرف كندة وكرامتها ولم تغسل
جراحهم بما يجب أن تغسل به بل رملت بالدماء ، وتركت لسباع الطير
تنتزع منها الحواجب والعيون .

ولو احتوى ديوان امرىء القيس من الرثاء ما يشبه هذه المقطوعة
لكان لنا معه كلام آخر يختلف عما ذكرناه في هذا الغرض الشعري .

أما إذا نظرنا لمناسى الحزن في شعره فسوف نجدها كثيرة جدا ،
ولا تقتصر على عدد محدود من القصائد والمقطوعات ، ذلك لأن شعره
يضح بالهموم والأحزان ، ويمتلئ باللوعة والنحس ، ولكن الحزن الشامل
— بأسبابه المختلفة — شئ والبسكاء على الميت وهو فن الرثاء شئ آخر .

وأخيرا

نسكت في هذا القدر من كتاب (أمير الشعر في العصر القديم) إذ
لا يتبقى فيه غير بعض القضايا الجزئية البسيطة ، وما قدمناه يكفي في
إعطاء صورة عن امرىء القيس من خلال هذا الكتاب .

وإذا كنا قد أطلعنا في الحديث عن الكتاب المذكور ، فإن ذلك
راجع لكثرة القضايا التي تعرض لها محمد سمك ، وتحدث عنها بإفاضة ،
كما أنه اعتمد كثيرا على النقل من غيره سواء من القدماء أو المحدثين بدون
تمحيص أو تحديد لما ينقل ، فوقع بذلك في إشكالية خطيرة سنحدث
عنها في موضع آخر من كتابنا ، وأطال في الموضوعات التي لا تصل
بشعر امرىء القيس اتصالا مباشرا فتضخم حجم الكتاب ، ولذا أجماع
حديثنا عنه في هذا الفصل مطولا وغير متناسب تناسباً فعليا مع قيمته
التي اهتزت كثيرا بسبب النقول الكثيرة من الكتب الأخرى ، التي
زادت في الطبعة الثانية . وقد سبق أن أكدنا على التسامح مع المؤلف ؛
لحدائثة سنة عند الشروع في تأليف هذا الكتاب .

الفصل الثاني

الشواخ (امرؤ القيس)

للدكتور محمد صبرى (السريونى) (١)

أخرج الدكتور محمد صبرى السريونى الجزء الأول من سلسلة كتبه عن الشواخ عام ١٩٤٤م، وكان امرؤ القيس أول هؤلاء الشواخ الذى تحدث

(١) ولد محمد صبرى فى حدود عام ١٨٩٠م بمدينة المريج، وانتقل إلى القاهرة، ومال إلى الأدب منذ طفولته، وحصل على البكالوريا عام ١٩١٣م وبدأ التأليف وهو طالب ثانوى بمدرسة الخديوية فألف (شعراء العصر) الجزء الأول عام ١٩١٠م بتقديم المنفلوطى، وألف الجزء الثانى بتقديم صدق الزهاوى عام ١٩١٢م، وعاد إلى مصر، وأخرج عدة دراسات أدبية منها كتاب عن البارودى وآخر عن إسماعيل صبرى، وذهب إلى فرنسا، وحصل على الدكتوراة من السربون عام ١٩٢٤م عن (نشأة الروح القومية فى مصر) ولقب بالجامعة التى تخرج منها فعرف بالسريونى، ورجع إلى مصر، وعمل مدرسا للتاريخ فى مدرسة المعلمين العليا ثم فى الجامعة المصرية عند افتتاحها، كما درس فى دارالعلوم، وأصدر مجموعة الشواخ، وجعل الجزء الأول منها عن امرؤ القيس، وطبعه فى عام ١٩٤٤م، وانتقل فى عدة وظائف، وألف العديد من الكتب ومنها : الشوقيات المجهولة، خليل مطران، وغيرها من المؤلفات المطبوعة والمقالات المخطوطة والإحاديث المسجلة. وقد توفى بالقاهرة فى يناير عام ١٩٧٨م راجع كتاب (صبرى السريونى سيرة تاريخية وصورته حياة) لأحمد حسين الطباوى .

عنه في هذا الكتاب الذي بين أيدينا ، وقد قسم دراسته عن هذا الشاعر إلى ستة فصول ، وبحث في كل فصل منها موضوعا مستقلا عما في الفصول الأخرى ، على أن أهمية الدراسة في هذه الموضوعات تختلف بين فصل وآخر ، خاصة وأنا قد تحدثنا عن امرئ القيس من خلال العديد من الكتب التي اختلفت في تناولها لهذا الشاعر .

ونحن نعرض للكتاب الذي معنا حسب فصوله الستة التي امتازت منها .

أولا — تمهيد

تحدث الدكتور محمد صبرى في هذا الفصل عن بعض المسائل المتصلة بامرئ القيس كوصف البيئة التي نشأ فيها ، فقال : « .. وهو ابن ملك ، ولوع بالصيد ، يزجر طير الخيال ، ويتمقب آرام البادية ونساءها ، بين أوديتها ونجادها ، وجبالها ووهادها ، بين مائها ومرعائها ، وصباها وجنوبها وريحها ومطرها ، وبروقها الخافقة وسيوفها اللامعة ، بين عرار نجدها وعزامها ، وشيح تهامتها وقيصومها ، بين كثبانها وأغوارها ، وسيولها وجداولها ، وظلال شجرها ولفحات هجيرها » (١)

ولقد أطنب محمد صبرى السريوني ، واستطرد في وصف الطبيعة الصحراوية بهذه الجمل القصيرة والمتعاطفة التي تذكرنا بأساليب القدماء في نظمهم وسبكهم لأجزاء الكلام .

وذكر أن القدماء أقرروا بأولية امرئ القيس ومعلقاته ، لكنهم لم يكشفوا عن حقيقة هذه الأولوية بطريقة شافية تروى النفوس ، كما اعتنى

(١) محمد صبرى : الصواغ (امرئ القيس من طريفة دار الكتب عام ١٩٤٤ م .

أكثرهم يبحث النواحي اللغوية ، والاستعارات الحسنة كهيئة خدر ، وقيد
الأوايد وغيرها .

وغاب عنهم البحث في نواحي الوصف والتصوير التي هي باب البلاغة
أي كأنهم عنوا بالجسم أو بالوشى الذى يغطيه ، وأهملوا الروح . وأعتقد
أن هذا الحكم على القدماء في درسم لشعر امرئ القيس يحتوى على مبالغة
كبيرة من الدكتور محمد صبرى . فإنهم لم يهتموا بدرس الوصف
والتصوير .

ولنأخذ كتاب الجوى كثال حيث جاءت فيه الاستعارة والوصف
والتشبيه مع التثليل لها لشعر امرئ القيس .

ولا أدري كيف فرق المؤلف بين التصوير الذى يقصده ، وبين
الاستعارة التى تحدث عنها القدماء ، ولو قال أن القدماء نظروا إلى شعر
امرئ القيس نظرة جزئية أو تناوله كل واحد من جانب مهملا للجوانب
الأخرى لكان لنا كلام آخر حول ما ذكره سلفا ، أما قوله بأن القدماء لم
يوفوا الناحية اللغوية في شعر امرئ القيس حقها ، فهو قول صحيح ، ذلك
لأنهم لم يحرصوا على جمع شتات الموضوع ، ولم ينوسعوا في بحثهم مثل
المحدثين تخصصا واستيعاما .

وذكر أن القدماء استوفوا الحديث عن -أب- ، وضرروا فيه على
كل وتر ، وتفنوا به على الأطلال والديار ، ثم امتدح الشعر الغنائى ، وارتقى
بامرئ القيس إلى قمة الفن ، فقال :- وقد اتفق رواة الشعر على أن أصفى
الشعر ماء ، وأعلاه نفا في جميع بلاد الله هو ذلك الشعر الغنائى القديم
الذى لم يمت به الأعمى في بدايتها أو بداوتها ، ولا شك أن الذى قال :-

قفنا بمك من ذكرى حبيب ومترل

والذى قال: (وليل كوج البحر) هو صنو هوميروس وشكسبير فى علو النفس وصفاء الخيال (١).

ونعتقد أن السريونى فى كلامه السابق — مع الإقرار به والتسليم بما جاء فيه — متأثر بما قرأه عن شعراء اللاتين، إذ يكاد النقاد المحدثون والقديما أيضا يجمعون على أن منزلة امرئ القيس بين الشعراء العرب كنزلة هوميروس بين شعراء الإغريق.

ثانياً — حياة الشاعر وشخصيته

لقد تقدم الحديث عن حياة الشاعر وشخصيته فى أكثر من موضع بمؤلفات القدماء والمحدثين. لكن ما الجديد الذى أضافه محمد صبرى السريونى لتصوير هذه الحياة وإبراز معالمها؟ إن هذا ما سوف نجيب عليه فى السطور التالية.

لقد أراد مؤلف الشوامخ أن يؤكد على الربط بين حياة امرئ القيس وشعره. وعلى أن شخصيته قد تجلت فى حياته وفنه الشعرى قال: «وإن الناظر إلى شعره يرى طابع شخصيته بوضوح، ولذلك ترى معلقته تقف بين المعلقات الأخرى ووقوف البناء المشمخر بين الأبنية الصغرى» (٢).

وتحدث عن شعر امرئ القيس فذكر أنه قد أضيف إليه شعر كثير منحول ركيز لا يتنظم مع نفس الشاعر وطريقته، وأورد نموذجاً لما أضيف إليه من هذا الشعر المنحول، وقال إنه من خير ما يروى لامرئ القيس لأنه أول ما يذكره بالطفولة وبلهنية العيش، وهذا النموذج هو أربعة أبيات من قصيدة أولها:

(٢) المرجع السابق ص ٩

(١) المرجع السابق ص ٨

لمن الدار تعفت 'منذ' حـ.ب' - لجنوب الفرد أقوت فالحـ.ب (١)

وهذه القصيدة من المنحول الثاني من نسخة الطوسي حسب ورودها في الديوان، وقيل عنها إنها لشاعر محضرم هو عمرو بن ميناك المرادي، وإذا كان القدماء قد وضعوا هذه القصيدة في دائرة الشعر المنحول، وشكوا في نسبتها لامرئ القيس، فما كان للسريوني أن يتحدث عنها أو أن يربط بينها وبين الشاعر الذي يترجم له.

وكانت هذه الآيات بمثابة تمهيد للحديث عن طفولة الشاعر التي كانت ناعمة رقيقة. ولأجل أن يتكشف عن رؤيته في بيان هذه الطفولة ذكر أن الأدب العربي منذ نشأته يتنازع عاملان: عامل الحقيقة وعامل الخيال وتحدث عن انتصار الثاني على الأول فقال: «وقد كان انتصار الثاني على الأول من أكبر الأسباب التي حالت دون بلوغه الدرجة التي كان خليقا بها، فإذا رثى شاعر رجلا جعل الجبال تميد جوعا والسماء تضطرب جونا... وإذا مدح إنسانا أو وصفه كان وصفه كله على سبيل المبالغة والتعميم بحيث يصبح كالثوب المأجور يصلح لكل أحد» (٢).

وقد كان المؤلف مصيبا عندما قال بانتصار الثاني على الأول، ولكنه لم يقض عايه تماما إذ تطالع كثيرا من القصائد الجاهلية التي انتزعت بالحقيقة، وصارت بذلك مميزة في ديوان الشعر الجاهلي.

وتحدث عن نسب امرئ القيس وتاريخه ونشأته في نجد، وكثرة تنقله منذ صغره إلى غير ذلك من التفاصيل التي لا داعي للحديث عنها. وختم الفصل بشرح وتمايق للقصيدة التي رثى بها الشاعر نفسه قبل موته.

(١) الديوان ص ٢٩٣

(٢) محمد صبري (الشوامخ) ص ١٢

في أنقره بعد عودته من القسطنطينية ، وقد تابع المؤلف السابقين له من القدماء والمحدثين في القول بأن هذه القصيدة قد ذكرت الخلة المسمومة التي يقال إن الشاعر قد لبسها فأسرع السم في يده وتساقط جلده مع أن القصيدة ليس فيها ما يؤكد هذه الخلة التي تحدثوا عنها ، وإنما يصف فيها داء قديما ألم به وعاد إليه ، وأولها (١) :

ألمأ على الريح القديم بعسسا
كأنني أفادى أو أكلم أخرسا
فلو أن أهل الدار فيها كعبنا
وجدت مقيلا عندهم ومعرسا

فلا تنكروني لأنني أناذاكم
ليالى حل الحى غولا فالعسا
وقد أورد محمد صبرى القصيدة بأياتها الأربعة عشر ، وذكر أنها تمثل حياة الشاعر وشخصيته أدق تمثيل بما في هذه الحياة من مرض وألم وفهم للنساء . ويعد تحليله لهذه القصيدة من أفضل ما كتبه في هذا الفصل عن بعض الجوانب من حياة امرئ القيس .

ثالثا - امرؤ القيس كما يراه المتقدمون

تحدث محمد صبرى عن نقد مناهج القدماء في الحكم على الشعر والشعراء ، إذ أن كتاباتهم مع وجازتها لا تعدى دائرة معينة من الفكر والنظر ، قال : « وإن كان لهم العذر في جهل طريقة النقد البنائية من بحث وتحليل فقد يؤخذ عليهم أنهم في تقدير الشعر عجزوا بالعرض لا بالجهر ، واهتموا بأمور ثانوية كالطلع والمعاني المخترعة والاستعارات والتشبيه .

(١) المرجع السابق ص ١٨ والديوان ص ١٠٥

وأمدح بيت وأحجى بيت قاله العرب، فوفقت عنايتهم عند هذا الزخرفة
والجزميات، وألصقتهم الاستعارة عن البيت أو عما وراءه من صورة فذة
تتوَّب فيها العاطفة والوجدان، والبيت أو الأبيات عن القصيدة ومحيط
شعر الشاعر، وقد تعمق البعض في التذد الصيق والفهم السقيم فغابت عنهم
روعة الشعر وبيانه (١).

إن هذا الحكم على القدماء لا يشمل كل ما كتبوه فلم بعض
المؤلفات التي خطت خطوات واسعة على درب النقد المنهجي الصحيح،
وذكر السريوني منها كتاب (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) للأمدى،
ولكنه انتقد منهجه في الموازنة فقال: «ولكن موازنته لم تتعد مقارنة
البيت بالبيت والمعنى بالمعنى وما إلى ذلك من سرقات فكان مثله مثل غيره
ينظر إلى السماء ويقع في حفرة» (٢).

وكنا قد ذكرنا في فصل سابق اعتماد الرافعي على ابن رشيق في الحديث
عن استعارات امرئ القيس وتشبيهاته، وهما نحن نذكر هنا أيضاً اعتماد
السريوني على كتاب العمدة لابن رشيق في الحديث عن رؤية القدماء
تجاه امرئ القيس.

كما استعان بما كتبه الرافعي للإبانة عن ناحي هذه الرؤية، ثم اعتمد
على رأيه في امرئ القيس كتعبير عن رؤية المحدثين.

وبسط ما قاله ابن رشيق حول شعر امرئ القيس من خلال ما كتب
في العمدة عن المخترع والبدیع والتثليل، والإيغال وهو ضرب من المبالغة
والتشبيهات والتتبع والاستعارة. وقد لاحظنا أن الأبيات المذكورة

(١) محمد صبرى (الشواخ) ج ١ ص ٢٣
(٢) المرجع السابق ص ٢٣

هنا هي نفس الآيات المذكورة في كتاب الرافعي (تاريخ آداب العرب)، كما نقل السريوني ما كتبه الرافعي عن بيتي امرئ القيس وما قاله عنهما ابن وكيع أن بها أول استعارة وقعت في الكلام.

كما عرض لما كتبه الرافعي عن شهرة امرئ القيس في العرب وبقائه شعره على ألسنتهم.

وتحدث السريوني عما كتبه فؤاد البستاني في كتابه (الروائع) عن قيمة شعر امرئ القيس. أما ما كتبه البستاني فهو خلاصة لكثير من أقوال القدماء التي جمع بينها ونظم شتاتها ومثل لها بالشعر، ثم أضاف إلى هذه الخلاصة رؤية عن الأحوال الاجتماعية للشاعر وعن الوحدة الاجتماعية في شعره (١).

وجاء السريوني فاقطع جزءاً مما كتبه البستاني وأكمل به الحديث عن رؤية المحدثين، وقال في نهاية هذا الفصل: «هذا يحمل آراء القدماء والمحدثين في امرئ القيس ذكرناها على علاقتها ليتبين بواسطتها القارئ نتيجة البحث الذي نسير عليه بعد أن رسمنا أسسه العامة في الفصلين الأولين» (٢).

رابعاً — التثليل والتصوير في شعر امرئ القيس

عمد السريوني في هذا القسم من كتابه إلى دراسة شعر امرئ القيس، وتحليله واستخلاص ملامح الشاعر منه، وعن أيضاً بما يبرز به أقرانه لشعر الطبيعة بعناصرها المتحركة والساكنة، ومهد لدراسته لشعر

(١) فؤاد البستاني: الروائع (الجزء السابع) ص ١٠٢ وما بعدها الطبعة (١١) ١٩٨٦ م دار المشرق بيروت.

(٢) محمد صبري. الشوايح ج ١ ص ٣٢

امرئ القيس بالحديث عن ملكة التمثيل وملكة البيان ، لانهما إذا
اجتمعا لشاعر كانت عظمته سرّاً من الأسرار تستعصى على الشرح
وال تفسير . قال : وذلك لأن التمثيل يصدر عن العقل الشعري ، وهو مؤلف
من الإدراك والحس ، وقوة الملاحظة ، وهذه القدرات الثلاث هي التي
تجعل من الإنسان الضائيل (الذي هو شبر في شبر) قوة فتحرك ، وتنوثر
في حدود (اللانهاية) ، فإذا أضيفت إلى ملكة التمثيل ملكة البيان ، وهما
صنوان لا يفترقان ظهرت في شعر الشاعر تلك القوة المغناطيسية الجذابة
التي قال عنها النبي ﷺ : (ولن من البيان لسحرا) ، (١) .

ورأى أن هذه القوة الجذابة الهائلة تتمثل في أشياء كثيرة كالسحر
الذي كان يحبه امرؤ القيس ، ويخرج فيه للصيد بين الهضاب
والوديان .

ولذا كان القدماء قد امتدحوا تشبيه الشاعر للحصان بقيد الأوابد
فإن مؤلف الشرائع قد امتدح روعة البيت الآتي ، وقوة جاذبيته بالشطر
الأول منه ، قال :

وقد أغتدى والطير في وكناتها

بمجرد قيد الأوابد هيسكل (٢)

كما امتدح كلة (السدفة) في قول امرئ القيس :

يفرد بالأسحار في كل سدفه تغرد ميتاح الندامى المطرب (٣)

(١) المرجع السابق ص ٣٣

(٢) المرجع السابق ص ٣٣ والديوان ص ١٩

(٣) الديوان ص ٤٥

وأعجب بالإيمان (مثل القدماء) في وصف شدة مرور الريح بشجر
الأثاب في قوله يصف الحصان :

إذا ما جرى شأوين وأبتل عطفه
تقول هزير الريح مرت بأثاب (١)

وقد كان امرؤ القيس واحداً من الشعراء الذين يرتكزون على أرض
الحقيقة ، وهو لا يصور هنا ، وإنما يمثل ، لجاء تمثيله كأروع تصوير ،
وهذا الميل إلى الحقيقة هو الذى حدا به إلى سبق كتاب الإفرنج في
مناح كثيرة ، ومنها هذا المنحى الذى نحن بصدده وهو وصف
الحقيقة (٢) .

وأكد المؤلف على هذا المنحى من الشاعر ، فذكر أنه كان يجرى
على سنة تحديد الأماكن وذكرها في العديد من الأبيات بالقصيدة
الواحدة ، وأن ذلك كان يكثر بصفة خاصة في مقدمات القصائد التى تبدأ
بالوقوف على الديار والبيضاء على الأطلال .

وتحدث عن انتشار شعره فذكر أن معظمه يجرى فيه ماء الحضر ،
وأن أسلوبه أرقى أساليب الجاهلية ، ولكنه لم يكشف عن تلك المشارب
التي يجرى فيها الحضر أو ماء الحضر كما قال .

وإذا كان امرؤ القيس قد صرح بأن ابن خدام هو أول من بكى
الديار حيث أوجد ينبوعاً جديداً من خيرة ينابيع الشعر الغنائى العربى

(١) الديوان ص ٤٩ . وأثاب : شجر يشبه الأثل يشتد صوت
الريح فيه .

(٢) انظر محمد صبرى (الشوايح) ج ١ ص ٣٧

فى صفاته وعذوبة مائه ، فإن امرأ القيس قد أخرج من ذلك الينبوع
بحراً مذ قال :

(قفائك من ذكرى حبيب ومنزل)

وقال عنها محمد صبرى : « وهى أكبر صيحة للحب فى وجه الغناء ،
وستبقى خالدة ما بقى للإنسان قلب يحقق ويتعلل بالذكر والمضى » (١).

وقال إن امرأ القيس مثل الطبيعة التى تلهمه وتمده ، وهكذا لمس محمد
صبرى الوتر الحساس ، وأبان عن سر الروعة فى فن شاعرنا الذى
لا ينضب له معين من أفانين التمثيل والتلون والتعبير ، حيث وسعت قريحته
كل ضروب التصوير وتنوعه ، فأجادها ، وسبق لإليها . وقد اختار له
قصيدة فى (وصف رحلة صيد) بدأها امرؤ القيس بوصف الفرس الذى
شبهه بعقاب لاح له ذئب فأنهدرت إليه ، وأخذ فى وصف هذه المطاردة
بأبلغ بيان ، وذكر محمد صبرى القصيدة كاملة ، وأولها كما جاءت فى
الشواخ (٢) :

قد أشهد القارة الشعواء تجملى
جرداء معروفة اللعين سرحوب

(١) المرجع السابق ص ٤٣

(٢) أولها فى الديوان :

الخبر ما طلعت شمس وما غربت

مطلب بتوامى الخيل مصوب

وهو البيت الأخير فى القصيدة حسب ورودها فى الشواخ . وانظر

الديوان بشرح السندوبى ص ٦٨

(٢٢ — القيس)

ولولا أن هذه القصيدة من المنحول الذي ضخته نسخة الطوسي فهي من المشكوك فيه لاذ قيل أنها لإبراهيم بن بشير الأنصاري لتحدث عما قاله السريوني عنها من تحايل وفقد ، لكنني أكتفي ببعض كلامه قال : « والواقع أن هذه الأبيات قطعة فنية من أعلى طراز تلعب بالنفس وتجاذبها مدأ وجزراً كأنها موسيقى تندفق من عليا الجنان » (١).

خامساً - الحب والتشبيب

تحدث السريوني عن الحب ، وبين أنه نوعان : عذري وهو المجرد من الشهوات الذي تتلشى فيه النفس صافية نقية ، وقد يسوس صاحبه إلى الموت ، كما حدث لبعض شعراء الحب عند العرب ، وجسدي وهو الحب الذي تخنط به الأغراض والشهوات ، حب الفاتك المتهاك على اللذات والاستمتاع بذوات الدلال .

وكان حب امرئ القيس من هذا النوع الثاني ، حيث قضى معظم حياته في اللهو والصيد والتسلل بالنساء والبكاء على الديار ، واستطرد محمد صبري السريوني في الحديث عن شعراء التشبيب بالمعنى الصحيح ، واختص منهم ذا الرمة فذكر قصة حبه لمى حيث قضى عشرين سنة يعيش في ديارها ، ويشيب بها ، وعاد للحديث عن امرئ القيس . فذكر أسماء عدد من النسوة اللاتي كان يتغزل بهن ، وبين اختلاف شراح الديوان في هذه الأسماء . ورأى أنها كلها أو جلها أسماء مستعارة ، أو ألقاب مصطنعة لصراحه اللاتي سعد معهن ساعة من الزمان .

وتحدث عن شعر التشبيب الذي قاله امرؤ القيس في شبابه ، ورأى أن جزءاً كبيراً منه قد فقد بسبب اعتراض أبيه على تشبيهه بفتيات بني أسد ،

(١) محمد صبري . الشواخ ج ١ ص ٨٠

وقال بصلاحيه شعره للفناء لما فيه من حديث عن الحب والذكريات ، قال : « ولولا فرتنا وهند لما عمر شباب امرئ القيس بالحب والذكريات، ولما أصبح شعره ذلك الشعر العالى الذى يتغنى به الركيان ، ويطرب له المحزون فى غربته ، وذو السكبد الحسرى. وهو أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى لذكر الحبيب والمazel » (١) .

ويلاحظ أن الجملة الأخيرة من الفقرة السابقة مما تناقله القدماء ، وأخذها عنهم السريونى، وضمتها إلى كتابه مع سبق اعتراضه على أمثال هذه العبارات الجاهزة المحفوظة التى لا تتوافق مع طريقة النقد البنائية التى اتخذها منهجاً لدراسة الشعر .

وقد تحدث فى الفصل السابق عن واقعية امرئ القيس وتحديد له للأمكنة ، وهو — هنا — يعرض لمرصه على تحديد الأزمنة والذى تجلى فى الشعر القصص بالمعلقة، واختار منها ما تحدث الشاعر فيه عن يوم دارة جلجل . وهو اليوم الذى عقر فيه مطيته للندارى ، وحكى قصة دخول امرئ القيس الحدر على عذبة ، واستطرد — بعد أن أورد الشعر — فى ذكر قصة هذا اليوم كاحكامه الفرزدق .

وتحدث عن القالب القصص فى شعره فقال : « على أن أسلوب امرئ القيس فى المعاقبة كلها ، وفى كثير من شعره قد صيغ فى قالب قصصى يعتمد فيه ذكر وقائمه الفرامية وسرد تفصيلات قد تكون جافية ، ولكنها من ناحية تصوير الحقيقة تمتشى مع ما يكتبه الروائيون الإفرنج اليوم » (٢) .

(١) المرجع السابق ص ٨٧

(٢) المرجع السابق ص ٨٩

ولكن هذا الأسلوب لم يكن ديدن الشاعر في كل مخاطبته للنساء، فله أساليب متنوعة عنده وعند شعراء الحب من العرب رغماً من خشونة العيش وعدم توفر الحضارة

واستطرد في حديثه عن مخاطبة النساء إلى أسلوب عمر بن أبي ربيعة في تعامله معهن . وعرض القصيدة له قال لأنها تشبه الكتاب الذي ترسله بالبريد اليوم ، حيث جعل في آخر القصيدة بيتاً عاج فيه لحظة من تلك اللحظات الحاسمة في الحب ، « لحظة الفتور في العلاقات وإسراف المرأة في صدودها ، وازدياد قلب المحب وعناقه من ناحية أخرى ، لحظة أهد من القيراط ، وأدق من الشعرة فاصلة بين القطيعة والحب » (١) .

وأورد أبيات عمر التي تشككت منها رسالته وفيها هذا البيت الذي يعالج اللحظة الحاسمة في الحب . وأول الرسالة (٢) :

جرت قلبي فقلت يا قلب مهلاً
لا تبدل بالحلم والعزم جهلاً

وهذا هو البيت الأخير :

إن في الضرم راحة من عنا .
ونعم في الجواب أحسن من لا

ولاشك في أن أسلوب ابن أبي ربيعة يختلف كثيراً عن الشعراء الجاهليين من حيث الرقة والتحضّر والنعمومة التي تريح المرأة وتسبّ قلوب النساء .

(١) المرجع السابق ص ٩٠

(٢) المرجع الأخير ص ٩٠

وتعرض | محمد صبرى لبحث علاج الحب ونسيانه ، فذكر أن بعض
الغريبين قد اهتموا إلى معالجة ذلك بالسفر والاعتراق .

وقال إن امرأ القيس اهتمت إلى هذا الحل من خلال ممارستها للحب
والأسفار والتنقل ، ولتنظر إلى قوله :

فدع ذا وسل المم عنك بحجرة
ذمول إذا صام النهار وهجرا

وقوله :

فمزيت نفس حين بانوا بحجرة
أمون كبتار اليهودى خيفق

وقد لاحظنا حرص السريونى على موازنة امرىء القيس بشعراء
العرب ، ومقارنته بأدباء الإفرج ، وتيسر له ذلك بفضل اطلاعه الواسع
ودأبه ونشاطه ، وحرصه على الاستدلال لكل مايقول .

وعاد المؤلف للحديث عن مذهب الشاعر فى فن القول مع بيان توجهه
نحو الواقعية عبر الأزمنة والأمكنة ، قال : « ومعظم شعر امرىء القيس
القول عبارة عن رواية (وقائمه) الغرامية فى الطريق إلى الخدر ، وهو
ولأن كان يسهب كثيراً فى وصف الناحية المادية من الحب ومحاسن جسم
المرأة (وقد نعت لنوم ثيابها) فإنه ينظر أحياناً إلى المرأة نظرة
لجساعيل صبرى (باشا) .

حين يقول (١) :

واكشفي عن جسمك بين الللا تكوين سكان السماء

(١) المرجع السابق ص ٩٢ ، ٩٣ .

أفت روحانية ، لاتدعى أن هذا الجسم من طين وماء
وهكذا وازن بين رؤية امرئ القيس للمرأة ورؤية الشاعر إسما عيل
صبرى من ناحية النظر إلى المرأة بمنظور روحاني شفاف ، ودلل على ذلك
بقول شاعرنا :

يضى الفراش وجها لضجيجها
كصباح زيت فى تناديل ذباب

وقوله :

تضى الظلام بالمشا كأنها منارة عسى راهب متبل
وتضجى فتيت المسك فوق فراشها
تقوم الضجى لم تنتطق عن تفضل

واختار له من شعر الحب والتشبيب ما يكشف عن متابعته للمرأة ،
وهى تملأ بصوتها وحركتها النار ، ثم وهى تبكى . وانتق له بعض ما قاله
عن أخلاق المرأة بصفة عامة .

مثل (١) :

أراهن لا يحبين من قلب ماله
ولا من رأين الشيب فيه وقوسا

وذكر له ما يكشف عن لين المرأة بعد إبانها ، وانتيار مقاومتها بعد
تمتعا ، وما يكشف عن نظرتها الساحرة ، وأورد فى كتابه أياتا لأمريء
القيس يصف فيها موت الحب فى فؤاده ، وأنه سلاها ، فأصبحت لا تحرك
قلبه كقوله (٢) :

(١) المرجع السابق ص ٩٤

(٢) المرجع السابق ص ٩٥

وتبرجت لتروعا فوجدت نفسي لم تزع

وعاد صاحب الشواخ للوازنة بين امرى القيس وعمر بن أبي ربيعة في شعر الغزل، وقال بعدم إمكانية التمييز بين أسلوبيهما في بعض الشعر إلا أن ابن ربيعة قد تأثر بأسلوب امرى القيس القصصى في مخاطبة النساء، وأورد أمثلة متعددة لابن ربيعة ليدل بها على ما قال.

وقدم محمد صبرى السربوى عددا من الآيات التى ذكرها مثنى، وفردادى ليستشهد بها على بعض الجوانب المضيئة من شعر امرى القيس الغزلى، فذكر له قوله (١):

تنورتها من أذرعات وأهلها يثرب أدنى دارها نظر عال
وعقب على هذا البيت بقوله: « وهذا أروع ما قيل في تصوير
إشراق المرأة في قلب المحب النائم على بعد الشقة بينهما، (٢) ثم ذكر بعض
الغاذق الشعرية التى صور الشاعر فيها بلوغه إلى مضجع الحبيبة، حتى
لا يفزع الأهل، ومضاجعته للمرأة، ولطوه الشبيه للهو الحكيم الذى يعلم
أن الحيلة كائنة في الرياض، وأن عمر الورد قصير.

ولقد أجمع السربوى رأيه في غزل امرى القيس فقال: « وبالجملة لم
يكن امرؤ القيس في حياته وشعره رجل مقامرات نسائية ولهو ولعب
لحسب بل كان رجل عاطفة ووجدان، فلا يجوز أن يشعنا استهتاره
في شبابه » (٣).

أغادى الصبور عند هر وفرتنا
وليدا وهل أفنى شبابي غير من
عن أثر تلك الذكريات الشائعة في حياة الشاعر ...

(١) المرجع السابق ص ٩٦ (٢) المرجع السابق ص ٩٦

(٣) المرجع السابق ص ٩٦

ولمنا قد لاحظنا أسلوب المؤلف في البحث والاستقصاء ، وحرصه على الموازنة والمقارنة والشرح ، والاستشهاد بالشعر ، وإن عيب عليه كثرة الاستطراد ، وعدم استيفاء كل جزئية من جزئيات الموضوع حقها ؛ لأنصافه يعض المسائل التي يستطرد إليها .

سادساً - الصناعة والبيان

ذكر الدكتور محمد صبري أن امرأ القيس قد امتاز بقوة الفطرة والطبع ، وساعد على ذلك اتصال عروقه بشرى نجد وأرض اليمن ، وأفاض في الحديث عن هاتين المنطقتين ومن سكنهما من القبائل العربية ، كطيء وبكر وتغلب ، وعنزة وأسد ، ودوزان وسام وغطفان وعبس وذيبيان ، ونجم ، حيث اتخذت هذه القبائل من نجد وأطرافها سكناً ومجلاً لإقامتها . كما تحدث عن اليمن وحضارتها القديمة التي ذكرها القرآن الكريم ، وقال إن امرأ القيس كان نجدياً وميمناً وحضرياً وبدوياً ، : « وهو أول شاعر جاهلي ظهر أثر الحضارة في أسلوبه من ناحية اللفظ وجمال التعبير ، وقوة النحت والرصف والتنظيم ، وقل أن تجد له لفظة نادرة أو نسجاً مقلعاً » (١) وأعقب ذلك بالحديث عن أثر البداوة في شعره ، فقال : « ولعل أكبر أثر للبداوة في شعره هو فقدان الوحدة في القصيدة وعدم بناء الموضوع بناءً محكمًا ، كما يبينه الشعراء المتأخرون من الأديمة خاصة ؛ وذلك راجع إلى طبيعة العرب التي لا تألف البناء وإلى نزعة الفردية الاستقلالية » (٢) . وذكر عدة نماذج من شعر امرئ القيس لهذه النزعة الفردية التي كانت تثبت بالبيت وبالبيتين إلى أعلى قم الشعر ، ومن هذه الأبيات التي أورد طائفة منها قوله :

ألا إنما الدهر ليال وأعصر وليس على شيء قويم بمستمر

(١) المرجع السابق ص ١٠٢ (٢) المرجع السابق ص ١٠٢

وقوله :

وقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب
وذكر أمثلة أخرى للتدليل بها على أن أسلوبه أقرب أساليب العرب
إلى القرآن وبيانه ، ولقد عرض محمد صالح سمك لهذه القضية في كتابه مع
أنتا لم تحدث عنها . وهذا نحن نذكر بعض الأمثلة التي استدلت بها محمد
صبري منها قول امرئ القيس (١) :
أبت أجأ أن تسم العام جارها
فمن شاء فلينهض لها من مقاتل
أى أبت القبيلة التي تحمل أجأ ، قال تعالى : هو أسأل القرية التي كنا
فيها ، يعنى أهل القرية .

وقوله :

وتبرجت لتروعا فوجدت نفسى لم ترع
وقال تعالى : و غير متبرجات بزينة ، والتبرج هو أن تبتدى المرأة
زيتها .
وقول امرئ القيس :
وأضحى يسح الماء حول كيفية
يكب على الأذقان دوح الكنهل
وقال تعالى : ويخرون إلى الأذقان سجدا ، .

وأكد على الروعة والسحر في شعر امرئ القيس اللذين يحسان
ويبدوان ، ولكن لا يمكن الاهتمام إلى أسرارهما ؛ لأنهما تابعان من الطبع

والصنعة ، ولذلك تبدو في شعره البساطة والسهولة والروعة ، ويعرف هذا الأسلوب في العصر الحديث بالسهل الممتنع . وذكر لذلك عدة أمثلة ختمها بالبيتين اللذين انتج بهما الشاعر معلقته . وامتدح العطف بالفاء في قوله (خومل) ، و(فتوضح) ، وضم رواية الأصمعي التي أحل فيها الواو محل الفاء التي فسرها بعض اللغويين بأنها بمعنى إلى ، وعقب على ذلك بقوله : « والدوق البياني يقتضى في هذا المقام الفاء لا الواو ، الفاء للتعقيب الشكلي الموسيقي لأنها كالفاصل بين نغمتين خاصة ، أو بين أسماء أمكنة ، يطيب للشاعر أن يقف على كل منها إشادة بذكرها لما لها من روعة وأثر» (١) .

ولما كان امرؤ القيس راعياً في فنه رائداً في صناعته ، وجدنا أكثر الجاهليين ومن جاء بعدهم قد سطوا على معانيه وألفاظه ، وأدخلوا بعض أبياته وأشطره كاملة في شعرهم ، وسبق أن ذكرنا بيت طرفه الذي أخذه كله عن بيت لامرئ القيس لإلاكله واحدة .

وذكر محمد صبري أن معظم هذه السرقات لم تكن سطوا متعمداً : « بل كانت مظهراً من مظاهر التبعية والخضوع لتلك الشخصية العبقريّة الفذة المجددة التي تطبع الجيل بطابعها ، وتجذب المتطلعين إليها جذباً ، بما لها من سلطان وهيبة وقوة ساحرة تمنولها النفوس» (٢) وقد كانت هذه الكلمة آخر مأسطره مؤلف الكتاب الذي معنا عن امرئ القيس كأول الشواخ في تاريخ الشعر العربي .

ولعلنا قد لاحظنا حرص السربوتي على الاستيفاء والتحليل ، وساقه ذلك إلى كثرة الاستطرادات سواء بشرح الكلمات ، أو بالتعليق على الأبيات أو بالحديث عن شعراء آخرين وهو يتحدث عن امرئ القيس . كما أبرز قدرة الشاعر على تصوير الحيوان وحياته وطباعه من خلال منهجه

(١) المرجع السابق ص ١١٠ (٢) المرجع السابق ص ١١١

في التأليف الذي اختطه لنفسه ، وسبق به الكثيرين ، وهو المنهج المسمى بالبنائية ، وإن لم يستطع أن يوضح معاملة ، ويرسم صورته ودور يتحدث عن شعر امرئ القيس .

وتخلص مما كان يردده القدماء كقولهم : هذا أشعر بيت ، وهذا أمدح بيت إلى غير ذلك من الأقوال المحفوظة ، وإن لم يتخل عنها تماماً .

ويؤخذ عليه أنه غرض الطرف عن النحل والشك اللذين وجبا إلى الشعر الجاهلي ، وإلى شعر امرئ القيس بخاصة ، إذ استشهد ببعض النماذج التي ارتاب فيها بعض القدماء ، ورفضها أكثر المحققين .

وبعد كتاب الشواخ (امروء القيس) والذي تحدثنا عنه في هذا الفصل نموذجاً متفرداً في الكتابة عن الشعر والترجمة للرجال .

الفصل الخامس

امروء القيس حياته وشعره

للدكتور الطاهر أحمد مكي (١)

عندما نتصفح فهرس الموضوعات لكتاب الدكتور الطاهر مكي عن امرؤ القيس نجد أن هذه الموضوعات ليست غريبة علينا ، فقد عرضنا لها ، وتحدثنا عنها ، ولذلك سوف نمر سريعاً على ما يتصل منها بحياة الشاعر

(١) الطاهر أحمد مكي واحد من الأدباء والنقاد المحدثين الذين ظهرُوا من خلال الجامعة التي عملوا بها ، واشتهروا بالعديد من المؤلفات العلمية الجادة ، والبحوث المترجمة النافعة . وقد ولد بين عرب المطاعنة في مركز إسنا بمحافظة قنا عام ١٩٢٤ م . والتحق بالأزهر ، وتخرج من كلية دار العلوم عام ١٩٥٢ م . وحصل على دكتوراة الدولة من كلية الآداب في مدريد عام ١٩٦١ م . وعين مدرساً في دار العلوم عام ١٩٦٣ م ، وصار يترقى بها إلى أن أصبح وكيلها للدراسات العليا والبحوث عام ١٩٨١ م ، وهو المنصب الذي يشغله حتى الآن . وقد حاضر في العديد من الجامعات العربية والأجنبية ، وأخرج الكثير من الكتب المطبوعة والمحقة والمترجمة منها : دراسة في مصادر الأدب ، والشعر العربي المعاصر ، ودراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، وطوق الحمامة لابن حزم (تحقيق) ، والحضارة العربية في أسبانيا للسنشرك الفرنسي ليقي بروفنسال (ترجمة) .

ومن مؤلفاته : كتابه الذي نتحدث عنه في هذا الفصل وهو (امرؤ القيس حياته وشعره) الذي طبع لأول مرة عام ١٩٦٨ م .

وجذوره الأولى ، إذ أنها لا تختلف كثيراً من كتاب لآخر ، مادامت الروايات قريبة ، أو متوافقة في تناول هذه الحياة ، كما أن الحقائق التاريخية يمكن التماسها من مصادرها الأصلية . أما القضايا التي تتصل بالشعر فهي التي سنقف عندها ، ونحدث عنها ؛ لأن النظرة إليها تختلف من كتاب لآخر ، أما إذا توافقت الرؤية في بعض هذه الموضوعات مع الكتب الأخرى التي تحدثنا عنها ، فيكفي أن نكشف عن هذا التوافق ، وندل عليه ؛ ولذلك سوف نقسم الكلام عن هذا الكتاب إلى قسمين : القسم الأول وهو الذي نتناول فيه الحديث عن الموضوعات التي لا تتصل بشعر امرئ القيس اتصالاً مباشراً كنشأة الشاعر ، وديوان شعره ، وسابقه من الشعراء وغيره ، أما القسم الثاني فتتناول فيه الحديث عن الموضوعات التي تحدثت عن شعره تحليلاً ونقداً كوصف الإطلال والطبيعة وشعر المرأة وغيرها .

أولاً — موضوعات سبق بحثها

يلاحظ أن الكتاب الذي معناه يتعرض لدراسة امرئ القيس من خلال حياته وشعره ولذا يعد إغفال الكلام عن حياة الشاعر ونشأته ورحلته إلى قيصر ، وديوانه ظلماً كبيراً لهذا الكتاب ، ولكن حديثنا عنها يعد تكراراً في كتابنا ، وإطالة كبيرة لا تفيد بحثنا شيئاً سوى إحصاف الدكتور مكي بالحديث التام عن كتابه ، وحق نخرج من هذه الإشكالية نذكر هنا الرؤية التي تميز بها هذا الكتاب — إذا وجدت — حول الموضوعات التي سبق بحثها أو تكرر الحديث عنها .

١ — تعد مقدمة كل كتاب مفتاحاً للدخول فيه ، ولذلك يعتمد كثير من القراء إلى مطالعة مقدمات الكتب والحكم عليها من خلال مأسطرها كل مؤلف في مقدمته ، ولذا ترانى قد تحدثت عن مقدمة كل كتاب عرفت به

في الفصول السابقة . وجئت إلى كتاب الدكتور مكي ، فقرأت مقدمة للطبعة الأولى ، ومقدمة الطبعة الثانية ، ولما كانت هذه أسبق من تلك في ترتيب الكتاب فقد بدأت بها ، وأخذني العجب لفقرة جاءت بها قال المؤلف فيها : « ولست أعرف دراسة كاملة لامرئ القيس الشاعر ، حياة وإنتاجاً ، غير قصة لمحمد فريد أبي حديد ، جمع فيها ما صيغ حول الشاعر من أساطير مسلية وممتعة ، دون أن يتجاوزها إلى الدرس والتحليل ، وإلا دراسة متواضعة قام بها الأستاذ محمد صالح سملك ، أيام أن كان طالباً منذ قريب من نصف قرن ، وإلا بضعة مقالات مبتسرة متناثرة في عدد من المجلات ، أو صفحات محدودة ، مبثوثة في الكتب التي تعرض للأدب الجاهلي بعامة » (١) .

وأقر أنه لا يروق لي — وربما لا يروق للكثيرين أيضاً — ذلك المنهج الذي يسلكه بعض المؤلفين عندما يبدون في مقدمات كتبهم «يهوون من شأن الدراسات والمؤلفات التي أعدت في الموضوع الذي يكتبون عنه ، أو تناولت جانباً من جوانبه بالدراسة والبحث .

وإذا رجعنا إلى الفقرة السابقة التي نقاتها من مقدمة كتاب الدكتور مكي لوجدنا فيها تهويماً كبيراً لما كتب عن امرئ القيس وإغفالاً لكثير من الكتب والدراسات التي أعدت عن هذا الشاعر ، حيث قال : إنه لا يعرف دراسة كاملة لامرئ القيس الشاعر حياة وإنتاجاً غير قصة فريد أبي حديد جمع فيها ما صيغ حول الشاعر من أساطير مسلية وممتعة ، دون أن يتجاوزها إلى الدرس والتحليل ، وأؤكد أن بعض هذا الكلام غير

(١) د / الطاهر أحمد مكي . امرئ القيس حياته وشعره ص ٨ . دار المعارف الطبعة الخامسة ١٩٨٥ م ..

صحیح فلم یجمع أبو حریذ أساطیر حول الشاعر ، ویسج منها ما یسلی ویمتع
كما قال الطاهر مکی .

ولقد قرأت کتاب محمد فرید أبی حریذ (الملک الضلیل) ووجدت أن
الروایات التي اعتمد عليها موجودة في كتب الأدب والتاریخ ، وأنه
قد تحدث عن امری القیس من واقع شعره إذ كان یستشهد في كل فصل
بما قاله من شعر حول أحداث حیاته ، ولكن الكتاب الذی صیغ في شكل
روایة تاریخیة لا یتوقع فیه وجود الدرس والتحلیل . كما أعتقد أن کتاب
محمد صالح سمک لا یمکن أن یوصف بأنه دراسة متواضعة إذ یعد من أوسع
الكتب التي ألقت عن امری القیس مع تقدنا له واعتراضنا على بعض
فصوله ، وليس عیباً یلام عابه مؤلفه أن یتنبه وكان طالباً ، ولو أن
الكتاب دراسة متواضعة حقاً بما تعنيه هذه الكلمة في عالم التألیف لما
أشاد به العلامة مصطفى صادق الرافعی وتحدث عنه وقدمه إلى القراء (١) .

واین الكتب الأخری التي ألقت عن امری القیس في مصر وعار ج
مصر ؟ واین کتاب (امرؤ القیس) للدكتور محمد صبری السربوی الذی
طبع عام ١٩٤٤ ؟ واین کتاب (امرؤ القیس) لسلم الجندی الذی
طبع في دمشق عام ١٩٣٦ م ؟ واین الكتب الأخری التي ألقت عن هذا
الشاعر في القاهرة وبيروت والقدس وتونس قبل أن یؤلف الدكتور
مکی کتابه ؟

ولكن لیس معنى كثرة الكتابات أن توقوف التألیف عن هذا
الشاعر ، فالمكتبة العربیة ترحب بكل بحث أو کتاب یضيف بعض الرؤى
الجديدة التي لم یعتن بها السابقون .

(١) تتوقف النظرة هنا على الطبعة الأولى من کتاب محمد سمک ، والتي
خلت من السطور الذی حدث في الطبعة الثانية ، كما سنشير في آخر هذا
الفصل .

ونأتى إلى مقدمة الطبعة الأولى لتستوفى عبارة أخرى نقلها إلى كتابنا ثم نعلق عليها بما تستحق من نقد وتمحيص ، قال : « ورغبة منى في دفع جانب من التواكل العقل بين شباب الدراسين وعدد من الباحثين ، حين يقتنعون بالدراسات الحديثة ينقلون عنها النصوص القديمة ، بالجزء والصفحة ، دون أن يستخدموا المصادر الأصلية نفسها ، أثرت — كبداً عام — ألا أضفي الكتاب المظان التي أعدت عليها تفصيلاً ، واكتفيت بثبت عام للمصادر والمراجع في آخر الكتاب ، (١) .

عندما تصفحت كتاب الدكتور مكي رأيت أنه لا يذكر المصادر إلا نادراً ، كما جاء في عدد من الصفحات (٢) . ولأن أتمسك كيف يذكر بعض المراجع ، ويترك البعض ، وهل للمراجع التي ذكرها ميزة على التي لم يذكرها ، بل إن ذلك قد يدفع البعض لإساءة الظن بالدكتور مكي ، فيقرر أنه قد ذكر المراجع التي عرفها واهتدى إليها ، وأغفل ذكر المراجع التي ضل عنها ، ولم يصل إليها ، ولن نقول بذلك لأننا به فهو باحث ورائد ومؤلف كبير ، وأكاديمي جاد ، لكن يبقى لإهماله لذكر المراجع مشكلة بدون حل ، فإذا تفاوضنا عن حكاية ذكره لبعض المراجع البسيطة في عدد قليل من الصفحات ، وتجسد أمامنا المبدأ العام الذي قال إنه يأخذ به في عدم ذكره للمراجع فكيف — إذن — سنفرق بين كلامه وكلام غيره وربما يقال بعلامة التنصيص . فإذا لو سقطت عند الطبع ، وهذا يحدث كثيراً ؟ وإذا افترضنا الدقة التامة بما فيها عدم سقوط علامات التنصيص ، فكيف يتسنى لنا معرفة الدقة في النقل وعدمها ؟ ماذا يحدث لو جاء واحد من الباحثين ، وأهمل المراجع ، وغير في النص المنقول بما يخدم وجهة نظره ؟ كل ذلك بالطبع وارد وإهمال المراجع خطأ علمي كبير ، حتى

(١) المرجع السابق ص ١٥

(٢) أنظر الصفحات (٢٨) ، (١٠٥) ، (١٠٦) ، (١٠٧) ، (١١٥) وغيرها

لو كان ذلك مقصودا — أو كبداً اقتنع المؤلف به — ولذ واقع هذا من بعض المؤلفين فلا يصح من أستاذ جامعي يشرف على الرسائل العلمية والأطروحات الجامعية التي يحاسب فيها الباحث على كل فقرة ذكرها بدون أن ينسبها إلى مصدرها .

ولن يحرق واحد من الباحثين على إغفال الرجوع بحجة أن مؤلف كتاب (امرؤ القيس — حياته وشعره) قد أهمل ذكر المصادر والمراجع . ولا أعتقد أن معالجة التواكل العلمي بين شباب الدارسين الذي هو خطأ علمي كبير يتكون باقتراف خطأ آخر وهو عدم ذكر المراجع والصادر .

وأود أن يتدارك الدكتور الطاهر مكي هذا الخطأ في الطبعة القادمة لكتابه ، ويسجل مصادره ، ومراجعته كاملة في الهامش ، أو في آخر كل فصل ، أو بالطريقة التي تروق له خاصة وأن مبدأه الذي آمن به لم يغير شيئا بين شباب الدارسين الذين يمانون من الكسل العلمي أو التواكل العقلي كما قال .

تحدث الدكتور مكي في أول كتابه عن عرب الجنوب ، وبدأ ذلك من خلال (استعراض علمي) بالحديث عن البعثة الدانمركية التي أوفدها مالك الدانمرك إلى اليمن عام ١٧٦١ م وذكر أسماء أعضائها بما فيهم الخادم السويدي المرافق ١ وتابع وفاة هؤلاء الأعضاء واحدا بعد الآخر حيث لم يبق منهم سوى شخص واحد قام بجمع قدر كبير من المعلومات في جزئين ، صدر الثاني بعد وفاته حيث مهدت هذه البعثة للعالم أن يعرف ما تضمه أرض اليمن من نقوش مهمة لتاريخ بلاد العرب .

ثم تابع بعد ذلك البعثات التي أوفدت من بلدان عديدة إلى جنوب الجزيرة العربية ، كما تحدث عن الدول التي قامت بهذه المنطقة ، والمهجرات (٢٣ — القيس)

التي خرجت منها أو جاءت إليها ، وختم كلمته عن هؤلاء العرب الجنوبيين
بنص لعياض السقاد من كتابه (اللغة الشاعرة) يؤكد به انتقال قوم من اليمن
إلى ما وراءها .

ثم عقد فصلا للحديث عن اللغة العربية في الشمال والجنوب ، وتابع
تطورها وتشعبها إلى لهجات عدة ، وذوبان هذه اللهجات في بعضها
واختلاف لغة الجنوب عن لغة الشمال لسكن هذا الاختلاف لم يكن
بالدرجة التي يصعب معها تحقيق التفاهم بين الناطقين بلغة الشمال والناطقين
بلغة الجنوب .

ولكن الدكتور الطاهر تجاهل مقولة لآبي عمرو بن العلاء — سبق
أن عرضنا لها — والتي ذكر فيها اختلاف لغة اليمن عن لغة الشمال .

كما تحدث عن قبيلة كندة وهي بطن من كهلان وأرخ لتزوجها إلى قلب
الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي . وكانت
تسكن جبال اليمن الشرقية بما يلي حضرموت حيث استقرت في أرض لبني
جنادة بن معد في نجد ، واتخذت (بطن عاقل) عاصمة لهم وتحدث عن اتساع
نفوذ هذه القبيلة وتكوين مملكة لها ، وتملك حبيب بن عمرو (آكل المرار)
عليها . وتكلم عن أبنائه وأحفاده حتى وصل إلى الحديث عن مقتل حبيب
ابن الحارث (والد امرئ القيس الشاعر) والذي انتهى بمقتله نفوذ كندة
التي عاشت في منطقة نجد بوسط الجزيرة العربية .

وتكلم عن نسب امرئ القيس وأسرته ومولده ، وذكر له بيتا من الشعر
تحدث فيه عن أمه ، وهو قوله :

ألا هل أناها والحراثة حمة

بأن امرأ القيس بن تملك ييترا (١)

(١) انظر : الطاهر مكي ، (امرئ القيس حياته وشعره) ص ٤٥

وعقب عليه الطاهر مكي فقال : « ولم يرد البيت في أى من مخطوطات ديوان امرئ القيس أو مطبوعه ، ويخيل إلى أنه صنع ليدعم الخبر الذى تضمنته الرواية » (١) .

وبصرف النظر عما يحمله البيت من رأى يتفق المؤلف معه أو يختلف فإن البيت قد ورد في نسختي الطوسي والسكري (٢) ونسختي النحاس وأبي سهل (٣) في القصيدة الرابعة ، وموجود أيضا ضمن أبيات القصيدة المذكورة في متن الديوان بإخراج حسن السندوبى (٤) .

وتكلم الدكتور مكي عن علاقة الشاعر بالنساء ، وقال إنه كان مثاثا مفركا يفتقد أهم ما يطالب فى الزواج وما من أجله المرأة تتزوج ، كما أساء الشاعر الظن بزوجاته ، واقتقد بنهن الحب والتقدير ، وتحدث عن علاقة امرئ القيس بزوجه التى بنى بها فى طي . وهى (أم جندب) التى تحاكم إليها هو وعلقمة حول وصف كل منهما للفرس ، أو من منهما أشعر من صاحبه ؟ على حسب الروايات التى جاءت فى هذا الموقف .

وتابع المؤلف رحلة الشاعر ، وهو يبحث عن معاونه فى الآثار لآليه الذى قتله بنو أسد ، وتحدث عن تنقله بين القبائل وتعقب المنذر له ، ونزوله فى طي . وارتحاله إلى السموم بانيما ، وانتقاله إلى الحارث ابن أبى شمر الغساني ، واستعداده للسفر إلى قيصر . ونقف هنا وقفة قصيرة ،

(١) الرجوع السابق ص ٥٥

(٢) فى القصيدة الرابعة ورقه ٣١

(٣) فى القصيدة الرابعة ورقه (٣٣) وانظر تحقيق هذه القصيدة

بالديوان ص ٣٩٢

(٤) حسن السندوبى الديوان ص ٨٦

ولنقرأ فقرة للدكتور مكى قال فيها : « بدأ امرؤ القيس المحاولة فأرسل إلى قيصر وفدا يطلب النجدة على بنى أسد وعلى ملك الحيرة ، وكان مع الوفد ابنه معاوية ، فسكت قيصر إلى النجاشي . يدعوه لمعاونة امرئ القيس . . . » (١) .

لأننا لم نقرأ أن لامرئ القيس ابنا يسمى معاوية ، كما أن الدكتور مكى لم يذكر متى ظهر هذا الولد ، ومن هي أمه ، ومتى تزوجها الشاعر ، ولذلك يبدأ الحير غريبا من ناحية هذا الابن الذى ظهر فجأة على مسرح الأحداث ، وبدون أن يتقدم عنه شئ . فيما سبق .

وذكر المؤلف أن الظروف كانت مهيأة لرحلة الشاعر إلى القسطنطينية . وأن الروايات قد تواترت على حدوث هذه الرحلة ، وعلى أن الشاعر لم يحسن منها شيئا ، وأنها قد تركت صدى في شعره ، ولكنه يستبعد قيام رجل يسمى الطلاح الأسدى بالوشاية على الشاعر عند قيصر لمجرد وروده في بيت من الشعر بحسب ، وأن الطلاح ليس علما على شخص ، وإنما هي صيغة مبالغة من (طمح) وهى كناية عن رجل عدو لامرئ القيس . وعرض الدكتور مكى بالشرح والبيان للشعر الذى يتصل بالرحلة ، ودرسه واتخذ دليلا على قيام الشاعر بالذهاب إلى قيصر .

وقال إن الشاعر عبيد بن الأبرص قد أشار أيضا إلى هذه الرحلة مما يجعلها حقيقة تاريخية مؤكدة .

٤ - وتحدث عن ديوان الشاعر من نواح متعددة كناية المتقدمين به ، وحرصهم على روايته والاستشهاد به في النحو والبلاغة ، وتقديم معلقته على غيرها من القصائد المشهورة ، وتكلم عن نسخ الديوان

(١) الدكتور الطاهر مكى (امرؤ القيس حياته وشعره) ص ٨٦ .

ومخطوطاته وطبعه وتوثيقه وترجمته إلى بعض اللغات ، وعناية المستشرقين
بالمهمة التي ترجمت إلى أكثر اللغات الخضرية في العالم .

هـ — وعقد فصلًا للحديث عن امرئ القيس وسابقه ، وقال إن
السائد بين علماء النقد القدامى أن امرأ القيس أول شاعر جاهلي ، ومنهم
من يسبق به مهلهل (عدى بن ربيعة) .

وقال إن البحث الحديث قد انتهى إلى أن امرأ القيس لا يمثل طفولة
الشعر الجاهلي ، وإنما يمثل الفجر الساطع وأن الخطوات الأولى من عمر
هذا الفن قد اختفت ، وصار الأمر واضحاً بعد نشر التراث في العصر الجاهلي
فإن عدد من الشعراء سبقوا امرأ القيس في الشعر وفي الحياة ، وأن عدداً
منهم عاصروه . ومن الصعب أن تحدد الفترة الزمنية التي قطعها أشعر العرب
حتى وصل إلى المرحلة التي عاشها شاعرنا بما فيها من جودة باللغة .

وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الأولية ، وبيننا رأى ابن سلام في ذلك
ورأيه حجة في هذا الموضوع .

وتحدث المؤلف عن ربيعة التي بدأ الشعر فيها ، وتكلم عن شعرائها في
العصر الجاهلي ، وبين انتقال هذا الفن إلى مصر ، وتحدث عن ثلاثة شعراء
رأى أنهم المدرسة التي استهداها امرئ القيس ، وهم زهير بن جناب ،
وأبو داود الإيادي ، وعمر بن قتيبة ، ثم تكلم عن شاعر آخر وهو لقيط
ابن ميمر الذي وصلنا ديوانه بما فيه من قصائد ذات قيمة كبيرة ، ثم
تحدث عن شاعرين آخرين وهما الشنفرى الأزدي ، وتأبط شراً الفهمي
وتكلم عن معاصريه . وذكر منهم عبيد بن الأبرص ، وعلقمة بن عبيدة ،
وأوس بن حجر ، وختم هذا الفصل بذكر عدد من الشعراء الآخرين الذين
تعاصروا معه ، ويمكن التعرف عليهم من خلال المظان الكبيرة التي
تحدثت عنهم وعن فنهم الشعري ، وهكذا ربط المؤلف بين امرئ
القيس وشعره والبيئة المحيطة به بين فيها من شعراء وفرسان .

ثانياً — موضوعات أخرى

١ — شاعر الأطلال

انتهى الدكتور مكي إلى أن امرأ القيس لم يكن مبدع المقدمات الطللية ولكنه جعل منها عنصراً مستقلاً ميزها عن الغزل ، وأطال القول فيها ، ونوع صورها بفرج بها عن الرثابة والجسود ، وأن الشعر الذي تركه سابقوه يضم مقدمات طللية أيضاً ، وذكر أن نشأة هذه المقدمات إحدى مشكلات الشعر المعقدة . وتشير عبارته إلى أن الوقوف على الأطلال تصوير لحياة البدوى في الصحراء وأن امرأ القيس قد بلغ بهذا التصوير قفاه في المعلقة وفي غيرها من القصائد ، وقد راجع الدكتور مكي شعر امرئ القيس ، وتأمل الشاعر — كما قال — في مقدماته الطللية من خلال عدد من القصائد ، ولذلك رأيناه يعرض لمقدمات ثلاث عشرة قصيدة غير مرتبة (١) .

ولم يذكر سواها مع أن ديوان الشاعر به قصائد أخرى بدأها بالحديث عن الأطلال .

ولقد بدأ الدكتور مكي بالحديث عن مقدمة المعلقة واللامية الثانية إلى أن أتم الكلام حول القصائد التي اختارها ، ولم يتجاوز بحديثه عن هذه المقدمات حدود شرح الآيات وبيان المقصود منها من غير أن يعير المعاني التي لوح بها الشاعر اهتماماً يذكر ، إلى أن انتهى من التعليق والتقديم على الشعر الطللي الذي استغرق الجزء الأكبر من الصفحات التي جعلها للحديث عن هذا الموضوع .

(١) هي القصائد أرقام (١، ٢، ٣، ٤، ٦، ٨، ٩، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ٣٧) .

وذكر أن النقد المعاصر لم يصل إلى رأى حول بواعث نشأة المقدمات
الطلبية وأطوارها التي مرت بها ، وأوضح آراء بعض القدماء كابن قتيبة
في كتابه (الشعر والشعراء) وابن رشيق في كتابه (العمدة) وعقب على
ما ذكره لها بقوله : « وكلهم حاكم حول المعنى ولم يقبح عليه ، فليست
المقدمة الطلبية في نشأتها عملاً مفتعلاً تمهد لها بعدها ، ولا تكلفا يمسك به
الشاعر ليقدم قرينه فتواتيه ، إنما فيها يسدو أقدم عناصر القصيدة
الجاهلية ، بقايا نظام ضارب في القدم ، ضاعت مراحل تدرجه ، ويعسر
عابنا الآن أن ندرك تطوره ، والزمن الذي مر به قبل أن يتلج صورته
الآخيرة التي وصلنا إليها » (١) .

وذكر أن النقاد القدماء والمحدثين قد اعتبروا المقدمة الطلبية غزلاً
أو تمهيداً يسبقه ، ورأى أنها تابعة من شئ أخر ساء الحنين إلى الأوطان ،
وأوضح ذلك فقال : « ولئن ارتبط الحنين في عصرنا الحاضر بوطن محدد
ثابت تتعلق به مشاعر المواطن ، فقد كان في حياة الفرد العربي وطننا
متجسداً متغيراً . كل واد يهبطه يتعلق به ، وله فيه ذكريات ، كل منزل
يألفه يلتقط منه مشاعر مغايرة ، كل رحلة يقطعها ترهف وجدانه بجديد
من الأحاسيس والحياة والناموس فكان الشاعر يعاني تمزقاً نفسياً لا يشعر
معه بالطمأنينة ، ويجدد تسلطاً وعزاء وسلوى في تذكر أحداث
الماضي » (٢) .

ونعود فتؤكد ما ذكره الدكتور مكي في أن المعاصرين قد اختلفوا
في تفسير ظاهرة الطلل بالشعر الجاهلي ، ولا يصح أن نقصرها على الحنين
إلى الأوطان — كما قال — أو حتى على الغزل ، كما قال غيره ، بل هي أشمل

(١) د / الطاهر مكي ، أمروؤ القيس حياته وشعره ص ١٧٥

(٢) المرجع السابق ص ١٧٦

وأعمق وأعم من كل ذلك ، فهي قضية الحياة والموت بما تمثله هذه القضية في وجدان الشاعر من أحاسيس ومضاعفات شعورية ، أو أنها تعبير عن مأساة التغير التي تصيب الكائنات والأشياء ، وما صاحبها من العواطف والأحاسيس . وتبحث في شعرا مري القيس فلا نجد حديثه عن الطال ديدنا له في كل شعره ، إذ تحدث عنه في عدد من القصائد يقل عن العشرين ، في الشعر الذي قاله ، ورواه الأصمعي أو المفضل الضبي أو اجتماعا على روايته .

وربما كان المطلع تعبيراً عن قضية الشاعر أزاء الموقف الذي قال فيه القصيدة ، أو أنه تعبير عن حيرة الشاعر أمام معميات الحياة ، أو أنه يمثل طوراً من أطوار حياته التي عمرت باليأس والضياح ، والانزواء والاندحار والتوتر ، فرأى في الطلل كل الآهات التي تسبج بها في الصحراء ، وربما رأى في الطلل تعبيراً عن مأساة الزمن ، واليأس من الخلاص ، واستغراق الفناء لكل ما في الكون ، أي أنه تعبير عن مشكلة الموت الذي تجسد في الطال ، أو أنه يجمع بين قضيتي الموت والحياة كما ذكرت في السطور السابقة ، وهذه كلها احتمالات مجردة لا ترقى أبداً إلى الحقيقة الثابتة التي تؤمن بها وتدعو إليها ، ثم نقول : ولماذا لا نكون هذه المقدمة الطللية وصفا خارجيا للطلل على اعتبار أنه وسيلة أو افتتاحية إلى موضوع القصيدة ، وأن الحزن الذي يعتري الشاعر بسبب فقد محبوبته وتغييبها عن ديارها ، وأن البكاء الذي يتحدث عنه بكاء ظاهري للتدليل على أحزانه التي يعاني منها ؟ ولماذا لا يكون المقدمة الطللية وسيلة أو افتتاحية للدخول منها إلى موضوع القصيدة ، أو أن الشاعر لم يتجاوز بحزنه حدود البكاء الظاهري على فقد الحبيبة ، وعند ذلك تتخلص الأسماء المكانية من واقعيتها ، وتصبح مجرد أسماء لتكرات وهمية ، ونستكمل هذه الرؤية بالتأكيد على الربط بين الطلل من جانب والمرأة والزمان والمكان

من جانب آخر ، وهذا الرأي هو الذى تميل إليه وترضى به لموافقته لطبيعة الصحراويين في الجاهلية ، ولغياب كل هذه الفلسفات والرقى المفتحة في تفسير الطلل عن مخيلة الجاهليين ، إذ ترى كل القصيدة مبنية على التنصر الحسى وعلى التشبهات المرمية ، أما الجواب الضرورية فسكات تاديرة في بنية القصيدة القديمة .

ونعود إلى رؤية الدكتور مكى حول تفسيره لظاهرة الطلل ، والتي رأى أنها تابعة من الجنين إلى الأوطان . وأقول إن هذا التفسير إذا صح على بعض القصائد عند واحد من الجاهليين كأمري القيس ، فلا أراه صالحاً لكي يشمل أكثر الشعر أرجله الذى بدأ بالطلل ، وأن الجنين إلى الأوطان الذى فصله عن الغزل ، وبعد به عن المرأة من قول أمري القيس (١) :

خليلي مرا بنى على أم جندب	نقض لبانات الفؤاد المذهب
فإنسكا إن تنظرائى ساعة	من الدهر ينفعنى لدى أم جندب
ألم ترياني كلما جئت طارقا	وجدت بها طيبا وإن لم تطيب
عقيلة أتراب لها ، لادمية	ولا ذات خاق إن تأملت جانب

وقوله (٢) :

سما لك شوق يد ما كان أقصر	وحالت ليلى بطن قوفعرا
كذابة باقت رفى الصدر ودها	
مجاورة غسان	والحى يعمر
بمضى ظعن الحى لما تحملوا	
لدى جانب الأفلاج من جنب تيمرا	

وقوله (١) :

أماوى هل لى عندكم من معرس
أم الصرم تختارين بالوصل نيش
أينى لنا ، إن الصريمة راحة
من الشك ذى المخلوجة المنليس

أين الحنين إلى الأوطان الذى يفصل عن الغزل والمرأة فى هذه المقدمات السابقة مع أننى قد اخترتها من بين ما اختاره الدكتور مكى (٢) لأؤكد بها على نقي قابلية الطلل فيها لأن يكون تعبيراً عن الحنين إلى الأوطان دائماً . وقد استبان لنا ارتباط المقدمة الطللية بالمرأة غالباً . ولا يجوز بأن تكون المقدمة الطللية غزلاً أو وصفاً للمظاهر الطبيعية ، وللدكتور مكى أن يقول : « لست أعد المقدمة الطللية وما يتصل بها من ذكر الأحبة غزلاً » (٣) . لكن ليس له أن يفصل هذه المقدمة عن المرأة فصلاً تاماً فقد تكون غزلاً عند البعض ، وقد تأتي مقدمة للغزل ، أو لآى فن آخر أو أنها بداية تقليدية ووسيلة تهدف إلى غاية أخرى ، أو أنها جزء من وصف الطبيعة الصامتة ، وفى كل ذلك لا انفصل بينها وبين المرأة فصلاً تاماً ، وإذا جاز هذا الفصل فى بعض القصائد فلا يتصور وجوده فى البعض الآخر الذى تبدو فيه المرأة عنصراً أساسياً فى حديث الشاعر عن الأطلال ، وما لازمها من وقوف بها وبكاء عليها .

(١) الديوان ص ١٠١

(٢) انظر الصفحات ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧٤ ، من كتاب (أمرق القيس

حياته وشعره)

(٣) المرجع السابق ص ١٧٦

٢ — عاشق المرأة

تحدث الدكتور مكي في أول هذا الفصل عن مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي ، وذكر أن هذه المكانة ما زالت مبروزة الصورة لم يقدم لها القلم الذي يحسوها ، والفكر الذي ينير حوالها مع أنها مفتاح أية دراسة للنزول في عصره الأولى .

وأقول للدكتور مكي إن المرأة في العصر الجاهلي قد حظيت بنصيب كبير من عناية الباحثين واهتمامهم ، وتعددت المؤلفات عنها في الأدب العربي بكل فنونه ، وأذكر هنا الكتاب الضخم الذي أعده وألفه الأستاذ الدكتور أحمد الخوفي عن (المرأة في الشعر الجاهلي) فضلاً عن غيره من الكتب التي تزخر بها المكتبة العربية .

وتحدث عن المرأة في شعر امرئ القيس ، وقال إنه عرض لها في ثلاثة ألوان متذكراً ومتأملاً وماجناً ، وقال : « في الأولى يأسي على أيامه الخوالي معها ، ويكون هذا الجانب جزءاً من مقدماته الطليّة » (١) وسبق أن تحدثنا عن الاطلال ياسبحانه الله ... لقد قال في حديثه عن الموضوع السابق بإعصار الغاية من المقدمات الطليّة إلى الحنين إلى الأوطان ، وانصرفها أيضاً عن النزول ، ثم جاء في هذا الفصل وذكر أن أن هذا اللون النزولي جزء من مقدمات الشاعر الطليّة .

وقال بأن الشاعر تناول المرأة في حالة تأمله لها مخلوقاً جليلاً رقيقاً ، أما في حالة مجونه معها فقد تحدث عن مغامراته صادقا أو صانداً . وقد ظهر تأمل الشاعر للمرأة في وصفه لها ، وتصويرها كتل أعلى الجمال الإنساني ، وأورد الدكتور مكي لهذا الوصف خمسة نماذج من ديوان امرئ القيس ، واختار النموذج الأول من المعاقبة ، وأوله (٢) :

(١) المراجع السابق ص ١٨٢

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٨٣ ، ص ١٨٤

مهيفة بيضاء غير مفاضة تراثها مصقولة كالسججل
وأخره:

إلى مثلها يرثو الحليم صباية
إذا ما أسكرت بين درع ويجول
وقدم شرح وأفيا للأبيات التي وصف الشاعر فيها المرأة وصفا مفصلا
ثم اختار ثمانية أبيات أخرى من اللامية الثانية في وصف المرأة أيضا
وأولها (١):

ويارب يوم قد لوت وليلة
بأنسقم كأنها خط تمال
وتلاها يثانية أخرى من الرامية التي قال الشاعر فيها (٢):
وهو تصيد قلوب الرجال
وأفلت منها ابن عمرو حجر
واختار نموذجاً ثانياً من المعالقة عن امرأة معينة وهي فاطمة التي
حاطبها الشاعر فقال (٣):

أماطم مهلا بعض هذا التدل
ولن كنت قد أزمعت صرى فأجلى
ولن كنت قد ساءتلك منى خليفة
فسل ثيابي من ثيابك تنسل
أغرك من أن حبك قاتلي
وأهلك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عينك إلا لتقدحى
بسهيلك في أعشار قلب مفتل

(١) المرجع السابق ص ١٨٥

(٢) المرجع السابق ص ١٨٦

(٣) المرجع السابق ص ١٨٧

وختم هذه الاختيارات الشعرية التي يصف الشاعر فيها المرأة ويتأملها
بهذين البيتين : (١)

تمتع من الدنيا فإنك فان
من النشوات والنساء الحسان
من البيض كالآرام والأدم كالدمى
حواصنها والمبرقات الرواني

وتحدث عن جانب المغامرة في غزل امرىء القيس الذي كان فيه
أستاذاً مبدعاً وشاعراً خلاقاً. وذكر ستة نماذج أو مواقف أو قصص
أو مغامرات حيث اختار قصتين من المعاناة مع عذبة التي احتال الشاعر
لرقبتها يوم دارة جلجل، والثانية مع أخرى إذ قال الشاعر عن هذه
المرأة :

وبيضة خضر لا يرام خباؤها
تمتع من لحوها غير معجل
إلى نهاية المغامرة التي صورها الشاعر في تسعة أبيات آخرها قوله :
هصرت بفودي رأسها فتأملت
على هضم الكشمح ، ربا المخلخل
أما تلك المغامرات فعن امرأة أخرى تحدث عنها الشاعر في اللامية
الثانية فقال (٢) :

سموت لإليها بعدما نام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حال

ثم ذكر الدكتور مكي ثلاث مقامات أخرى من قصائد مختلفة،
وما أكثر المقامات الغزلية في شعر امرئ القيس !

وقد اعتنى المؤلف بشرح كل ما اختاره من شعر حيث كان يذكر
المعاني ثم يورد بعدها النموذج المختار ، علماً بأن هذه النماذج مكررة
ومتداولة في أكثر الكتب التي تحدثت عن الغزل في العصر الجاهلي ، أو
عن امرئ القيس بصفة خاصة ، ومنها بالقطع كتاب محمد صالح سملك الذي
سبق أن تحدثنا عنه وعرفنا به .

وتذكر أيضاً أن الدكتور مكي قد عقب على الشعر الذي اختاره لامرئ
القيس فقال « ذلك هو امرئ القيس في غزله متحفظاً عفيفاً ، أو مندفعاً
صريحاً ، وذوقه في الجمل هو الذوق الذي ترتضيه الفطرة السليمة في كل
عصر ، ولا أظن حكام مسابقات ملكات الجمال في العالم اليوم يمكن أن
يكون أمامهم مقاييس للحكم بين المتسابقات أو وضع وأرق ما ارتأى امرئ
القيس في صويحياته . » (١)

وقال إن نساء امرئ القيس لسن طرازاً واحداً في أخلاقهن ، وتساو
فقال : « لم يشغل امرئ القيس دون غيره من شعراء عصره بالمرأة » (٢)

ولا أدري لماذا توجه المؤلف بهذا السؤال الذي ما كان له أن يتساو
به ليجيب عنه ، لأن امرأ القيس لم يكن الوحيد الذي شغل بالمرأة ، فقد
شغل بها كثيرون من شعراء عصره . وتحدثوا عن مشاعرهم نحوها ، ولكن
امرأ القيس تفوق عليهم بسعة الحديث وتنوعه ، وبراعة التعبير وورقه
فضلاً عن تميزه في شعر القصص النزلي ، وتحدث عن جرأة الشاعر ولحشه في
شعره ومصادره من الأدب المكشوف ، وقد قادت هذه القضايا بحثنا في

التقديم والحديث على السواء، أما القضايا التي لم تحسم في هذا الفصل، ولم يعرض لها المؤلف عرضاً يكشف عن رؤيته، فذكر منها كثرة الحبيبات اللاتى ورد ذكرهن في شعر امرى القيس، فهل الاسماء حقيقة أو مستعارة أو وهمية؟ وهل مقامرات الشاعر تعبير عن واقعه، أو هي من قبيل الأحلام والأوهام التي تسجها بخياله؟ كما لم يعرض لخصائص الأسلوب في هذا الشعر. ولم يذكر طرائق التعبير في الأمثلة العديدة التي استشهد بها.

٣ - مع الطبيعة .

جعل الدكتور الطاهر مكى حديثه عن الطبيعة في شعر امرى القيس ذا شقين :

أحدهما : للطبيعة المتحركة ، وثانيهما : للطبيعة الصامتة ، وأن شعر الطبيعة بشقيه يستنفد نصف ديوانه .

(أ) مع الطبيعة المتحركة

تحدث المؤلف عن إعجاب الشاعر بالفرس كأهم عنصر متحرك بالطبيعة وأبان عن إعجاب امرى القيس بهذا الحيوان المتميز في عالم الصحراء . وذكر له عدة نماذج شعرية مختلفة، مع التقديم لها والكشف عن مضمونها، ثم إذا انتهى عن ذلك ختم الحديث بمقدمة نقدية حول رؤية الشاعر في عناصر الطبيعة المتحركة، وبدأ اختياره للشعر بنموذج من المملقة وصف فيه الشاعر الفرس فقال: (١)

وقد أغتدى والطير في وكناتها

بمنجرد قيد الأوابد هيكل

(١) المرجع السابق ص ٢٠٠

وأورد ستة أبيات أخرى بعد البيت المذكور ، كما نقل إلى كتابه
خمسة أبيات من اللامية الثانية وهي (١) :

له أبطالا ظبي وساقا نعامة
وإرخاء سرحان ، وتقريب تنفل
ضليح إذا استدبرته سد فرجه
بضاف فوق الأرض ليس بأعول
كأن على السكتفين منه إذا اتحنى
مداك عروس أو صلابة حنظل
وبات عليه سرجه ولجامه
وبات بعين قائما غير مرسل
ورحنا وراح الطرف ينفض رأسه
مق ماترق العين فيه تسهل

وذكر المؤلف في كتابه ثلاثة نماذج أخرى لامرئ القيس في وصف
الحصان ثم اختار نموذجين تحدث فيهما الشاعر عن فرس الصيد ، مع أن
النماذج التي سبق ذكرها يتحدث فيها الشاعر أيضاً عن الفرس كأم وسائل
الصيد .

وتحدث الدكتور مكي عن فرس امرئ القيس كطية سفر ، وأورد له
هذين البيتين (٢)

وخرق كجوف الأمير قفر مضلة
قطعت بسام سام الوجه حسان

(١) المرجع السابق ص ٢٠٠ ، ص ٢٠١

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٦

يدافع أعطاف المطايا بركته كما مال غصن ناعم بين أغصان

ثم اختار عدة نماذج من شعر أبي داود الإيادي ليقود اعتماد امرئ القيس على هذا الشاعر الذي كان رائداً في شعر الخيل ، وأعقب ذلك باختيار أربعة عشر نموذجاً عن وصف الناقة ورحلات الصيد ودوايه ، مع التقديم لها بما يكشف عن مضمونها . وتختتم الحديث عن الطبيعة المتحركة ببيان صفات كل حيوان كما جاء في الشعر المختار ، قال : « ذلك هو امرؤ القيس مع الطبيعة المتحركة ، ومن غير معاناة ندرك أن مظهرين منها كانا مناط إعجابه ، وموضع إعزازه . الخيل والصيد ، وما جاء عبرهما فضرورة اقتضتها طبيعة التصوير أو جاء بها التزام الواقع . إنه موزع القلب بين الفرس والأوابد ما يكاد يصف الأولى حتى يمضي إلى الثانية ، وإذا طلب الأوابد صاعداً وصف تضالها مطلوبة ، عطف من حين لآخر على فرسه ، فيثب عواطفه ، وذكر بعض فضله ، وهو يصدر في ذلك كله عن إعجاب وحب وانفعال ، ويمتزج حديثه عنه بالحنان والود ، يصفه فيختار له أجمل الصفات ، ويقارنه بأكمل المخلوقات ، ولا يعرض له إلا في أكمل حالاته . لقد كانت الفروسية بمظاهرها المتباينة صيداً وسباقاً وسيادة واحدة من هواياته المفضلة » (١)

(ب) الطبيعة الصامتة

أوضح الدكتور مكي المراد من الطبيعة الصامتة فقال : « تعني بالطبيعة الصامتة ما ينتظم مظاهر السكون من سماء وأفلاك ، ونجوم وكواكب وسحب وأمطار ، ورعد وبرق ، وليل ونهار ، وكان حظ بلاد العرب منها وافرأ ومتلونا ، فالسحاب صافية أنا ، وتلفها السحب آتة ، عزيزة المياه حيناً ، جارية المطر أحياناً ، وفيها الصحاري والرياض ، والجبال والأودية

(١) المرجع السابق ص ٢٢٧

والوهاد والنجاد ، والرياح العواتى والنسيم رقيقاً ، (١)

واختار من المعانيق نموذجاً تحدث الشاعر فيه عن المطر الذى سار به على
نظام منطقى بديع ؛ حيث رأى الشاعر السماء فتحدث عن البرق والرعد
والمطر ، وأول هذه الأبيات قوله :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه
كلح اللدين فى حبي مكلل

وأورد بعد البيت المذكور أحد عشر بيتاً ، وكلها فى وصف هذه
المظاهر الطبيعية الصامتة ، وأبرز قدرة الشاعر على تصوير المطر عتيفاً جارفاً
وسيلاً دافقاً يكسح فى طريقه كل شئ .

٤ - هموم شاعر

ذكر الدكتور مكى مقدمة لهذا الفصل قال فيها : « كان امرؤ
القيس صاحب هم فى صباه ، وطريد هموم فى رجولته ، وألم منشؤه القلق
والقلق وراء كل لبداع عبقري ، وأول ما نأتى من همومه أبيات له فى
المعلمة طاحنة بالأسى قالها فى أيامه الأولى ، فتباً تضيق الدنيا بشبابه ،
وقدمها لنا فى صورة جليلة جميلة ، ما يكاد المرء ينشدها ويتعلاها حتى
تلفه التجربة بأبعادها من كل جوانبه فيرى فيها نفسه خالصة ، وأى الناس
بلا هموم ؟ » (٢)

والشئ الذى لا تتفق فيه مع الدكتور مكى أن يكون امرؤ القيس

(١) المرجع السابق ص ٢٣٠

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٦

قد قال أبيات المعلقة في أيامه الأولى ، عندما كان فتياً تضيق الدنيا بشبابه .
وذلك لأن الشاعر قد بلغ فيها قمة الفن . ولا بد أنه قالها بعد أن طال منه
الصيال في دنيا القريض وأنه تحدث فيها عن شبابه وآماله وطموحاته .
وقد ذكر الدكتور مكى له هذه الأبيات :

وليل كعج البحر أرخى سدوله
على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردى أعجازاً وناء بسكسل
ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلي
بصبح وما الإصباح فيك بأمل
فيالك من ليل كأن نجومه
بكل مغار الفتل شدت يذيل
كأن الثريا علقت في مصامها
بأمراس كتان إلى صم جندل

وعقب الدكتور مكى على هذه الأبيات فقال : « رسم امرؤ القيس
في هذه الأبيات صورة أدبية تنبض بالحياة والحركة لهم ينبغ عليه بكل
قواه ، فيسحقه تحته سحقاً ، لا يترك له بارقة من أمل تحمل إليه
شعاعاً من طمأنينة ، ولا نافذة من رجاء يتخذها مهرباً إلى عالم المهدوم
الرحيب ، ورسم لوحته بمادة عمادها الحقيقة والمجاز والاستعارة والإرداف
وأعجب النقاد القدامى بما فيها من ألوان البيان ، وكانت عندهم المثل الأعلى
للاستعارة ، (١) »

(١) المرجع السابق ص ٢٣٦ ، ٢٣٧

وذكر المؤلف لامرئ القيس عدة نماذج شعرية كشف فيها عمه
اعتراه من ألوان الهم منها قوله (١):

وخليل قد أفارقه ثم لا أبكي على أثره
وابن عم قد تركت له صفو ماء الحوض عن كدره

وقوله (٢):

أرانا موضعين لأمر غيب ونحس بالطعام وبالشراب
عصافير وذبان ودود وأجرأ من مجلعة الذئاب
وكل مكارم الأخلاق صارت إليه همى وبه اكتسابي
فبعض اللوم عاذلنى فإنى ستكفينى التجارب وانتسابي

إلى آخر الأبيات :

وفى آخر حديث الدكتور مكي عن هموم امرئ القيس قال : «هناك
خط فاصل بين لوئين من الهم يعرض لهما امرؤ القيس . فبما بيننا من شعره .
القلق الذى يعاينه كفنان ، وما يعرض له من غرابة الأطوار وتلون
اللمحات ، ثم ما يعيشه من لحظات سامية ، وتمثلها أبياته فى الليل ، وهمومه
فيها غامضة ، لا يفصح عنها ، أو عن أسبابها ، ورغم تشاؤمه فيها يطل من
ورائها كإنسان يراها ضرورة ، ويرأها جزءاً من تكوينه . وهم مصدره
تناقض الحياة أمامه ، واختلافها عليه ، وفشله فى تحقيق مطامحه ، واستعادة
ملكه ، وهو فى ذلك يلتقى ، إلى حد كبير ، مع المتنبي شاعر العربية الأكبر
فيما بعد عصر الجاهلية ، وفى هذا الجانب تنضج أشعاره سواداً وبأساً» (٣).

(١) المرجع السابق ص ٢٣٨ ، ٢٣٩

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٠

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٠ ، ٢٤١

ولا يخفى علينا ما بين كتاب محمد مملك وكتاب الدكتور مكي من توافق كبير في النماذج الشعرية والتعليق عليها بالصورة التي سنكشف عنها في نهاية هذا الفصل .

٥ - نقد شعره

بعد أن انتهى الدكتور مكي من الحديث عن شعر امرئ القيس بالطريقة التي أوجحتها في الفصول السابقة ختم الكتاب بثلاثة فصول تحدث فيها عن آراء القدماء في امرئ القيس وشعره ، واختص منهم الباقلائي بنصيب أكبر، ونهل مستقل، ثم أنهى هذه الفصول برأى المؤلف نفسه في هذا الشاعر الكبير ، وسوف تعرض لكل ذلك فيما يأتي :

(أ) في رأى النقد القديم :

ذكر الدكتور مكي أن الشاعر قد خضع في القديم لثلاثة ألوان من النقد : آراء خاطفة من معجب متذون وأحكام عامة من ناقد متخصص ... ودراسة مفصلة تلاحق القصيدة أو البيت أو الكلمة يتبين ما فيها من وجوه الإيجاز والسمو، تنبسط ما تراها أخطاء في النظم أو البلاغة أو النحو .

ومثل للآراء الخاطفة بأقوال للبيد بن ربيعة وابن الكلبي وعمر بن الخطاب ، كما مثل للأحكام العامة بما كتبه ابن سلام في كتابه عن طبقات الشعراء . وابن قتيبة في كتابة الشعر والشعراء ، مع أن هذا الكتاب الأخير من أوسع الكتب القديمة التي ترجمت لامرئ القيس ترجمة متكاملة وتحديث عن شعره بتوسع وإسهاب .

وللذلك عجبت أن يوضع ابن قتيبة بكتاباتة عن امرئ القيس في نطاق الأحكام العامة .

وذكر الطاهر مكي من أصحاب الأحكام العامة (الحسن بن بشر الأمدى)

بما كتبه عن شاعرنا في (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) . وضم إليهم أيضاً (الباقلائي) بما كتبه في إعجاز القرآن ، ثم تحدث عن أصحاب النقد المفصل على الشعر نفسه وذكر منهم أبا عمرو بن العلاء والأصمعي وأبا عبيدة وحامدا الراوية ، وإلى أعجب أشد العجب . وأسأل : أين هي الدراسة المفصلة التي نهض بها هؤلاء النقاد ؟ ولماذا لم يتحدث عنها المؤلف ويعرف بها كما يتحدث وسوف يتحدث عن نقد الباقلائي للمعلقة ؟ .

وذكر عدة نماذج من نقد هؤلاء القدماء ، وهي لا تختلف في روايتها بين كتاب وآخر ، وأكثر الذين يتحدثون عن شعر امرئ القيس يتناقلون هذه الأقوال ويعلقون عليها أو يستشهدون منها على عيب بلاغي أو نحوي أو شعري أو غير ذلك .

(ب) الباقلائي والمعلقة

رأى المؤلف أن الباقلائي قد أطلال في نقد المعلقة فاختصه بفصل خاص عرض فيه لاكثر ما جاء في كتابه (إعجاز القرآن) حول هذا النقد .

وقد لاحظنا أن ما كتبه الطاهر مكي في الفصل السابق (في رأى النقد القديم) وهذا الفصل (الباقلائي والمعلقة) لا يختلف كثيرا من ناحية الأفكار والآراء المنقولة عن القدماء ، عما كتبه محمد سمك في الفصلين الذين عدهما للحديث عن (منزلة امرئ القيس الشعرية) و (مآخذ العلماء على امرئ القيس في أشعاره) .

وإذا كان الدكتور مكي قد عرض لما كتبه الباقلائي عن أبيات لامرئ القيس من معلقته فإن غيره قد فعل ذلك أيضا ولا جديد لنا تابع

شعر امرئ القيس ونقده في أن يرى ناقدا أو كاتباً يعرض لما سطره
الباقلائي في إعجاز القرآن .

وكنا قد عرضنا في فصل سابق لهذا النقد مفصلاً ورددنا على
ما يستحق الرد منه ، ولذلك لا نود أن نكرر هنا ما قلناه هناك خاصة
وأن ما كتبه الدكتور مكي حول نقد الباقلائي ليس جديداً في مضمونه
وأفكاره .

(ج) في ضوء النقد الحديث .

ذكر الدكتور مكي أن النقد الحديث يلتقي مع النقد القديم في بعض
القضايا ويخالفه في بعضها الآخر ، وأوضح ذلك فقال : «يتفق معه في
أن امرأ القيس أبدع صوراً أدبية نابضة بالحياة والقوة والجمال ، قلباً
صنع مثلها أحد من معاصريه أو سابقيه ، أو من جاءوا بعده من الشعراء
الجاهليين . وعالج فنونا من التشبيه قصر دونها أتداده ، وكل ما زعم له
القدايم من أوليات فهي حق ، ما دام شعره أول شعر يصلنا يحمل هذه
المعاني والصور .

ويخالفه في النقد القائم على تصيد الأخطاء المفردة ، أو افتعالها ،
والوقوف عند الكلمات والجدل حولها ، والحكم على أعمال الشاعر
من خلال قيم لم تكن سائدة في عصره ، أو كان سائداً ما يناقضها» (١) .

وفي ضوء النقد الحديث ذكر المؤلف أن الشاعر قد نجح في نقل تجربته
كاملة بما فيها حياته التي عاشها ، والصراع الذي عرض له ، والأحداث
التي أحاطت به ، كما أنه يفضي بذات نفسه في إخلاص يجمع بين هدوء

كالنسيم واكتساح وعصف كالليل ، ثم ذكر أن امرأ القيس كان شاعر الصورة الناطقة دون منازع ، واستشهد بشعره وتعبيراته على هذه الصورة قال : «وأكثر ما تكون صور امرئ القيس من تشبيه ، وتزدحم قصائده بكل جميل منها ، ويأتى عنده عن طبع لا عن عمل ، وبعض ألوان التشبيه توجد عند سابقه لكن معظمها من خلقه ، وعنده تجد أول صورة بلاغية لما يسميه علماء البلاغة بالتشبيه المقلوب ...» (١) .

وذكر أمثلة أخرى لصور هذا الشاعر مثل التشبيه المقيد والتشبيه الملفوف ، والاستعارة بأقسامها ، والمحسنات بألوانها . وقال إن الشاعر واقع الخيال ينبع من الحقيقة ، ويتناول المألوف ، ولرب المصادرة التي يصوغ منها صوره تنصل باليادية ومظاهرها اتصالاً وثيقاً .. رنعتقد أن ذلك لم يكن وقفاً على امرئ القيس فحسب ، وإنما كان عاماً عند أكثر الشعراء الجاهليين ، وإن بدأ ذلك بوضوح في ديوان هذا الشاعر ، كما أن قصائده لا تجرى على سنن المنطق .

أى منطق ؟ إنه منطق العصور التالية للعصر الجاهلي الذي لم تعرف فيه الوحدة الموضوعية التي يقول النقاد بها ، ويحدثون عنها في دواوين الشعر الجاهلي !

ولنه لشئ غريب حقاً أن تطالب الجاهليين بهذه الوحدة الموضوعية التي لم يعرفها التاريخ الأدبي إلا في العصر الحديث ، ولذلك من العبث أن نحكم القصيدة الجاهلية بما فيها قصائد امرئ القيس بمقياس المنطق الحديث ، ونطلب أن تقتصر القصيدة الواحدة على موضوع واحد متساين طبيعة الحياة الجاهليين والخصائص التي تميز بها هذا الشعر من خلال عصره .

ولماذا لا يكون هذا التعدد في موضوعات أكثر القصائد شيئاً محبباً
عندهم، لما فيه من تنوع وسذاجة وسهولة تتوافق كلها مع طبيعة المراحل
الأولى، من عمر الكائنات .

ليس عيباً إذن - أن يكون الشعر الجاهلي قد جاء على الصورة التي
قرأناه عليها، وليس لنا أن نحاكم هذا الشعر بالنضاي والمراثيات التي
عرفناها فيما بعد، وعلينا أن نقرأه، ونستطلع منه صورة الحياة الجاهلية
وننظر في شعر امرئ القيس وننساءل : هل وفق هذا الشاعر في نقل
صورة حياته ؟ ونزد بالإيجاب، ولأما كان أميراً للشعراء في عصره
بدون أن تهدي إليه الإمارة أو يسعى إليها .

ولقد ذكر الدكتور مكي أن الموسيقى الداخلية في أبيات امرئ
القيس تناسب على نحو رائع مع الأحداث، وأن لفته قد تلامت مع
الموضوع رقة ولينا، وغرابة وعسرا . وأن شعره قد كشف عن وفرة
في معلومات حول الحيوان والنبات وسائر مظاهر الطبيعة، وأن صورته
الشعرية كانت بصرية، أو بمعنى أشمل، كانت حسية لتوظفه لبقية الحواس
في التعبير والتصوير .

وهكذا عرض الدكتور الطاهر مكي في الصفحات الأخيرة من كتابه
لبعض ما يتميز به شعر امرئ القيس من واقع النقد الحديث . وتعد
هذه الخصائص التي ذكرها من أفضل ما جاء في كتابه، وتلخيصا لجوهرات
كثيرة من فصوله السابقة، أما ما تحدث عنه في سائر الكتاب فلن
نعيد الكلام فيه بعد أن بسطنا الحديث عنه في هذا الفصل من
كتابنا .

ملاحظات هامة

لقد سبق أن تحدثت في فصل سابق عن كتاب محمد صالح سمك (أمير الشعر في العصر القديم) ، وأطلت في الحديث عنه ، وعرضت لثناء مصطفى صادق الرافعي عليه ، وعلى مؤلفه ، ثم كان حديثنا في هذا الفصل عن كتاب الدكتور الطاهر أحمد مكي (امرؤ القيس حياته وشعره) وعرفت به ، وذكرت استعراضا عاما لبعض الموضوعات التي وردت فيه . ولم أطل الحديث عن الموضوعات التي تحدثت عنها في فصول سابقة من خلال كتب أخرى ، وذلك خوفاً التكرار الذي لا يخدم القضية التي شغل هذا البحث بدرصها . ثم كان الحديث عن شاعر الأطلال كأول موضوع نتكلم فيه بتوسع وإفاضة ، لكي يأخذ كتاب الدكتور الطاهر حقّه كاملاً في هذا الفصل المعقود له ، ولما قرأت هذا الموضوع (شاعر الأطلال) به أدركت أن الأفكار التي عرض لها ، والشواهد التي استدلت بها ليست بغريبة على تماماً ، فقد سبق أن قرأتها ، وأعدت قراءتها أكثر من مرة في كتاب محمد صالح سمك ، وتأكدت من التوافق الكبير بين الكتابين ، واستغرقت في خاطري وجود نقل في أحد الكتابين عن الآخر ، وأن واحداً من المؤلفين قد اعتمد على الآخر في أكثر فصول كتابه ، واتجهت ظني نحو الدكتور مكي ، وقات في نفسي لا بد أن يكون هو الآخذ والناقل من كتاب محمد صالح سمك ، وقد اتجهت إلى هذا الظن بسبب أن كتاب (أمير الشعر في العصر القديم) لسمك قد طبع لأول مرة عام ١٩٣٣ م ، فهو متقدم عن كتاب الدكتور مكي الذي طبع هو الآخر عام ١٩٦٨ م وفضلاً ذلك نجد الدكتور مكي في مقدمة كتابه يتحدث عن كتاب سمك وينقده ، ثم يجعله واحداً من مراجعه التي ذكرها في آخر كتابه . ولم أقتنع بهذا الظن ، إذ لم يوجد لدى ما يؤكد أو ينفيه خاصة وأني كنت أكتب هذه الفصول وأنا

عاج مصر ، وأرجأت لإتمام البحث إلى أن عدت إليها ، وأطاعت على النسخة القديمة من كتاب سملك والتي طبعت أولا ، وأطلع عليها الدكتور مكي وانتقدها ، ووجدت أنها تختلف عن النسخة التي قرأتها وتحدثت عنها ووصلت إلى النتيجة الآتية بعد إطالة في البحث وأنا في الحكم ، ويقسفن أن أذكرها ، أما الأسف فلائها تدين عالما كبيرا ورائدا تربويا مشهورا بالسطو على كتابات الآخرين . وهو الأستاذ محمد صالح سملك ، فلقد أعد كتابه عن امرىء القيس ، وطبعه في عام ١٩٣٢ هـ في حدود ثلاثمائة صفحة ، وأشاد به مصطفى صادق الرافعي ، وتحدث الناس عنه في تلك الفترة ، وبقي الكتاب على تلك الصورة إلى أن أخرج الدكتور الطاهر مكي كتابه عن امرىء القيس في عام ١٩٦٨ م ، وأعيد طبعه في عام ١٩٧٠ م ، وتوالت طبعاته فيما بعد ، وكان الأستاذ سملك أراد لكتابته من الشجرة مثل ما لكتاب الدكتور مكي ، فنهض بإعادة كتابته حيث حذف فصولا واختصر في بعض الفصول ، وأضاف إلى كتابته عدة فصول ، وأعاد طبع الكتاب وأخرجه في صورة جديدة في عام ١٩٧٤ م ، وجاءت صفحاته في حدود خمسمائة وخمسين صفحة ، وهذه الطبعة هي التي تحدثنا عنها واعتمدنا عليها ، واتضح منها أن الأستاذ محمد صالح سملك قد أخذ من كتاب الدكتور مكي ، ونقل منه نقلا كثيرا وبخاصة ما ضمه إلى كتابه تحت عنوان (أغراض شعره ومناذله) واستغرق مائة صفحة ، ويؤكد على بعض الخفايا في هذه القضية وهي أن المتقدم في زمن التأليف وهو الأستاذ (سملك) قد سطا على المتأخر وهو الدكتور مكي ، ولم يشر الأول عندما أعاد طبع كتابه إلى كتاب الثاني ، كما أن النقل قد شمل فصولا كثيرة ضمه الأول إلى كتابه في طبعته الجديدة ، وظهر هذا واضحا في الباب الذي عقده للحديث عن أغراض شعر امرىء القيس ومنازله (من ص ٣١٩ إلى ص ٤١٤) ولله من الغريب حقا أن نجد المتقدم يسطو على المتأخر وينقل عنه الصفحات تلو الصفحات دون أن يشير إلى هذا النقل ، مقتصرًا على إضافة

كلية أو مجلة إلى ما نقل؛ ليغفل القراء عن السطو ، وأظنهم قد غفلوا سنوات طويلة . كما تؤكد أن الأستاذ سمك لم يخرج كتابه كله عن طريق النقل من كتاب الدكتور مكي فهو باحث قديم ومؤلف مخضرم ، وليست لديه هذه السذاجة التي يسلم على الآخرين اكتشافها ، إذ أن له فضل السبق في تأليف كتاب عن امرئ القيس عندما كان طالباً جامعياً في كلية دار العلوم ، ولا شك أيضاً في أن الدكتور مكي قد رجع إلى كتاب الأستاذ سمك في طبعته الأولى ، ولا يمكن للدكتور مكي أن ينفي هذا ، فلقد جعله من مراجعته وانتقده ، أولاً نستطيع أن نحدد مقدار استفادته من الأستاذ سمك لأنه — كما سبق القول — لم يشر في متن الكتاب وهوامشه إلى المراجع كاملة .

ونصل بعد هذا التقديم الذي أراه ضرورياً جداً إلى تحديد أهم المواضع التي سطا عليها الأستاذ محمد صالح سمك من كتاب الدكتور مكي ، ونعرض لها عرضاً سريعاً — لإيماني بأن هذه الإشكالية ليست قضيتنا في كتابنا الذي نعدّه عن امرئ القيس بين القدماء والمحدثين .

أولاً — لقد عقد الدكتور مكي في كتابه فصلاً بعنوان (شاعر الأطلال) وسبق أن تحدثنا عنه ؛ ثم جاء الأستاذ سمك ، فأغار على ما كتبه الدكتور مكي ، وصنع من مجموع ما نقله فصلاً بعنوان (الأطلال والظلمات) ، وتؤكد أن النقل يشمل النصوص الشعرية وشرحها والأمكار والنتائج إلا من اختلافات بسيطة لا تخفى على القارئ . . . ولكي تتضح هذه الأدلة ، وتبدو سهلة ميسرة نطلق على كتاب الدكتور مكي (امرؤ القيس حياته وشعره) اسم (الكتاب الأول) كالنطاق على كتاب محمد سمك (أمير الشعر في العصر القديم) في طبعته الثانية اسم (الكتاب الثاني) ؛ ولن يخفى على أحد التوافق التام بين ما جاء في الكتاب الأول تحت عنوان (شاعر الأطلال) وما جاء في كتاب الثاني تحت عنوان (الأطلال والظلمات) .

١ - في حديث الدكتور مكي عن شاعر الاطلال قال في كتابه الذي
تمتناه بالاول : « أما شاعر كندة فجعل من بكاء الاطلال عنصراً مستقلاً ،
ميزها عن الغزل وأطال فيها القول ، ونوع صورها ... » (١) .

وجاء الأستاذ سمك ، فأخذ هذه الفكرة ونقلها إلى كتابه في طبعته
الثانية والذي تمتناه بالثاني وغير في بعض كلماتها ، ثم قال :

« ويمتاز امرؤ القيس عن سبقوه بأنه جعل بكاء الاطلال عنصراً
مستقلاً فقد أطال القول فيها ، ونوع صورها ... » (٢) .

٢ - عندما تحدث الدكتور مكي في كتابه عن بواعث نشأة المقدمات
الطللية وأطوارها التي مرت بها نقل نصاً نقدياً لابن قتيبة من كتاب الشعر
والشعراء ونصاً نقدياً آخر لابن رشيق من كتابه العمدة (٣) ، ثم استشهد
الأستاذ سمك في كتابه بالنصين نفسيهما كما وردا في الكتاب الأول (٤) .

٣ - وقد انتقد الدكتور مكي آراء القدماء فقال : « وكلهم حار حول
المعنى ولم يقع عليه ، فليست المقدمة الطللية في نشأتها عملاً مفتعلاً تمهد لما
بعدها ، ولا تكلفاً يمسك به الشاعر ليقدره قريحته فتواتيه » والشئ
الذي يميز الشاعر عن غيره قدرته على استرجاع الماضي ، استرجاعه وليس
اكتنازه ... (٥) . كما علق الكتاب الثاني على آراء القدماء فقال : « وكلهم
حار حول المعنى ، ولم يقع عليه ، وليس ذكر الاطلال ، وبداية القصائد

(١) د/ الطاهر مكي (الكتاب الأول) ص ١٥٩ .

(٢) محمد سمك (الكتاب الثاني) ص ٣٢١ .

(٣) انظر الكتاب الأول ص ١٧٤ ، ص ١٧٥ .

(٤) انظر الكتاب الثاني ص ٣٢١ ، ص ٣٢٢ .

(٥) الكتاب الأول ص ١٧٥ ، ص ١٧٦ .

عملاً مفتعلاً لا ارتباط له بما بعده، بل هو بداية النسيب، ومطامح الغزل واسترجاع الماضي الخلو واستحضار الحالة الشعورية الخاصة بتجاربه المخزونة في الوجدان والأحاسيس (١) وهكذا نلاحظ توافق الأفكار بين الكتّابين وإن حاول الأستاذ سلك صاحب الكتاب الثاني أن يخفى نقله واحتذاءه بتغيير في بعض الكلمات وإضافة بعض الجمل التي لا يخفى معها السطو والاحتذاء .

٤ - إذا تركنا جانب النقل في الأفكار الذي يمكن التعبير عنه في سطور بسيطة إلى مجال أوسع وهو نقل الصفحات الطوال مع ما بذل فيها من جهد فسوف نرى حجم المأساة التي اقترفها الأستاذ سلك مؤلف الكتاب (الثاني) . قال الدكتور مكي في حديثه عن شاعر الأطلال : « ذكريات امرئ القيس وأطلاله وليدة دفع عاطفي ، كان صاحبها يحن إلى أمسه فعلاً ، ويشتاق إليه ، ويرجوه أن يعود ، وهي عواطف وغم بيتها المحدودة ومن تكرار بعض صورها ، ذات ملامح إنسانية عميقة ، لأنكاد نفهمها حتى نقف عندها ، ولأنكاد نقف عندها حتى نتجاوب معها ونفكر فيها ، وتتحول إلى واقع مجسم تصوره ونمسايش صاحبه وتلتقي معه ، نفرح له أو نأسى عليه ، لأنه يعبر عن لون من الفراق كلنا نعيشه في صورة أو أخرى . فالموت فراق الحياة ، والفقر فراق الغنى والشقاء فراق السعادة ، والرحيل فراق الأهل والأحبة ، والعالم في حركته اليومية زاخر بألوان من المفارقات ، يضيق المرء ببعض الأسماء ، تثقل على أذنه ويضطرب معها لسانه ، فإذا تجاوزها إلى ما هو سهل وموسيقى ونافع ، تخلت عنه الوحش التي يحسها وترسبت في وجدانه تجربة الشاعر ، يعمد ذاكرته إلى شعره يفتترف منه للتعبير عن مشاعره الخاصة وتصويرها إذا لم يكن قادراً على إبرازها في الشكل الذي يريد .

والمرأة في جانبها النفس أكثر وضوحا في شعرا الأطلال منها في شعر الغزل عند امرئ القيس ، لأنه فيها لا يلاحظها كيانا ماديا يصنف دقاته ، وإنما يعرض لها معنى إنسانيا يأسى لفراقه ، ويجون لرحيله ، وتمتلى عينه بالدموع عند تذكر هذه اللحظات ، وقلبا يتجاوز ذلك أو يتخلى عنه ، فإذا فعل فلنكن يقول عنها إنها طيبة الرائحة موشاة الثياب . والحديث عنها في المقدمة طبعي يفتضيه صدق الانفعال ، واكتيال الصورة ، وليس إقحامها في غير موضع ، ليقال عنها كلام يمكن أن يقوله الشاعر في غير هذا المكان ، (١) .

وننتقل إلى الكتاب الثاني حيث يقول محمد صالح سمي : « وذكريات امرئ القيس وأطلاله وظلماته وليدة دفع عاطف ، كان يحن فيها إلى أمه ويشناق إليه ويرجوه أن يعود من جديد... وهي عواطف رغم بيئتها المحدودة ، ومع تكرار بعض صوره ذات ملاح إنسانية عميقة ، لا تكاد تلم بها ونفهمها ، حتى نقف عندها ... ولا تكاد نلف عندها ونأملها حتى تتجاوب معها ونفكر فيها ... ثم تتحول لدينا إلى واقع مجسم تصوره ، ونعيش صاحبه ، ونلتقي معه ونشاركه مشاركة وجدانية ، نفرح له ، ونأسو عليه ، لأنه يعبر عن لون من الفراق ، كلنا نعيشه في صوره المختلفة ، فالمرت فراق الحياة ، والفقر فراق الغنى ، والمرضى فراق العافية ، والشقاء فراق السعادة ، والغربة فراق الوطن ، والرحيل فراق الأهل والأحبة ... والعالم في حركته اليومية الزمنية زاخر بألوان من المفارقات ، والليالي حبال يلدن كل عجيب ... وقد يضيق المرء ببعض الأسماء والألفاظ ، إذ تنقل على أذنه ، ولا يصيخ لها سمعه ، ويضطرب معها لسانه ، فإذا تجاوزها إلى ما هو مهمل وموسيقى ومفيد ، تخلت عنه الوحشة

(١) د/ الطاهر مكي (الكتاب الأول) ص ١٧٧ .

يحسها ، وترسبت في وجدانه تجربة الشاعر ، فيسد ذاكرته وفكره ،
إلى شعر هذا الشاعر ، يعترف منه ، للتعبير عن مشاعره الخاصة وتصويرها
إذا لم يكن قادراً على إبرازها في الشكل الذي يوده .

والمرأة في جانبها النفسى وواقعها المعنوى أكثر وضوحاً في شعر
الأطلال منها في شعر الغزل عند امرئ القيس ، لأنه في مقدماته الطليقة ،
لا يلاحق المرأة كيما فاديا حسياً يصف دقاته فحسب ، وإنما يمرض لها
مبنى إنسانياً يأسى لفراقها ويحزن لرحيلها ، وتمتلئ عينه بالدموع لما
تهيجه الذكرى عند تذكر تلك الأيام الخوالي التي نعم فيها بصاحبه ،
وهذه اللحظات السعيدة التي قضاها معها .. وقلبا يتجاوز أمرؤ القيس ذلك
التصور العاطفى أو يتخطى عنه . . . فإذا نعل فلسكى يقول عنها : إنها طيبة
الرائحة ، موشاة الثياب . . . والحديث عن المرأة في مقدمة قصيدة أمر
طبيعى ، يقتضيه صدق الانفعال العاطفى ، واكتتال الصورة الذهنية ،
وإبراز الحالة النفسية . . . وليست المقدمة وما تناوله من الحديث عن
الخليلات والصواحب بإعجام لها في غير موضع حتى يمكن أن يقال عنها :
إنها كلام مجرد كلام يمكن الشاعر أن يقوله في غير هذا المكان وذلك
المجال (١) .

ويظهر من هذا النص الطويل أن صاحب الكتاب الثانى وهو محمد سمك
ينقل عن الطاهر مكي وهو مؤلف الكتاب الأول مع إضافة بعض الكلمات
وتغيير طفيف في بعض الجمل بصورة لا يخفى معها الاتفاق التام بين
الكاتبين في موضوع الأطلال وفي بعض الموضوعات الأخرى التي
يستكشف النقل فيها أيضاً ، ويستحيل أن يكون هذا استشهاداً لعدم
وجود علامات التنصيص واسم المرجع ولعدم الاتفاق التام بين النصين ،

(١) محمد صالح سمك (الكتاب الثانى) ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥

كما يستحيل أن يكون هذا توارد خواطر إذ لا يمكن أن تتوافق الخواطر إلى هذا الحد ، بل هو شيء آخر يعرفه مؤلف الكتاب الثاني .

٦ — الشيء الوحيد الذى يخالف فيه الكتابان هو أن مؤلف الكتاب الأول قد رأى أن المقدمة الطللية يمكن أن تقصر بشيء اسمه (الحنين إلى الاوطان) بينما تقوم هذه المقدمة في الكتاب الثاني على أنها جزء غزلي يلبس الشاعر .

٧ — لأننى أتخامل على نفسى ، وأقلق من هذا الوضع الخفى ، وأعلم أن القارىء ربما يصاب بالملل إذ من الممكن الاكتفاء بما ذكرت في التدليل على ما رأيت . ولكن الأمانة العلمية تقتضى أن أذكر بعض النقول الأخرى من الكتابين ليتضح — بصورة أكل — حجم المأساة .

ثانياً — لقد عقد الدكتور مكى فصلاً عن عاشق المرأة ، وسبق أن تحدثنا عنه ، وعرفنا بمروية امرئ القيس وقدرته على التصوير ، وذكرنا أن النقل الذى مارسه محمد سملك قد شمل النصوص الشعرية أيضاً ، وامتد النقل من النصوص إلى شرحها ، والتعليق عليها ، وأؤكد هنا أن معظم ما قاله محمد سملك حول عزل امرئ القيس وعشقه للمرأة ، والذى قدمه في عدة مواضع من كتابه ليس له ولم يغم فيه إلا بدور النقل ، وإضافة بعض الكلمات إلى ما نقله وضعه إلى كتابه .

قال الدكتور مكى مؤلف الكتاب الأول متحدثاً عن دور المرأة في شعر امرئ القيس : « واحتلت المرأة في شعر امرئ القيس مكاناً أهم مما احتلته عند أى شاعر جاهلي آخر ، وعلى نحو تفرد به ، فيعرض لها في ألوان ثلاثة : متذكراً ومتأملاً وما جناً ، في الأولى يأسى على أيامه الخوالي معها ، ويكون هذا الجانب جزءاً من مقدماته الطللية . ومعه (٢٥ — القيس)

دورسناه . وفي الثانية تناولها مخلوقاً جميلاً رقيقاً، يصفه ، ويستغرق في وصفه وفي الثالثة جعلها مناط مغامراته (١) .

وقال الكتاب الثاني: « إن المرأة احتلت في شعر امرئ القيس مكاناً مرموقاً بارزاً أهم مما احتلته عند أي شاعر جاهلي آخر، وعلى نحو تفرد به ... وقد تعرض لها في مواقف ثلاثة : متذكراً ومتأملاً وماجناً ، . . وهو في الموقف الأول يبكي الاطلال والدمع، وبأس على أيامه الخوالي معها ... وفي الموقف الثاني يتناولها مخلوقة جميلة ساحرة فائقة رقيقة يصفها ويتحدث عن جمالها ، ويستغرق في وصف محاسنها الجسدية ... وفي موقفه الثالث جعلها مناط مغامراته ... (٢) .

ولعلنا قد لاحظنا الاتفاق بين النصين من غير أن يشير مؤلف الكتاب الثاني إلى الكتاب الأول مكنتياً بإضافة بعض الكلمات وتغيير طفيف في بعضها، وهو أمر لا يخفى على الباحثين والدارسين ؛ حيث جاء ذلك بصورة مكشوفة عارية سهل رصدتها والتعرف عليها .

ولذا كان النموذج المذكور قصيراً لا يقتنع به البعض في إثبات النقل الحرفي فإنني أورد نموذجاً آخر ؛ حتى تتضح أبعاد هذه القضية ، وتنمحي عنها حكاية الاقتباس وما يسمى بتوارد الخواطر .

قال الدكتور مكي عن نساء امرئ القيس في كتابه الذي نعتاه بالاول: « ونساء امرئ القيس لسن طرازاً واحداً في أخلافهن قفاطمة متدلة معوزة ، وليل ناسية فاكرة، وعنيزة متعنتة مستجيبة ، وأسماء حنول قلب، وسلمى غرة نافرة ؛ وماوية خبيثة ماكرة ، وهر لعوب مستجيبة.

(١) د/مكي (الكتاب الأول) ص ١٨٣

(٢) محمد صالح سمك (الكتاب الثاني) ص ١٥٣

ورقاش معترضة باذلة، وأخريات كثيرات لا يذكر أسماءهن، فهن الساخطة المحتجة، والساذجة العاقلة، الخائفة المتكبرة، ومن تقصر عنها على وجل، ومن تهب نفسها للناس جميعاً.

وصورها رقيقة الحديث، هامة الحوار، تلذ معه حتى ينشئ عليها فتستطيع قياماً إلا متكئة على ساعده، وهناك من لها قوم يفارون عليها، ويلاحقون امرأ القيس إذا ألم بهم، ولو استطاعوا قتلوه، ومن لا يمثل زوجها ثقلاً في البادية، من العصفاء أو الرقيق أو غمار الناس، يأتيها امرؤ القيس ولا يقيم لزوجها وزناً، وهناك الحامل والمرضع، والشابة الفتية، والصبية المراهقة، والحررة والجارية، وبائعة الهوى ليس من حرج في أن يلم بدارها، وإنما الحرج كله فيها يصيب المرء بعدها من تهلكة، جاء ذلك في شعره: عرضاً ومتناثراً، ولكل امرأة صفة لا تتجاوزها.

أما نصيب المرأة الواحدة من مشاعر متباينة حين ترضى أو تغضب، أو تسر أو تحزن، وحين تخلص وتقي، أو تتشكر وتحزن، فلا يعرض له، وهو يغفل تماماً الحديث عن عقل المرأة، وفضائلها النفسية وجمالها غير المرئي^(١).

وقد أخذ محمد سمك صاحب الكتاب الثاني كل هذا الكلام السابق وغيره، ونقله إلى كتابه فقال: «وضوابع امرئ القيس لسن طرازا واحداً في أخلاقهن ففناطمة متدلة مغرورة، وليلى ناسية متجاهلة ناكرة، وعنيزة متمتعة مستجيبة، وأسماء حول قلب، وسلي غرة نافرة، وماوية خبيثة ماكرة وهر لعوب راغبة ورقاش معترضة باذلة... وثم معشوقات أخريات يتحدث عنهن، وقد لا يذكر أسماءهن، فهن الساخطة المناهية،

والناقلة المستأينة والوجلة المنكبة ؛ والقاصرة حبها على رجل واحد ؛
والباذلة نفسها لكثير من الرجال... وفيهن من هي رقيقة الحديث ؛ دامية
الحوار ؛ تسعد معه حتى يغشى عليها من حساسية الموقف فما تستلبح قياما
إلا متكئة على ساعده... وفيهن من لها قوم يغارون عليها ؛ ويحرصون على
قتله إذا لم يحجم... ومنهن من يأتيها ليلا ويدب إليها ديباً متغفلاً أحراسها
وغير عابئ بزوجها... وهناك الحامل والرضع والشابة الفتية والحرّة
والجارية ؛ وبائعة الهوى لكل من يلم يدارها ؛ والويل كل الويل لمن يحل
عندها... ولكل امرأة من معشوقاته صفة لا تتجاوزها عنده .

وهو لا يعرض بالبيان عن مدى نصيب المرأة الواحدة من هؤلاء
المعشوقات الكثيرات ومقدار مالديها من مشاعر ؛ وما عنده من أحاسيس
حين ترضى أو تغضب ؛ أو تسر أو تحزن ؛ وحين تخلص أو تخشون ؛
وحين تقي أو تتنكر... وهو لا يعرض كذلك في غزله للحديث عن عقل
معشوقاته ، وفضاءهن النفسية وجمالهن الروحي غير المرنى (١) .

إن القارئ يستطيع أن يتبين بيسر هذا التوافق الذي يفسر بشيء
واحد فقط شيء معروف لمن يحمل القلم ؛ ويسود الصفحات ؛ ولا يستطيع
مؤلف الكتاب الثاني أن يقول إنه توارد خواطر ؛ لأن المكتوب ليس
بيتاً من الشعر يشترك الناس في معرفة معناه ؛ ولا يستطيع أن يقول إنه
استشهاد ولم يحدد المرجع ؛ لأن النقل يعني التوافق التام في كل كلمة وهو
هنا ليس كذلك !

ثالثاً : لم يقتصر ما قام به محمد سملك من نقل على ما ذكرناه
في الموضوعات السابقة ، وإنما امتد ليشمل فصولاً أخرى من كتابه
الدكتور مكي .

لقد نقل الأستاذ سمك ما ذكره صاحب الكتاب الأول عن الطبيعة
في شعر امرئ القيس وامتد النقل إلى ما كتبه الدكتور مكى عن ميمون
الشاعر ؛ أما ما يتعلق بحياة امرئ القيس فيصعب علينا أن نحدد سارفاً
ومسروقاً ؛ لأن الحقائق التاريخية والروايات الإخبارية ملك للجميع ؛
ومحفوظة في أمهات الكتب مثلها مثل الشواهد الشعرية تماماً ؛ إلا إذا اقترن
الشرح بالشعر ؛ وامتد النقل إليهما معاً ؛ وعند ذلك لا نجد مانعاً من التنبيه
إلى النقل والاختلاس كما حدث في هذه الواقعة التي تحدثنا عنها .

الفصل السادس

كتابات أخرى

كثرت الكتابات والدراسات المتنوعة التي أعدت عن امرئ القيس ابن حجر في العصر الحديث ، وسبق أن تكلمنا عن خمسة مؤلفات تحدثت عن هذا الشاعر ، وإن اختلفت في حجمها ، فنها ما جاء في كتب تاريخ الأدب ، ومنها ما صدر في كتاب مستقل . أما الدراسات الأخرى التي لم نتحدث عنها ، فنها أيضاً ما جاء في كتاب مستقل ، ومنها ما خرج مقروناً بغيره من موضوعات الأدب ، وإنه لمن الصعب علينا أن نخصي هذه الدراسات الحديثة التي تكلمت عن هذا الشاعر ، وإذا جاز ذلك في المؤلفات القديمة ، فلا يمكن الأخذ به في العصر الحاضر حيث كثرت وسائل الطبع في العديد من البلدان العربية وغير العربية ، وإذا ذكرنا كتاباً صدر في بلد فسوف ينبئ عنا ما صدر في بلد آخر ، وإذا حصرنا ما طبع في البلاد العربية فلن نعرف ما طبع في البلاد الأجنبية ، خاصة وأن شعر امرئ القيس قد ترجم إلى العديد من اللغات كما سبق القول .

ولا نستطيع أن نتهض بجميع ما كتب عن واحد مثل امرئ القيس إلا جهة علمية تملك من الوسائل والأدوات الحديثة ما لا يملكه فرد واحد أو مجموعه أفراد ، نظراً لأن ابن حجر شاعر طموح ، وأمير ارتبط اسمه بتاريخ كندة في جنوب الجزيرة ووسطها ، وفي أطراف أخرى منها ، فلذلك اهتمت بنا إلى العديد من الكتب والمجلات التي تحدثت عن هذا الشاعر من الجوانب المختلفة في العصر الحديث (١) .

(١) نذكر من هذه الكتب (امرؤ القيس) لسليم الجندى (دمشق) =

ولنا لتختار من بين هذا السكك المائل (بما ذكرناه أو بما لم نذكره)
أربعة كتب أخرى نتحدث عنها بإيجاز في هذا الفصل .

وقد راعينا في اختيارها البعد الزمني في التأليف واختلاف المنهج
الفكري في العرض والتقديم ، ولأشياء أخرى سيتمعرف عليها القارئ .
بنفسه من خلال مطالعته لهذا الفصل .

== و (امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة) لإيليا الحاوي (بيروت)
و (امرؤ القيس) لرؤف الخوري (بيروت) و (امرؤ القيس بن حجر)
لمحمد حسن علاء الدين (القدس) و (امرؤ القيس) لمحمد العروسي
(تونس) (امرؤ القيس كبير شعراء الجاهلية) رضوان الشهاب (بيروت)
و (زعامة الشعر الجاهلي بين امرئ القيس وعدى بن زيد) (عبد المتعال
الصعيدى) (القاهرة) و (القيصر و امرؤ القيس) نجيب الأرمناوى
(القاهرة) و (الصورة الفنية في شعر امرئ القيس) لسعد الحاوي
(الرياض) و (شعراء النصرانية) لويس شيخو (بيروت ومصر) و (تاريخ
آداب اللغة العربية) لجرجي زيدان (القاهرة) و (أدباء العرب) بطرس
البيستاني (بيروت) ، و (تاريخ الأدب العربي) عمر فروخ (بيروت)
و (تاريخ الأدب العربي) أحمد حسن الزيات (مصر) ، و (شعراء
من الماضي) كامل العبد الله (بيروت) (المفضل في تاريخ العرب)
جواد علي (بيروت وبغداد) و (تاريخ الأدب العربي) بلاشير (دمشق)
و (الرقى المفضلة) كمال أبو ديب (القاهرة) وغيرها كثير .

١ - تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان (١)

سبق أن اعتمدنا على كتاب بروكلمان في بعض الفصول السابقة خاصة في القضايا التي تتصل بمذور الأدب العربي كأوليه الشعر الجاهلي وبواعثه مثل الحب الذي ذكر أنه لم يكن من هذه البواعث على الإطلاق . قال : « أما الحب فإنه لم يكن من البواعث الأصلية للشعر . . . فإننا لا نجد مثل ذلك عند العرب إلا قليلا . (أى مثل ما كان عند العبرانيين القدماء من شعر ساذج الغريزة) كما في نغز امرئ القيس بفامرات من العشق والنظر في لى جانب غير ذلك من أعمال البطولة » .

وقال : ولم نجد للحب والغزل صدى في القصيد إلا في أبيات النسب الذي يصف الجمال المادى وصفاً حسياً . ليس فيه شيء من طرب العاشق ولوعته وذكرىات شبابه وأحبابه » (٢)

وفي حديثه عن قوالب الشعر العربي ذكر امرأ القيس الذي كان

(١) ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، وقد نشر بروكلمان الطبعة الأولى من هذا الكتاب في مدينة فايمر عام ١٨٩٨ في جزئين ، ثم نشر ملحقين كبيرين أضخم من ضعف الجزئين الأولين عام ١٩٣٧ م ونشر في عام ١٩٤٥ م جزءاً ضخماً في تاريخ الأدب العربي الحديث ، وأعاد طبع الجزئين الأولين مصححين عام ١٩٤٣ م وعام ١٩٤٩ م وقد أذن بترجمة كتابه عام ١٩٤٨ م للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، ولم تكتمل حتى الآن ترجمة الكتاب ، إذ لم يطبع منه معرباً إلا ستة أجزاء صدر الأول منها عام ١٩٥٩ م ، ومن المقرر أن يكتمل لإخراج الكتاب في ثمانية عشر جزءاً وكارل بروكلمان مستشرق ألماني توفي عام ١٩٥٦ م .

(٢) بروكلمان تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ٤٩ ، ٥٠ .

واحد من الشعراء الذين تغلب عليهم البحور الطويلة النفس ، إذ يأتي بحر الطويل في المرتبة الأولى ، ثم الكامل والوافر والبسيط ، كما يوجد عنده المتقارب ، ويوجد عنده المنسرح . واستعمل المديد في قصيدة واحدة ولم يذكرها واعتقد أنها القصيدة الطويلة التي قال امرؤ القيس في أولها (١) .

رب رام من بني تمل متلج كفيه في قتره

وقال إن امرؤ القيس من الشعراء الذين لهم قصائد بها أبيات خارجة عن العروض الذي وضعه الخليل بن أحمد ، وما وضعه سعيد بن مسعدة (الأخفش الأوسط) ولم يذكر أمثلة لهذه الأبيات وإن أحال المترجم في هامش الكتاب على مقدمة الجزء الثاني من شرح المفضليات للمستشرق لايل (Lyall) وكرسكو في دائرة المعارف الإسلامية . وعند مراجعة الديوان لأول مرة وجدت به بعض الأشعار الخارجة على القانون العروضي : منها المقطوعة التي قال امرؤ القيس في أولها (٢) :

ابلغ شهاباً وابلغ عاصماً ومالكاً هل أتاك الخبر مال

وفي حديث بروكلمان عن طبيعة الشعر الجاهلي نفي أن يكون هذا الفن قد خضع لمؤثرات أجنبية . وأعتقد أن هذه المقولة لا تعبر عن مجموع الآراء التي تناولت الاختلاف بين العلماء في وقوع هذه المؤثرات وعدم وقوعها ، وإلا فقد قيل إن العرب عرفوا بعض الألوان الغولية من الحبشة ، والمسألة كما قلت محل خلاف بين مؤرخي الآداب .

وتحدث بروكلمان عن بعض القضايا الأخرى المتصلة بالشعر الجاهلي

(١) الديوان ص ١٢٧ وهي القصيدة رقم ١٧

(٢) الديوان ص ٢١٠

وكان شعر امرئ القيس محل استشهاد في أكثر هذه القصايا ، وتأني بغداد ذلك إلى الترجمة التي عقدها بالجزء الأول من كتابه لشاعر كندة الشهير .

ترجمة امرئ القيس .

إننا نعرف سلفاً مذهب بروكلان في الحكم على الشعر الجاهلي ، ولكنه على كل حال لا يقترب من مذهب د. س. مرجليوث الذي كان متحاملاً بدرجة كبيرة على هذا التراث الشعري القديم .

أما ترجمة بروكلان لامرئ القيس فهي مختصرة جداً إذ لم تزد عن خمس صفحات حسب مذهبه في التأليف . ولكن هذه الترجمة على قصرها تعد من أطول التراجم التي عقدت عن شاعر جاهلي في كتابه ، نظيره ترجمات لم تزد عن صفحة . وبعضها مثل ترجمة علقمة بن عبدة والمثلث ، لم تصل كل منها إلى صفحة . وتعد ترجمته لامرئ القيس على صفحاتها المحدودة ذات أهمية كبيرة ، إذ كشفت لنا عن وثيقة واحدة من المستشرقين الذين عرفوا بمواقفهم المتحاملة على الأدب العربي . ولكم على كل حال ليسوا سواء ، ففهم المتحامل ، ومنهم المتصف ، ومنهم الجاحد الخاقد .

وقد بدأ بروكلان في التعريف بشاعرنا فقال إنه (حندج) أو عدى أو مليكة ، وقال إنه قضى حياته في محاولات متكررة بامت كلها بالفشل لإعادة ملك كندة النماية ، وذكر مجموعة من أخباره قال بعدها : « ولا نعرف شيئاً ثابتاً عن حياة امرئ القيس ويريد طه حسين في الأدب الجاهلي أن يرى في تاريخ امرئ القيس مثالا لحياة عبدالرحمن بن الأشعث السكندى ، ووضعها النصاص لإشادة بذكر قبيلته » (١) ولكن بروكلان لم يحدد رأيه

(١) بروكلان تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ٩٨

حول كلام الدكتور طه حسين ، فهل هو راض به ؟ أم معترض عليه ؟
وأغاب ظني أنه نظر إليه كواحد من الأخبار التي جعلت من شاعرنا بطلا
من أشهر أبطال العرب ، ومثلها تماما ذلك القصص الذي تناول حياته منذ
أن كان في كنفه في ديار بني أسد ، يقول الشعر ، وأبوه يهدده ويتوعده ،
ويأمر بقتله ، ويحزن لذلك ثم يفرح بنجاته .

ويدخل أيضاً في دائرة الأخبار المشكوك فيها ما قيل إنه فجر بأحدى
بنات ملك الروم ، فأمر بقتله في أنقرة . وذكر أن قصة موته محترقا ،
لأنه لبس حلة مسمومة منحولة عليه أيضا .

وانتقل إلى شعره فقال « يرى النقاد العرب أن امرأ القيس أول
من استعمل النسب وغيره من «ماني الشعر» في أسلوب القصائد ، ومن
الخصائص العروضية في كثرة استعمال الضرب المقبوض ، وكثرة الإقواء
وكثرة التصريح في غير أول القصيدة » (١) .

وفيما يتصل برواية شعرة قال د ويرجع الفضل في رواية أشعار امرئ
القيس السكتيرة الاضطراب إلى حماد الرواية على وجه الخصوص ، كما يرجع
بعض ذلك إلى أبي عمرو بن العلاء (٢) وإذا قبلنا ما قاله عن حماد فإن
نوافقه على ما قاله عن أبي عمرو بن العلاء . وإن كان قوله (بعض ذلك)
فيما يتصل بأبي العلاء يخفف من مقدار الشك في قدرة هذا الراوي التقدير
ومصادقته . ونختم دراسته عن امرئ القيس بثبت المصادر على اختلاف
تاريخ تأليفها وطبعها ، وجهة الطبع ، ويستطيع القارئ أن يراجع عناية
بروكتان بذكر المراجع في الكتاب المذكور (٣)

(١) المرجع السابق ص ٩٩

(٢) المرجع السابق ص ٩٩

(٣) انظر المرجع السابق ص ١٠٠ ، ١٠١

٢- الروائع (امرؤ القيس) لقواد لإفرايم البستاني

يبدو الجزء السابع من كتاب الروائع والذي كتبه فؤاد البستاني عن امرؤ القيس في صورة كتيب صغير ، ولذا نرى القضايا التي بحثها المؤلف لم تأخذ طابع العمق والتقصي على ما سوف نرى .

لقد بدأ الحديث عن أجداد امرؤ القيس ، ثم تحدث عن أعمامه ، وبحث مصير والده الذي أنجب عدة أولاد أكبرهم نافع ، وأصغرهم امرؤ القيس ، وتحدث عن حياة شاعرنا قبل مقتل أبيه ، وذكر أنه كان ولوعا بالشعر منذ نشأته التي قال عنها : « نشأ امرؤ القيس في الترف والاهور ، شأن أولاد الملوك ، فلم ينقصه أمر من ملذات الحياة ، وكان جميل الطلعة ، وسيا ، مفطورا على الشعر ، فنظمه فتيا ، وتوسع في أنواعه من أوصاف الملاحى والألأاب ، وأيام السرور ، والمغامرات الغرامية بكلام كان يتجاوز أحيانا إلى ذكر أمور أنف منها أبوه ، فنهاه عن قول مثل هذا الشعر ، فلم يذنه ففضب وطرده ، فكان ينتقل في أصحابه ، فإذا صادفوا غديرا تزلوا فيه ، فاصطادوا وأكلوا ، وشربوا الخمر ، وأقاموا في شعر وغناء ، حتى ينضب الماء ، فيحملهم امرؤ القيس إلى غيره » (١) .

ثم تحدث عن حياته بعدمقتل والده ، فبحث عدة أمور في هذا المرحلة من عمره كوصول خبر القتل إليه عندما كان يدمون بأرض الجين أو بأرض الشام ، ثم استمداده للنار ، ومقابله لوفد بني أسد ، وارتحاله للانتقام ، وتحدث عن الفترة التي لقب فيها امرؤ القيس بالملك الضليل وهي التي طلبه فيها المنذر ، ولذا كان شاعرنا ينتقل بين القبائل ، حيث ذهب إلى المموءل ، وارتحل إلى قيصر ، ومات في أنقرة عند عودته .

(١) فؤاد البستاني . الروائع (امرؤ القيس) ص ٣٨٥ ، ٣٨٦

وكتب عن عقيدة امرىء القيس ، وتابع لويس شيخو في القول
بنصرانيته .

وتحدث عن الديوان ، وذكر أن أكثر شعره في الوصف ، وأن
المعلقة هي أشهر شعره ، وأنها الأولى بين المملكات ، فدرسها درساً خاصاً ،
وتكلم عن سبب لإنشائها وأقسامها ، وشهرتها وطبعاتها المختلفة ، وترجماتها
المتعددة .

وبعد ما كتبه تحت عنوان (قيمة شعره) أفضل ما جاء في هذا الكتاب
على صغر حجمه ، وشمولية البحث فيه ، قال : «فضل امرىء القيس في سبقه
الشعراء إلى أبواب كثيرة وتصرفه بمعانيها العميقة ، ساعده على ذلك ترف
شبابه ، ثم تقالبات الدهر عليه ، وتتابع أسفاره ، وهو أوفر الشعور بكل
ذلك يجمعه إلى خيال منبسط وروعة شعره سامية . فسن للشعراء طرقاً
وأساليب تبعوها عن قرب ولما يزالوا مأخوذين بتلك المطالع الجميلة :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي

فقابلك من ذكرى حبيب ومنزل

فكان أول من شخص الأطلال ، وناجها ، وبكى لذكر الأحبة ،
وتبسط في مواضيع الغزل الرقيقة ، مع إطالة الوصف ، واستيفاء جميع
صوره : (١) .

وذكر أنه يمكن التعرف على الأحوال الاجتماعية في عصره من خلال
شعره ، وهذا الأمر واضح في ديوانه ، فأكثر قصائده تصويرون للواقع الذي
عاشه بما فيه من هموم وأحزان . وبما فيه أيضاً من لمحو وترف ومغامرات .
وقد نظر البستاني إلى شيء في شعر امرىء القيس أسماه الوحدة .

الأدبية . وهو لا يقصد بذلك وحدة التعبير أو وحدة الأسلوب . وإنما يقصد وحدة التفكير ووحدة التنسيق . وأبان عن هذا الملمح فقال : وهذا من الموضوعات التي تمس الأدب العربي القديم كله . وبما يعينا بعدم وجوده بعض المستشرقين . وبعض الأخذين من أدبنا مأخذا لأدب الأجنبية . إذ يطلعون على ما فيها من وحدة في التأليف تروقه . ثم ينتقلون إلى أدبنا القديم فلا يرون تلك الوحدة التأليفية المقررة ، فينعون عليه الاضطراب والتناقض . على أن هذا الحكم جائز ، لكنهم يقارنون بين شاعر مثقف (يؤلف) وشاعر لا ثقافة له (ينشد) فيؤدى بهم فساد المقارنة إلى فساد النتيجة ، (١) .

وقد رأى أن في المعلقة (مثلاً) وحدة أسماءها وحدة الشعور أو وحدة التذكار التي يلحها كل من تعمق في درس أكثر المعلقات وما إليها من الشعر الجاهلي المطبوع .

وتحدث عن المآخذ التي اعتمد عليها ، ونقل منها سواء أكانت من الكتب القديمة أم من المؤلفات الحديثة . وهي مع اختلافها وتنوع مناهجها ذات قيمة كبيرة لأنها المفتاح الذي تلج به عالم امرئ القيس .

أما القسم الثاني من هذا الكتاب فكان عبارة عن اختيارات شعرية في أكثر الفنون التي تحدث عنها شاعرنا . وقد نهض البستاني بشرح غريبها . وبيان معانيها مع تقديم لبعض القصائد التي تحتاج إلى شرح وإيضاح .

٣ - تاريخ الأدب الجاهلي (الجزء الثاني)

للدكتور علي الجندى (١)

يعد هذا الكتاب خالصا للحديث عن امرئ القيس وشعره، إلا أن خمس صفحات جعلها المؤلف لشعراء كندة . ولذا صرت أقسام: كيف يكون عنوان الكتاب عن شعراء كندة . ولا يتحدث عنهم إلا في هذه الصفحات المعدودة؟ شيء غريب حقاً !

أما ما كتبه عن امرئ القيس فيقع في حوالى ثلاثمائة صفحة، يتحدث فيها عن أكثر القضايا المتصلة بهذا الشاعر سواء ما كان منها عن حياته . أو عن ديوانته . أو عن ديوانه .

ولقد عرض الدكتور علي الجندى من خلال فصول هذا الكتاب لمعظم ما كتب عن امرئ القيس ، ورد فيها على ما قاله الدكتور طه حسين حول حياته . وعما قاله لويس شيخو عن ديوانته . إلى غير ذلك من القضايا التي سبق بحثها في الفصول المقدمة من كتابنا .

وتحدث عن شعره ، وبدأ يبحث الأصيل والدخيل منه ، ونقل معظم ما قاله القدماء . والمحدثون حول ما فيه من شك واتهام . ولعل هذه المسألة من أهم المسائل التي يجب بحثها وبيانها قبل الحديث عن هذا الشعر .

(١) صدرت الطبعة الثالثة من هذا الكتاب عام ١٩٦٩ . وقد تناول المؤلف في هذا الجزء القسم الأول من شعراء القحطانيين . وهم شعراء كندة .

فقد قال : «وعنى ذلك نقبل كل نص رواه الأصمعي أو المفضل . ومن باب أولى ما انفقا عليه . بشرط ألا يكون هذا النص محلا للظن ، أو الشبهة ، وقد يكون هذا الظن على غير حق ، أو الدافع إليه كيدى بسبب الخصومة الشخصية ... وبالرجوع إلى الديوان نجد أن أظهر الروايات فيه روايتنا الأصمعي والمفضل .

وقد جاء فيهما سبع وأربعون قصيدة ومقطعة . ولكنها لم تسلم كلها من الشك والاحتمال . ولذلك إزاء ما أشرنا إليه سابقا يجب أن يخرج منها كل ما كان للظن فيه مجال . ومن مجموع ما سلم لنا من هاتين الروايتين نستطيع — بعد دراسته — أن نستنتج منه مقياسا فنيا نعرض عليه النصوص الأخرى التي تنسب إلى الشاعر . لنرى في كل منها مدى الاتفاق ومدى الاختلاف . وعلى ضوء النتيجة التي وصلنا إليها يكون الحكم على هذه النصوص بجواز القبول أو بالرفض ، (١) .

ثم تحدث عن سبع قصائد (٢) ومقطوعتين (٣) تطرق إليها الشك من بين العدد السابق الذي رواه الأصمعي أو المفضل . أو اجتماعا على روايته . وبقي بعد ذلك ثمان وثلاثون قصيدة ومقطوعة قال عنها : «وهي في نظري تستحق أن تتخذ أصلا لشعر امرئ القيس حيث لم يتطرق إلى واحدة منها شك أو احتمال من أي رواية مهما كان . وبدراستها يمكن أن نقف على شخصية صاحبها ، وخصائصه الفنية وعلى الأساس الذي

(١) د / على الجندي (تاريخ الأدب الجاهلي) الجزء الثاني ص ٧٢
الأنجلو المصرية ١٩٦٩ م الطبعة الثالثة

(٢) أوقامها : ٨٠٥ ، ١٢ ، ١٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٤٠

(٣) رقاها : ٢٢ و ٤٣

نتهى إليه نستطيع أن ننظر في هذه التسع ، وفي النصوص الباقية من
المائة التي حوّاها الديوان ، وما أضافه الناشر ، بما ورد منسوبة إلى امرئ
القيس ، (١) .

واعتقد أن هذا الرأي من أفضل الآراء التي تفحصت شعر امرئ
القيس لبيان الأصل والبدخيل فيه ؛ وذلك لاعتماده على نقد الرواية
ونقد النص الشعري نفسه (المتن) .

وانتقل المؤلف إلى تحليل هذا الشعر الذي قال بخلوصه للشاعر
وسلامته من الطعن والانتحال ، وقسمه إلى قسمين ، أولهما : شعر المهور
والفراغ ، وثانيهما : شعر الجسد والعمل ، قال : « أما القسم الأول فنجد
فيه امرئ القيس يتنقّى بالتنقل بين المنازل والديار ، وفي جنبات الوديان
والجبال ، مصوراً ، فامراته مع الأطباء والفزلان من بني الإنسان والحيوان
وأوقاتة التي يقضيها في المتعة واللذة ، أما القسم الثاني فشعر يصور —
كذلك — تنقله بين مختلف الأحياء والأوطان ، وفي وسط الصحارى
والقفار ، لاللتعة واللهو كما كان أولاً ، ولكن رغبة في تحقيق آمال طواله
عراض ، (٢) .

وتحدث عن المرأة في شعره ، وعن الطرد والقنص والطبيعة والفخر
والمديح والذم والشكوى والتعسر ، حيث مثل لها ، وشرح نماذج منها
واستخرج خصائص شعره في كل الموضوعات التي عرض لها .

وتحدث عن الشعر المنسوب له سواء ما جاء منه في نسخ الديوان أو
ما جاء في بعض الكتب الأخرى ، وضم إلى ما نسب إليه ، وذكر أن

(١) المرجع السابق ص ٧٥

(٢) المرجع السابق ص ٧٨ ، ص ٧٩

قلة ضئيلة من هذا الشعر ، فيها روح مشابهة لروح امرئ القيس وميوله وأسلوبه ، وهي لم تكن عرضة للظن ، ولا منيرة للشك والاحتمالات ، ومن ثم يجوز أن تكون نسبتها إليه صحيحة .

أما الغالبية العظمى من هذا — كما رأينا في تتبعنا لقصائده ومقطوعاته واحدة واحدة — فتثير الشك والالتام (١) .

وتحدث عن نقد شعره ، فذكر آراء السابقين فيه . واستخرج منه كثيراً من الصور البلاغية مثل التشبيه والاستعارة ، وجعلهما من المحسنات ، ثم تكلم عن الكناية والرمز والطباق والمقابلة والجناس والترصيع والتكرار والاتساع ، والتنميم والإشارة والإرداف والمبالغة والإيغال إلى غير ذلك من الخصائص والصور البلاغية .

وقال إن ما ذكره الشاعر من الصور الشعرية مأخوذ من ألوان الحياة في عصره ، سواء ما اتصل منها بالإنسان أو الحيوان أو بالمظاهر الأخرى للطبيعة وقال : « ومهما يكن فإن التعبير عند امرئ القيس يبين أن الشاعر كان يملك ثروة كبيرة من الألفاظ والعبارات ، وكان يحسن التصرف فيها ، ويجيد وصفها وصنعها في دقة وإحكام ، كما يدل على أنه كان على علم بما تتضمنه هذه الكلمات من معان وأفكار ، وأنه كان دقيق الحس بما فيها من تنميم موسيقى ، وأنه كان يجيد اختيار أنسب الألفاظ وأحسن العبارات ، ويضعها في مواضعها الصحيحة إلا في القليل النادر » (٢) .

(١) يشمل هذا الحكم القصائد التي رواها الأحمسي أو المفضل ، وسرى الشك إليها ، أو القصائد التي لم يروها واحد منهما ، أو الشعر الذي نسب إليه .

(٢) د/على الجندی تاریخ الادب الجاهلی ٢٣ ص ٢٦٤

وتحدث عن بحوره الشعرية ، وقال إنه كان شغوقا ببحر الطويل
الذي قال فيه ما يقرب من ثلاثة أرباع المجموعة الشعرية المدروسة ، كما
تمّنى اللام في مقدمة الحروف التي جعلها رويًا لقصائده ومقطوعاته .

ثم ختم كلامه بالحديث عن مدى دلالة التعبير على الحالة النفسية
للشاعر وذكر أن القصائد التي تبدأ وتنتهي بحالة نفسية غير طبيعية للشاعر
فلا تبدأ بمقدمات في الاطلال ونحوها ، بل كان الشاعر يدخل فيها يريد
أن يعرضه مباشرة كالقصيدة الحادية عشرة التي تفيض بالجزون واليأس
واخفاق المرة ، إذ بدأها بقوله (١) :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب
ويندب فيها حظه عندما يقول :

وقد طوفت في الآفاق حتى رصيت من الغنيمة بالإياب
وقال المؤلف : « ومن ثم نجد أن أسلوبه في التعبير وطريقته في
العرض مما يساعد على معرفة حالة الشاعر النفسية » (٢) .

ولا شك في أن هذا الكتاب من أفضل الكتب التي تحدثت عن
أمرى القيس في العصر الحديث ، ومن الأجدر أن يستقل الشاعر بهذا
الكتاب ، وأن يخفف المؤلف من النقول الكثيرة التي امتلأت بها بعض
الفصول ، وأن توجه جل العناية — فوق ما ذكر — إلى تحليل الشعر ،
وبيان قيمته الفنية . على أن هذه الهنات البسيطة لا تقدر في قيمة الكتاب
الذي نجح المؤلف من خلاله في تقديم وجهة نظره حول أمرى القيس
وشعره .

(١) المرجع السابق ص ٢٩١ (٢) المرجع السابق ص ٢٩٢

٤ - تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)

للدكتور شوقي ضيف (١)

تحدث الدكتور شوقي ضيف عن امرئ القيس وشعره في أربعة وثلاثين صفحة من كتابه المذكور . بدأها بالكلام عن قبيلة الشاعر وأسرته ، ثم تحدث عن حياته ، وهي القضايا التي تكرر الحديث عنها من زوايا مختلفة ، ومن خلال وجهات نظر متباينة وإن كانت وجهته واضحة في وصف الأخبار التي تحدثت عن امرئ القيس بعد مقتل أبيه بالانحلال . ويرأى أن ما قاله الدكتور طه حسين حول تمثيل القصص الذي تناول حياته بأنه تمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث ضرب من المبالغة والخيال البعيد .

وتحدث عن ديوان الشاعر وطبعاته المتعددة ، وبخاصة الطبعة التي أخرجهامحمد أبو الفضل إبراهيم عام ١٩٥٨م ، وارتضى أن يناقش الديوان على رواية الأصمعي ، ولهذا رفض ما عداها ، قال : « ولأن فالرواية التي ينبغي أن تناقش الديوان ونفحصه على أساسها هي رواية الأصمعي ، وقبل أن نلاحظ الشبه العامة التي تحوم حول شعر امرئ القيس ، ولعل أهمها ما جاء على لسان الأصمعي نفسه إذ روى عنه أنه كان يقول : « كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا أننا سمعناها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء ، وحماد في أشعاره يقابل ابن الكلبي في أخباره ، فأكثرها من منحو له ، (٢) » .

(١) خرج هذا الكتاب في عدة طبعات منها التي تتعامل معها هنا ، وفي الفصول السابقة ، وقد صدرت هذه الطبعة (السابعة) عام ١٩٧٦م .
(٢) د/ شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ص ٢٤٤ - دار المعارف عام ١٩٧٦م الطبعة السابعة .

وأورد بعض المسوغات التي تجعل شك في رواية الأصمى مقبولا ، مع قناعته بهذه الرواية ، ورضاه بأن يدرس الديوان من خلالها ؛ ولذلك نراه يعرض القصائد والمقطوعات التي اشتملت عليها هذه الرواية واحدة واحدة ، ويقول بكل شك تسرب إليها ، وبدأ بالحديث عن المعلقة ، وقبل بشك الأصمى في أربعة أبيات منها ، والتي فيها بعض الرواة إلى الصعلوك (تأبط شراً) .

ولئن اتسألت أيضاً ، إذا كان الدكتور شوق قد قبل كل ما قيل عن هذه الرواية من شك ونحل ، فلماذا لم يورد ما تسرب إلى المعلقة أيضاً من هذا الشك ... ألم يزعم بعض الرواة أنها ألحقت بشعر امرئ القيس وأنها لبعض القرنين ١٩ ؟

لم يبق من رواية الأصمى صحيحا عنده إلا المعلقة واللامية والثانية ، والقصيدة الحادية عشرة (أرانا موضعين لأمر غيب) والمقطوعة السابعة والعشرون (ديمة هطلاء فيها وطف) ، لأن هاتين الأخيرتين من رواية الأصمى عن أبي عمرو بن العلاء . وشك في بقية القصائد والمقطوعات من هذه الرواية بينما رفض ما جاء في الروايات الأخرى .

وتحدث عن شعره من خلال ما اختاره من رواية الأصمى ، وعرض لما جاء فيه من موضوعات ، ثم قال : « وأكبر الظن أنه قد انضحت الآن الموضوعات الأساسية التي كان ينظم فيها امرؤ القيس شعره قبل مقتل أبيه ، وهي التشيب ، والنزل القصص الصريح ووصف الطبيعة المتحركة بما فيها من خيل ووحش والطبيعة الصامتة بما فيها من أمطار وسمول ، فذلك هي الموضوعات التي تستغرق أشعاره الأولى ، وتجمعها المعلقة جميعاً بينما تقف المطولة الثانية (الأعم صباحاً أيها الطلل البالي)

عند التشبيب والقصص المأدى ، ووصف الوحش والفرس ، وهو في أثناء وصفهما يعرض لصيده ، وما يحده فيه من لذة ومتاع ولهو، (١).

تم أبان عن قيمة شعره فقال «هو الذى نهج الشعراء الجاهليين من بعده الحديث في بكاء الديار والغزل القصصى ووصف الليل والحيل والصيد والمطر والسيول والشكوى من الدهر ، ولعله سبق بأشعاره في هذه الموضوعات ، ولكنه هو الذى أعطاها النسق النهاى مظهراً في ذلك ضروباً من المهارة الفنية ، جعلت السابقين جميعاً يجمعون على تقديمه» (٢).

وتحدث عن تراكم التشبيه في شعره الذى استمد من واقعه الحسى ، ومثل لذلك بالعديد من النماذج بينما كانت الاستعارة قليلة في أشعاره ، ولكنها على كل حال مبثوثة فيها . كما أنه يعنى بالتلاؤم بين ألفاظه . كما يعنى أيضاً بالوسيقى . وإن اشتمل شعره على بعض العيوب في الوزن والقافية مثل الإقواء الذى جاء في قوله :

كان أبا ناس في أناسين ودقه كبير أناس في نجاد مزمل

فاللام مضمومة في (مزمل) حسب القياس النحوى . ولهذا اختلفت حركة الروى إذ أنها مجرورة في بقية القصيدة ، وإن كان هذا قليلاً في شعره . وقد ختم الدكتور شوقي ضيف حديثه عن هذا الشاعر بقوله : «والحق أنه يعد أبا الشعر الجاهلى بل للشعر العربى جميعه . فقد استوى عنده في صورة رائمة سواء من حيث سبقه إلى فنون أجاد فيها أو من

(١) المرجع السابق ص ٣٥٨

(٢) المرجع السابق ص ٣٦٠

حيث قدرته على الوصف والتشبيه . وقد مضى يعنى بأخيلته ومعانيه
والفاظه مما تجده مائلا في استعاراته وبعض طباقاته ، وجناساته . وبذلك
أعد الشعراء من بعده للعناية بحلى معنوية ولنظمية مختلفة (١) .

وهكذا أنصف الشاعر الذي افتقد شعره الإنصاف من بعض النقاد
المحدثين .

الخاتمة

١ - لقد اعتنى القدماء والمحدثون على السواء بشعر امرئ القيس، ولعل ذلك راجع إلى عدة أسباب منها موهبة الرجل وقدرته على تقديم صياغة شعرية جديدة في عصره، لم يكن الشعراء قد طرّقوها أو تعرّفوا عليها، ثم رأوا طريقته فاتبعوه فيها، ولهذا صار أميراً للشعراء، كما يقول الناس في العصر الحديث. وساعد على تلك العناية ارتباط الشاعر بقبيلته (كندة) التي نزحت من الجنوب إلى الشمال، وصار حديثه عنها ضرباً من العصبية الصادقة التي كان يحياها الجاهليون، خاصة وأن هذه القبيلة قد ظهر فيها أكثر من شاعر سبق امرئ القيس، وهم الذين يمثلون مع غيرهم طفولة الشعر العربي أو صباه المبكر، وبعضهم عاصر الشاعر وتصادق أو اختلف معه، ولهذا انعكس هذا التأثير البقي على شعره، والأهم من ذلك كله أن امرئ القيس قد ولد في نجد ونشأ بها، وعبر عن شبابه بين ربوعها وأسهم في وصف ديارها. وكان الإخباريون يهتمون برواية كل شاعر عاش في نجد، ولذلك كثرت الروايات التي تناقلت القصائد والمقطوعات، وزادت بالتالي نسخ الديوان التي تشكلت فيما بعد من مجموع هذه الروايات.

٢ - لقد كثرت الكتابات التي تحدثت عن الشاعر عند القدماء، من ناحية النظر في شعره والحكم عليه من واقع المعايير النقدية التي كانت سائدة في العصور القديمة.

ورأينا كيف اختلفت هذه الكتابات بين مؤلف وآخر. وقد كتب عنه ابن سلام الجعفي وابن قتيبة، وأبو الفرج والمزني والباقون، ومؤلفون آخرون الذين اختلفوا في أحكامهم، فتحدثوا عن حياته

أو شعره ، أو عنهما معا . وسبق أن تكلمنا عن كثير من فصول سابقة .
ونؤكد أن مؤلفات هؤلاء السابقين لم تكن كل التي كتبت عن الشاعر ،
بل هناك العديد من الكتب الأخرى التي تناولت شعره أو جانباً منه بالنقد
والتحصيل . وأشهرها عيار الشعر لابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ) وكتاب الصنائع
لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) والعمدة لابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) وسر
الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) . وغيره كثير .

أما الدراسات الحديثة فكانت أكثر وأشمل ، وبعضها جاء في صورة
جزء أو فصل من كتاب ، وبعضها جاء في كتاب مستقل ، وقد تحدثنا عن
خمسة منها أنردنا كل واحد بفصل خاص ، وهي لمصطفى صادق الرافعي ،
والدكتور طه حسين ، ومحمد صالح سملك ، والدكتور محمد صبرى السريوني
والدكتور الطاهر أحمد مكي ، ثم تحدثنا عن أوبة كتب أخرى جمعنا بينها
في فصل خاص ، ولم نطل الكلام فيها خوفاً من التكرار ، لأن كثيراً من
الكتب القديمة والحديثة أيضاً ، والتي ترجمت لأمري . القيس كررت التماذج
الشعرية . وتناقلت القضايا النقدية المتصلة بشعره ، وصارت حياته بعد
استعراض عدة كتب بفصول هذا الكتاب وانضم تماماً سواء ما كان منها
متفقاً عليه أو متنازعاً حوله . أما الكتب الأربعة التي تحدثنا عنها في فصل
خاص فهي لكارل بروكلمان . وفؤاد البستاني والدكتور علي الجندي
والدكتور شوقي ضيف .

٣ — لاشك في أن الفرق كبير جداً بين مناهج القدماء ومناهج المحدثين في
تناولهم لشعر أمري . القيس . فنقد الأولين نقد ذاتي ونظري وغير معطل
غالباً إلا من كرات وجل بسيطة كانوا يقدمون بها لحدسهم عن هذا الشاعر
كأن يقولوا : سبق العرب إلى أشياء . ابتدعها واستجستها العرب ، وابتعته
فيها الشعراء . كاستيقاف محبته ، والتبكا . على الديار ورقة النسيب وقرب
المأخذ ... أو أن يقولوا هو أشعر الناس في الجاهلية أو أشعر الشعراء ،
أو أحسن الجاهلية تشبيهاً إلى غير ذلك من الأقوال المرسلة ، وكان هؤلاء

يتناقلون الروايات التي يمتدح بها الشاعر أو ينتقد فيها شعره مدحا ، أو ذمّا .

أما نقد المحدثين فقد خضع في أول هذا القرن الميلادي للدوروث القديم ، وتمايع بعضهم مثل الرافعي ابن رشيقي في كتابه العمدة ، فنقل عنه كثيرا من تلك الآراء القديمة ، وإن أضاف إليها رؤية وتصويرا جديدا يختلف في أكثر جوانبه عن فهم القدماء لشعر امرئ القيس ، ثم انتقل النقد فيما بعد إلى مرحلة جديدة متطورة في فهم الشعر وتحليله لمساتها في بعض المؤلفات الحديثة . مثل كتاب الدكتور محمد صبري السريوني وكتاب الدكتور علي الجندي . وتعطى من خلال ذلك بالمقدمة الطويلة التي كان الشاعر (مثل غيره من الجاهليين) يفتتح بها بعض قصائده . أما القدماء فلم يضيفوا شيئا فوق ما ذكره ابن قتيبة في مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) من أنها مجرد افتتاح للقصيدة . أما المحدثون فقد توسعوا في فهم الطلل ، ولم يسكتوا عما سككت عنه القدماء ، ورأوا أن الشاعر قد تطور باستعماله إلى أبعد من تسخير لبيد القصيدة . فربطه بعضهم بالنزل ، وجعله آخرون تعبيرا عن نفسية الشاعر لزاء الموقف الذي قال فيه القصيدة ، أو أنه تعبیر عن حيرة الشاعر أمام معميات الحياة أو تصوير للأساة الزمن ، واليأس من الخلاص واستغراق الفناء لجميع ما في الكون إلى غير ذلك من الأقوال المبسطة في الكتب الحديثة .

٤ — لقد ارتبط الحديث عن امرئ القيس بقضية قديمة متجددة هي أولية الشعر ، وتأكد أنه لم يكن أول الشعراء بل سبق بعدد منهم ، وهم الذين مثلوا الطفولة الحقيقية لهذا الفن ، وربما كان منهم ذلك الشاعر المجهول الذي عرف بابن خنزام . أو باسم قريب من ذلك ، مع أن المرحلة التي تقدمت على امرئ القيس لا زالت مقرونة بالضبابية والخفاء ، ولذا تضاربت أقوال القدماء والمحدثين عن هذه الفترة ، وقد أسرنت المرويات القديمة في الحديث عن طفولة الشعر الجاهلي ، فذكرت عددا من الشعراء

القديما الذين شك فيهم ابن سلام وغيره ، وارتبطت بالحديث عن هذا الشاعر أيضا قضية (أفضل الشعراء) ، ونقيل ابن رشيقي كثيرا من النقول التي تجعل أمراً القيس أفضل الشعراء ، وأورد نقولا أخرى تجعل من غيره أفضل الشعراء ، وإن كانت الكثرة قد مالت الى تفوق شاعرنا على الكثرة الجاهلية في أكثر الفنون الشعرية حيوية وذيوغا واستمالا .

ورأى أكثر القديما أن معظم الشعر يعود الى الوصف، فكان شاعرنا مقدما في هذا الفن سواء ما اتصل منه بعناصر الطبيعة أو غيرها عما وقع تحت هذا الغرض، إلا أن الحكم الذي ارتضاه بعض القديما وأكثر المحدثين يجعل الشاعر مفضلا على غيره في واحد من فنون الشعر ، ويجعل شاعرا آخر مفضلا على غيره في لون أو غرض آخر من الأغراض .

هـ — لقد تفوق امرؤ القيس في الغزل وما يتصل به من وقوف على الأطلال ، وبكاء على الديار ، كما تفوق في وصف الفرس التي استعملها العرب للحرب أو الصيد أو الزينة ، وأنه سبق إلى أشياء كثيرة خاصة ما اتصل منها بضوح التشبيه وسبك الاستعارة وجودة الوصف ، وأنه جعل من ديوانه صورة حياته وحياة قبيلته كندة بديار بني أسد في نجد . وقد انعكست همومه وأحزانه على الكثير من القصائد والقطوعات لجاءت معبرة عن مأساته في الحياة . أما ما جاء في ديوانه من ثغز ورناء ومدح وهجاء وغيره ، فقد كان الشاعر فيه قصير النفس إذ لا يرتبط أكثر شعره في هذه الموضوعات إلا بمواقف طارئة في مسيرة حياته . ولذا أغفل البعض الحديث عن هذه الموضوعات الأخيرة ، وقصر شعره على الأطلال والغزل والوصف والمحموم والأحزان . ونؤكد أن المعلقة واللامية النائية يصوران موهبة الشاعر أفضل تصوير ، ويكشفان عن النواحي التي برز فيها ، وتفوق بها على الشعراء الجاهليين .

٦ — إذا كان الشاعر قد ارتبط من خلال فنه بعدة قضايا مثل أولية الشعر، وأفضل الشعراء وغيرها، فإنه ارتبط أيضا بقضية الوضع في الشعر الجاهلي، وأن القدماء قد تنبهوا إلى «هذه القضية» وبسط بعضهم — مثل ابن سلام — القول فيها، ودلل عليها بحجج قوية، ورأى النحل عند القدماء حقيقة واقعة، وأن بعض العشائر قد استقلت شعر شعرائها، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسنة شعرائهم، ثم جاء الرواة فزادوا في الأشعار التي قيلت، وأنه يسهل على أهل العلم معرفة ما زاد الرواة ووضع المولدون.

ولذا اجتمع العلماء والرواة الموثوق بهم على إبطال شيء من الشعر، فليس لأحد أن يخرج على هذا الاجتماع، أما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج عنه.

وكان ابن سلام أول من وسع الكلام في الانتحال، وفصل في هذه القضية، وحذا البعض حذوه، حتى جاء العصر الحديث، فتوسع المستشرقون في بحث هذا الموضوع، وأصرقوا في الشك، حتى وصل بهم الحال إلى رفض هذا الميراث الضخم، وسأيرهم بعض العرب في هذا الرفض، وإن لم يكن في صورة الرفض التام الذي دعا إليه المستشرقون من أمثال مرجليوث.

ولا يقول أحد بأن ما في ديوان امرئ القيس خالص له، ففيه بعض القصائد والمقطوعات التي شك القدماء فيها، ووصوها بالوضع أو النحل، أو نسبوها إلى غيره من الشعراء.

كما أن في الديوان أيضا بعض القصائد التي سككت القدماء عنها، مع أن أبياتها لا تتوافق مع شعر امرئ القيس في أي شيء.

٧ — إن أكثر التفاصيل التي تتعلق بحياة الشاعر ليست محل اتفاق بين

القدماء أو بين المحدثين . لقد اختلفوا في أمور كثيرة ، مثل أمه ومخاله وزوجاته ، وانتقامه من بنى أسد ، وذهابه إلى قيصر ، وأرن هذا الاختلاف قد دفع الدكتور طه حسين إلى الشك في شخصية امرئ القيس ، ورأى أنها تصوير أو تمثيل لحياة الشاعر السكندى عبد الرحمن ابن الأشعث ، ودفعه هذا الشك إلى شك آخر يتمثل في إنكار شعره إلا المعلقة واللامية الثانية ، ثم عاد فشك فيهما أيضا .

أما القدماء فلم يصلوا بخلافاتهم حول الشاعر وشعره إلى هذا المستوى من الشك وإن تناقلوا بعض الأخبار التي تتضارب مع نفسها مثل الروايات التي ذكرها صاحب الأغاني عن المسكان الذي وجد فيه أثناء قتل والده ، وعن الموضع الذي مات فيه امرؤ القيس ، وعن العلة التي مات بسببها .

وربما كانت هذه الخلافات غير ذات موضوع لكنها إذا انعكست على قصايا أخرى شكلت أمرا مهما جدا ، فالذي يرفض ذهاب الشاعر إلى القسطنطينية (مثلا) لا يمكن أن يقبل منه أن يذكر في شعره شيئا عن هذه الرحلة ، كما أنه لا يقبل أيضا ذلك الشعر الذي قاله حول تنقله بين القبائل مادام لا يقر بهذا التنقل ولا يعترف به .

٨ - لقد عرض القدماء - كما تحدثنا في الباب الثاني - لشعر امرئ القيس وحياته ، وأرن هذا العرض قد اختلف من كتاب لآخر ، ففي كتاب ابن سلام الجعفي رأينا كيف تحدث عن الشاعر من خلال الطبقة الأولى التي تضم معه ثلاثة آخرين من غول الشعراء الجاهليين ، وهم زهير والناطقة والأعشى .

ووضح لنا أن نظام الطبقات الذي أخذ به ابن سلام لم يستطع معه أن يكشف عن أوجه الشبه التي تجمع بين هؤلاء الفحول الأربعة . وإن كانت عنايته بامرئ القيس قد فاقت عنايته بالآخرين ، حيث تحدث عن

بخصائص شعره ، ومثل له بالعديد من الشواهد التي استدلت بها على هذه الخصائص ، وذكر أنه كان أحسن الجاهلية تشبيها ، واختار له عددا كبيرا من الأبيات الشعرية التي تراكم فيها التشبيه الحسى ، والذي تميز به امرؤ القيس ، وتحدث عن الوصف في شعره ، ومثل له بوصف الفرس والمعزى والمطر بعض ومظاهر الطبيعة الأخرى .

بينما ترجم ابن قتيبة للشاعر على غير نظام الطبقات الذي أخذ به سلفه ابن سلام ، وجعله أول الشعراء المترجم لهم في كتابه (الشعر والشعراء) وكانت ترجمة شاعرنا أوسع التراجم بهذا الكتاب ، واعتمد في بعض ما ذكره بهذه الترجمة على ما قاله صاحب الطبقات ، ولئن أضاف إلى ما نقله بعض الرؤى الجديدة التي تسير حركة النقد المتطورة في القرن الثالث الهجرى ، وكان ابن قتيبة من أوائل القدماء الذين توسعوا في الحديث عن حياة امرئ القيس ، وذكر رأى والرأى الآخر فيما يتصل ببعض القضايا المختلف فيها مثل نسبة ، وموقفه من المرأة . وطاب على الشاعر تفاخره بالبيت والمجون ، وحديثه عن مغامراته مع المرأة بصورة مكشوفة .

أما أبو الفرج فقد وجد في أخبار الشاعر مادة صالحة لأن يصوغ منها ترجمة له بكتاب (الأغاني) . ومثل له بالعديد من الشواهد الشعرية المتصلة بمسيرة حياته ، وحرص على ذكر الروايات المرتبطة بالموضوع الذى يتحدث عنه ، ولذا رأينا كل من ترجم لحياة الشاعر لم يغفل كتاب أبى الفرج كأهم مصدر ذكر — بالتفصيل والروايات الموثقة — أخبار امرئ القيس .

وعرض صاحب الأغاني لقضية الاتهام عرضا سريعا من خلال قصيدة شك فيها ، وذكر أنها منجولة ، لكن السمة الغالبة على هذه الترجمة أنها ترجمة إخبارية وليست دراسة نقدية .

ولا نستطيع القول بأن كتاب الموشح للبرزباني قد أضاف جديداً إلى دراسة امرئ القيس وشعره، ولأننا أن أكثر الأخبار والروايات التي ذكرها لم يرقم فيها بدور يتجاوز الجمع والترتيب ، وإن أطال القول في التعليق على بعض الروايات التي ذكرها القدماء باختصار ، فأضاف إليها بعداً جديداً .

أما الباقلاني فقد انتقد نصف أبيات المعلقة تقريباً ، ليؤكد بذلك - وبغيره أيضاً - على إيجاز القرآن ، وقد بان تحامله على الشاعر ومعرفته ، مع أن الموازنة بين القرآن والشعر متقوضة أساساً لكن الرجل قد أقصر لامرئ القيس بجودة بعض المعاني .

أما الكتب الأخرى التي عرضت لشعر امرئ القيس مثل كتاب العمدة وكتاب عيار الشعر وغيرها - وهي المؤلفات التي لم نخصها بتحديث مستقل - فلم تأت بجديد والتناقل بينها وبين الكتب الأخرى قائم وملحوظ ، ولذلك اكتفينا بالبحث الذي يغني عن الكل .

٩ - أما المحدثون فقد توسعوا في بحث الشاعر وحياته وانصرفوا لدراسة الشعر وتقدمه ، وقلت عنايتهم بأمور الحياة التي أفاض فيها القدماء ، وأفاض فيها أيضاً بعض المحدثين ، وجمع الرافعي في كتابته عن امرئ القيس بين النقل عن القدماء والأخذ بالرؤية الجديدة في النقد .

أما الدكتور طه حسين فقد شك في الشعر الجاهلي على إجماله ثم قبل بعضه ، وشك في شعر امرئ القيس ، ثم اختار له قصيدتين ، فتحدث عنهما ، ثم شك فيهما أيضاً .

ولقد أبنا عن رؤيته للاتجاه ، الذي قال به بعض القدماء من أمثال ابن سلام ، ولا تفصل رؤيته إلى مستوى الرفض الذي قال به بعض المستشرقين من أمثال مرجليوث .

ولقد نهض الكثيرون بالرد على الدكتور طه حسين فيما يتصل بشككه
فى الشعر الجاهلى بعامة وامرى القيس بخاصة .

أما الأستاذ محمد صالح سمك فقد أعد كتابا كبيرا عن امرىء القيس
كأمير للشعر فى العصر الجاهلى ، ويبحث فيه أمورا كثيرة لم يبحثها أحد
قبله - فيما نعتقد - وأفاض فى دراسة شعر امرىء القيس، وإن توسع
فى قبول أكثر ما روى له ، مع أن بعضه محل شك ، لعدم مطابقتها
لأكثر القصائد والمقطوعات التى قالها الشاعر ، ولكن ذلك لا ينقص من
قيمة الكتاب الذى ألف عن شاعرنا منذ ما يقرب من ستين عاما .

ولقد قدم الدكتور محمد صبرى كتابا عن امرىء القيس جعل عنوانه
(الشراخ) وكان شاعرنا أولهم ، وعرض لموضوعات شعره بصورة لم
يقلد فيها أحدا ، ولكن كتابه مع أهميته ينقصه بعض ما كان يجب قوله
عن هذا الشاعر .

وعرض الدكتور الطاهر أحمد مكي فى كتابه (امرؤ القيس حياته
وشعره) لبعض ما عرض له السابقون ، وقدم كتابه فى صورة منظمة
مرتبة ، واعتنى بشرح الشعر والإكثار منه ، وعالج الأعراف الكتابية
فى عدم التزامه بذكر المراجع كاملة ، وأعطى عناية خاصة لموضوعات الشعر
وفنونه ، وقدم صورة واضحة للملاح الأطلال ومظاهر الطبيعة المتحركة
والساكنة ، وكشف عن دواعى الأحران والهموم عند الشاعر ، وجمع
بين النقد القديم والنقد الحديث فى دراسه الشعر ، وجرد الكتاب من
أكثر الأساطير التى تمتلأ بها الكتب التى تحدثت عن امرىء القيس ،
وكتاب جدير بالبحث والقراءة .

أما الكتب الأخرى التى تحدثنا عنها فى الفصل الأخير ، فلا تجمع
بينها هوية واحدة ، فإسكل واحد منها منزع خاص ، حيث اختلفت فى

مقدار حديثها عن الشاعر ، وفي زمن تأليفها ، وفي طبيعة التأليف نفسه .
ولكنها على إجمالها تسهم في رسم الصورة الواضحة لامرئ القيس .

وإذا كنا قد تحدثنا عن تسعة مؤلفات حديثة بين التفصيل في خمسة
والإجمال في أربعة أخرى ، فإن ذلك العدد لم يكن هو كل ما تحدث
عن هذا الشاعر .

ولقد ذكرت أمثلة أخرى للعديد من المراجع التي تناولت حياته
وشعره ، وإن تلك العناية الزائدة من قبل بعض المحدثين لم تكن إلا تعبيراً
عن أهمية امرئ القيس كأمر الشعر ، وسيقته للشعراء في أمور كثيرة
استحسنوها منه ، واتبعوه فيها . ولذلك لم ينازعه أحد في إمارته للشعراء
الجاهليين .

الطائف في شوال ١٤٠٨ هـ (يونيو سنة ١٩٨٨ م) .

أهم المصادر والمراجع

- الأمدى، (أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدى).
- ١ (الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد .
• إبراهيم، (طه أحمد إبراهيم).
- ٢ (تاريخ النقد الأدبي عند العرب (من العصر الجاهلي إلى القرن
الرابع)، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
الطبعة الأولى.
- إبراهيم، (محمد أبو الفضل إبراهيم).
- ٣ (ديوان امرئ القيس . دار المعارف بمصر ١٩٨٤ م : الطبعة الرابعة .
• ابن الأثير . (ضياء الدين بن الأثير).
- ٤ (المثل السائر في أدب السكاك والشاعر . جزءان . تحقيق محمد يحيى الدين
عبد الحميد . مطبعة الحايي بمصر ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .
- الأسد، (دكتور ناصر الدين الأسد) .
- ٥ (مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية . دار المعارف بمصر ١٩٧٨ م
الطبعة الخامسة .
- الأصفهاني، (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد).
- ٦ (كتاب الأغاني : (مصور عن طبعة دار الكتب) .
• أمين، (أحمد أمين) .
- ٧ (النقد الأدبي (جزءان) . مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٢ م -
الطبعة الرابعة .
- أمين، (دكتور بكرى شيخ أمين) .

- ٨ (المملقات السبع . دار الإنسان الجديد . بيروت ١٩٧٤ م .
• الباقلائي . (أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي) .
٩ (إعجاز القرآن . تحقيق السيد أحمد صقر . دار المعارف بمصر ١٩٧٢ م
الطبعة الثالثة .
• بدوي (دكتور أحمد أحمد بدوي) .
١٠ (أسس النقد الأدبي عند العرب . دار نهضة مصر ١٩٧٩ م .
• بروكلمان (كارل بروكلمان) .
١١ (تاريخ الأدب العربي ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، الجزء
الأول . دار المعارف بمصر ١٩٨٣ م الطبعة الخامسة .
• البستاني (بطرس البستاني) .
١٢ (أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام . دار مارون عبود ، بيروت
١٩٧٩ م .
١٣ (كتاب دائرة المعارف . المجلد الرابع . تهران تاحصر خسرو .
• البستاني (فؤاد إبراهيم البستاني) .
١٤ (الروائع (امرؤ القيس) منتخبات شعرية ، دار المشرق . بيروت
١٩٨٦ م الطبعة الحادية عشرة .
• البطل (دكتور علي البطل) .
١٥ (الصورة في الشعر العربي — حتى آخر القرن الثاني الهجري . دار
الاندلس ١٩٨٠ م الطبعة الأولى .
• بلاشير (دكتور ريجيس بلاشير) .
١٦ (تاريخ الأدب العربي . ترجمة الدكتور إبراهيم السكيلائي . دار الفكر
بدمشق ١٤٠٤ هـ ١٩٨٣ م الطبعة الثانية .
• ابن أبيهيد (ابن بليهد النجدي) .

- (١٧) صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار (جزءان) تحقيق محمد يحيى الدين عبد المجيد ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م الطبعة الثانية .
- البيهقي (دكتور نجيب البيهقي) .
- (١٨) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري . مكتبة الخانجي بمصر .
- البيهقي ، (دكتور محمد رجب البيهقي) .
- (١٩) موقف النقد الأدبي من الشعر الجاهلي (من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض) .
- النبريزي (أبو زكريا يحيى بن علي محمد النبريزي) .
- (٢٠) شرح القصائد العشر . تحقيق عبد السلام الحوفي ، دار السكتبة العلمية . بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م الطبعة الأولى .
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) .
- (٢١) البيان والتبيين . تحقيق حسن السندوي ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة . ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م . الطبعة الرابعة .
- (٢٢) الحيوان . تحقيق محمد عبد السلام هارون مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ، ط الثانية .
- جاد المولى (محمد أحمد جاد المولى) .
- (٢٣) أيام العرب في الجاهلية . دار الفكر .
- الجبروري (دكتور يحيى الجبروري) .
- (٢٤) الشعر الجاهلي . خصائصه وفنونه ، دار الحرية ببغداد .
- الجرجاني (علي بن عبد العزيز الجرجاني) .
- (٢٥) الوساطة بين المتنبي وخصومه . تحقيق محمد أبي الفضل وآخر . مطبعة عيسى الحلبي بالقاهرة .
- الجمحي (محمد بن سلام الجمحي) .

(٢٦) طبقات لحول الشعر ، تحقيق محمد شكري (جزءان) مطبعة المدني بالقاهرة ١٩٧٤ م .

• الجندى (دكتور على الجندى) .

(٢٧) تاريخ الأدب الجاهلي ، الجزء الثاني (شعراء كندة) . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٩ م الطبعة الثالثة .

• الحاوي ، (إيليا الحاوي)

(٢٨) فن الوصف وتطوره في الشعر العربي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨٠ ط الثالثة .

(٢٩) في النقد والأدب (الجزء الأول) دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩ م الطبعة الرابعة .

• أبو حديد (محمد فريد أبو حديد) .

(٣٠) الملك الضليل . دار المعارف بمصر ١٩٤٤ م

• حسين (دكتور طه حسين) .

(٣١) في الأدب الجاهلي ، دار المعارف بمصر ١٩٨١ م — الطبعة الرابعة عشرة .

(٣٢) مقدمة كتاب نقد النثر لقدماء بن جعفر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م .

• حسين (السيد محمد الخضر حسين) .

(٣٣) نقض كتاب في الشعر الجاهلي ، المكتبة العلمية بيروت .

• حفي (دكتور عبد الحليم حفي) .

(٣٤) مطلع القصيدة العربية ودلالاته النفسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ م

• الحموي (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي) .

- (٣٥) معجم البلدان . دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧ م .
• الخوفي (دكتور أحمد الخوفي) .
(٣٦) الغزل في العصر الجاهلي . دار القلم بيروت .
(٣٧) المرأة في الشعر الجاهلي . دار الفكر العربي الطبعة الثانية .
• الخفاجي (ابن سنان عبد الله بن محمد) .
(٣٨) سر الفصاحة . دار الكتب العلمية . بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م .
الطبعة الأولى .
• خفاجي (دكتور محمد عبد المنعم خفاجي) .
(٣٩) الحياة الأدبية في العصر الجاهلي . دار الطباعة المحمدية ١٣٩٨هـ -
١٩٤٩ م الطبعة الأولى .
• خلف الله (دكتور محمد أحمد خلف الله) .
(٤٠) صاحب الأغاني ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٢ م الطبعة الثانية .
• خليف (دكتور يوسف خليف) .
(٤١) دراسات في الشعر الجاهلي ، مكتبة غريب ١٩٨١ م .
(٤٢) العصر الجاهلي (الجزء الأول) لإشراف طبع عام ١٩٨٣ م ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب .
• القدس (دكتور كامل سلامة القدس) .
(٤٣) وصف الخيل في الشعر الجاهلي ، دار الكتب الثقافية ، الكويت
١٣٩٥هـ - ١٩٧٥ م .
• أبو ديب (كمال أبو ديب) .
(٤٤) مجلة فصول العدد الثاني بالمجلد الرابع (يناير، فبراير، مارس ١٩٨٤ م) ،
(معلقه امرى . القيس) والروية الشبقية .

- الرافعي (مصطفى صادق الرافعي).
- (٤٥) تاريخ آداب العرب . دار الكتاب العربي بيروت (ثلاثة أجزاء) ١٣٩٤م — ١٩٧٤م .
- (٤٦) تحت راية القرآن ، دار الكتاب العربي بيروت ، تصحيح محمد سعيد العريان ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م . الطبعة السابعة .
- ابن رشيق (أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني) .
- (٤٧) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . دار الجليل بيروت ١٩٧٢م الطبعة الرابعة .
- رومية (وهب رومية) .
- (٤٨) الرحلة في القصيدة الجاهلية ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٠ هـ — ١٩٧٩ م الطبعة الثانية .
- الزبيدي (أبو بكر محمد بن حسن الإشبيلي الزبيدي) .
- (٤٩) طبقات النحويين والفقهاء ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ١٩٨٤م الطبعة الثانية .
- الزركلي (خير الدين الزركلي) .
- (٥٠) الأعلام ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٤م — الجزء الثاني ، الطبعة السادسة .
- الزوزني (حسين بن أحمد بن حسين الزوزني) .
- (٥١) شرح المعلقات العشر ، مكتبة الحياة . بيروت ١٩٧٩م .
- زيدان (جرجي زيدان) .
- (٥٢) تاريخ آداب اللغة العربية (الجزء الأول) . تعليق الدكتور شوقي ضيف ١٩٥٧م دار الهلال .

- الزيات (أحمد حسن الزيات) .
- ٥٣) تاريخ الأدب العربي . الطبعة الخامسة والعشرون . دار المعارف .
- زيان (بهي الدين زيان) .
- ٥٤) الشعر الجاهلي ، تطوره وخصائصه الفنية . دار المعارف بمصر ١٩٨٢ م
- السقا (مصطفى السقا) .
- ٥٥) مختار الشعر الجاهلي ، دار العلم للجميع ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م الجزء الأول . الطبعة الثانية .
- سلطان (دكتور منير سلطان) .
- ٥٦) المرزبانى والموشح .
- سلوم (دكتور داود سلوم) وآخر .
- ٥٧) شخصيات كتاب الأغاني ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م
- سملك (محمد صالح سملك) .
- ٥٨) أمير الشعر في العصر القديم ، دار نهضة مصر ١٩٧٤ م .
- السندوقي ، (حسن السندوقي) .
- ٥٩) شرح ديوان امرئ القيس ، المكتبة الثقافية ، بيروت ١٤٠٢ هـ .
- ١٩٨٢ م الطبعة السابعة .
- أبو سويلم ، (دكتور أنور عليان أبو سويلم) .
- ٦٠) الإبل في الشعر الجاهلي دراسة في ضوء الميثولوجيا والنقد الحديث (جزءان) ، دار العلوم بالرياض ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م .
- الطبعة الأولى .

- السيرافي، (أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي) ..
- (٦٦) أخبار النحويين البصريين تحقيق محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، ١٩٨٥-١٤٠٥ م الطبعة الأولى.
- الشرقاوي، (دكتور عفت الشرقاوي) .
- (٦٧) دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٩ م.
- الشكعة، (دكتور مصطفى الشكعة) .
- (٦٨) منهج التأليف عند علماء العرب (قسم الأدب) دار العلم للطباعة، بيروت ١٩٨٢ م الطبعة الرابعة.
- شلبي، (دكتور سعد إسماعيل شلبي) .
- (٦٩) الأصول الفنية للشعر الجاهلي، مكتبة غريب ١٩٧٧ م الطبعة الثانية.
- الشنقيطي، (يوسف بن سليمان بن عيسى الشنقيطي) .
- (٧٠) أشعار الشعراء الستة الجاهليين، دار الآفاق، بيروت ١٩٧٩ م الطبعة الأولى.
- الشنقيطي، (أحمد بن الأمين الشنقيطي) .
- (٧١) شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، دار القلم، بيروت.
- الشهرستاني، (محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني) .
- (٧٢) الملل والنحل (هامش على كتاب الفصل في الملل والنحل لابن حزم) الجزء الثاني المطبعة الأدبية بمصر ١٣٣٠ هـ.
- الشوري، (دكتور مصطفى الشوري) .
- (٧٣) الشعر الجاهلي، تفسير أسطوري، دار المعارف بمصر ١٩٨٦ م الطبعة الأولى.

- شيخو . (لويس شيخو) .
- (٦٩) شعراء النصرانية مكتبة الآداب ومطبتها في مصر (ستة أجزاء)
١٩٨٢ م .
- شيخ موسى . (دكتور محمد خير شيخ موسى) .
- (٧٠) فصول في النقد العربي وقضاياها . دار الثقافة بالدار البيضاء ١٤٠٤ هـ .
١٩٨٤ م الطبعة الأولى .
- صبرى . (دكتور محمد صبرى السريوني) .
- (٧١) الشواخ (امرق القيس) مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤ م .
- صفدى . (مطاع صفدى) وآخر .
- (٧٢) موسوعة الشعر العربى (المجلد الأول) شركة خياط بيروت ١٩٧٤ م .
- ضيف . (دكتور شوقي ضيف) .
- (٧٣) البلاغة تطور وتاريخ . دار المعادف بمصر ١٩٧٧ م الطبعة الرابعة .
- (٧٤) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) دار المعارف بمصر ١٩٧٦ م
الطبعة التاسعة .
- (٧٥) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى . دار المعارف بمصر ١٩٧٦ م الطبعة
التاسعة .
- ابن طباطبا . (أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد) .
- (٧٦) كتاب عيار الشعر تحقيق الدكتور عبد العزيز بن ناصر المسانع .
دار العلوم بالرياض ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- طبانة . (دكتور بدوى طبانة) .
- (٧٧) دراسات فى نقد الأدب العربى من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث
مطبعة الأنجلو المصرية ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م الطبعة السابعة .

- الطهاوي . (أحمد حسين الطهاوي) .
- (٧٨) صبرى السريوني . سيرة تاريخية وصورة حياة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ م .
- عباس . (دكتور إحسان عباس) .
- (٧٩) تاريخ النقد الأدبي عند العرب . مطبعة دار الأمانة بيروت ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م الطبعة الأولى .
- العباس . (عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباس) .
- (٨٠) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . عالم الكتب بيروت .
- ابن عبد ربه . (أحمد بن محمد بن عبد ربه) .
- (٨١) العقد الفريد (ثمانية أجزاء) تحقيق محمد سعيد الريان . دار الفكر .
- عبد الرحمن . (دكتور نصرت عبد الرحمن) .
- (٨٢) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي . مكتبة الأقصى . عمان ١٤٠٣ هـ ١٩٨٢ م الطبعة الثانية .
- العبد الله . (دكتور كامل العبد الله) .
- (٨٣) شعراء من الماضي . مدخل إلى الواقعية في الشعر العربي . منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت ١٩٦٢ م .
- عبد الله . (دكتور محمد حسن عبد الله) .
- (٨٤) مقدمة في النقد الأدبي . طبعة دار البحوث العلمية بالسكوت ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م الطبعة الأولى .
- عتيق . (دكتور عبد العزيز عتيق) .
- (٨٥) تاريخ النقد الأدبي عند العرب . دار النهضة العربية ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م الطبعة الرابعة .

- (٨٦) علم البيان ، دار النهضة العربية ١٩٧٤ م .
- (٨٧) في النقد الأدبي . دار النهضة العربية ١٩٧٢ م الطبعة الثانية .
- العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله) .
- (٨٨) كتاب الصنائع . دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م الطبعة الثانية .
- العشماوي . (دكتور محمد زكي العشماوي) .
- (٨٩) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث . دار النهضة العربية ١٩٧٩ م .
- عطوان . (دكتور حسين عطوان) .
- (٩٠) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي . دار المعارف بمصر ١٩٧٠ م .
- علي . (دكتور جواد علي) .
- (٩١) المنفل في تاريخ العرب قبل الإسلام . (الجزء الثالث) . دار العلم للبلدين بيروت ١٩٨٠ م الطبعة الثالثة .
- النمراوي . (محمد أحمد النمراوي) .
- (٩٢) النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي . دار الحكمة ١٩٧٠ م .
- الفاخوري . (حنا الفاخوري) .
- (٩٣) الحكم والأمثال . دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م الطبعة الثانية .
- فروخ . (دكتور عمر فروخ) .
- (٩٤) تاريخ الأدب العربي . دار العلم للبلدين . بيروت ١٩٨٤ م الطبعة الخامسة .
- فيصل . (دكتور شكرى فيصل) .
- (٩٥) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام . دار العلم للبلدين ١٩٨٢ م الطبعة السادسة .

- ابن قتيبة . (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة) .
- ٩٦ (أدب الكاتب . تحقيق محمد محي الدين عبد الحيد مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م الطبعة الرابعة . نشر المكتبة التجارية بمصر .
- ٩٧ (الشعر والشعراء (جزءان) تحقيق أحمد محمد شاكر ١٩٧٧م الطبعة الثالثة .
- القرشي . (أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي) .
- ٩٨ (جهرة أشعار العرب . تحقيق علي البجاوي . دار نهضة مصر . الطبعة الأولى .
- القيس . (دكتور نوري القيسي) .
- ٩٩ (الطبيعة في الشعر الجاهلي . مكتبة النهضة العربية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م الطبعة الثانية .
- ابن الكلبي . (هشام بن محمد الكلبي) .
- ١٠٠ (أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها . تحقيق أحمد زكي دار الكتب المصرية ١٩٤٦م .
- محمد . (دكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد) .
- ١٠١ (الشعر الجاهلي . قضايا الفنية والموضوعية . مكتبة الشباب ١٣٩٩هـ .
- ١٩٧٩ م .
- المرزباني . (أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني) .
- ١٠٢ (الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء . تحقيق محب الدين الخطيب . المطبعة السلفية بمصر ١٣٨٥هـ الطبعة الثانية .
- مكي . (دكتور الطاهر أحمد مكي) .
- ١٠٣ (امرق القيس حياته وشعره . دار المعارف بمصر ١٩٨٥م الطبعة الخامسة .

- ناصف . (دكتور مصطفی ناصف) .
(١٠٤) قراءة ثانية لشعرنا القديم . دار الأندلس ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م
الطبعة الثانية .
- نوفل . (دكتور سيد نوفل) .
(١٠٥) شعر الطبيعة في الأدب العربي . دار المعارف بمصر ١٩٧٨ م
الطبعة الثانية .
- الحمداي . (ابن الحائك الحسن بن أحمد بن يعقوب)
(١٠٦) صفة جزيرة العرب . تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي .
إشراف حمد الجاسر . دار النخبة بالرياض ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٧ - ٣	المقدمة
٤٨ - ٩	الباب الأول (امرؤ القيس في حياته وشعره)
١١	الفصل الأول حياة امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين
١١	امرؤ القيس
١٣	حياته الأولى
١٦	حياته الثانية
٢٧	الرحلة إلى قيصر
٢٣	الفصل الثاني أولية الشعر الجاهلي
٤١	الفصل الثالث شعر امرؤ القيس
٤٣	موقف المحدثين من شعر امرؤ القيس
٢٠٢ - ٤٩	الباب الثاني (امرؤ القيس في مؤلفات القدماء)
٥١	الفصل الأول طبقات لحول الشعراء لابن سلام الجعفي
٥٤	(قضية الاتعالي)
٥٨	١ - امرؤ القيس وطبقته
٦٠	٢ - أشعر الناس في الجاهلية
٦٣	٣ - خصائص شعر امرؤ القيس
٦٦	٤ - أحسن الجاهلية تشبيها
٧٧	٥ - من شعر الوصف
٩٠	٦ - الاحتذاء
٩١	الفصل الثاني الشعر والشعراء لابن قتيبة
٩٤	ترتيب الشعراء

الصفحة	الموضوع
٩٦	قضايا نقدية
١٠١	أمرق القيس بين ابن سلام وابن قتيبة
١٠٢	١ — أشعر الناس
١٠٢	٢ — نقول عن أبي يحيى
١٠٤	حياة امرئ القيس
١٠٧	من شعر الحكمة
١١١	من شعر الغناء
١١٥	أمرق القيس شاعر متميز
١٢٠	السراقات الشعرية
١٢٥	ما يعاب من شعره الغزلي
١٣١	الفصل الثالث: أغاني لأبي الفرج الأصبهاني
١٣٤	أمرق القيس
١٣٥	١ — نسب امرئ القيس من جهة أبيه وأمه
١٣٦	٢ — المزدكية
١٣٩	٣ — تعدد الروايات
١٤١	٤ — موقف امرئ القيس من الزواج
١٤٤	٥ — ضد الانتحال
١٤٨	الفصل الرابع: الموشح للبرزباني
١٥٠	أمرق القيس بن حجر
١٥١	أولاً — روايات سبق الحديث عنها
١٥٣	ثانياً — بعض المآخذ على شعر امرئ القيس
١٥٦	ثالثاً — قضايا مستجدة
١٥٦	١ — شعر النثر
١٥٩	٢ — وصف الليل

الصفحة	الموضوع
١٦٢	٣ — تفاوت شعره
١٦٢	الفصل الخامس : إيجاز القرآن الباقلائي
١٦٦	أولا — إيجاز الباقلائي بشعر امرئ القيس
١٧٢	ثانيا — نقد الباقلائي للمعلقة
١٧٤	ثالثا — نقد الأبيات المختارة
١٧٥	١ — الوقوف على الأطلال والبكاء عليها
١٨١	٢ — شعر الغزل
١٩٩	٣ — وصف الليل
٢٠٠	٤ — وصف القوس
٤٠٧ — ٢٠٣	الباب الثالث (امرؤ القيس في مؤلفات المحدثين)
٢٠٥	الفصل الأول : تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي
٢٠٧	امرؤ القيس
٢٠٨	أولا — طويلة امرئ القيس
٢١٠	ثانيا — شاعرية امرئ القيس وأسباب شهرته
٢١٠	١ — نقد شعره
٢١٣	٢ — أسباب شهرته
٢١٨	ثالثا — شعر امرئ القيس
٢٢١	رابعا — استعاراته
٢٢٥	خامسا — تشبيهاته
٢٢٨	سادسا — تنمة الانتقاد
٢٣٢	سايما — المنازعة بين امرئ القيس وعائشة
٢٣٥	الفصل الثاني — في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين
٢٤٢	الاتصال
٢٤٨	أولا — نبيه وحياته
	(٢٨ — القيس)

الصفحة	الموضوع
٢٥٣	ثانياً — الشك في شعره
٢٥٧	ثالثاً — المختار من شعره
٢٦١	رابعاً — نقد القصيدتين
٢٦٩	خامساً — القصيدة الباقية
٢٧٢	الفصل الثالث : أمير الشعر في العصر القديم لمحمد صالح سلك
٢٧٣	١ — منهج الكتاب
٢٧٤	٢ — امرئ القيس (حياته وشعره)
٢٨٠	٣ — منزله الشعرية
٢٨٥	٤ — دراسة المعلقة واللامية الثانية
٢٩٠	٥ — أثر الحوادث في شعره
٢٩٣	٦ — أغراض شعره
٢٩٣	أولاً — الغزل
٢٩٨	ثانياً — وصف الطبيعة
٣١٠	ثالثاً — هموم وأحزان
٣١٤	رابعاً — مدح وهجاء
٣١٩	خامساً — نحر وراح
٣٢١	سادساً — نقر وحاس
٣٢٥	سابعاً — رثاء وعبرة
	الفصل الرابع : الشواخ (امرؤ القيس) للدكتور محمد صبرى
٣٢٧	السريوني
٣٢٨	أولاً — تمهيد
٣٣٠	ثانياً — حياة الشاعر وشخصيته
٣٣٢	ثالثاً — امرئ القيس كما يراه المتقدمون
٣٣٤	رابعاً — التمثيل والتصوير في شعر امرئ القيس
٣٣٨	خامساً — الحب والتشبيب

الصفحة	الموضوع
٣٤٤	سادسا — الصناعة والبيان
٣٤٨	الفصل الخامس (امرؤ القيس حياته وشعره) للدكتور الطاهر أحمد مكي
٣٤٩	أولا — موضوعات سبق بحثها
٣٥٨	ثانيا — موضوعات أخرى
٣٥٨	١ — شاعر الأطلال
٣٦٣	٢ — عاشق المرأة
٣٤٧	٣ — مع الطبيعة
٣٧٠	٤ — مهوم شاعر
٣٧٣	٥ — نقد شعره
٣٧٣	أ — في رأى النقد القديم
٣٧٤	ب — الياقلاى والمعلقة
٣٧٥	ج — في ضوء النقد الحديث
٣٧٩	ملاحظات هامة
٣٩٠	الفصل السادس كتابات أخرى
٣٩٢	١ — تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان
٣٩٦	٢ — الروائع (امرؤ القيس) لنواد إفرام البستاني
٣٩٩	٣ — تاريخ الأدب الجاهلى (الجزء الثانى) للدكتور على الجندى
٤٠٤	٤ — تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) للدكتور شوقي ضيف
٤٠٨	الخاتمة
٤١٨	أهم المصادر والمراجع
٤٣١	فهرس الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب
٧٦٧٢ / ١٩٨١ م